١٩٢٠

مكتبة نوبل

كنوت هامسون

واخضرّت الأرض

علي مولا

ترجمة: صوفي عبد الله

٢٥

WWW.ALEXANDRA.AHLAMONTADA.COM

منتدى مكتبة الاسكندرية

واخضرّت الأرض

مكتبة نوبل

Author:Knut Hamsun
Title :Growth of the soil
Translator:Sofi Abdulla
Reviewed by :Ali Adham
Al- Mada P.C.
First Edition : 1965
Second Edition : 2004
Copyright © Al- Mada

اسم المؤلف : كنوت هامسُون
عنوان الكتاب : واخضرت الارض
المترجم : صوفي عبد الله
مراجعة : علي أدهم
الناشر : المدى
الطبعة الاولى : سنة ١٩٦٥
الطبعة الثانية : سنة ٢٠٠٤
الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
E-mail:almada112@yahoo.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

٢٠١٩

مكتبة نوبل

كنوت هامسُون

واخضرّت الأرض

ترجمة:
صوفي عبد الله

مراجعة:
علي أدهم

تقديم

القصة الحديثة من أهم فنون الأدب في عالمنا الحاضر، يقبل عليها القراء إقبالاً يزداد يوماً بعد يوم، فبعضهم يرى فيها ترويحاً يخفف عنه ما يلاقيه في حياته من متاعب وشدائد، وبعضهم يلتمس فيها العبرة والموعظة، وبعضهم يأنس فيها بصورة لنفسه ومرآة لحياته أو لحياة أناس يختلط بهم كل يوم، ويعيش معهم في هذا العالم المصطخب بالأحداث والتجارب؛ الحافل بالبسمات والدموع، وبعضهم يجد فيها سِيَراً شائقةً، وتحليلاً نفسياً بارعاً لأفراد لا يعيشون كسائر الناس، وإنما يعيشون حياة غنية مليئة بالتقلبات والأحاسيس المتغيرة المتناقضة، قد وعوا جيلاً بأسره، واجتمعت فيهم آمال قوم وآلامهم وأحلامهم.

وقد ارتفع شأن القصة في عصرنا الحديث، وأصبحت وعاء هاماً من أوعية الأدب بمعناه الواسع، فاشتملت على الفلسفة والتاريخ والعلم وكل فنون المعرفة. على أن كتابة القصة من أصعب فنون التأليف، فهي تقتضي من القصاص معرفة شاملة محيطة، وبصراً بالنفس البشرية يتغلغل في أعماقها، وملاحظة دقيقة تستشف ما تضطرب به هذه النفس من خلجات، وخيالاً واسعاً يربط بين أجزائها ويكسو هيكلها بفنه القصصي البارع ويسوقها إلى القارئ في صورة تجذب اهتمامه، وتزيد في رحابة آفاقه النفسية والعقلية والحسية.

على أن القصة في ميزان النقد الحديث لا بد أن تتوفر فيها مع ذلك حرارة الصدق والقرب من الواقع، والنزعة الإنسانية يلمسها القراء لمساً على اختلاف منازعهم وبيئاتهم وأوطانهم.

ويسرني أن أقدم هذه السلسلة التي تصدرها الدار المصرية للتأليف والترجمة، وتختار لها باقة من خير القصص التي نالت جوائز عالمية، كجائزة «نوبل» وجائزة «الأكاديمية الفرنسية» وجائزة «جونكور» وجائزة «بوليتزر» وجائزة «ستالين» وغير ذلك من الجوائز.

ولا شك أن في ترجمة هذه القصص إغناءً للغة العربية، وتزويداً للقارئ العربي بروائع القصص الأجنبية توسع في آفاقه، وتمده بزاد من التجارب تنفعه في يومه وغده.

وقد حرصت هذه الدار في هذه السلسلة أيضاً على تيسير ثمنها للقراء تحقيقاً لاشتراكية الثقافة في مرحلة الانطلاق التي نمر بها اليوم بقيادة زعيمنا وقائد نهضتنا الرئيس «جمال عبد الناصر».

الدكتور عبد القادر حاتم
نائب رئيس الوزراء للثقافة والإرشاد القومي

الكتاب الأول

الفصل الأول

هذه الطريق الطويلة المسرفة في الطول عبر المستنقعات وإلى صميم الغابة، من الذي كانت قدماه أول من وطئت هذه الأرض فكانتا أول من أخرجتا هذه الطريق إلى الوجود ؟ إنه بشر، كان أول آدمي جاء إلى هنا. ولم يكن ثمة درب قبل مجيئه، ثم أتى بعد ذلك حيوان من الأوابد فتتبع أثر المرور الضعيف فوق الغدرات وأراضي المستنقعات فزاد ذلك الأثر عمقاً. وبعد هذين أتى رجل من اللاب[1] داعبت أنفَه رائحة هذا الدرب فسار عليه متنقلاً من حقل إلى حقل وهو يرعى ما تحت يده من حيوان الرنة. وهكذا شقت هذه الطريق وسط «المنج» العظيم، وهو بقاع من الملكية العامة ليس لها صاحب.

ثم جاء الرجل وشق طريقه صوب الشمال، حاملاً خرجاً، هو أول خرج على هذه الطريق، وفيه زاده وشيء من الأدوات. وهو شخص قوي خشن ذو لحية حديدية حمراء وعلى وجهه ويديه بضعة ندوب تمثل مواقع جروح قديمة - فهل تراه اكتسبها بالعمل أم بالعراك؟ ولعل الرجل كان في السجن فهو يبحث الآن عن مكان يختبئ فيه، أو لعله فيلسوف ينشد

---

(١) اللاب سلالة مغولية توجد في شمال اسكندناوة وروسيا قصار القامة جداً أو جماجمهم عريضة يشتغلون برعي الرنة وهم عشائر رحل .

الهدوء. وسواء أكان هذا أم ذاك فقد حل وكان أول صورة إنسانية حلت في هذه البرية المنعزلة. وأينما دِب ممعناً في طريقه ألفى الطير والوحش ساكنين من حوله.

وبين الفينة كان يقول لنفسه كلمة أو كلمتين على هذا النحو:

- ياه... حسن حسن...

وهنا وهناك حيثما أخلت المستنقعات مكانها لبقعة ألطف أو رحبة من الأرض الفضاء وسط الغابة، كان يضع خرجه عن كاهله ويمضي فيستكشف ثم يعود بعد برهة فيرفع الخرج على عاتقه مرة أخرى يواصل سعيه. وعلى هذا النحو كان يتم نهاره متعرفاً على الوقت بالشمس، حتى إذا أرخى الليل سدوله ألقى بنفسه فوق نبات الخلنج موسداً ذراعه.

وما أن يظفر ببضع ساعات من الراحة حتى ينطلق مرة أخرى: «ياه. حسن..»- متجهاً صوب الشمال متعرفاً على الوقت بالشمس ويتناول وجبة من الكعك والشعير والجبن المصنوع من لبن الماعز ويرتوي من ماء الجدول ثم يمضي في سبيله فيقضي ذلك النهار أيضاً في الترحال؛ لأن ثمة بقاعاً لطيفة كثيرة في الغابة يريد أن يرتادها: فماذا يبغي؟ مكاناً أو رقعة من الأرض؟ لعله مهاجر من موطن أسرته فهو يفتح عينيه في يقظة ناظراً حوله في تنبه، وبين حينٍ وحينٍ يتسلق قمة تل ويرسل طرفه. ويظل هكذا إلى أن تغرب الشمس مرة أخرى.

ها هو يمضي على طوال الجانب الغربي من الوادي حيث الأرض كثيرة الشجر، وثمة أشجار مورقة وسط أشجار التنوب الفضية وأشجار الصنوبر ومن تحتها العشب. وتمضي ساعات في ذلك السير ويخيم الغسق ولكن أذنه تلتقط صوت خرير ضعيف لمجرى ماء؛ فيشد ذلك

الصوت من عزمه كأنه صوت كائن حي ويتسلق المرتفع ثم ينظر إلى الوادي وقد لفته غلالة نصف مظلمة من تحته ومن ورائه سماء الجنوب. ويرقد ليستريح.

ويريه الصباح صفاً من أرض المراعي والأراضي المشجرة فيهبط وإذا بجانب التل مخضر؛ ومن تحته وبعيداً عنه يلوح جدول وأرنب بري يقفز عبره، فيهز الرجل رأسه هزة الاستحسان، لأن الجدول ليس عريضاً بحيث استطاع الأرنب البري أن يعبره بوثبة واحدة. وهذه قطاة بيضاء جاثمة فوق عشها تجفل من وقع قدميه، وهي تهمس في غضب فيهز رأسه مرة أخرى: فهذه بقعة طيبة فيها صيد من ذوات الريش وذوات الفراء، وفيها الخلنج وشجر من فصيلة التوت يغطي وجه الأرض ونباتات صغيرة من فصيلة السرخس وأزهار حشيشة البتول التي تشبه نجوماً ذوات أطراف سبعة. وإنه ليقف هنا وهناك ليحفر بأداة حديدية فيجد صلصالاً جيداً وتربة بها نباتات متفتحة مسمدة بالخشب المتعفن والأوراق التي تساقطت على مدى ألوف السنين. ويهز الرجل رأسه ليعبر عن عثوره على مكان يقيم به ويعيش فيه. أجل هنا سيقيم ويعيش. ويظل يومين في ارتياد المنطقة المحيطة، وهو في كل مساء يعود إلى جانب التل فينام في الليل على فراش من أكوام الصنوبر. فهو يشعر أنه هنا في بيته على فراش من الصنوبر في ظل صخرة شامخة تطل عليه.

إن أشق ما في مهمته هو العثور على المكان. هذا المكان الذي لا يملكه أحد. ولكنه - الآن له، ولديه الآن عمل يشغل أيامه. وشرع على الفور ينزع لحاء أشجار البتولا في الغابات البعيدة؛ وكانت العضارة لم تزل تجري في تلك الأشجار ثم عصر ذلك اللحاء وجففه ولما تجمع لديه

منه حمل ثقيل مضى به فوق ظهره كل تلك الأميال عائداً إلى القرية كي يبيعه لأعمال البناء. ثم عاد إلى جانب التل ومعه أكياس جديدة من الزاد والأدوات، فيها دقيق ولحم خنزير وقدر للطهو ورفش. وظل يمضي ويؤوب على طول الطريق الذي قطعه في مجيئه حاملاً طول الوقت على ظهره أحمالاً. فهو حمال أثقال مطبوع أو مركب بشري لنقل الأكداس في الغابة، وكأنه يعشق حرفته هذه إذ يجوب المسالك الطويلة حاملاً أثقل الأحمال، وكأن الحياة بغير حمل على كتفيه شيء تعس لا يطيقه.

وذات يوم عاد باكراً بأكثرَ من الحمل الذي فوق كتفه. عاد يسحب وراءه ثلاث عنزات في مقود. وكان فخوراً بعنزاته وكأنها ماشية ذات قرون؛ وراح يرعاها بحنان. ثم عبر به أول غريب وهو من اللاب الرحل فلما أبصر العنزات أدرك أن هذا الرجل جاء إلى هنا كي يستقر وتحدث إليه:

«أتنوي الإقامة هنا نهائياً؟».

فقال الرجل: «نعم».

«وما اسمك؟».

«إسحاق. ألا تعرف امرأة في أي مكان ترضى بالمجيء كي تساعدني؟».

«لا. ولكني سأذكر هذا لكل من ألقاه».

«إي. افعل هذا وقل إن عندي هنا حيوانات وليس عندي من يُعنى بأمرها.»

ومضى اللابي إلى حال سبيله. وقد قرر أن يتحدث بأمر إسحاق هذا. فالرجل القادم إلى جانب التل ليس فاراً من العدالة، فهو قد ذكر له اسمه. ولو كان فاراً لعثروا عليه. وإنما هو عامل ومن النوع الجلد. لقد

شرع يقطع العلف الشتوي لعنزاته ويخلي وجه الأرض ليعزق حقلاً وينقل أحجاراً ويقيم جداراً من الحجارة فلما حل الخريف كان قد شيد لنفسه بيتاً، وكان هذا البيت كوخاً من الطين المعشب قوياً متيناً دافئاً لا تهزه العواصف ولا يأتي عليه الحريق. ها هو بيته إذن؛ يسعه أن يدخله ويغلق الباب ويظل بداخله. ويسعه أيضاً أن يقف خارجه على عتبة بابه باعتباره مالكَ ذلك البيت، ليرى من يجتاز به. وفي الكوخ حجرتان إحداهما له في هذا الطرف والأخرى لحيواناته في الطرف الآخر. وفي أقصى الداخل تقوم عريشة العلف مستندة إلى الجدار الحجري. فكل شيء إذن هناك.

ومر اثنان آخران من اللاب: أب وابنه. ووقفا يستريحان وقد وضعا أيديهما على عصويهما الطويلتين يقدران بنظريهما الكوخ والرحبة، متفطنين إلى صوت أجراس الماعز على جانب التل.

وقال الاثنان:

«طاب يومك. ها هو إنسان راقٍ أتى ليعيش هنا» فاللاب يتحدثون على هذا النحو بألفاظ متملقة. فقال لهما إسحاق وهو لا يفكر إلا في شيء واحد:

«ألا تعرفان امرأة في هذه الناحية تأتي لتساعدني؟»

«امرأة تأتي لتساعدك؟ لا.. ولكننا سنقول ذلك للناس.»

«إي. سيكون ذلك فضلاً منكما. وقولا إن عندي بيتاً وقطعة أرض هنا وعنزات ولكن ليس عندي امرأة تساعدني. قولا ذلك.»

وكان قد نشد امرأة لتساعده في كل مرة نزل فيها إلى القرية بأحمال اللحاء ولكنه لم يجدها. بل كن جميعاً ينظرن إليه، وهنّ أرامل

أو عوانس مسنات وما أشبه ذلك؛ ثم يحجمن عن التقدم لفكرة ما في أذهانهن لا يدري إسحاق ما هي. أهو حقاً لا يدري السبب؟ ولماذا تقبل امرأة أن تذهب للعمل والمعيشة مع رجل في تلك البرية التي تبعد أميالاً كثيرة، فهي على مسيرة نهار كامل من أقرب جواري؟ والرجل نفسه ليس فتاناً ولا لطيف المنظر. بل ما أبعده عن هذا. وهو حين يتكلم لا يشبه المغني الذي يشدو وعيناه إلى السماء بل هو ذو صوت أجش يشبه صوت الحيوان شيئاً ما.

حسن. عليه إذن أن يدير أمره بمفرده.

وفي الشتاء صنع أحواضاً للعلف كبيرة من الخشب وباعها في القرية وعاد محملاً بأكياس من الطعام والأدوات يشق طريقه وسط الثلوج. وكانت الأيام شاقة عليه حين يقضيها حاملاً تلك الأشياء، لأن عنزاته لا تجد من يُعنى بأمرها عندئذ، ولا يسعه أن يظل بعيداً مدة طويلة. فماذا صنع؟ لقد علمته الحاجة الحكمة، وكان ذهنه قوياً وقلّما استخدمه فأخذ يدربه على مزيد من النشاط. شيئاً فشيئاً. فكان أول ما احتال له أن يترك العنزات طليقة السراح قبل انطلاقه كي يتسنى لها الحصول على حاجتها من الطعام من النباتات النامية بين الشجر في الغابة، ثم وجد طريقة أخرى، فأخذ دلواً كان عبارة عن وعاء كبير وعلقه عند النهر بحيث لا تتسرب إلا قطرة واحدة في كل مرة ويحتاج إلى أربع عشرة ساعة كي يمتلئ عن آخره؛ ومتى امتلأ حتى الحافة صار وزنه مناسباً كي يغوص في النهر فيجذب عند غوصه خيطاً متصلاً بعريشة العلف فينفتح باب مسحور تخرج منه ثلاث حزمات من العلف تأكلها العنزات الثلاث.

وكانت هذه طريقته. وهي فكرة بارعة لعلها إلهام ألهمه إياه الرب؛ فلم يكن للرجل معين سوى نفسه. وقد خدمت هذه الحيلة أغراضه إلى أواخر الخريف، ثم جاءت بواكير الثلج ثم المطر. ثم الثلج مرة أخرى. وظل الثلج يسقط طوال الوقت فاختلت آلته وصار الماء ينفذ إلى الدلو من أعلى فينفتح الباب المسحور قبل الأوان بكثير، فثبت في الدلو غطاء ومضى كل شيء على ما يرام كرة أخرى بعضَ الوقت. ثم جاء الشتاء وصارت نقطة الماء تتجمد وتغدو برداً وبذلك توقفت الآلة نهائياً.

وصار على العنزات أن تقتفيَ سنة صاحبها، فتتعلم كيف تدبر أمرها بنفسها.

أوقات عصيبة. فالرجل بحاجة إلى معين، ولا معين. بيد أنه استطاع أن يجد وسيلة ما. فظل يعمل ويعمل في بيته وصنع نافذة للكوخ فيها لوحان من الزجاج الحقيقي. فكان ذلك يوماً مشرقاً رائعاً في حياته، ولم تعد به حاجة إلى إشعال نار كي يرى، ووسعه أن يجلس في الداخل ويصنع معالفه الخشبية على ضوء النهار. أيام أفضل. وأكثر إشراقاً... ياه.

لم يقرأ كتباً، ولكن أفكاره كانت في كثير من الأحيان مع الرب؛ وهي أفكار فطرية نابعة من البساطة والخشية. فالنجوم في السماء وصوت الريح بين الشجر، والوحدة والجليد المترامي وقوة الأرض وما فوق الأرض من قوة، كل ذلك كان يملؤه عدة مرات في اليوم بإحساس عميق بالجد والإخلاص فقد كان خاطئاً ويخاف الرب. ففي أيام الآحاد كان يغتسل إجلالاً لليوم المقدس إلا أنه كان يعمل في ذلك اليوم عملاً لا يقل عن مألوفه في سائر أيام الأسبوع.

وجاء الربيع، وظل يعمل في قطعة أرضه ويزرع البطاطس. وتكاثرت حيواناته. فولدت كل من عنزتيه توأمين، فبلغ العدد في جملته سبعاً، صنع لها عريشة أكبر تأهباً لمزيد من الزيادة في العدد، وجعل بها لوحين من الزجاج أيضاً فصار كل شيء أكثر إشراقاً ووضاءة من جميع الوجوه.

وأخيراً جاء العون. في شخص المرأة التي كان بحاجة إليها. وقد ظلت تهيم وقتاً طويلاً في هذا الاتجاه وذاك عبر جانب التل قبل أن تجازف بالاقتراب. وكان المساء قد حل قبل أن تحمل نفسها على الهبوط إليه. وإذا بها تقبل فتاةً كبيرة الجسم بنية العينين فارهة البنية خشنة ذات يدين ثقيلتين قويتين وقد انتعلت حذاء غليظاً طويلاً من الجلد الغفل كأنها من اللاب، ومن كتفيها تتدلى حقيبة من جلد البقر. ولم تكن صغيرة السن جداً إذا ما أردنا أن نكون مهذبين في الحديث عنها، فهي تناهز الثلاثين.

ولم يكن هناك ما يخيف، ولكنها حيته وقالت باستعجال: «كنت مجتازة عبر التلال فسلكت هذا الطريق. وهذا كل ما هنالك.

فقال الرجل: «هوه» وبصعوبة أدرك مرماها لأنها كانت تتكلم بغير اكتراث وهي مشيحة بوجهها جانباً. فردت عليه قائلة: «إي، كانت الطريق طويلة»، فقال الرجل: «إي. هكذا إذاً. أتقولين عبر التلال؟».

«نعم».

«ولماذا؟».

«لأن قومي هناك».

«إذاً فقومك هناك؟ وما اسمك؟»

«أنجر. وما اسمك أنت؟»

«إسحق»

«إسحق؟ همم: لعلك تعيش هنا شخصياً؟»

«نعم هنا كما ترين.»

فقالت لتسره: «مكان لا بأس به».

وكان قد صار بارعاً بعض الشيء بحيث فطن إلى حقيقة الحال فخطر له عندئذ أنها جاءت لذلك الغرض لا سواه. وأنها شرعت في السير منذ يومين كي تصل إلى هنا. ولعلها سمعت بحاجته إلى امرأة تساعده. فقال: «ادخلي وأريحي قدميك قليلاً».

ودخلا إلى الكوخ وتناولا شيئاً من الطعام الذي جلبته معها وشيئاً من لبن عنزاته، ثم صنعا قهوة وكانت جاءت بالبن معها في جراب من الجلد. واستقرا على سجيتهما أمام قهوتهما إلى أن حان وقت النوم. وفي الليل اضطجع مشوقاً إليها، ووجدها راغبة فيه.

ولم تنصرف في الصباح التالي. بل لم تخرج طيلة ذلك النهار، بل أخذت تعاونه في شؤون البيت فحلبت العنزات ودعكت الأواني والأشياء بالرمل الناعم فأحسنت تنظيفها. ولم تخرج إطلاقاً، وكان اسمها أنجر. وكان اسمه إسحق.

وبدأ الرجل المتوحد حياة أخرى، أجل... إن زوجته هذه تتحدث بطريقة غريبة مبهمة، وتشيح بوجهها دائماً. بسبب شفتها المشقوقة كشفة الأرنب، ولكن هذا كله لم يكن ذا بال. فلو لم يكن فمه مشوهاً لما كانت حريّةً أن تأتي إليه إطلاقاً. فما أحراه أن يحمَد إصابتها بهذه النقيصة. ثم إنه شخصياً لم يكن بارع الحسن فإسحاق بلحيته الحديدية

وجسده الخشن كان يبدو من صدع في زجاج النافذة إنساناً جافياً متجهم السحنة. فمنظره لم يكن لطيفاً، حتى كأن باراباس يمكن أن ينطلق من قيوده في أية لحظة. ومن العجيب أن أنجر نفسها لم تفِر هاربة منه.

إنها لم تهرب. وعندما خرج وعاد إلى البيت مرة أخرى وجد أنجر في الكوخ فقد صار الاثنان واحداً: المرأة والكوخ.

إنها فم آخر عليه أن يطعمه. ولكن ليس في هذا خسارة عليه فهو الآن أوفر حرية؛ وفي وسعه أن يمضي أو يبقى حسب حاجته، وثمة أشياء ينبغي أن يُعنى بها بعيداً عن البيت. ثمة النهر، وما ألطف النظر إليه. ففضلاً عن عمقه وسرعته إنه نهر لا ينبغي أن يزدرى. ولا بد أنه آت من مصدر كبير للماء وسط التلال. وحصل إسحاق لنفسه على عدة لصيد السمك ومضى يرتاد. وفي المساء عاد بسلة من سمك اللوت وفحم الكوك: وكان ذلك شيئاً عظيماً عند أنجر وعجيبة الأعاجيب؛ لقد بهرت لأنها لم تتعود ألوان الطعام الراقية، وأخذت تصفق بيديها وتصيح: «عجباً. من أين... » وما عتمت أن أدركت كيف راقته دهشتها وازدهته، فقالت ما أكثر من هذا على نفس الوتيرة: أوه... إنها لم تر قط شيئاً كهذا، وكيف استطاع أن يوفق في العثور على مثل هذه الأشياء.

وكانت أنجر نعمة عليه أيضاً من وجوه أخرى. ولعلها لم تكن بارعة الذهن أو متوقدة القريحة ولكنها كانت تملك نعجتين ولودين أودعتهما عند بعض ذوي قرباها فأتت بهما. وكانتا خير ما تصبو إليه نفساهما في الكوخ، فالغنم يعطي الصوف والحملان. وهكذا زادت رؤوس الحيوان في ذلك المكان أربعة جديدة. إن ثروتهما الحيوانية تنمو وتكبر بصورة مدهشة عجيبة. وجلبت أنجر أكثر من هذا ثياباً وأشياء صغيرة كانت

تملكها: كالمرآة وعقد من الخرز الزجاجي الجميل وعجلة للغزل ومندفات للصوف. فلو استمرت على هذا المنوال لامتلأ الكوخ عما قريب من الأرض إلى السقف ولم يتسع بعد ذلك لمزيد. ودهش إسحاق بدوره من كل هذه الثروة الطائلة من السلع، بيد أنه كان رجلاً صموتاً لا يسارع إلى الكلام فلم يقل شيئاً، فلم يزد على أن مشى بتثاقل فخرج إلى عتبة الباب وراح ينظر إلى الجو، ثم دلف متثاقلاً فدخل ثانية إلى الكوخ. أجل إنه كان سعيد الطالع حقاً، فشعر بمزيد من الحب، أو الانجذاب نحوها، أو ما شئت سمه، وقال: «لم تكوني مطالبة بإحضار كل هذه الأشياء.. إنها أكثر مما تمس إليه الحاجة».

«وعندي مزيد لو أني أردت لأتيت به. ثم هناك أيضاً العم سيفرت، هل سمعت به؟»..

«لا».

«كيف هذا؟ إنه رجل ثري، وهو فضلاً عن هذا صراف المنطقة».

والحُب يحيل الحكيم إلى أحمق. وقد شعر إسحاق بأنه ينبغي أن يصنع شيئاً عظيماً شخصياً، فبالغ في ذلك. وقال: «كنت أريد أن أقول لك: إنه لا حاجة بك إلى أن تشقي على نفسك بالتنقيب عن البطاطس سأقوم أنا بذلك في المساء عندما أعود إلى البيت».

وتناول فأسه وانطلق إلى الغابة.

وسمعته يقطع الشجر في الغابة على مسافة غير بعيدة، واستطاعت أن تتبين من صوت الارتطام بالأرض أنه كان يقطع شجراً ضخماً، وظلت تصغي برهة ثم مضت إلى حقل البطاطس وشرعت في الحفر لاستخراجه، والحُب قد يحيل الحمقى إلى حكماء.

وعـاد إسحـاق إلى البيت في المسـاء يجر جذعـاً ضخمـاً بحبل. يا لذلك البريء السـاذج إسحاق. لقد افتعل أقصى ما يستطيع من الضجة بجذع شجرته وسعل وتنحنح، وقد فعل كل هذا كي تخرج وتتعجب لأمره، وبالفعل قالت أنجر عندما خرجت إليه: «أراك جننت. أهذا عمل يقوم به رجل فرد؟» ولم يجبها، وما كان ليقول كلمة واحدة بأي ثمن. فالقيام بما يجاوز طاقة رجل فرد بعض الشيء لم يكن أمراً يستحق الكلام بشأنه. هذا عود من الخشب لا أكثر. هه. فسألته: «وماذا أنت صانع به؟» فأجابها بلا اكتراث وكأنه لا يبالي بوجودها: «أوه. سوف نرى».

ولما رأى أنها قد استخرجت البطاطس على كل حال لم يرقه هذا. فكأنها صنعت كصنيعه تقريباً ولم يكن ذلك على هواه، ففك الحبل من جذع الشجرة وانطلق به مرة أخرى.

«ماذا؟ ألم تفرغ بعد؟» فقال بفظاظة: «لا».

وعـاد بعـود من الخـشب كـالعـود السـابق، ولكنه في هذه المرة لم يحدث ضجة ولا أظهر أمارات تقطع الأنفاس، بل جره إلى الكوخ كالثور وتركه هناك.

وأسقط في ذلك الصيف جانباً كبيراً من الأشجار وأتى بخشبها إلى الكوخ.

الفصل الثاني

جمعت أنجر ذات يوم بعض الزاد في كيسها المصنوع من جلد البقر وقالت لإسحق: «لقد خطر لي أن أذهب لزيارة قومي لأتعرف أحوالهم». فقال إسحق: «إي». فقالت: «ينبغي أن أتحدث إليهم في بعض الشؤون».

ولم يخرج إسحق على الفور ليراها وهي منطلقة بل انتظر برهة، ولما دلف في النهاية متثاقلاً إلى الخارج لم يبدُ عليه إطلاقاً أدنى قلق أو أقل مسحة من الكآبة وامتلاء النفس بالخوف، وكانت أنجر عندئذ قد اختفت تقريباً عند حافة الغابة. فتنحنح ليسلك حلقه ثم صاح يناديها: «لعلك عازمة على العودة؟ ولم يكن يريد أن يسألها هذا السؤال ولكن..

«العودة؟ ماذا دار بذهنك؟ طبعاً سأعود..»

«همم»

وهكذا ألفى نفسه وحيداً مرة أخرى - ياه - حسن...!

وبفضل قوته وحبه للعمل لم يستطع أن يخلد للبطالة متسكعاً داخل الكوخ وخارجه لا يصنع شيئاً، بل شرع في اجتثاث الأشجار. فأسقط أعواداً من الخشب طويلة مستقيمة غليظة، ثم راح ينشرها ليجعلها مسطحة من الجانبين، وظل يعمل في هذا طوال النهار ثم حلب العنزات وأوى إلى فراشه.

إن كل شيء يبدو الآن عارياً حزيناً خاوياً في الكوخ. وعلق سكون ثقيل بالجدران المصنوعة من الطين المتفحم وأرضه الترابية، وران عليه وحشة عميقة متجهمة. إن عجلة الغزل ومنادف الصوف مستقرة في مواضعها وكذلك حبات الخرز باقية على حالها وقد عبئت في كيس موضوع تحت السقف، فأنجر لم تأخذ معها شيئاً مما يخصها، بيد أن إسحق بما فيه من سذاجة غير معقولة شعر بالخوف من الظلمة في ليالي الصيف الخفيفة، وتراءت له أشكال وأشياء تتسلل من وراء زجاج النافذة فنهض قبل الفجر وكانت الساعة على حسب ما بدا من الضوء الثانية صباحاً وتناول فطوره، وكان عبارة عن صحفة هائلة من العصيدة كانت كافية كي تقيم أوده طوال النهار كي يوفر على نفسه تضييع الوقت في مزيد من الطهو. وفي المساء قلب أرضاً جديدة لينشئ حقلاً أكبر للبطاطس.

وظل ثلاثة أيام يعمل بالرفش والفأس تباعاً. وكان المفروض أن تعود أنجر في اليوم التالي. ومن اللائق أن يعد لها صحفة كبيرة من السمك تجدها عند عودتها، ولكن الطريق المستقيمة إلى الماء تقع على طريق عودتها وقد يبدو وكأنه..... ولذا سلك طريقاً أطول، طريقاً جديدة فوق التلال لم يكن سلكها من قبل فرأى صخوراً رمادية وبنية وقد تناثرت بين قطع من الصخور ثقيلة ثقل النحاس أو الرصاص. وقد تكون في هذه الصخور الثقيلة أشياء كثيرة ربما كانت ذهباً أو فضة، فليس له بمثل هذه الأمور علم، وهو لا يبالي بها، ووصل إلى الماء وألقى بذبابة الشص في اتجاه مضاد للتيار وظل السمك يغمز طوال الليل. وعاد إلى البيت بسلة من السمك حريّة بأن تفتح أنجر عينيها لتراها! وإذ هو عائد في الصباح في الطريق التي جاء منها التقط حجرين صغيرين ثقيلين من

بين التلال وكان لونهما بنياً وبهما شرارات زرقاء داكنة هنا وهناك، وكان ثقلهما في اليد عجيباً..

ولم يجد أنجر قد عادت، ولم تعد في ذلك اليوم وهو اليوم الرابع، فحلب عنزاته كعادته حينما كان يعيش وحيداً وليس له معين، ثم مضى إلى المحجر القريب وأتى بأحجار. أتى بأكوام كبيرة من كتل وصفائح منتقاة بعناية ليبني جداراً. وشغل بأمور لا آخر لها.

وفي المساء الخامس عاد ليستريح وفي قلبه شيء من الخوف، ولكن كانت هناك منادف الصوف وعجلة الغزل وعقد الخرز، وكان الكوخ خاوياً حزيناً عارياً لا حسٌ فيه. والساعات طويلة. ولما سمع في النهاية صوتاً يشبه وقع الأقدام في الخارج قال لنفسه إنه واهم ولا زيادة. وغمغم في اكتئاب: «ياه، يا إلهي!» ولم يكن إسحق بالشخص الذي يستخدم الكلمات جزافاً، فقد كان ثمة وقع أقدام في الخارج مرة أخرى، وبعد برهة دلف شيء ما خلف النافذة، شيء ذو قرون، شيء حي. فوثب واقفاً ومضى إلى الباب وما أروع ما رأى! «من عند الله ما أرى أم من صنع الشيطان!» ولم يكن من دأب إسحاق أن يستخدم الكلمات جزافاً، فقد رأى بقرة. رأى أنجر ومعها بقرة تختفيان داخل السقيفة.

ولو لم يقف هنا بنفسه ويسمع أنجر تتحدث بنعومة إلى البقرة في السقيفة لما صدق. ولكن ها هو ذا واقف هناك. وفجأة خطر بباله هاجس أسود: إنها زوجة بارعة أجل، وصانعة أعاجيب، ولكن بعد كل شيء... كلا، هذا أكثر مما ينبغي، ولا يمكن أن يوصف بغير هذا، إنه يعقل عجلة الغزل ومنادف الصوف عند الاقتضاء، بل وربما الخرز؛ أيضاً وإن كان أفخم من أن تحصل عليه بطريقة شريفة وطبيعية. أما أن تأتي ببقرة

اختلستها وهي شاردة على الطريق، أو ربما من حقل، فسوف يفتقدها أصحابها بسرعة ولا بد أن يبحثوا عنها.

وخرجت أنجر من السقيفة وقالت له بضحكة يسيرة مزهوة: «هذه أنا. وقد جئت معي ببقرتي». فقال إسحاق: «همم»، فقالت: «وكان هذا ما أخرني كل هذا الوقت فلم يكن في استطاعتي إلا أن أسير على مهل وهي معي فوق التلال»، فقال: «إذاً قد جئت ببقرة؟» فقالت وهي متأهبة للانفجار لما احتدم بداخلها من شعور بالعظمة والثراء: «أجل، ألعلك لا تصدقني؟» وكان إسحاق يخشى أسوأ الفروض ولكنه لم يظهر شيئاً من ذلك بل قال فقط: «ادخلي وكلي شيئاً»، فقالت: «هل رأيتها؟ أليست بقرة جميلة؟» فقال إسحق: «أي بقرة بديعة، ثم سألها بأقصى ما استطاع من عدم الاكتراث: «من أين حصلت عليها؟».

«اسمها قرون الذهب؟ ولم هذا الحائط الذي تبنيه؟ إنك سترهق نفسك بالعمل حتى الموت. أوه تعال الآن وانظر إلى البقرة. ألا تريد أن تراها؟».

وخرجا ليرياها، وكان إسحق في ثيابه الداخلية، ولكن لم يكن من ذلك بأس، وظلا ينظران إلى البقرة ويعيدان النظر إليها من كل وجه بعناية، ويقلّبان الطرف في سائر أعضائها ويفطنان إلى سائر ما فيها من علامات في الرأس والكتفين والردفين والفخذين، من حيث الحمرة والبياض والبنية. ثم سأل إسحق بحذر: «كم تظنين عمرها؟».

«أظن؟ إنها بالضبط قد بدأت سنتها الرابعة منذ قليل جداً. لقد ربيتها بنفسي وكان الجميع يقولون إنها أجمل عِجْلة رأوها في حياتهم، ولكن أتظن أنه سيكون ثمة علف كافٍ هنا؟».

وشرع إسحق يصدق -وما كان أعظم استعداده لذلك- إن كل شيء على ما يرام، فقال: «أما من جهة العلف فسيكون ثمة علف كاف. لا تخافي من هذه الجهة».

ثم دخلا ليأكلا ويشربا ويقضيا السهرة معاً، ورقدا يقظين يتحدثان عن البقرة ذلك الحدث العظيم: «أليست بقرة أثيرة؟ إن ابنها الثاني في الطريق واسمها قرون الذهب. أنائم أنت يا إسحق؟».

«لا».

«وماذا تقول في أنها عرفتني. عرفتني على الفور وتبعتني كالحَمَل الوديع، ورقدنا معاً في التلال قليلاً في الليلة الماضية».

«هوه؟»

«ولكن ينبغي أن تُقَيَّد طوال مدة الصيف على كل حال وإلا أبقت. فالبقرة بقرة على كل حال». فقال إسحق أخيراً: «وأين كانت من قبل؟» فأجابته: «عند قومي حيث ينبغي أن تكون. وقد أحزنهم أن يفقدوها فيما أعتقد. وبكى الصغار عندما مضيت بها».

أتراها تلفق ذلك كله وتخرج به عليه على مقتضى الحال؟ لا. هذا غير معقول. ولا بد أن يكون صحيحاً أن البقرة ملك يمينها. إنهما إذن في طريق الثراء بهذا الكوخ الذي يملكان، وهذه المزرعة التي يملكان، وهذا غاية مطمح أي إنسان، أجل لديهما الآن حقاً أقصى ما يصبوان إليه. أوه، يا لأنجر هذه. إنه يحبها وهي تحبه من جديد فهما إنسانان متقشفان يعيشان على نمط بدائي ولا ينقصهما شيء. «هيا بنا ننام!» وذهبا ليناما، واستيقظا في صباح يوم آخر ليواجها أشياء تحتاج لعنايتهما وأموراً تحتاج لرعايتهما مرة أخرى. أجل هو العمل والسرور، والارتفاع والهبوط. هذان هما سبيلا الحياة.

أما بخصوص كتل الخشب مثلاً فهل ينبغي أن نجمع بعضها إلى بعض؟ نُفد ا -ـفظ إسحق بعينين مفتوحين كلما ذهب إلى القرية وفي ذهنه هذا الموضوع بالذات فرأى كيف يصسون هناك. وفي وسعه أن يبني الخشب. وبم لا؟ ثم إن هذا من المهام الملقاة عليه ولا بُدَّ أن يقوم به. أليس لديهما مزرعة فيها أغنام، وقد صارت فيها بقرة بالفعل، وعنزات كَثُرَ عددها الآن وسيزيد في المستقبل؟ إن الحيوانات أمست تزحمهما في هذا الكوخ المبني من الطين ولا بد من صنع شيء. والأفضل أن يشرع في هذا على الفور، والبطاطس لم تزل في مرحلة الأزهار وقبل أن يبدأ جمع الدريس، وسيكون على أنجر أن تعاونه هنا وهناك.

وصار إسحق يستيقظ في الليل فينهض؛ أما أنجر فكانت تنام نوماً عميقاً بعد رحلتهما الطويلة، ويمضي هو إلى سقيفة البقرة. ولا ينبغي الآن أن يُظن به أنه يكلم البقرة بلهجة التملق والتذلل المقززة. كلا. وإنما هو يربت عليها بصورة لائقة وينظر ويعيد النظر إلى كل عضو فيها ليتبين - عن طريق المصادفة- هل بها علامة تدل على انتمائها لملاك غرباء. ولا يجد إسحق علامة كهذه فيتسلل خارجاً وقد هدأ باله.

وها هو الخشب. وإنه لينقض عليه فيدحرجه ثم يحمل الكتل ويقيمها مستندة إلى الحائط ليصنع منها هيكل البناء. فصنع هيكلاً كبيراً للرواق، وهيكلاً أصغر، إذ لا بد من حجرة للنوم. وكان العمل ثقيلاً مكرباً للأنفاس ولكنه لانعقاد عزمه عليه نسي الوقت. يخرج من ثقب في سقف الكوخ دخان ثم تبرز أنجر وتدعوه للفطور، وتسأله: «بماذا تشغل نفسك الآن؟»، فلا يزيد إسحق على أن يقول: «أراك استيقظت مبكرة».

ويا لإسحق بأسراره واستعلائه! ولكن لعله كان مسروراً لسؤالها إياه وتعجبها وفضولها بصدد ما يقوم به من أعمال، ويأكل شيئاً يسيراً ويجلس في الكوخ قليلاً قبل أن يخرج ثانية، وماذا عساه ينتظر؟ ها هو ذا يقول أخيراً وها هو ذا ينهض قائماً: «هم...! لا خير في هذا، ولا يسعني أن أجلس متبطلاً هنا طوال النهار وأمامي عمل لا بُدَّ من إنجازه»، فقالت أنجر: «يبدو كأنك شارع في البناء، ماذا تبني؟» فأجابها بلهجة المنازل، لهجة الرجل الذي يمضي في البناء بالخشب بمفرده: «أجل، وفي وسعك أن تري ذلك بعينك فيما أظن»، فقالت: «نعم.. نعم بالطبع»، فقال: «إنني أبني، ولا حيلة لي في ذلك فيما أرى، فها أنت قد أتيت معك إلى المزرعة ببقرة كاملة، ومعنى هذا أنه تلزمنا سقيفة للبقرة فيما أظن؟».

ويا للمسكينة أنجر، فهي ليست في حكمة إسحق الأزلية، وهو ذلك السيد المبتدع، وكان ذلك قبل أن تتعلم كيف تعرفه وتروِّض نفسها على أساليبه في التعبير عن الأشياء، فقالت: «ولكن الذي تبنيه ليس سقيفة للبقرة بالتأكيد؟»، فقال: «هوه»، فقالت: «ولكنك لا تعني هذا؟ فقد ظننتك ستبني بيتاً أولاً؟» فقال إسحق متظاهراً بأنه لم يفكر شخصياً في ذلك قط: «أتظنين هذا؟» فقال: «أجل، ثم تضع الحيوانات في الكوخ»، وفكر إسحق برهة ثم قال: «إي، وقد يكون ذلك أفضل»، فقالت أنجر وهي في غاية السرور والزهو بانتصارها: «هاك، ها أنت ترى أنني أصلح لشيء على كل حال»، فقال: «إي، هذا حق، وما قولك في بيت فيه حجرتان؟» فصاحت: «حجرتان اثنتان عادة..! سنصير إذاً كبقية القوم، أتظننا نستطيع ذلك».

وكان رأيه أنهما يستطيعان ذلك. ومضى إسحق في البناء يحز كتل الخشب ويركب هيكل البناء وتدبّر موقداً ومدفأة من الحجر المنحوت وإن كانت المدفأة قد أتعبه صنعها، ولم يكن إسحق راضياً عن عمله على الدوام. وحان وقت حصاد الدريس فاضطر إلى النزول من علياء بنائه ليمضي على جوانب التل هنا وهناك آماداً بعيدة وقريبة يقطع العشب ويحمل إلى البيت الدريس أحمالاً ضخمة. ثم كان عليه ذات يوم أن ينزل القرية.

«وماذا تريد من القرية؟»

«لا أستطيع أن أحدد ذلك بالضبط.»

وانطلق وبقي هناك يومين ثم جاء بموقد للطهو، ويا له من حمّال أثقال يخترق الغابة وعلى ظهره موقد من الحديد بأكمله فقالت أنجر: «هذا أكثر مما يستطيعه بشر. وأراك قاتلاً نفسك على هذا المنوال». ولكن إسحق هدم الموقد الحجري الذي بدا منظره غير لائق في البيت الجديد وأقام موقد الطهو الحديدي في موضعه. فقالت أنجر: «ما كل امرئ لديه موقد طهو. وإني لأعجب لنا ولمضي أحوالنا قدماً!...».

واستمر جمع الدريس، ولبث إسحق يأتي بأحمال وكتل من الدريس لأن أعشاب الغابة ليست كأعشاب المراعي. وهو للأسف أغزر ولكنه أقل غنى منه بكثير. ولم يعد في استطاعته أن يخصص وقتاً للبناء إلا في الأيام المطيرة. فاستغرق العمل وقتاً طويلاً حتى إذا حان شهر أغسطس وتم إدخال جميع الدريس وتخزينه بأمان في حمى الصخرة لم يكن البيت الجديد قد تم إنجاز بنائه إلا بمقدار النصف. وفي شهر سبتمبر قال إسحق: «هذا حال لا ينفع -من الأفضل أن تسرعي إلى القرية

وتحضري رجلاً يعاونني. وكانت أنجر منحرفة الصحة في المدة الأخيرة ولم يكن في مقدورها أن تنتشط كثيراً إلا أنها تأهبت للمضي على كل حال. بيد أن إسحق غير رأيه وركبه شيطان الاستعلاء مرة أخرى وقال إنه سيتدبر الأمر وحده ولا لزوم لإقحام أشخاص آخرين. ففي وسعي أن أتدبر الأمر وحدي. فقالت أنجر: «ولكن هذا العمل يتجاوز ذرع رجل واحد. وأراك ترهق نفسك». فقال إسحق: «ساعديني على رفع هذه الكتل». وكان كل رده.

وحل شهر أكتوبر واضطرت أنجر إلى الكف عن العمل. وكانت هذه صدمة قاسية، لأن عروق السقف يجب أن ترفع إلى أعلى بأي ثمن بحيث يُغطى المكان قبل هطول أمطار الخريف. ولا ينبغي تضييع يوم واحد. فماذا عسى أن يكون خطب أنجر. أتراها ستمرض. إنها تستطيع أن تصنع الجبن من لبن الماعز بين حين وحين، ولكنها لا تتجاوز هذا القدر من العمل؛ اللهم إلا لتنقل قرون الذهب نحو عشر مرات في النهار إلى حيث ترعى. وقالت له: «عندما تنزل القرية في المرة القادمة هات معك سلة كبيرة الحجم أو صندوقاً». فسألها إسحق: «ولأي شيء تريدين هذا؟» فقالت أنجر: «سأكون بحاجة إليه».

ورفع إسحق عروق السقف بحبل وأنجر توجه العمل بيد واحدة. فخيل إليه أن مجرد وجودها فيه عون له. ومضى العمل الهوينا. ولم يكن السقف عالياً ولكن الخشب كان ضخماً وثقيلاً بالنسبة لبيت صغير.

وظل الجو بديعاً على وجه التقريب. وكانت أنجر تجمع البطاطس بنفسها وفرغ إسحق من إقامة السقف قبل هطول الأمطار بصورة جدية. وصارت العنزات تساق إلى داخل الكوخ بالليل حيث ينام الجميع معاً. وهكذا تدبرا أمرهما على نحو ما ومهما كانت الظروف دون تذمر.

وتأهب إسحق لرحلة أخرى إلى القرية فقالت أنجر بتواضع شديد: «أتظن في وسعك أن تحضر سلة كبيرة الحجم أو صندوقاً؟» فقال إسحق: «لقد أوْصيْتُ بصنع نوافذ من الزجاج وبابين مدهونين بالطلاء، وسيكون علي أن أحضر هذه الأشياء»، وكان يقول ذلك بطريقته المتعالية، فقالت: «حسناً إذن. ليست السلة بذات أهمية». فسألها: «وماذا تريدين أن تصنعي بالسلة، ما حاجتك إليها». فقالت: «ما حاجتي إليها... أليس في رأسك عينان!».

واستغرق إسحق في التفكير. وبعد يومين عاد بنافذة وباب للرواق وباب لحجرة النوم، وقد علق حول عنقه أيضاً من الأمام صندوقاً كبير الحجم مما يستخدم للشحن وقد امتلأ بالمؤن أيضاً. فقالت أنجر: «إنك ستقتل نفسك يوماً ما من كثرة ما تحمل». فقال إسحق: «أوه. حقاً!» فما كان أبعد إسحق حقاً عن الموت.

وأخرج من زجاجة دواء، زجاجة نافتا وأعطاها لأنجر وأمرها أن تتناول منها بانتظام كي تسترد صحتها. ثم كانت هناك النافذة والبابان المطليان يسعه أن يتباهى بها جميعاً، وقد شرع يعمل فى الحال لتركيبها. وكان البابان صغيرين ومستعملين ولكنهما مطليان بإتقان وأناقة بطلاء جديد أحمر وأبيض. ولذلك من الأثر ما للصور المعلقة على الجدران.

وانتقلا بعد ذلك إلى البناء الجديد، وخصص كوخ الطين للحيوانات. ولم يترك مع البقرة إلا النعجة الولود حتى لا تشعر بالوحدة.

لقد ازدهر هذان البانيان في البرية. أجل لقد كان أمرهما مدعاة لعجبهما ودهشتهما.

وتأهب إسحق لرحلة أخرى إلى القرية فقالت أنجر بتواضع شديد: «أتظن في وسعك أن تحضر سلة كبيرة الحجم أو صندوقاً؟» فقال إسحق: «لقد أوْصيْتُ بصنع نوافذ من الزجاج وبابين مدهونين بالطلاء، وسيكون علي أن أحضر هذه الأشياء»، وكان يقول ذلك بطريقته المتعالية، فقالت: «حسناً إذن. ليست السلة بذات أهمية». فسألها: «وماذا تريدين أن تصنعي بالسلة، ما حاجتك إليها». فقالت: «ما حاجتي إليها... أليس في رأسك عينان!».

واستغرق إسحق في التفكير. وبعد يومين عاد بنافذة وباب للرواق وباب لحجرة النوم، وقد علق حول عنقه أيضاً من الأمام صندوقاً كبير الحجم مما يستخدم للشحن وقد امتلأ بالمؤن أيضاً. فقالت أنجر: «إنك ستقتل نفسك يوماً ما من كثرة ما تحمل». فقال إسحق: «أوه. حقاً!» فما كان أبعد إسحق حقاً عن الموت.

وأخرج من زجاجة دواء، زجاجة نافتا وأعطاها لأنجر وأمرها أن تتناول منها بانتظام كي تسترد صحتها. ثم كانت هناك النافذة والبابان المطليان يسعه أن يتباهى بها جميعاً، وقد شرع يعمل فى الحال لتركيبها. وكان البابان صغيرين ومستعملين ولكنهما مطليان بإتقان وأناقة بطلاء جديد أحمر وأبيض. ولذلك من الأثر ما للصور المعلقة على الجدران.

وانتقلا بعد ذلك إلى البناء الجديد، وخصص كوخ الطين للحيوانات. ولم يترك مع البقرة إلا النعجة الولود حتى لا تشعر بالوحدة.

لقد ازدهر هذان البانيان في البرية. أجل لقد كان أمرهما مدعاة لعجبهما ودهشتهما.

ما يشغلك سوى القدوم إلى هنا لتتجمدي؟» فتقول أنجر: «أنا بخير حال فيما يختص بي. ولكني لا أرى معنى على الإطلاق لإرهاق نفسك حتى الموت على هذا النحو». فيقول: «هوه! خذي معطفي هذا المطروح هناك والبَسيه». فتجيبه: «أرتدي معطفكَ؟ يا له من أمر لائق حقاً. ليس عندي وقت للجلوس هنا الآن وقرون الذهب على وشك الولادة وما إلى ذلك». فيقول: «هم... أتقولين الولادة؟» فتجيبه: «كأنك لم تكن تدري! ولكن ما رأيك الآن في العجل الذي ستلده. هل نبقيه ونفطمه؟» فيجيبها: «افعلي كما يتراءى لك فليس لي شأن بالعجول وما إليها». فتقول: «حسن. إنها لخسارة كما يبدو لي أن يأكل المرء عجلاً ويبقى ببقرة واحدة في موضعنا هذا». فيجيبها إسحق: «ولا يبدو لي أنك ستصنعين ذلك على كل حال».

كانت هذه طريقتهما، فهما شخصان منعزلان منظرهما قبيح ولكنهما يضجان بطاقة النماء، وكل منهما بركة على صاحبه وعلى الحيوانات وعلى الأرض.

وولدت قرون الذهب عجلتها فكان ذلك يوماً عظيماً في البرية، يوم فرح وتهلل. وأعطياها نخالة الدقيق؛ وتأكد إسحق بنفسه من خلوها من الدقيق كلية مع أنه حملها طوال الطريق بنفسه فوق ظهره. وكانت العجلة جميلة مليحة حمراء الجانبين كأمها ومذهولة ذهولاً مضحكاً من معجزة قدومها إلى الدنيا. وبعد عامين ستضع بدورها عجولاً.

وقالت أنجر: «ستغدو بقرة مليحة عظيمة عندما تكبر. وماذا نسميها الآن، لا فكرة لدي». فأنجر طفلية في تصرفاتها وليست حاضرة البديهة في شيء وأجابها إسحق: «نسميها؟ قرون الفضة بالطبع. وماذا يمكن أن نسميها غير هذا؟».

ونزلت بواكير الثلج. وبمجرد أن وجد إسحق طريقاً يمكنه أن يسلكها انطلق إلى القرية وكله تكتم وغموض كالعادة عندما سألته أنجر عن الغرض من رحلته، وعاد في المرة بمفاجأة جديدة لا تخطر بالبال، عبارة عن حصان زحافة، لا أقل. وقالت أنجر: «يا للحماقة. ولعلك لم تسرقهما؟». «أسرقهما؟» فأجابته: «حسن إذاً. هل وجدتهما؟».

آه لو استطاع الآن أن يقول: «إنه حصاني.. حصاننا..» ولكنه في الحقيقة كان قد استأجره فقط. استأجر حصاناً وزحافة لينقل كتل أخشابه.

وساق إسحق الزحافة بأحمال خشب الزقود وعاد بزاد من الرنجة والدقيق. وذات يوم عاد بثور صغير على الزحافة، اشتراه بلا شيء تقريباً، لأنهم في القرية يفتقرون إلى العلف، وهو ثور أشعث هزيل، ليس مليحاً على الإطلاق، ولكنه حسن البنيان على كل حال، ولا يحتاج إلا إلى التغذية المناسبة كي يصلح شأنه. وإذا أضفنا إلى هذا البقرةَ التي لديهما من قبل.. وقالت أنجر: «ما الذي ستحضره بعد هذا».

وجلب إسحق عدداً هائلاً من الأشياء. جلب ألواحاً ومنشاراً حصل عليه مقابل خشب، وجلب حجر طاحون ورقائق من الحديد وأدوات، ذلك كله في مقابل كتل من الخشب. وكانت أنجر تَضج بالشراء وتقول في كل مرة: «ماذا؟ مزيد من الأشياء؟ ولدينا ماشية وكل ما يمكن أن يفكر فيه إنسان».

كان لديهما ما يكفي لمواجهة احتياجاتهما لمدة غير قَصيرة، فهما من الميسورين. فماذا سيشرع فيه إسحق في الربيع القادم؟ لقد فكر في كل شيء وهو يدب إلى جانب أحمال الخشب ذلك الشتاء: إنه سيخلي

مزيداً من الأرض على جانب التل ويمهدها ويقطع مزيداً من كتل الخشب لتجف أثناء الصيف وينزل إلى القرية بأحمال مضاعفة عندما يصبح الثلج صالحاً للانزلاق. وقد سار كل شيء على خير وجه.

ولكن ثمة أمر آخر فكر فيه إسحق مراراً لا حصر لها: قرون الذهب هذه من أين جاءت وملك من كانت؟ فلم ير في حياته زوجة على وجه الأرض كلها مثل أنجر. هوه! إنها مخلوقة عجيبة تدعه يصنع بها ما يشتهي، وتجد في ذلك سروراً، ولكن لنفرض أنهم جاؤوا ذات يوم يبحثون عن البقرة ليأخذوها، ثم قد يحدث بعد ذلك ما هو أسوأ؟ وما الذي قالته أنجر نفسها عن الحصان: «ألعلك لم تسرقه أو تعثر عليه؟» أجل كان هذا أول ما خطر لها، وكان هذا ما قالته. فمن يدري هل يمكن الوثوق بها، وماذا ينبغي أن يصنع؟ لقد فكر في ذلك كله مراراً كثيرة. وها هو قد أتى بقرين للبقرة. لبقرة قد تكون مسروقة!

وكان ثمة الحصان الذي ينبغي أن يعيده لصاحبه، وإنها لخسارة لأن ذلك الحصان حيوان صغير ودود ألفهما وتعلق بهما.

وقالت أنجر مسرِّية عنه: «لا تبال. فقد صنعت الأعاجيب من قبل». وأجابها: «إي. ولكن الربيع يوشك أن يأتي وسأحتاج إلى حصان...».

وفي الصباح التالي ساق الزحافة بهدوء وعليها آخر حمل، وظل متغيباً يومين ثم عاد راجلاً في اليوم الثالث ووقف عن كثب من البيت يتسمع. فقد كان في الداخل صوت عجيب... صوت صراخ طفل - ياه. يا إلهي!.. ها هو إذن ولكن يا له من شيء غريب فظيع. وأنجر لم تفتح فمها قط بكلمة.

وخطا إلى الداخل فكان أول ما صادفه ذلك الصندوق، صندوق الشحن الآن وقد علق بخيط من طرفيه للسقف فصار مهداً وفراشاً للطفل. ووجد أنجر قائمة تتنقل نصف كاسية، وكانت قد حلبت البقرة والعنزات كالمتّبع في يوم عادي. وقال إسحق: «لقد فرغت وانتهى الأمر». فقالت: «نعم، لقد فرغت الآن»، فقال: «هم». فقالت: «كان ذلك في أول مساء رحلت فيه». فقال أيضاً: «هم». فاستطردت: «فلم يكن أمامي إلا أن أخلع ثيابي وأعلق المهد هناك. ثم صار الأمر أشق مما أستطيع فيما يبدو فكان لا بد أن أستلقي». فسألها: «لماذا لم تخبريني من قبل؟». فأجابته: «لم يكن في استطاعتي أن أحدد الموعد بالدقيقة. إنه غلام». فقال: «هوه. غلام» فقالت أنجر: «ولست لعمري أستطيع التفكير في اسم أطلقه عليه».

ونظر إسحق في وجه الصغير الأحمر فوجده حسن الشكل ليس له شفة أرنب وعلى رأسه شعر كثيف. إنه مخلوق صغير بالنسبة لمكانه ووضعه في صندوق للشحن. وشعر إسحق بضعف غريب، فوقف الرجل الأشعث هناك وأمامه معجزة ذلك الشيء الذي خلق أولاً في ضباب مقدس ثم برز الآن إلى الحياة بوجه صغير كأنه مجاز. وتمضي الأيام والسنون فإذا المعجزة تغدو إنساناً.

وقالت أنجر: «تعال تناول طعامك».

. . . . .

إسحق حطاب يسقط الأشجار وينشر الكتل. وهو الآن أحسن حالاً من ذي قبل وقد صار لديه منشار. إنه يعمل وتكبر أمامه أكداس الخشب فيصنع منها شارعاً ومدينة مبنية بأكداس وأكوام من الخشب. وأنجر تلزم

الدار معظم الوقت ولا تخرج لترقبه وهو يعمل. وصار لا بد لإسحق الآن من العثور على مبرر للتسلل من البيت برهة؛ فمن الغريب أن يكون في البيت كائن صغير كهذا! وإسحق بالطبع لا يمكن أن يحلم بإلقاء باله إليه، وهو مجرد شيء صغير في صندوق للشحن. أما عن تعليقه به.... ولكنه حين يصرخ. حسن. إنه لشعور بشري مجرد أن تحس شيئاً ما لصرخة؛ صرخة صغيرة كهذه.

وتقول أنجر: «لا تلمسه! ويداك ملطختان هكذا بالراتنج!» فيقول إسحق: «راتنج حقاً! يداي لم تتلوثا بالراتنج منذ بنيت هذا البيت. أعطيني الغلام دعيني آخذه. هاك. إنه على خير ما يرام معي!».

. . . . .

وفي أوائل مايو حضر زائر. وكان هذا الزائر امرأة جاءت عبر التلال إلى هذا المكان المنعزل الذي لم يأت إليه أحد من قبل. وكانت من أقارب أنجر وإن لم تكن من أدناهم، وقد رحبا بها فقالت: «خطر لي أن ألقي نظرة وأرى كيف أصبحت قرون الذهب منذ غادرتنا». وتنظر أنجر إلى الطفل وتحدثه بصوت يفيض شفقة: «آه وما من أحد يسأل كيف حاله، فما هو إلا شيء صغير ضئيل». فقالت الزائرة: «أما عن هذا فأي إنسان يستطيع أن يرى مبلغ نموه، صبي صغير بديع. ومن كان يظن منذ سنة يا أنجر أنه سيجدك هنا ذات بيت وزوج وطفل وسائر تلك الأشياء؟». فتجيبها: «ليس هذا من صنعي فأشكر عليه. فها هو رجل جالس هناك أخذني كما كنت ولا زيادة»، فتقول الزائرة: «أتزوجتما؟ لم تتزوجا بعد كما أرى» فتقول أنجر: «سننظر في هذا متى بلغ هذا الرجل الصغير سن العماد. وكنا حريين أن نتزوج قبل الآن ولكن ذلك لم يتيسر لنا بما فيه

من رحيل إلى الكنيسة وما إلى ذلك. فما قولك يا إسحق؟» فيقول إسحق: «نتزوج؟ نعم بالطبع». فتقول أنجر: «إن أنت رضيت أن تساعدينا يا أولين. بمجرد الحضور بضعة أيام ذات مرة في وقت الراحة للعناية بالحيوانات أثناء غيابنا».

وكانت أولين مستعدة لذلك، فقالت أنجر: «ولن تكوني الخاسرة في النهاية» فأجابت الأخرى أنها ستترك ذلك لهما، ثم أردفت: «وأراكما تبنيان شيئاً آخر. فماذا ستكون هذه المرة؟ أليس لديكما من البناء ما يكفي؟». وترى أنجر فرصتها سانحة فتقول: «سليه هو عن هذا فأنا لست أدري». فيقول إسحق: «بناء؟ هذا شيء لا يستحق الذكر. ربما كان سقيفة صغيرة قد نحتاج إليها. وما هذا الذي كنت تقولين عن قرون الذهب؟ هل تحبين أن تريها؟».

ويذهبون إلى سقيفة البقر فإذا البقرة وعجلتها ومعهما فضلاً عنهما ثور. وتهز الزائرة رأسها وتنظر إلى السائمة والسقيفة وتجد كل شيء على أحسن حال، والنظافة لا زيادة عليها لمستزيد، فتقول أولين: «أنجر يُوثق بها أن تحسن رعاية الحيوانات من جميع الوجوه». ويسأل إسحق سؤالاً: «هل كانت قرون الذهب في بيتك من قبل؟» فتجيبه: «نعم منذ كانت عجلة. لا في بيتي بالضبط بل في بيت ابني. ولكن لا فرق. ولم تزل أمها عندنا».

ولم يكن إسحق قد سمع أنباء أحسن من هذه منذ وقت طويل، فأزيح عن كاهله عبء، لأن قرون الذهب غدت ملكه وملك أنجر بالحق الخالص. وكان قد خطر له -والحق يقال- أن يتخلص من قلقه بطريقة مؤسفة فيقتل البقرة ذلك الخريف ويقشط جلدها ويدفن قرونها ويتخلص

بذلك من كل أثر لقرون الذهب مدى حياته، أما الآن فلا حاجة به إلى هذا، وغدا فخوراً أشد الفخر بأنجر فجأة، فقال: «نعم. إن أنجر قديرة على تدبير الأمور حقاً وليس لها مثيل ولا نظير. لقد كان المكان هنا حقيراً إلى أن صارت لي امرأة على حد قولك». فقالت أولين: «نعم. هذا أمر طبيعي». وهكذا بقيت معهما يومين هذه المرأة القادمة عبر التلال بلسانها العذب وسرعة بديهتها، وكانت تنام في الحجرة الصغيرة. ولما همت بالرحيل إلى موطنها أعطتها أنجر حزمة من صوف الغنم. ولم يكن هناك ما يدعو لإخفاء هذه الحزمة من الصوف، إلا أن أولين عنيت بألا يراها إسحق.

ثم عاد الثلاثة: الطفل وإسحق وزوجته إلى وحدتهم ودنياهم وأعمال النهار اليومية مع كثير من الأفراح الصغيرة والكبيرة. وكانت قرون الذهب تدر إدراراً حسناً، وكذلك العنزات ولدت صغارها وجادت بإدرارها فصار لدى أنجر صف من الجبن الأحمر والأبيض اختزنته كي ينضج. وكانت خطتها أن تبقي الجبن إلى أن يتجمع لديها ما يكفي لشراء نول. فقد كانت أنجر تعرف كيف تنسج.

وشيد إسحق عريشة. فقد كانت لديه هو الآخر خطة ولا شك. وأقام جناحاً جديداً بناه ناتئاً من جانب الكوخ المبني بالطين بألواح مزدوجة من الخشب وجعل فيه مدخلاً للباب ونافذة صغيرة أنيقة ذات أربعة ألواح وصنع سقفه من الألواح الخارجية واكتفى بهذا إلى أن تذوب الأرض المتجمدة ويستطيع الحصول على الطين. وكان ذلك كله مفيداً وضرورياً، فلا أرضية ولا جدران ممسوحة بالفارة، بيد أن إسحق أقام حاجزاً على شكل صندوق قد يصلح لحصان، وصنع فيه مزوداً.

وكان الوقت يقارب آخر مايو، وقد أذابت الشمس الأرض المرتفعة فصنع إسحق سقفاً لعريشته من الطين وأنجزها. ثم تناول ذات يوم وجبة تقيمه طوال النهار وأخذ معه مزيداً من الطعام؛ ووضع على كتفه معولاً ورفشاً ثم نزل إلى القرية، وصاحت أنجر من ورائه: «هات معك ثلاث ياردات من قماش قطني مشجر إن استطعت». فقال إسحق: «ولماذا تريدينها ؟».

وطال غياب إسحق فكاد يخيل إليها أنه ذهب إلى الأبد. وجعلت أنجر تتطلع إلى الطقس كل يوم وتلقي بالها إلى اتجاه الريح كأنها تنتظر قدوم سفينة شراعية، وصارت تخرج في الليل لتستمع، وخطر لها أن تأخذ الطفل على ذراعها وتنطلق في أثره. ثم عاد أخيراً بحصان وعربة، وجعل إسحق يصيح: «بتروا»! وهو يقترب من البيت بأعلى صوته كي تسمعه. وكان الحصان حسن السلوك هادئاً إلى أقصى حد، يهز رأسه أمام الكوخ المصنوع من الطين كأنه يعرفه، ومع هذا صاح إسحق: «هيا تعالي وأمسكي بهذا الحصان قليلاً. ألا تستطيعين؟» وتخرج أنجر وتقول: «أين هو الآن؟ أوه يا إسحق. هل استأجرته مرة أخرى؟ أين كنت كل هذا الوقت؟ لقد انقضت؟ لقد انقضت ستة أيام». فقال لها: «أين تظنينني كنت؟ كان علي أن أطوِّف بمختلف الطرق كي أجد طريقاً تصلح لعربتي هذه. أمسكي الحصان قليلاً. أتستطيعين؟». فقالت: «عربتك! أتعني أنك ابتعت هذه العربة؟».

وسكت إسحق وهو مملوء بأشياء لا يبوح بها. ورفع محراثاً ومسلفة كان قد اشتراهما ومساميرَ ومؤناً وحجر طاحونة وزكيبة من القمح وسألها: «وكيف حال الطفل؟» فأجابته: «الطفل بخير، ولكني أريد أن

أعرف هل اشتريت هذه العربة؟» ثم قالت مازحة لتخفي سرورها برجوعه: «لقد لبثت طويلاً وأنا متشوقة لشراء نول».

ولزم إسحق الصمت مرة أخرى برهة طويلة وهو مشغول بشؤونه الخاصة يفكر ويبحث حوله عن مكان يضع فيه كل هذه السلع والأدوات، فقد كان من الصعب أن يجد لها كلها مكاناً، ولكن عندما كفت أنجر عن السؤال وبدأت تكلم الحصان بدلاً منه خرج من صمته الشاهق أخيراً بقوله: «أرأيت في حياتك مزرعة دون حصان وعربة ومحراث ومسلفات وما إلى ذلك؟ وما دمت تريدين أن تعرفي فاعلمي أنني اشتريت هذا الحصان وهذه العربة وكل ما فيها». ولم يسع أنجر إلا أن تهز رأسها وتغمغم: «حسن، أنا لم أرَ في حياتي رجلاً كهذا!».

ولم يعد إسحق نموذجاً للضآلة والتواضع، فقد دفع كما ينبغي للرجل الشريف أن يدفع ثمن قرون الذهب، ووسعه أن يقول: «هاك. لقد جئت بحصان فنحن الآن سواء».

ووقف هناك منتصباً خفيف الحركة على غير عادته ونقل المحراث من موضعه فرفعه وحمله بيد واحدة وأقامه مستنداً إلى الجدار، ففي استطاعته أن يدير ضيعة! وتناول الأشياء الأخرى: السلفة وحجر الطاحون وشوكة جديدة ابتاعها وسائر الأدوات الزراعية غالية الثمن وهي كنوز البيت الجديد فجعلها صفاً فخماً، وكانت كلها أجهزة لازمة للعمل فلم يعد ينقصه شيء، ثم قال: «هم هم. أما بخصوص ذلك النول فسوف أتدبر الموضوع أيضاً فيما أعتقد ما دمت محتفظاً بصحتي، وها هو قماش قطنك المشجر ولم يكن لديهم إلا اللون الأزرق فابتعته».

ولم يكن لما جلبه آخِر فكأنه بئر بغير قاع غنية بشتى صنوف

الأشياء. أو كأنه متجر في المدينة، وتقول أنجر: «أتمنى لو أن أولين رأت كل هذه الأشياء عندما كانت هنا».

هذا شأن النساء! غرور أحمق صرف، كأنما هذا شيء له وزن! وتشمم إسحق الهواء بازدراء وإن كان لعله شخصياً حريّ أن يُسر لو كانت أولين هناك لترى هذه الأشياء.

وبكى الطفل فقال إسحق: «ادخلي واهتمي بالغلام، وسأهتم أنا بالحصان».

وأخذ الحصانَ وقاده إلى الإسطبل: ها هو إسحق يضع حصانه في الإسطبل، ويطعمه ويربت عليه ويعامله بحنان، وبكم هو مدين الآن من ثمن هذا الحصان وهذه العربة؟ إن كل شيء -وهو مبلغ طائل- دين بأكمله ولكنه سيُوفَّى هذا الصيف، لا خوف من هذا فلديه أكداس من خشب الوقود تكفي للوفاء بالدين، ولديه جانب من اللحاء الذي يستخدم في البناء مما قطعه في السنة الماضية، بخلاف الخشب الثقيل، وأمامه متسع من الوقت، ولكن فيما بعد، عندما بردت حرارة الزهو والفخر قليلاً عرف ساعات مريرة من الخوف والقلق، فكل شيء يتوقف على الصيف وعلى المحصول وما تتمخض عنه السنة.

إنه الآن يقضي أيامه في أعمال الحقل ثم في مزيد من أعمال الحقل، يخلي قطعاً جديدة من الأرض ويستخرج منها الجذور والصخور ويحرثها ويسمدها ويسلفها ويعمل فيها بالمعول والرفش ويكسر كتلاً من التربة فيفتتها بيده وكعبه فهو دائماً عزاق للأرض يعرف كيف يمهد الحقول حتى كأنها بساط من القطيفة. وانتظر يومين بعد هذا لأن الجو كان يبشر بالمطر ثم بذر قمحه.

وكان آباؤه من قبله قد بذروا القمح منذ أجيال طواها النسيان، ذات مساء هادئ ساكن بوقار، وخير ما يكون ذلك والمطر الخفيف الدافئ الضبابي يتساقط عقب هجرة الإوز الرمادي مباشرة، أما البطاطس فشيء جديد لا غموض فيه ولا تدين، فالنساء والأطفال يعرفون كيف يزرعونه، فهو تفاح أرضي جاء من أقطار أجنبية مثل البن، وهو طعام بديع دسم ولكنه شبيه بالأكثر باللفت والجزر، أما القمح فهو الخبز لا أقل، وقمح أو لا قمح معناها الحياة أو الموت.

وسار إسحق عاري الرأس على بركة المسيح كما ينبغي للباذر، كان كجذمة شجرة ذات يدين يسترعيان النظر، ولكنه كان في سريرته كالطفل، كان يلقي بكل رمية بعناية، وفي إذعان رحيم. انظر! ها هي الحبات الصغيرة التي ستدب فيها الحياة وتنمو، ها هي تنبت وتصير سنابل تثمر القمح مرة أخرى. وهكذا الحال أينما بذرت القمح على وجه الأرض كلها: في فلسطين وأمريكا وأودية النرويج نفسها، إنه لعالم رحيب، وها هو إسحق ذرة ضئيلة وسط هذا كله، يقوم بالبذر، وراحت رشاشات صغيرة من القمح تتطاير من يده كالمراوح تحت سماء ملبدة بالسحب في رقة، واعدة بمطر ضبابي خفيف غاية الخفة.

الفصل الرابع

حلّ وقت الفراغ من العمل بين الفصول ولم تأت المرأة أولين.

لقد فرغ إسحق الآن من أعمال الفلاحة وصار لديه منجلان كبيران وكباشتان استعداداً لحصاد الدريس. وصنع أرضية طويلة من الخشب لعربته كي يدخل عليها الدريس. وحصل على طارتين وجانب من الخشب الملائم لصنع زحافة للشتاء. وقد صنع أشياء كثيرة مفيدة، شملت الرفوف أيضاً؛ إذ أقام رفّين داخل البيت يصلحان لحفظ أشياء متباينة كالتقويم الذي اشترى نسخة منه أخيراً والمغارف والأواني غير المستعملة، وكانت أنجر شديدة الإعجاب بهذين الرفين.

وما كان أسهل أن يسر قلب أنجر فهي شديدة الإعجاب بكل شيء. فثمة قرون الذهب مثلاً ولا خوف الآن من هربها ولديها عجلتها والثور تلهو معهما، فهي تقضي طول النهار في الجري بين أنحاء الغابة. والعنزات أيضاً كانت تتكاثر وضروعها الثقيلة تكاد تكنس الأرض. وصنعت أنجر ثوباً طويلاً من القطن الأزرق المشجر وقلنسوة صغيرة من ذلك القماش نفسه جاءا من أجمل ما يكون، وأعدتهما للعماد. وكان الغلام يرقبها في كثير من الأوقات وهي تعمل. ويا له من غلام عجيب الشأن. ولئن كانت ميالة القلب إلى مناداته باسم إيليزيوس، فإن إسحق

تركها لاختيارها. ولما تم الثوب كان له ذيل جرار طويل يكاد يبلغ ياردة ونصفاً من القطن المشجر تمثل كل بوصة واحدة منه قدراً من المال أنفق في سبيله. ولكن ماذا في ذلك والغلام أول مولود لهما.

وقال إسحق: «وماذا عن خرزاتك تلك؟ يبدو لي كأنها لم تستخدم.؟»

بيد أن أنجر كانت قد فكرت فعلاً في خرزاتها تلك. وخليق بالأم أن تصنع هذا الصنيع. ولم تقل أنجر شيئاً لفرط زهوها. ولم تكن الخرزات كافية العدد فهي لا تفي بصنع قلادة للصبي، إلا أنها ستبدو جميلة المنظر لو حيكت على واجهة القلنسوة حيث ينبغي أن توضع.

ولكن أولين لم تحضر.

ولولا السائمة لذهب ثلاثتهم لرحلتهم ثم عادوا بعد أيام قلائل وقد تم تعميد الطفل كما ينبغي، ولولا مسألة الزواج لكانت أنجر خليقة أن تنطلق بالطفل وحدها.

وقال إسحق: «ما رأيك في تأجيل موضوع الزواج قليلاً؟» إلا أن أنجر ساءها التأجيل إذ ينبغي أن تمر عشر سنوات أو اثنتا عشرة على الأقل قبل أن يبلغ اليزيوس مبلغاً يؤهله للبقاء وحده كي يقوم بأعمال الحلب مدة غيابهما.

كلا، لا بد لإسحق أن يُعمل فكره للوصول إلى طريقة ما. لقد وقع الأمر كله من غير أن يكون لهما به علم. ولعل مسألة الزواج لا تقل أهمية عن العماد. فما أدراه؟ وكان الجو يبدو شبيهاً بجو جفاف المطر. بل منذراً بتحاريق شديدة الضراوة، فإذا لم ينزل المطر قبل مضي وقت طويل فستحترق حاصلاتهما. ولكن كل شيء بيد الله. واستعد إسحق

للنزول إلى القرية كي يجد أحداً يأتي للإقامة. وكان عليه أن يقطع كل تلك الأميال مرة أخرى! وكل هذه الضجة لا شيء إلا لعقد القران والعماد! والمقيمون في الأماكن النائية المنعزلة ما أكثر متاعبهم الكبرى والصغرى.

وأخيراً جاءت أولين....

وها هما الآن وقد تم زواجهما وتم العماد على خير وجه لائق، وقد تذكرا أن يعقد القران أولاً كي يتسنى عماد الطفل باعتباره وليد زواج شرعي. ولكن التحاريق استمرت. وجفت حقول القمح الصغيرة وشاطت هذه البسط الجميلة؛ فلماذا حدث هذا، إن كل شيء بيد الله. وقام إسحق بحصاد أرض مراعيه ولم يكن عليها من العشب إلا القليل مع أنه قام بالتسميد جيداً هذا الربيع. وراح يحصد ويحصد على جوانب التلال ممعناً في البعد، يحصد ويعود حاملاً على عربته إلى البيت أحمالاً من الدريس وكأنه لا يمكن أن يكل، فلديه الآن حصان ومزرعة كاملة الأهبة. إلا أنه في منتصف يوليو اضطر لحصد القمح ليتخذ منه علفاً أخضر. ولم يكن له عن هذا محيص. فأصبح كل شيء الآن متوقفاً على محصول البطاطس.

وماذا عن البطاطس؟ أهي مجرد شيء مجلوب من بلاد أجنبية مثلها مثل اللبن، فهي ترف أم نافلة؟ أوه. إن البطاطس محصول فاخر سواء كان الوقت وقت تحاريق أو وابل غمر، فهي تنمو وتنمو في جميع الأحوال هازئة بالطقس ثابتة أمام كل شيء. ولكن عليك أن تعاملها برفق فتغل عليك خمسة عشر ضعفاً. وليس فيها شيء من دم عناقيد الكرم، ولكن لها لحم الكستناء الذي يسلق أو يُشوى ويستخدم على كل

وجه. وقد يفتقر المرء إلى القمح كي يصنع منه الخبز ولكن إن أعطيته البطاطس لم يتعرض للجوع، لأنه يستطيع أن يشويها على الجمر فيحظى بالعشاء، أو يسلقها بالماء فإذا فطره معد. وأما اللحم فما أقل ما يحتاج إليه المرء إلى جانب البطاطس، إذ يمكن تقديم البطاطس مع أي شيء: فطبق من اللبن أو الرنجة كافٍ جداً. والأغنياء يأكلونها بالزبد والفقراء يتناولونها بقليل من الملح، وفي استطاعة إسحق أن يصنع منها وليمة في أيام الآحاد بقليل من القشدة المستخرجة من لبن قرون الذهب. فيا للبطاطس المسكينة المزدراة... كم هي نعمة جزيلة!

إلا أن الأمور تبدو الآن حالكة حتى بالنسبة لمحصول البطاطس.

وجعل إسحق ينظر إلى السماء مراراً لا تحصى في اليوم الواحد فيجدها زرقاء. وكم من مساء بدت فيه السماء وكأنها تؤذن بالمطر فيدخل إسحق ويقول: «من الجائز أن تحظى أخيراً بالمطر» وما أن تنقضِ ساعتان حتى يعود اليأس كما كان.

واستمر هذا الجفاف سبعة أسابيع حتى الآن وكانت الحرارة شديدة، وظلت البطاطس مزهرة أزهاراً رائعة غير طبيعية، أما حقول القمح فبدت عن بعد كأنها مغطاة بالجليد. فإلى أين يفضي هذا كله؟ إن التقويم لم يذكر شيئاً عن ذلك. فتقاويم هذه الأيام لم تعد كسالف العهد. إن التقويم الآن لا خير فيه إطلاقاً. ها هي علائم المطر تتجدد، وها هو إسحق يدخل إلى أنجر قائلاً: «سنظفر الليلة بالمطر بإذن الله». فتسأله: «هل يبدو ذلك؟» فيجيبها: «نعم فالحصان يرتجف قليلاً كما هي العادة قبيل المطر». فتحدق أنجر صوب الباب وتقول: «الأمر كما تراه. سينزل المطر فعلاً».

وسقطت بضع قطرات. ومرت ساعات وتناولوا عشاءهم. ولما خرج إسحق في الليل لينظر وجد السماء زرقاء. وقالت أنجر: «حسن. ستمنح السماء على كل حال يوماً آخر لحشيشة البحر كي يجف آخر قدر منها، قالت ذلك لتخفف عنه ما استطاعت. وكان إسحق يجمع من حشيشة البحر أكبر كمية يستطيعها فتجمع لديه مقدار ضخم من أفضل أنواعها. فهي علف جيد ولذلك فهو يصنع بها ما يصنع بالدريس فيغطيها باللحاء في الغابة. ولم يكن قد بقي منها إلا مقدار قليل. فلما جرى ذكرها على لسان أنجر أجابها بيأس: «لن أدخلها الدار إذا جفت». فقالت أنجر: «لا إخالك تعني هذا يا إسحق».

ولكنه في اليوم التالي لم يدخلها بالتأكيد بل تركها في الخارج ولم يمسسها كما قال. فلتبق حيث هي ولن ينزل المطر على كل حال وفي وسعها أن تظل في مكانها على بركة الله، وفي مقدوره أن يدخلها قبيل عيدالميلاد إن لم تكن الشمس قد أحرقتها عن آخرها.

لقد شعر إسحق باستياء عميق شديد. فلم يعد شيئاً ساراً أو مبهجاً له أن يجلس خارج الدار على عتبة الباب مجيلاً الطرف في أراضيه مزهواً بامتلاكها. فحقل البطاطس يزدهر بجنون ويأخذ في الجفاف. فليدع إذن حشيشة البحر مستقرة حيث هي. فماذا يعنيه من أمرها؟ يا لإسحق! من أدرانا أن فكرة ماكرة صغيرة لا تدور بخاطره رغم بساطته البليدة. ولعله يعرف بعد كل شيء ما هو صانع، ويحاول أن يغري السماء الزرقاء بالتغير عند تغير القمر.

وفي هذا المساء بدا كأن المطر سينهمر مرة أخرى، فقالت أنجر: «كان ينبغي أن تدخل حشيشة البحر إلى الدار»، فسألها إسحق وهو يبدي

الدهشة الشديدة «ولماذا ؟» فأجابته: «يالبلاهتك! إن المطر قد ينهمر أخيراً». فقال: «في وسعك أن تري بعينيك أنه لن ينهمر المطر هذا العام».

ومع هذا اشتدت الظلمة في الليل واستطاعا أن يريا من خلال زجاج النافذة أن الظلمة قد ازدادت حلكة. وكأنما أخذ شيء ما يضرب ألواح الزجاج. شيء ندي، أياً كان ذلك الشيء فقد استيقظت أنجر قائلة: «إنه المطر! انظر إلى زجاج النافذة». فلم يزد إسحق على أن تنشق الهواء بشدة وقال: «مطر؟ لست أرى قطرة واحدة. ولا أدري عن أي شيء تتحدثين». فقالت أنجر: «لا خير في التجاهل».

والحق أن إسحق كان يتصنع التجاهل لأن المطر كان ينهمر بالفعل في وابل غزير ولكن ما أن سقط من المطر ما يكفي لإتلاف حشيشة بحر إسحق حتى توقف واستردت السماء لونها الأزرق، فقال إسحق وقد تصلب عنقه واشتد عناده: «ألم أقل لك؟».

ولم يغير هذا المطر شيئاً من محصول البطاطس، وتوالت الأيام والسماء على زرقتها. وشرع إسحق في صنع زحافته الخشبية فعمل فيها جهده، وطامن من كبرياء قلبي وراح يمسح بتواضع بالفارة الطارات والعريش. ياه. يا إلهي! أجل إن الأيام تغدو وتروح والطفل يكبر وأنجر تخض اللبن وتصنع الجبن. فليس ثمة خطر جدي. ومن لديهم بديهة حاضرة ويستطيعون العمل لا يموتون بسبب سنة واحدة رديئة. وفضلاً عن هذا فقد سقط مطر منتظم ميمون بعد اكتمال تسعة أسابيع، ودام سقوطه على مدى ست عشرة ساعة كأغزر ما يكون المطر. ولو تأخر نزوله أسبوعين لقال إسحق: «لقد فات الأوان!» أما وقد نزل في هذا الموعد

فقد قال لأنجر: «إن هذا المطر كما ترين سينقذ جزءاً من البطاطس». فقالت أنجر بتفاؤل: «بل سينقذها كلها كما سترى».

وأخذت الأمور تبدو خيراً مما كانت، فالمطر يسقط كل يوم وابلاً طيباً شديداً. فكل شيء عاد إليه اخضراره كأنما بفعل معجزة. والبطاطس لم تزل مزهرة أسوأ من ذي قبل ونبتت في فمها حبات كبيرة لا ينبغي أن توجد. ولكن لا أحد يستطيع التنبؤ بحالة الجذور. لم يجازف إسحق بالنظر إليها. وذات يوم خرجت أنجر ووجدت أكثر من عشرين ثمرة بطاطس صغيرة تحت نبات واحد منها. وقالت: «وأمامها خمسة أسابيع أخرى تنمو فيها». «يا لأنجر، فإنها تحاول دائماً أن تسري عنه وتبث فيه الأمل بكلامها من خلال شفتها المشقوقة كشفة الأرنب». ولم يكن كلامها جميل الوقع على السمع لما فيه من هسيس كأنه انبعاث البخار من صمام غير محكم. ولكنه شيء يريح النفس على كل حال في هذه البرية المنعزلة. ثم إنها ذات روح مرحة سعيدة في جميع الأوقات. وذات يوم قالت لإسحق: «أتمنى لو استطعت صنع سرير آخر». فقال: «هو!» فقالت: «ليس هناك ما يدعو للعجلة. ولكن مع هذا...».

وشرعا يدخلان محصول البطاطس، فانتهيا من ذلك كما هي العادة في عيد الملاك ميخائيل (٢٩ سبتمبر). فجاء المحصول جيداً، أشبه بمحصول سنة متوسطة. وثبت مرة أخرى أن البطاطس لا تبالي كثيراً بالطقس، فهي تنمو في جميع الأحوال، وتتحمل الشيء الكثير.. سنة متوسطة.. سنة جيدة.. لو أنهما فقط استطاعا إنجاز كل شيء في حينه. ولكنهما لم يستطيعا ذلك هذا العام. وقد مر أحد اللابيين من هذه الجهة ذات يوم فقال إن بطاطسهما بديعة، أما هناك في القرية فمحصولهم أسوأ بكثير...

إن أمام إسحق الآن بضعة أسابيع أخرى يفلح فيها الأرض قبل نزول الصقيع. وكانت السائمة في الخارج ترعى حيث تشاء فطاب له أن يعمل وهي من حوله يسمع أجراسها، وإن كان ذلك يأخذ جانباً من وقته بين حين وحين. وكان الثور حيواناً شريراً يميل إلى نطح أكوام حشيشة البحر. أما العنزات فكانت تنتشر في المرتفعات والمنخفضات وفي كل مكان، حتى سقف الكوخ.

متاعب كبيرة وصغيرة.

وذات يوم سمع إسحق صرخة مفاجئة. وكانت أنجر واقفة فوق عتبة الباب والطفل بين ذراعيها تشير إلى الثور والبقرة الصغيرة الجميلة قرون الفضة.. فقد كان الثور يواقع البقرة. وألقى إسحق بالمعول من يده وأسرع يجري نحوهما، ولكن السهم كان قد نفذ فيما يبدو ووقع الضرر: «أوه. يا للوغد الصغير. إنها أصغر سناً مما ينبغي، أقل مما ينبغي بنصف سنة. طفلة!» وأخذها إسحق إلى داخل الكوخ، ولكن بعد فوات الأوان. وقالت أنجر: «حسن حسن. ليس الأمر غاية في السوء بعد كل شيء، فلو أنها انتظرت لحملت الاثنتان معاً في وقت واحد». ويا لأنجر من امرأة قد لا تكون في ألمعية بعض الناس ولكنها مع هذا قد تكون على بينة من أمرها حينما أطلقت سراح الاثنين معاً ذلك الصباح.

وحل الشتاء وأنجر تندف الصوف وتغزله، وإسحق يقود عربته وعليها أحمال من الخشب الجيد الجاف إلى القرية فوفّى سائر ديونه وصار الحصان والعربة والمحراث والسلفة ملكاً خالصاً له. وكان ينزل بالعربة وعليها الجبن الذي صنعته أنجر من لبن عنزاتها ويعود بخيوط الصوف ونول ومكوكات وعواتق وما إلى ذلك، وفي مرة أخرى يعود بالدقيق

والمؤن ومزيد من الألواح الغليظة والرقيقة والمسامير. وذات يوم عاد إلى البيت بمصباح. وقالت أنجر: «أنا لا أكاد أصدق عيني». ولكنها كانت تفكر منذ زمن طويل في المصباح. وأشعلاه في ذلك المساء نفسه فبات في الجنة. وظن إليزيوس الصغير ولا شك أنها الشمس. وقال إسحق: «انظري كيف يحملق بدهشة؟» وصار في مقدور أنجر الآن أن تغزل في المساء على ضوء المصباح.

وجلب كتاناً للقمصان ونعالاً جديدة من الأدم لأنجر. وكانت قد طلبت شيئاً من أدوات الصباغة أيضاً للصوف فأتى بها. ثم عاد ذات يوم بساعة دقاقة. بماذا؟.. ساعة دقاقة. وكان هذا أكثر مما يمكن أن تحتمله أنجر، فذهلت ولم تستطع أن تقول كلمة واحدة، وعلق إسحق الساعة على الحائط ثم ضبطها بالتخمين وملأها وجعلها تدق، فحول الطفل عينيه إلى جهة الصوت ثم نظر إلى أمه، فقالت أنجر: «نعم. لك أن تعجب». وضمت الطفل إليها وهي لا تخلو من تأثره فما من شيء في هذا المكان المنعزل يمكن أن يكون أفضل بين كل تلك الأشياء من ساعة دقاقة تدور طول فترة الشتاء المظلم وتدق معلنة الساعات هذا الدق الجميل.

ولما انتهى إسحق من نقل آخر حمل ارتد حطاباً مرة أخرى، يسقط الأشجار ويكومها وينشئ بها شوراعه ومدينته من أكداس الخشب استعداداً للشتاء القادم. وقد صار الآن ممعناً في البعد عن موطنه وأمامه شقة كبيرة عريضة من جانب التل معدة للفلاحة. فعزم على ألا يجتث الأشجار بعد الآن بل سيتخير للإسقاط أكبر الأشجار ذات القمم الجافة.

وكان يعلم تماماً بالطبع ما كانت تفكر فيه أنجر عندما طلبت منه

سريراً آخر.. ومن الخير أن يسرع ويعده. وذات مساء مظلم عاد إلى البيت من الغابة فإذا به يجد أنجر قد فرغت من الأمر. جاءت بغلام آخر واستلقت راقدة، يا لأنجر هذه! إنها في الصباح بالذات حاولت أن تحمله على النزول إلى القرية مرة أخرى قائلة له. «آن لهذا الحصان أن يجد شيئاً يصنعه. فهو لا يعمل بلقمته طوال النهار» فقال إسحق باقتضاب قبل أن ينصرف: «ليس لدي وقت لمثل هذا الهراء». ولكنه الآن فهم أنها كانت تريد أن تبعده، ولماذا ؟ لا شك في أن وجوده قرب البيت لا ضرر منه. وقال لها: «لماذا لا تخبريني بما سيحدث؟» فقالت أنجر: «أعد لنفسك فراشاً ونم في الحجرة الصغيرة».

ولم يكن عليه أن يصنع سريراً فقط، بل لا بد أيضاً من أغطية للفراش تبسط فوقه. ولم تكن لديهما إلا قطعة جلد واحدة للتغطية ولا سبيل للحصول على أخرى قبل الخريف القادم عندما يتيسر ذبح الكباش. وحتى عندئذ لن تكفي قطعتان من الجلد لصنع بطانية. فواجه إسحق وقتاً عصيباً لفترة طويلة بسبب برد الليل. وحاول أن يدفن نفسه في الدريس تحت المظلة الحجرية، وحاول أن يرقد على الأرض مع الأبقار. فقد بات بلا مأوى. ومن حسن حظه أن ذلك كان في شهر مايو. وسرعان ما يهل شهر يونيو ثم يوليو...

لقد استطاعا أن يفعلا شيئاً هائلاً في هذه البرية المنعزلة فصار لهما بيت ومسكن للسائمة وأرض أخليت وزرعت، كل ذلك في ثلاثة أعوام. وها هو إسحق يشيد مرة أخرى. فماذا يشيد الآن؟ سقيفة جديدة تبرز ناتئة من البيت وكانت الضجة ترن في الموضع كله وهو يدق مساميره البالغ طولها ثماني بوصات. وكانت أنجر تخرج بين حين وحين لتقول له

إن الصوت يزعج الصغيرين. فيقول لها: «الصغيرين؟ ادخلي وتحدثي إليهما إذن وغني لهما قليلاً. وفي وسع إليزيوس أن يأخذ غطاء دلو ليدق عليه بنفسه. ولن يطول هذا إلا ريثما أدق هذه المسامير الكبيرة هنا عند تقاطع الدعائم التي ستحمل البناء كله. وبعد ذلك سوف لا أدق إلا الألواح السميكة بمسامير طولها بوصتان ونصف، وهو عمل لطيف هين كبناء بيوت الدمى».

ولا عجب أن يدق إسحق ويطرق فها هو برميل من الرنجة، وها هو دقيق وصنوف شتى من الأغذية في الإسطبل. وقد يكون وجودها هناك أفضل من طرحها في العراء، ولكن الخنزير أخذ يأكل منها. فلا بد من إقامة سقيفة كما هو واضح. أما الصغيران فقد ألفا هذه الضجة بعد وقت قصير جداً. كان اليزيوس يميل للتوجع بعض الشيء، أما الآخر فكان يتناول غذاءه بشهية فكأنه ملك سمين. وفي الأوقات التي لا يصرخ فيها يخلد للنوم فيا له من طفل عجيب! ولم يعارض إسحق مناداته باسم سيفرتو وإن كان شخصياً يفضل اسم يعقوب. ولكن أنجر كانت تصيب الحجة أحياناً. وكان اليزيوس قد سمي على اسم قسيس أبروشيتها وهو اسم بديع بالتأكيد ولكن سيفرت سمي باسم خال أمها صراف المركز الذي كان رجلاً ثرياً لا زوجة له ولا ولد يرثه من بعده، فلم يكن في وسعهما أن يجدا أفضل من تسمية الغلام باسمه.

ثم جاء الربيع ومعه عمل الموسم الجديد وقد تم البذر كله قبل عيد العنصرة، وعندما لم يكن لدى أنجر إلا اليزيوس ترعاه ولم يكن في مقدورها قط أن تجد وقتاً لمساعدة زوجها لارتباطها بوليدها الأول. والآن وفي البيت طفلان فقد اختلفت الحال وصارت تعاونه في الحقل وتقوم

بأعمال كثيرة متناثرة هنا وهناك، فتزرع البطاطس وتبذر الجزر واللفت، وليس من اليسير العثور على زوجة كهذه، وكان لديها نولٌ فضلاً عن ذلك، وفي كل الدقائق التي تفرغ فيها من العمل تتسلل إلى الحجرة الصغيرة وتنسج مقدار ملفين لأنها كانت تصنع قماشاً نصف صوفي للملابس الداخلية في الشتاء، ولما فرغت من صباغة صوفها إذا به ثياب حمراء وزرقاء لها وللولدين، وأخيراً استخدمت عدة ألوان في صنع غطاء سرير لإسحق من تلقاء نفسها، ونول أنجر لا يصنع الزخارف بل الأشياء الضرورية النافعة المتينة.

إنهما يتقدمان بادياً للعيان، هذان المستوطنان في البرية. لقد قطعا شوطاً بعيداً، فإذا تمخضت هذه السنة عن محصول جيد فإنهما سيكونان جديرين بالحسد على الأقل. فماذا ينقص المكان الآن؟ سقيفة للدريس، ربما. ومخزن غلال وفي داخله أرضية للدراس. إلا أن هذا يمكن أن يتحقق مع الزمن. أجل سيتحقق -لا خوف من ذلك- متى أتيح لهما الوقت. أما الآن فقرون الفضة الجميلة وضعت، والأغنام وضعت، والعنزات وضعت. والقطيع الصغير تكاثر وانتشر في المكان. وماذا عن أهل البيت أنفسهم؟ إن اليزيوس قادر الآن على المشي فهو يمشي حيث يشاء. وتم تعميد سيفرت الصغير، وأنجر كل العلائم تدل على أنها تتأهب لجولة أخرى فهي ليست من النوع الذي يمكن أن تسميه ضنيناً بالذرية. وطفل آخر ليس شيئاً ذا بال على أنجر! وإن كانت فخورة بهم متى ولدوا. فهم مخلوقات صغيرة بديعة كما هو ظاهر. فالمولى لم يمن على جميع الخلق بمثل هؤلاء الأطفال الكبار الحسان. وأنجر شابة، وهي تحسن استغلال هذه الصفة. وهي ليست حسناء، وقد عانت طوال صباها

من ذلك، فقد طال بها النبذ والازدراء، فكان الشبان لا يفطنون لوجودها مع أنها تحسن الرقص والعمل، فهم لا يجدون فيها شيئاً مستعذباً فينصرفون عنها إلى سواها. أما الآن فقد حان وقتها، فهي دائماً مزدهرة ودائماً حبلى. وإسحق نفسه هو سيدها ومولاها -كان جاداً وفدما كالعادة، ولكنه في أطيب حال وبها راض. وإنه لسر غامض كيف استطاع أن يعيش إلى أن جاءته أنجر. ولا شك أنه كان يقتات البطاطس ولبن الماعز أو بألوان من الطعام لا اسم لها يصنعها حيثما اتفق. أما الآن فلديه كل ما يخطر ببال رجل في مثل موضعه من الدنيا.

وحل جفاف آخر في سنة أخرى سيئة. وعندما مر أوس أندرس اللابي مع كلبه أخبرهما أن الناس في القرية حصدوا القمح فعلاً ليستعملوه علفاً. فقالت أنجر: «إنها لحالة سيئة ما دامت قد وصلت إلى هذا الحد». فقال: «نعم. ولكن لديهم الرنجة وهي غلة طيبة فيما يقال وخالك سيفرت سيشيد بيتاً ريفياً». فقالت: «ولكنه لم يكن رقيق الحال من قبل». فأجابها: «هذا صحيح. ويبدو أن الأمر كذلك لديهم هنا». فسألته: «لدينا والحمد لله ما يكفي لحاجتنا ولكن أخبرني ماذا يقولون في بلدي عن وجودي هنا؟».

وهز أوس أندرس رأسه كمن لا حيلة له. فلا نهاية للأشياء العظيمة التي يقولونها. بل إنها أكثر مما يستطيع أن يقول. فهو مخلوق معسول اللسان مثل سائر اللاب. فقالت أنجر: «إن كانت لك رغبة في صحفة من اللبن الآن فما عليك إلا أن تقول هذا».

فأجابها: «لا لزوم لإزعاج نفسك، ولكن إن كان لديك ما يأكله هذا الكلب».

فجاءته بلبن له وبطعام للكلب. ورفع أوس أندرس رأسه فجأة صاغياً لنوع من الموسيقى ينبعث من داخل البيت وسألها: «ما هذا؟» فقالت أنجر: «إنها ساعتنا وهي تدق الساعات على هذا النحو». وكادت أنجر تنفجر من فرط الزهو. وهز اللابي رأسه مرة أخرى وقال: «بيت وسائمة وشتى صنوف الأشياء. ما من شيء يفكر المرء فيه إلا وهو لديكم». فقالت: «نعم. لدينا الكثير مما نحمد الله عليه في الحق». فقال: «نسيت أن أخبرك أن أولين كانت تسأل عنك». فسألته: «أولين؟ كيف حالها» فأجابها: «لا بأس بحالها. أين عسى أن يكون زوجك الآن!» فأجابته: «لا بد أنه يعمل في مكان ما من الحقول». فقال اللاب بلا اكتراث: «يقولون إنه لم يشتر هذه الأرض بعد». فسألته: «يشتريها؟ من قال هذا؟» فأجابها: «هذا ما يقولون». فسألته: «وممن يشتريها، إنها من الأراضي العامة» فقال: «إنها لكذلك». فقالت: «وكل ضربة رفش فيها كلفته عرق جبينه». فقال: «إنهم يقولون إن الدولة تملك جميع الأراضي». ولم تستطع أنجر أن تفقه شيئاً من هذا فقالت: «ربما. هل أولين هي التي قالت هذا؟» فقال اللاب وعيناه الأريبتان تنظران فيما حوله في جميع الجهات: «لا أذكر بالضبط». وعجبت أنجر لماذا لم يستجدها شيئاً. وكان أوس أندرس يستجدي دائماً شأنه شأن سائر اللاب. ولكن أوس أندرس جلس يحك وعاء غليونه الفخاري ويشعله، ويا له من غليون! إنه ينفث الدخان ويجذب الأنفاس منه إلى أن يبدو وجهه العتيق المتغضن أشبه برقبة ساحر، ثم يقول وقد عاد للتملق: «لا حاجة لسؤالك هل هذان الصغيران طفلاك، فهما يشبهانك غاية الشبه؛ وكأنهما صورتك الحية عندما كنت صغيرة».

وكانت أنجر قبيحة الشكل... مشوهة المنظر، وكلامه كله خطأ بالطبع، بيد أنها انتفخت زهواً بما قال، فحتى اللاب يستطيع أن يدخل الفرح على قلب أم وقالت أنجر: «لو لم تكن زكيبتك هذه ممتلئة غاية الامتلاء هكذا لأتيتك بشيء تضعه فيها». فقال: «لا، لا لزوم لتحميل نفسك المشقة».

ومضت أنجر إلى الداخل وطفلها على ذراعها وبقي اليزيوس في الخارج مع اللاب، وتصادق الاثنان في الحال، ورأى الطفل شيئاً غريباً في الزكيبة شيئاً ناعماً كثير الوبر فأراد أن يربت عليه ولكن الكلب انبرى مستيقظاً وأخذ ينبح ويعوي، وخرجت أنجر ومعها لفافة من الطعام، وأطلقت صرخة ووقعت على عتبة الباب وسألته: «ما هذا الذي معك، أي شيء هو».

فأجابها: «لا شيء، إنه أرنب جبلي فحسب»

«لقد رأيته»

«إن الصبي هو الذي أراد أن يراه، لقد اقتنصه الكلب هذا الصباح وقتله فحملته معي»

فقالت أنجر: «هاك طعامك».

الفصل الخامس

والسنوات الرديئة لا تأتي فرادى، ولكن إسحق تعلم الصبر وتقبل ما يأتيه به الحظ، وكان القمح قد جف، وجاء الدريس هزيلاً، بيد أن البطاطس بدت وكأنها تنبت كرة أخرى -فالأمور سيئة سوءاً كافياً، ولكن ليست أسوأ ما في الإمكان. فلم يزل لدى إسحق محصول موسم من خشب الوقود وخشب العمارة ليبيعها في القرية، وكانت مصايد الرنجة غنيمة بمحصولها على طول الساحل، فكأنما ثمة نقود كثيرة لشراء الخشب. بل إن فشل محصول القمح كان يبدو في الواقع أشبه بالنعمة، إذ كيف كان عسياً أن يرسه بغير جرن وأرضية للدراس؟ سمها نعمة، فليس في ذلك ضير أحياناً.

وكانت هناك أمور أخرى ليس من اليسير طرحها من الذهن على هذا النحو. فما الذي قاله أحد اللاب لأنجر ذاك الصيف حول كونه لم يشتر الأرض، يشتري؟ ولماذا ينبغي أن يشتري؟ لقد كانت الأرض هناك، وكانت الغابة هناك، فأخلى الأرض وفلحها، وبنى مأوى في وسط برية فطرية، وكسب خبزاً لنفسه ولذويه، غير طالب شيئاً من أحد، بل ظل عاملاً، وعاملاً وحده. وكان كثيراً ما فكر شخصياً في الاستفسار مع العمدة عن الموضوع كلما نزل القرية، ولكنه كان دائماً يؤجل السؤال.

فالعمدة لم يكن بالرجل الذي يطيب التعامل معه كما يقول الناس، ولم يكن إسحق كثير الكلام. فماذا كان حرياً أن يقول إن هو ذهب إليه في أي أمر جاء؟

وذات يوم من ذلك الشتاء جاء العمدة بنفسه راكباً ومعه رجل وكمية كبيرة من الأوراق في حقيبة. جاء العمدة جايزلر بنفسه. بقضه وقضيضه، ونظر إلى جانب التل العريض المنبسط وقد أخلي من الخشب، وصار ناعماً ممهداً تحت الجليد، ولعله ظن الأرض كلها قد فلحت لأنه قال: «هذه التي حصلت عليها مزرعة كبيرة مترامية. ولا إخالك تتوقع أن تحصل على هذا كله مقابل لا شيء؟». ها قد وقعت الواقعة! وأصيب إسحق بالفزع ولم ينبس بكلمة، فقال جايزلر: «كان ينبغي أن تأتي إلي أولاً لتشتري الأرض» فقال إسحق: «آي».

وتحدث العمدة عن التثمين، والحدود، والضرائب، وضرائب الدولة، ولما أوضح المسألة بعض الشيء بدأ إسحق يتبين أن في كلامه نصيباً من المعقولية بعد كل شيء. والتفت العمدة إلى مرافقه وقال في لهجة من يريد إغاظته: «والآن يا من تسمي نفسك مساح أراض، ما مساحة الأرض المزروعة ها هنا!» ودون انتظار لرد صاحبه دوّن الرقم بنفسه على التخمين، ثم سأل إسحق عن المحصولات، كم يبلغ مقدار الدريس، وكم بوشلاً[1] تبلغ غلة البطاطس. ثم سأله عن الحدود، ولم يكن في وسعهما أن يجوبا أرجاء المكان لوضع العلامات فيصل الثلج إلى خاصرتيهما. أما في الصيف فلا يستطيع أحد أن يصل إلى هناك إطلاقاً. فما الذي يعتقده إسحق نفسه بخصوص امتداد أرض الغابة والمراعي! ولم تكن

(١) الوشل مكيال = ٣٦,٣٥ لتراً.

لدى إسحق فكرة على الإطلاق عن هذا، فقد كان دائماً يعتقد أن الأرض على مدى بصره ملك له وقال العمدة: «إن الدولة تطلب حدوداً دقيقة، وكلما عظم الامتداد زاد ما تدفعه». فقال إسحق: «آي»، وقال العمدة: «ولن يعطوك كل ما تعتقد أنك قادر على التهامه، بل سيدعونك تأخذ فقط ما يكفي بصورة معقولة لاحتياجاتك». فقال إسحق: «آي».

وأحضرت أنجر شيئاً من اللبن للزائريْن شرباه، فأتت بمقدار آخر. هل العمدة امرؤ جافي الطبع؟ لقد رقيت شعر اليزيوس ونظر إلى شيء كان الصغير يلهو به وقال: «أتلهو بالأحجار؟ ما هذا؟ أرني. همم، ثقيلة، تبدو كأنها ركيزة معدنية من نوع ما». فقال إسحق: «هناك كثيرٌ من أمثاله في التلال».

وعاد العمدة إلى موضوع العمل: «أنت محتاج بالأكثر إلى ما يمتد من الأرض جنوباً وغرباً من ها هنا فيما أظن؟ أتقول إن المسافة فيرلونجان[1] إلى الجنوب؟» فصاح مساعده: «فيرلونجان!» فقال رئيسه باقتضاب: «ليس في وسعك أن تفلح مئتي ياردة» وسأله إسحق: «وكم يكلفني هذا؟» فأجابه: «لا أستطيع أن أخبرك. فالمسألة كلها تتوقف على رأيهم. ولكني سأقدر لها أقل ثمن ممكن في تقديري، فالمكان يبعد أميالاً عن أي شيء، ومن العسير الوصول إليه»، وقال المساعد مرة أخرى: «ولكن فيرلونجان!».

وسجل العمدة فيرلونجين إلى الجنوب ثم سأله: «وماذا عن التلال؟ كم تريد في ذلك الاتجاه؟» فقال إسحق: «أريد المسافة كلها حتى الماء. فهناك ماء غزير هناك في أعلى التلال»، وسجل العمدة ذلك ثم سأله:

---

(١) الفيرلونغ ١/٨ ميل أو ٢٢٠ ياردة. والفيرلونجان ٤/ميل.

«وكم إلى الشمال؟» فقال إسحق: «ليس للأمر أهمية في هذا الاتجاه. فمعظم الأرض مستنقعات وسبخ. والخشب قليل». فسجل العمدة الحدود الشمالية على مسافة فيرلونج واحد، ثم سأله: «وشرقاً!» فقال: «وهذا أيضاً ليس ذا بال. فالأرض من ها هنا حتى السويد هضبة جرداء»، وسجل العمدة هذا أيضاً، وقام بحساب سريع ثم قال: «ستكون مساحة المكان مع هذا طيبة. لو كان قرب القرية لكان حرياً بالطبع أن يساوي قدراً كبيراً من المال وما كان ليستطيع أحد شراءه، سأبعث بتقرير أقول فيه إن مائة «دالر» ثمن عادل»، وسأل مساعده: «ما رأيك؟» فقال: «كأنها بلا مقابل». فقالت أنجر: «مائة دالر؟ ليس لك يا إسحق أن تأخذ مكاناً بهذا الاتساع». فقال إسحق: «لا...!...» فقال المساعد بسرعة: «هذا بالضبط ما أقوله. فالمكان أكبر مما ينبغي لك بأميال كما هو الآن. فماذا ستصنع به!» فقال العمدة: «يزرعه».

وكان طوال الوقت جالساً هناك يكتب ويحسب في ذهنه، والأطفال حوله يصرخون بين لحظة وأخرى فلم يحتج إلى إعادة العمل، وسوف لا يعود إلى بيته قبل ساعة متأخرة من الليل، أو ربما لم يعد قبل الصباح، ودس الأوراق في الحقيبة، فقد سويت المسألة، وقال لمرافقه: «أسرج الحصان»، والتفت إلى إسحق فقال: «الحق أنهم ينبغي أن يعطوك المكان بلا مقابل ويدفعوا لك شيئاً فوق ذلك نظير العمل الذي قمت به على هذا النحو. سأقول هذا عندما أبعث بتقريري، وسنرى ماذا تطلب الدولة مقابل عقد التمليك».

أما إسحق، فكان من العسير أن نقول ماذا كان شعوره إزاء ذلك. فكأنه لم يكن ساخطاً بعد كل شيء إذ وجد أرضه وقد قدرت بثمن عال

بعد العمل الذي أنجزه. أما المائة دالر ففي وسعه أن يتدبر أمرها بلا شك بمرور الزمن. ولم يشغل باله بأمرها بعد هذا، ومضى في عمله كسابق عهده، يخلي الأرض ويزرعها، ويجلب أحمالاً من الخشب من أرض الغابة المهملة. فما كان إسحق رجلاً يقلقه ما سوف يحدث، وإنما همه كله أن يعمل.

وشكرت أنجر العمدة ورجت أن يتكرم بكلمة طيبة في صالحهما لدى الدولة فقال: «نعم. نعم. ولكني أبادر فأقول أن لا رأي لي في الموضوع. كل ما أستطيعه سرد ما رأيت، وما أعتقده. ما عمر أصغر الطفلين هذا؟» فقالت: «ستة شهور تقريباً». «ولد أم بنت؟». «ولد».

ولم يكن العمدة طاغية، ولكنه كان ضحلاً ولم يكن شديد التحرج في عمله وكان يتجاهل مساعده «برين أولسن» الذي كان ينبغي بحكم منصبه أن يكون خبيراً بمثل هذه الأمور، فسويت المسألة على غير أصولها بطريق التخمين. ولكنها كانت مسألة جدية بالنسبة لإسحق وزوجته، وبالنسبة أيضاً لمن سيأتي بعدهما، ربما لأجيال قادمة، ولكنه سجلها كلها بالكتابة على حساب ما تراءى له، وجعل منها وثيقة على الفور. وكان فضلاً عن هذا رجلاً عطوفاً فأخرج من جيبه قطعة نقود لامعة وأعطاها سيفرت الصغير ثم أومأ برأسه للآخرين ومضى إلى الزحافة. وفجأة سأل: «بأي اسم تدعو هذا المكان؟» «أدعوه؟ نعم ما اسمه؟ لا بد من اسم له»، ولم يكن أحد قد فكر في ذلك من قبل، ونظر إسحق وأنجر كل منهما إلى الآخر، وقال العمدة: «سيلانرا؟» ولا بد أنه اخترع هذا الاسم من دماغه، ولعله لم يكن اسماً على الإطلاق، ولكنه أومأ برأسه وقال مرة أخرى: «سيلانرا» ثم انطلق بالزحافة.

وهكذا سويت مسألة الاسم أيضاً للتخمين. أي شيء عنده يصلح: الاسم والثمن والحدود.

وبعد بضعة أسابيع، عندما كان إسحق في القرية، سمع إشاعات تدور حول العمدة جايزلر. فقد أجري تحقيق بصدد نقود لم يستطع تقديم حساب عنها، فرفع الأمر إلى رؤسائه. وهذه أمور تحدث أحياناً. وبعض الناس يكفيهم أن يتعثروا في حياتهم على أي نحو، إلى أن يلتقوا مصادفة بمن يسيرون.

ثم نزل إسحق ذات يوم القرية بحمل من الخشب، وفي عودته وجد العمدة جايزلر يقود زحافته على الطريق نفسها، فخرج من بين الأشجار إلى الطريق ولوح بيده وقال ببساطة: «هلا أخذتني معك؟».

ولبثا راكبين لحظة لا يتكلمان. وأخرج جايزلر قارورة من جيبه قدمها إلى إسحق ليشرب منها فاعتذر. وقال العمدة: «أخشى أن تزعج هذه الرحلة معدتي». وشرع على الفور يتحدث عن موضوع أرض إسحق: «لقد أرسلت التقرير في الحال بتوصية قوية من جانبي. سيلانرا اسم لطيف والحق إنهم ينبغي أن يعطوك المكان بلا مقابل. ولكن لا جدوى من هذا القول طبعاً. ولو قلته لاستاؤوا وفرضوا ثمناً من جانبهم. وقد اقترحت خمسين دالرا».

«هل قلت خمسين أم مائة؟»

وقطب العمدة جبينه وفكر لحظة ثم قال: «خمسين على ما أذكر. نعم»

وسأله إسحق: «وإلى أين أنت ذاهب الآن؟»

«إلى فستربوتن، حيث أهل زوجتي.»

«ليست الطريق سهلة في هذا الوقت من السنة؟»

«سأتدبر الأمر. ألا تستطيع أن تمضي معي قليلاً؟»

«إي. لا ينبغي أن تذهب وحدك.»

ووصلا إلى المزرعة، وأمضى العمدة الليل، فنام في الحجرة الصغيرة وفي الصباح أخرج قارورته مرة أخرى وقال: «أنا واثق أن هذه الرحلة ستزعج معدتي». أما فيما عدا هذا فكان كالعهد به في المرة السابقة: عطوفاً، حاسماً، ولكنه كثير البلبال مهموماً بعض الشيء بسبب أموره الخاصة. ولعلها لم تتمخضْ عن سوء كثير بعد كل شيء. وتجاسر إسحق فأشار إلى أن جانب التل لم يصبح كله بعد معداً للزراعة، وإنما هي بقع صغيرة هنا وهناك، وتقبل العمدة هذا النبأ على نحو غريب: «كنت أعلم هذا تماماً بالطبع في آخر مرة كنت فيها هنا عندما أعددت التقرير. بيد أن بريد، ذلك الشخص الذي كان معي لم يفطن إلى ذلك. إن بريد لا يصلح لشيء في الدنيا ولكنهم يحسبون العملية بجداول. ومع اتساع الأرض التي دونتها، وحسب ما ذكرته من قلة عدد أحمال الدريس الذي تغله وقلة بوشلات البطاطس، فإنهم سيقولون على الفور إنها لا بد أن تكون أرضاً فقيرة الترب، رخيصتها، لقد فعلت لك أقصى ما في وسعي، وصدقني إن الحيلة ستفلح، فبلادنا بحاجة إلى اثنين وثلاثين ألفاً من طرازك».

وأومأ العمدة والتفت إلى أنجر يسألها: «ما عمر الأصغر؟»

«ثلاثة أرباع سنة بالضبط.»

«ولد أليس كذلك؟»

«بلى».

ومرة أخرى قال لإسحق: «ولكن يجب عليك أن تسوِّي هذه المسألة بأسرع ما تستطيع، فهناك رجل آخر يريد الآن أن يشتري، في منتصف المسافة من هنا إلى القرية، ومتى تم له ذلك صارت هذه المزرعة تساوي

أكثر من ثمنها الحالي. اشترِ الآن. واحصل على أرضك قبله، ثم دع الثمن يرتفع بعد ذلك. وبهذه الطريقة تحصل على بعض الفائدة من العمل الذي بذلته. فأنت أول من بدأ الزراعة هنا إطلاقاً. وكانت المنطقة كلها برية قبل ذلك.

وشكراه على نصيحته وسألاه ألا يسوِّي هو الموضوع، فقال إنه فعل كل ما استطاع. وكل شيء الآن بيد الدولة، ثم قال لهما على الفور: «وأنا الآن ذاهب إلى فستربوتن، وسوف لا أعود».

وأعطى أنجر «أورتا»، وكان ذلك أكثر مما ينبغي بكثير، وقال: «في وسعك أن تأخذي إلى أسرتي في القرية قطعة لحم في أول مرة نذبح فيها شيئاً، وستؤدي زوجتي إليك ثمنها وخذ أيضاً إليهم جبناً أو ما إلى ذلك كلما استطعت فالصغار يحبونها».

ومضى إسحق معه عبر التلال، وكان السير بطيئاً وحثيثاً فوق الأرض العالية، وأسهل من السير في الأرض المنخفضة. وتلقى إسحق دالراً كاملاً.

وهكذا غادر العمدة جايزلر المكان ولم يعد. وقال الناس إنها ليست خسارة كبرى، إذ كان منظوراً إليه على أنه شخصية مريبة وأفَّاق؛ ولم يكن ذلك لأنه يفتقر إلى المعرفة، فقد كان رجلاً متعلماً درس هذا الأمر وذاك ولكنه كان يعيش ببذخ وينفق أموال الناس. وذاع بعد ذلك أنه غادر المكان بعد توبيخ حاد من رئيسه «امتماند بلايم»[1] ولكن لم يحدث لأسرته شيء بصفة رسمية، فاستمروا يعيشون هناك فترة طويلة بعد ذلك -زوجته وأولاده الثلاثة- ولم يطل الوقت ريثما وصلت النقود

(١) أمتماند لقب محافظ الإقليم في النرويج .

التي لم يؤدِّ عنها حساباً من السويد، فلم يكن من المستطاع أن يقال عن زوجة جايزلر وبنيه إنهم محتجزون بصفة رهائن، بيد أنهم لبثوا مقيمين ببساطة لأن ذلك يروقهم.

ولم تكن لدى إسحق وأنجر أسباب للشكوى من تعامل جايزلر معهما، بل الأمر بالعكس. ولم يكن في مقدورهما التنبؤ بكنه خلفه ولعلهما سيضطران إلى إعادة البحث معه في المسألة كلها مرة أخرى؟

وأرسل المحافظ أحد موظفيه إلى القرية فأصبح العمدةَ الجديد بها وكان رجلاً في نحو الأربعين، ابن قاض محلي، واسمه هيردال، وكانت قد أعوزته الوسائل المادية لدخول الجامعة كي يدخل الخدمة من تلك الطريق، فاضطر للجلوس إلى مكتب يكتب أوراقاً مدى خمسة عشر عاماً وكان أعزباً، إذ لم تتيسر له قط القدرة المالية على الزواج، وكان رئيسه المحافظ بلايم قد ورثه عن سلفه، وصار يؤدي إليه الأجر الحقير بعينه الذي كان يؤدى إليه من قبل، وجعل هيردال يتقاضاه واستمر يكتب جالساً إلى مكتبه كذي قبل.

واستجمع إسحق شجاعته وتوجه لمقابلته. وقال الموظف: «أوثائق في قضية سيلانرا...؟ ها هي قد عادت لتوها من المصلحة. إنهم يريدون أن يعرفوا كل شيء.. فالموضوع كله مرتبك ومختلط على الوجه الذي تركه عليه جايزلر، والمصلحة تريد معلومات عن التوت الممكن طرحه للتجارة وهل يمكن جمع محصول منه يعتد به من الضيعة، وهل بها أخشاب ثقيلة، وهل من الجائز أن تكون بها ركائز معدنية أو معادن ذات قيمة في التلال المجاورة لها، وثمة إشارة إلى المياه، ولكن لم يرد شيء عن وجود مصايد أسماك في الضيعة المذكورة، ويبدو أن جايزلر هذا قدم

معلومات معينة، ولكن لا يمكن الثقة به، وعلي الآن أن أعيد دراسة الموضوع كله مرة أخرى من بعده، وسيتحتم علي أن أذهب إلى سيلانرا لأقوم بفحص دقيق وأقدر الثمن، كم تبلغ المسافة من هنا إلى هناك؟ إن المصلحة بالطبع تريد رسم حدود واضحة، نعم. سيكون علينا أن ندق الحديد على حسب الأصول»، فقال إسحق: «ليس دق الحديد من الأمور الهينة في هذا الوقت من السنة، ولن يتيسر ذلك إلا بعد مدة من فصل الصيف»، فأجابه: «إنه عمل لا بد منه على كل حال، فالمصلحة لا يسعها أن تنتظر طوال فصل الصيف كي تتلقى رداً، سآتي بمجرد تمكني من ذلك، ولا بد لي من التوجه في هذا السبيل على كل حال لأن ثمة قطعة أرض أخرى يستعلم عنها شخص ما»، فسأله إسحق: «أهو ذلك الذي سيشتري قطعة بيني وبين القرية؟» فأجابه: «لست متأكداً، وإن كان هذا محتملاً جداً، ولكنه في الواقع شخص من رجال المكتب هنا، هو مساعدي في العمل، وكان هنا في عهد جايزلر، وكان قد سأل جايزلر عنها كما فهمت، ولكن جايزلر أباها عليه وقال إنه لا يقدر على زراعة مائة ياردة من الأرض، فأرسل الرجل طلباً إلى المحافظ، فجاءتني تعليمات بإنجاز هذه المسألة، وهو ارتباك آخر من ارتباكات جايزلر!».

وحضر العمدة هيردال وأحضر معه مساعد بريد، وابتلا بللاً شديداً وهما يجتازان المستنقعات، وازداد بللهما قبل أن يفرغا من نقل خطوط الحدود وسط الثلج الذائب والوحول فوق التلال وتحتها، لقد عمل العمدة بهمة في اليوم الأول، ولكنه لم يقدر على شيء في اليوم الثاني واكتفى بالوقوف ساكناً معظم الوقت، يشير بيده ويصيح مصدراً التعليمات، ولم يثر كلاماً حول احتمال وجود ركائز معدنية في «التلال المجاورة»، أو

حول التوت الصالح للتجارة.. وقال إنهما قد يلقيان نظرة على المستنقعات في طريق العودة.

لقد طلبت المصلحة بيانات عن مسائل كثيرة، فلديهم ولا شك جداول لكل صنوف الأشياء، والشيء الوحيد المعقول فيما يبدو هو سؤالهم عن الخشب، أجل ثمة شيء من الخشب الثقيل بالتأكيد، في نطاق أرض إسحق المقترحة، ولكنه غير كاف للاعتداد به في البيع، فهو لا يتجاوز القدر اللازم لصيانة المكان، وحتى لو كان الخشب وفيراً، فمن ذا الذي يحمله أميالاً طويلة إلى حيث يمكن بيعه، ما من أحد يقدر على هذا سوى إسحق الذي يتدحرج كالعجلة البطيئة داخل الغابة لينقل بضعة أعواد ثقيلة إلى القرية كي يعود منها بألواح وكتل لمبانيه.

ويبدو أن جايزلر الذي لا يسبر له غور قد أرسل تقريراً لا يسهل إظهار فساده، فها هو خلفه يعيد النظر في المسألة برمتها محاولاً العثور على أخطاء أو تقديرات تعوزها الدقة بصورة واضحة فتذهب جهوده عبثاً، ولوحظ عليه أنه كان يستشير مساعده في كل خطوة، ويعير قوله أذناً صاغية، ولم يكن هذا شأن جايزلر إطلاقاً، ثم إنه يبدو أن هذا المساعد نفسه قد غير رأيه وأصبح الآن مرشحاً لشراء أراضٍ من الأراضي العامة التي تملكها الدولة.

وسأله العمدة: «وماذا عن الثمن؟» فأجابه الخبير: «خمسون دالراً الحد الأقصى الذي يجوز لهم أن يطلبوه من أي مشترٍ».

وحرر العمدة هيردال تقريره بعبارات أنيقة، وكان جايزلر قد كتب: «سيكون على الرجل أن يؤدي أيضاً ضريبة الأراضي كل سنة، فلا يسعه أن يدفع في المكان كله أكثر من خمسين دالرا على عشرة أقساط سنوية.

وفي وسع الدولة أن تقبل ما عرضه أو تأخذ منه أرضه وثمرات عمله، فكتب هيردال، «وهو الآن يلتمس بكل تواضع وهو يقدم طلبه للمصلحة أن تسمح له بالاحتفاظ بهذه الأرض التي أجرى عليها، من غير حق التملك حتى هذه اللحظة، تحسينات كبيرة، ومقابل ثمن مقداره سبعون دالرا تدفع على أقساط سنوية على حسب ما يتراءى للمصلحة تجزئة المبلغ المذكور».

ووعد العمدة هيردال إسحق أن يبذل أقصى جهده قائلاً: «أرجو أن أوفق في تمكينك من ملكية الضيعة».

الفصل السادس

لا بد من التخلص من الثور الكبير. لقد كبر وصار حيواناً هائلاً يتكلف طعامه الشيء الكثير. وسيذهب به إسحق إلى القرية كي يأتي بدلاً منه بثور مناسب ابن عامه. وكانت هذه فكرة أنجر، ولا بد أنه كانت لدى أنجر أسبابها الخاصة لإبعاد إسحق عن المكان في هذا اليوم بالذات. فقد قالت له: «إن كنت ذاهباً على الإطلاق، فمن الخير أن تذهب اليوم، والثور في حالة بديعة وستجد له ثمناً طيباً في هذا الأوان من العام خذه إلى القرية وسيرسلونه ليباع من المدينة.. فأهل المدينة يدفعون أيما ثمن للحصول على ما يلزمهم من اللحم»، فقال إسحق: «أي» وقالت أنجر: «إذا لم يثر الحيوان المتاعب في الطريق».

وسكت إسحق ولم يجب، فقالت أنجر: «ولكنه تعوَّد الخروج والتجوال في هذا الأسبوع الأخير، فألف الأشياء من حوله».

ولزم إسحق الصمت، وتناول سكيناً كبيرة فعلقه في جراب بخاصرته واستاق الثور.

وكان الثور حيواناً جباراً لامع الشعر يروع الناظرين، يهز إليتيه حين يمشي، قصير القوائم بعض الشيء، فإذا جرى سَحَقَ النباتات النامية تحت الشجر بصدره، حتى لكأنه قاطرة. وعنقه هائل بصورة تكاد تصل إلى التشوه، ففي ذلك العنق قوة فيل.

وقالت أنجر: «ليته لا يثور عليك»، وفكر إسحق لحظة ثم قال: «إن سلك هذا السبيل ما علي إلا أن أذبحه في منتصف الطريق وأمضي إلى هناك بلحمه».

وجلست أنجر على عتبة الباب، كانت في أوجاع المخاض، وكان وجهها ملتهباً، وظلت قائمة على قدميها إلى أن انطلق إسحق، أما الآن وقد غاب هو والثور عن النظر، ففي وسعها أن ترخي العنان لتأوهاتها بلا خوف، وكان اليزيوس الصغير قد تعلم الكلام، فسألها: «ماما متوجعة؟» فأجابته: «نعم، متوجعة»، فجعل يقلدها، ضاغطاً بيديه على جنبيه ومتأوهاً، أما سيفرت الصغير فكان نائماً.

وأخذت أنجر اليزيوس إلى داخل البيت وأعطته أشياء يلعب بها على الأرض، ودخلت الفراش، لقد حان وقتها، ولكنها ظلت كاملة الوعي على طول المدى، وعينها على اليزيوس، تكثر من النظر إلى ساعة الحائط لترى الوقت، لم تطلق صرخة قط. ولم تكن تصدر عنها حركة، فقد كان الصراع كله داخل أحشائها: فثمة ثقل يتحرر وينساب منها، وفي نفس اللحظة تقريباً سمعت صرخة غريبة في الفراش، سمعت صوتاً صغيراً مباركاً، يا للشيء المسكين، الشيء الصغير المسكين... إنها الآن لا تستطيع أن تستريح، ورفعت نفسها ونظرت تحتها ماذا؟ لقد صار وجهها أغبراً خلواً من التعبير في لحظة، وخلواً من الفطنة، وسمع تأوه، تأوه غير طبيعي، مستحيل - وشهقت كالمختنقة.

وارتمت على الفراش، ومرت دقيقة، ولم تستطع أن تستريح، فهذه الصرخة الصغيرة من تحتها في الفراش أخذت تعلو، ورفعت نفسها مرة أخرى ونظرت - يا إلهي، هذا أفظع شيء! لا رحمة، لا أمل - وهي فتاة!

ولم يكن إسحق قد ابتعد أكثر من ميلين أو نحوهما، فلم تكد تنقضي ساعة واحدة على انطلاقه، وفي أقل من عشر دقائق كانت أنجر قد وضعت طفلتها وفتاتها...

وعاد إسحق في اليوم الثالث، يسحب وراءه، ثوراً حولياً نصف جائع، فلم يكد الحيوان يقدر على السير، فاقتضى وصوله إلى المزرعة عناء طويلاً، وسألته أنجر: «كيف سارت أحوالك؟» وكانت شخصياً مريضة تعسة.

وكانت أمور إسحق قد مضت على خير وجه، أجل إن الثور الكبير كان هائجاً في الميلين الأخيرين أو نحوهما. فاضطر لتقييده ثم ذهب ليأتي بنجدة من القرية، فلما عاد ألفاه قد تحلل من قيده وقضى وقتاً طويلاً في العثور عليه بيد أنه تدبر أموره على نحو ما وباعه بثمن طيب لتاجر في القرية يشتري المواشي للقصابين في المدينة، وقال إسحق: «وها هو ثور جديد، دعي الطفلين يأتيان لينظرا».

وأي إضافة إلى المقتنيات الحية تعتبر حدثاً عظيماً، ونظرت أنجر إلى الثور وتحسسته وسألته عن ثمنه، وسمح لسيفرت الصغير أن يجلس فوق ظهره وقالت أنجر: ولكني مع هذا سأفتقد الثور الكبير، كان شديد اللمعان رائعاً وأتمنى أن يحسنوا ذبحه.

وكان ذلك موسم الشغل الذي يكثر فيه العمل، فتركت الحيوانات طليقة. وفي العريشة الخاوية وضعت صناديق وخواب بها بطاطس تركت لتنمو. وبذر إسحق في هذه السنة قمحاً أكثر مما بذره في السنة السابقة، وبذل قصارى جهده لحسن إنباته، وصنع مصاطب للجزر واللفت وقامت أنجر بإلقاء بذورها، ومضى كل شيء كسابق عهده.

وجعلت أنجر تروح وتغدو فترة من الزمن وتحت ثيابها كيس من الدريس لتخفي كل تغير في هيئتها، وصارت تخرج منه بضعه بين حين وحين، وأخيراً نبذت الكيس بالكلية، وأخيراً لاحظ إسحق شيئاً ذات يوم وسألها: «بدهشة عجباً كيف هذا؟ ألم يحدث شيء؟ لقد ظننت...»، فقالت: «لا. ليس هذه المرة» فقال: «هوه لماذا؟ ما الذي جرى على غير ما يرام؟» فقالت: «أحسب الأمر كان مقدراً له أن يكون هكذا. كم تظن يا إسحق أنك ستستغرق من الوقت لنفرغ من فلاحة كل أرضنا هذه؟» فقال: «نعم. لكن... أتعنين أنك لا قيت محنتك... وأن الأمور لم تسر على ما ينبغي؟» فأجابته: «نعم. هكذا كان. نعم»، فقال: «ولكن أنت... ألم يحدث لك أذى بعدها من أي وجه»، فقالت: «لا». لقد خطر لي يا إسحق أننا ينبغي أن نقتني خنزيراً».

ولم يبادر إسحق لتغيير الموضوع في هذا الاتجاه، بل صمت قليلاً ثم قال أخيراً: «أي. خنزير. لقد فكرت في هذا شخصياً كل ربيع. وكنا أحوج إلى مزيد من البطاطس أولاً، ومزيد من الدشيش وشيء من القمح أيضاً، فليس لدينا ما يكفي لتغذية خنزير، وسنرى ما تتمخض عنه هذه السنة»، فقالت: «ولكن ما ألطف أن يكون لدينا خنزير» فقال: «إي».

ومرت الأيام، وجاء المطر، وبدت الحقول والمراعي في أحسن صورة، ستتمخض السنة عن خير، لا تخف! وتوالت الأحداث كبارها وصغارها تباعاً، طعام ونوم وعمل، وفي أيام الآحاد يجري غسل الوجوه وتمشيط الشعر، يقعد إسحق في قميص جديد أحمر من نسج أنجر وحياكتها، ثم وقع حدث بارز وسط الأحداث العادية، فقد حشرت نعجة كانت تتجول مع حملها الصغير في فلق بين الصخور، فعادت الأخريات في المساء من

دونهـا، وفطنت أنجـر على الفـور إلى غـيـاب الاثنين، وانـطلق إسـحق ينشدهما، وكان أول ما خطر له هو الشكر على أن اليوم هو الأحد، وبذا لم ينتزع نفسه لهذا البحث من عمله، وفي هذا من ضياع الوقت ما فيه ومضى هائماً، فالأرض التي سينقب فيها مترامية. وفي هذه الأثناء كان القلق يسود البيت، فالأم تسكت الطفلين بكلمات مقتضبة، فثمة رأسان من الغنم غائبان فيجب أن يلزما الهدوء، وتشارك الجميع في الإحساس فما حدث أمر يعني الجماعة الصغيرة بأسرها فأدركت أن شيئاً غير مألوف يجري فأطلقت لسانها على طريقتها الخاصة، فأنجر جعلت تخرج ما بين لحظة وأخرى لتنادي بصوت مرتفع صوب الغابة؛ مع أن الليل كان يرخي سدوله، وإنه لحدث في البرية، كارثة عامة، والمرة بعد المرة تطلق صيحة نداء طويلة لإسحق ولكن لا جواب، فلا بد أنه بعد عن مرمى السمع.

أين الرأسان؟ ماذا عسى أن يكون قد وقع لهما؟ أفي الجوار دب أم هبطت الذئاب إلى التلال من السويد وفنلندا؟ لا هذا ولا ذاك كما اتضح في النهاية، فقد عثر إسحق على النعجة محشورة في صدع بين الصخر وقد كسرت إحدى قوائمها وتمزق ضرعها، ولا بد أنها لبثت هكذا فترة من الوقت، لأن المسكينة رغم جراحها -أكلت العشب حتى جذوره حتى آخر مدى استطاعت الوصول إليه. ورفع إسحق الشاة وأطلق سراحها، وإذا بها تنكب على الرعي فوراً. وهجم الحمل على أمه وراح يرضعها، فكان إفراغ الضرع الجريح مصدر راحة لها.

وجمع إسحق صخوراً ملأ بها الصدع الخطر، إن ذلك المكان الشرير لن يكسر أفخاذ الغنم بعد الآن، وكان إسحق يرتدي حمالة من الجلد

فخلعها ووضعها حول وسط الشاة ليسند ضرعها، ثم حملها على كتفيه ومضى إلى البيت، والحمل في أعقابه.

وبعد ذلك استعان بجبيرة وضمادات من القطران، وبعد بضعة أيام بدأت المريضة تحرك حافر القائمة المصابة حركة تدل على أن الكسر يؤلمها لأنه أخذ في الالتحام، ها كل شيء يعود على ما يرام، إلى أن يحدث شيء ما في المرة التالية.

وتتعاقب الدورة اليومية بما فيها من أمور صغيرة كلها هامة لدى المتوطنين، فهي ليست أموراً تافهة بعد كل شيء، بل هي من أمور القدر، التي تعمل على إسعادهم ورفاهتهم ورغدهم، أو تعمل على مناوأتهم.

وفي وقت التراخي بين المواسم قام إسحق بتشذيب بضعة من جذوع الأشجار التي كان قد أسقطها تمهيداً ولا شك لاستخدامها في غرض من الأغراض، واستخرج أيضاً عدداً من الحجارة النافعة نقلها إلى البيت، ومتى تجمع لديه ما يكفي من الحجارة شيد جداراً، ولو حدث هذا منذ عام أو نحو ذلك لأبدت أنجر فضولاً، وتساءلت ما الذي يرمي إليه الرجل من هذا كله، أما الآن فهي تبدو معظم الأيام مشغولة بعملها الخاص، لا تتوجه بأسئلة، وكانت أنجر مشغولة كالعهد بها دائماً، بيد أنها تعلقت بالغناء، وهو شيء جديد، وجعلت تعلم اليزيوس صلاة مسائية، وهذا أيضاً شيء جديد، وافتقد إسحق أسئلتها، فقد كان فضولها وثناؤها على كل ما يصنع مصدر شعور بالرضى وبأنه رجل لا نظير له، أما الآن فهي تمر به فلا تقول شيئاً، أو تقول على الأكثر في كلمة أو نحوها إنه يوشك أن يقتل نفسه بالإفراط في العمل، وقال إسحق في سريرته: «لقد اضطرب أمرها بعد المرة الأخيرة رغم كل ما تقول».

حضرت أولين لزيارتهما مرة أخرى، ولو كانت الأمور كسابق عهدها لوجدت ترحيباً، أما الآن فالحال مختلف، فقد استقبلتها أنجر منذ البداية بشيء من المضاضة، ومهما يكن الأمر فثمة شيء يجعل أنجر تنظر إليها كما لو كانت عدواً لها.

وقالت أولين في تلميح لبق: «لقد خامرني الظن أن حضوري هذه المرة أيضاً سيكون في الوقت المناسب»، فسألتها أنجر: «ماذا تعنين؟» فقالت: «أعني في الوقت المناسب لتعميد الطفل الثالث، كيف حالك الآن؟» فقالت أنجر: «لا.... كان في وسعك أن توفري على نفسك العناء في هذا الخصوص»، فقالت أولين: «هوه». ثم طفقت تطري الطفلين وتقول إنهما صارا كبيرين بديعين، وإن الظواهر تدل على أن إسحق مهد أرضاً جديدة ويتأهب لمزيد من البناء. فلا نهاية لإقبال الأيام عليهما، فالمكان رائع، يعز مثيله، «ماذا عساه يبني هذه المرة؟» فقالت أنجر: «سليه، فأنا لست أدري»؛ فقالت أولين: «كلا، ليس هذا من شأني. لقد ألقيت نظرة فحسب لأرى كيف أحوالكما هنا، وقد سر قلبي وابتهج بما رأيت، أما عن «قرون الذهب» فلن أسألك عن حالها أو أحدثك عنها، فهي حبلى كما هو واضح لذي عينين».

وتبادلتا الأحاديث بروح الزمالة، وتخلت أنجر عن جفائها، ودقت الساعة المعلقة على الحائط دقاتها الصغيرة العذبة، فرفعت أولين بصرها إليها والدموع في عينيها، فهي لم تسمع في حياتها المتواضعة قط شيئاً كهذا، أشبه بموسيقى الأرغن في الكنيسة على حد قول أولين، وشعرت أنجر بغناها وسخا فؤادها صوب قريبتها الفقيرة وقالت: «تعالي إلى الحجرة الأخرى وانظري إلى نولي».

ولبثت أولين اليوم كله وتحدثت إلى إسحق وأثنت على كل ماصنع؛ «وقد سمعت أنك اشتريت الأرض كلها إلى أميال عديدة في كل اتجاه. ألم يكن في وسعك أن تحصل عليها إذن بلا مقابل. لا أحد فيما أرى يستطيع أن يأخذها منك».

وكان إسحق في المدة الأخيرة بحاجة إلى الثناء، وهو سعيد الآن فقد رد إليه شعوره برجولته، وقال إسحق: «إني اشتريتها من الحكومة»، فقالت: «من الحكومة، ولكن لا حق لهم في الكزازة عند عقد الصفقة معك يقيناً. وماذا تبني الآن؟» فقال: «لا أدري ليس شيئاً ذا بال على كل حال»، فقالت: «إي، أحوالك في تقدم، ها أنت تبني وتزدهر، وللبيت أبواب مطلية، وعلى الحائط ساعة. وإخالك تبني بيتاً جديداً فخماً». فقال إسحق: «ويحك وويح حديثك الأبله»، ولكنه سر بحديثها مع هذا، وقال لأنجر: «أليس في وسعك أن تصنعي صحفة صغيرة من حلوى القشدة والسكر والبيض واللبن لزائرتك؟» فقالت أنجر: «هذا ما لا أستطيع، لأني مخضت كل ما كان عندي من اللبن».

وقالت أولين في لهوجة: «ليس كلامي بلاهة وما أنا إلا امرأة ساذجة تسألك لتعرف. فإن لم يكن ما تبنيه بيتاً جديداً فخماً، فهو بيدر جديد كبير فيما أظن. ولم لا؟ ولديك كل هذه الحقول وأراضي المراعي البديعة الموفورة النماء أجل، وإنها لتفيض لبناً وعسلاً كما تقول التوراة». فسألها إسحق: «وكيف حال الأمور في منطقتكم؟ المحصولات وما إليها». فقالت: «على حالها حتى الآن. وعسى ألا يبتليها الرب بالنار هذه السنة أيضاً فيحترق كل شيء وليغفر لي الله كلمتي هذه. فكل شيء بيده وتحت سلطانه سبحانه. ولكن ليس في جهاتنا مكان يضارع مكانكما وهذا هو القول الحق».

وسألتها أنجر عن ذويها الآخرين: ولا سيما الخال سيفرت، فهو قطب الأسرة مالك مصايد غنية، حتى إنها لتكاد تكون أعجوبة أن يجد وسيلة لإنفاق ما لديه، وتتحدث المرأتان عن الخال سيفرت، وينزوي إسحق وأعماله عن النظر على نحو ما، فلا أحد يسأله بعد عن بنيانه، فإذا به يقول أخيراً: «حسن. إن كنت تريدين حقاً أن تعرفي، فالذي أحاول أن أقيمه بيدر وأرضية للدراس». فقالت أولين: «كما خطر لي بالضبط. هكذا يصنع من في رؤوسهم عقول رجيحة. فلديك حسن تدبر لقوادم الأمور وخواتيمها كما ينبغي. وما من وعاء ولا جرة في البيت إلا وقد فكرت في أمره. أقلت أرضية للدراس؟».

وإسحق طفل، ولذا صعد ثناء أولين إلى دماغه وأجابها في شيء من البلاهة بكلمات لطيفة: «أما بصدد بيتي الجديد، فلا بد أن تكون به أرضية للدراس بالضرورة. وهذه نيتي». فقالت أولين وهي تهز رأسها: «أرضية للدراس؟» فقال: «وما جدوى استنبات القمح هنا إن لم يكن لدينا موضع للدراس؟» فقالت: «نعم. الأمر كما قلت لك: فما من شيء إلا وقد رتبته كله في رأسك».

وانحرف مزاج أنجر مرة أخرى فجأة، فالكلام بين هذين الاثنين ساءها على نحو ما، فقطعته قائلة: «حلوى قشدة وسكر وبيض حقاً! ومن أين نأتي بالقشدة؟ ألعلنا نصيدها من النهر؟».

وبادرت أولين لإقرار السلام: «أنجر. باركك الرب يا طفلتي. لا تتكلمي في هذا الموضوع. لا كلمة عن القشدة أو الحلوى. فما أنا إلا عجوز تتسكع من بيت إلى بيت يجاوره...!».

ولبث إسحق جالساً هنيهة، ثم نهض فجأة قائلاً: «ها أنذا لا أصنع شيئاً ونحن في منتصف النهار. ولا بد لي من العثور على الحجارة لبناء

جداري وحمله إلى هنا!» فقالت أولين: «أجل. إن جداراً كهذا يحتاج إلى مقدار كبير من الحجارة ولا ريب». فقال إسحق: «من الحجارة؟ لكأني لن أجمع ما يكفي منها مهما صنعت».

ولما خرج إسحق تسامرت المرأتان معاً فترة امتدت ساعات في أحاديث من هنا وهناك. وفي المساء كان لا بد لأولين أن تخرج لترى مقتنياتهم الحية وكيف نمت، من أبقار، وثور، وعجلين، وحشد من الأغنام والماعز، ثم قالت أولين وعيناها مرفوعتان صوب السماء: «لا أدري إلامَ سيفضي هذا كله».

وقضت أولين الليل.

وفي الصباح التالي رحلت كما جاءت، ومرة أخرى كانت تحمل معها شيئاً ملفوفاً. وكان إسحق يعمل في المحجر. فدارت من طريق آخر حتى لا يراها وبعد ساعتين عادت أولين ثانية وخطت داخل الدار وسألت على الفور: أين إسحق؟».

وكانت أنجر مشغولة بالغسيل، وكان المفروض أن تمر أولين بالمحجر حيث يعمل إسحق ومعه الطفلان. وحدست أنجر أن شيئاً ما ليس على ما يرام فسألتها: «إسحق؟ وماذا تريدين منه؟» فقالت: «أريد منه؟ لا شيء. كل ما هناك أني لم أره لأسلم عليه مودعة».

وساد الصمت. وجلست أولين على مقعد غير مدعوة للجلوس، ألقت بنفسها فوقه كأنما رجلاها ترفضان حملها، وهي بهذا الأسلوب تريد أن تبين أن شيئاً جدياً قد حدث، فغلبها على أمرها. ولم تعد أنجر قادرة على السيطرة على نفسها، ففاض وجهها بالفزع والغضب الجائح وهي تقول: «لقد رأيت ما أرسلته إلي مع أوس أندرس. ما كان ألطفه من

شيء ترسلينه إلي» فقالت أولين: «لماذا؟. لماذا؟...» فقالت أنجر: «ذلك الأرنب الجبلي». فسألتها أولين بصوت عذب عذوبة غريبة: «ماذا تعنين؟» فصاحت أنجر وقد بدت في عينيها الضراوة: «آه. لا تنكري! سأحطم وجهك بهذه المغرفة.. انظري».

هل ضربتها؟ أجل. لقد ضربتها. وتلقت أولين الضربة الأولى ولم تسقط بل صاحت فحسب: «تدبري ما أنت صانعة يا امرأة! فأنا أعرف ما أعرف عنك وعن أفاعيلك!» فضربتها أنجر مرة أخرى، فوقعت أولين على الأرض وسقطت أنجر فوقها وغرست ركبتيها في جسدها. وسألتها أولين: «أتنوين قتلي؟» وكانت المرأة المشقوقة الشفة العليا راكعة فوقها، وهي مخلوق ضخم قوي مسلح بمغرفة خشبية هائلة ثقيلة كالهراوة. وكانت أولين قد أصيبت فعلاً برضوض وسال دمها، إلا أنها ظلت مصرة بعناد على ألا تصرخ. «إذن فأنت تهمين بقتلي أنا أيضاً».

وقالت أنجر وهي تضربها مرة أخرى: «أجل سأقتلك! خذي! لا بد أن أراك جثة هامدة قبل أن أكف عنك». إنها الآن موقنة من أن أولين تعرف سرها، فلم يعد يعنيها شيء. «سأشوه وجهك البهيمي». فلهثت أولين قائلة: «وجهي البهيمي؟ هه! انظري إلى وجهكِ أنت. وعليه وصمة من صنع الله!».

إن أولين صلبة ولن تقر بالهزيمة.واضطرت أنجر أن تكف عن اللطمات التي أرهقت قواها، بيد أنها لم تزل تهدد وتحملق في عيني الأخرى وتقسم لها إنها لن تفرغ من أمرها بعد: «سأزيدك نكالاً. سأزيدك وأزيدك. انتظري إلى أن أحضر سكيناً. سأريك!».

ونهضت قائمة وتحركت كأنما تبحث عن سكين من سكاكين المائدة.

ولكن غضبها الجائع كان قد تجاوز الآن أسوأ مراحله، فارتدت إلى اللعنات والسباب. ورفعت أولين نفسها فجلست على مقعد مرة أخرى، وقد صار وجهها كله أزرق وأصفر، ومتورماً دامياً، ومسحت شعرها فوق جبهتها وسوت منديل رأسها وبصقت، فقد كان فمها أيضاً متورماً مجروحاً، وقالت: «أيتها الشيطانة!».

وصاحت أنجر: «لقد كنت تنقبين بفضول في الغابة. هذا ما كنت تفعلين، فوجدت ذلك القبر الصغير هناك، فليتك حفرت في تلك اللحظة قبراً لنفسك». فقالت أولين وعيناها تتوجهان بالرغبة في الانتقام: «انتظري. لن أزيد في القول. ولكن انتظري. لن تكون ثمة دار مليحة ذات حجرتين لك، بساعات موسيقية وما إلى ذلك». فأجابتها: «لن تستطيعي أخذها مني على كل حال!»... «آه انتظري وسترين ما تستطيع أولين أن تصنعه».

ولبثتا على هذا المنوال. أولين لا تسب، ولا تكاد ترفع صوتها. بل كان في قسوتها الباردة شيء أشبه بالعذوبة، إلا أنها عذوبة خطرة خطراً مريراً: «أين هذه اللفافة؟ لقد تركتها في الغابة ولكنك ستستردينها. فلست أريد شيئاً من صوفك». فقالت: «هوه. لعلك تحسبينني سرقته». فأجابتها: «آه أنت تعلمين خيراً مني ماذا صنعت؟».

وعاد الأخذ والرد في صدد الصوف، وأنجر تعرض عليها أن تريها رأس الغنم الذي جزته منه. وتسألها أولين بهدوء ونعومة: «إي. ولكن من يدري من أين حصلت على أول رأس بدأت بها؟».

وتذكر لها أنجر المكان والأشخاص الذين أودعتهم أول رأس لها يرعى مع حملانها وقالت لها متوعدة: «وعليك أن تتدبري وتدققي في

كل ما تقولين، أغلقي فمك وإلا ندمت». وضحكت أولين بنعومة قائلة: «ها ها ها! فمتى؟ هه وماذا عن فمك أنت يا عزيزتي؟» وأشارت إلى شفة أنجر المشقوقة كشفة الأرنب، ووصفتها بأنها منظر مفزع أمام الله والناس. وأجابتها أنجر بغضب جائح، ولما كانت أولين بدينة فقد نعتتها بأنها كتلة من الشحم: «كتلة أنت من شحم الكلاب. لقد أرسلت إلي أرنباً جبلياً. وسأؤدي إليك ثمن هذا الصنيع». فقالت أولين: «الأرنب الجبلي. كيف كان شكله؟»... فأجابتها: «كيف شكله؟ وكيف شكل أرنب جبلي؟».. فقالت: «كشكلك طبق الأصل!» فصرخت أنجر: «اخرجي! اخرجي خارجاً! كنت أنت التي أرسلت هذا الأرنب الجبلي مع أوس أندرس. لا بد لي من عقابك. سأزج بك في السجن جزاء هذا...» فقالت أولين: «السجن؟ أقلت السجن؟» فقالت أنجر مرة أخرى: «إنك تتميزين غيرة وحسداً من كل ما ترين. وتكرهينني بسبب كل الطيبات التي أنعم بها. لقد قضيت الليل بطولة مسهدة من فرط الحسد لأنني فزت بإسحق وبكل ما هو موجود ها هنا. يا للسماء يا امرأة. ماذا عساي صنعت لك؟ أهي جريرتي أن أولادك لم يحظوا بإقبال من دنياهم وساء حالهم أجمعين؟ إنك لا تطيقين النظر إلى ولديَّ لأنهما مزدهران قويان، واسماهما خير من أسماء أولادك. أهي جريرتي أنهما أجمل لحماً ودماً من أولادك في أي من مراحل عمرهم؟».

ولئن كان شيء قادراً على إثارة غضب أولين الجائح فهو هذا الكلام. فقد وضعت أطفالاً كثيرين، وأولادها هم كل ما لها في الدنيا أياً كانت أحوالهم. كانت تطريهم وتفاخر بهم وتشدق بأفعال مجيدة لم يأتوها حقاً قط، وتخفي نقائصهم. وأجابت أولين: «ما هذا الذي تقولين؟

ليتك تغوصين في قبرك خزياً! أولادي! لقد كانوا سرباً بديعاً من الملائكة بالقياس إلى ولديك. أتجسرين على الكلام عن أولادي؟ لقد كانوا منذ مولدهم سبع هبات إلهية، وقد كبروا الآن كلهم، أنت تجسرين على الكلام...» فسألتها أنجر: «وماذا عن ليز التي سيقت إلى السجن؟» فأجابتها أولين: «لا لشيء. كانت كالزهرة. وهي الآن في برجن، تعيش في المدينة وتلبس قبعة. فماذا عنك أنت؟» فقالت أنجر: «وماذا عن بيلز؟ ماذا يقال عنه؟» فأجابت أولين: «أوه. أنا لن أنحط إلى... ولكن ثمة ولداً لك يثوي الآن دفيناً في الغابة. ماذا صنعت به. هه؟ فصرخت أنجر مرة أخرى: «الآن..! واحد. اثنين. ثلاثة. خروجاً تخرجين!» وهجمت على أولين، ولكن أولين لم تتحرك، بل ولم تنهض قائمة على قدميها، فشلَّ عدم اكتراثها الراسخ أنجر وتراجعت تغمغم. «انتظري حتى أحضر السكين!» فقالت أولين: «لا تتعبي نفسك. إني ذاهبة. أما أنت يا من تطردين ذوي قرابتك من بابك واحد. اثنين. ثلاثة.. كلا لن أقول أكثر من هذا». فقالت أنجر: «اخرجي من هنا. هذا كل ما أريده منك!».

ولكن أولين لم تخرج. وتقاذفت المرأتان مرة أخرى بالكلمات الجارحة والشتائم ردحاً طويلاً، وعندما دقت الساعة نصفاً ضحكت أولين هازئة فازدادت ضراوة أنجر. وأخيراً هدأت المرأتان قليلاً، وتأهبت أولين للانصراف قائلة: «أمامي طريق طويلة أقطعها، وقد تأخرت في الرحيل وليس بضائري أن أحمل معي لقمة آكلها في الطريق..».

ولم تجبها أنجر، فقد ارتدت إلى صوابها الآن، وصبت ماء في وعاء لتغتسل منه أولين قائلة: «هاك. إن كنت تريدين إصلاح شأنك»، واستصوبت أولين أن تصلح من منظرها قدر الإمكان، إلا أنها لم تستطع

أن تعرف مواضع الدم، فجعلت تغسل المواضع التي ليس بها شيء. وظلت أنجر ترقبها برهة، ثم أشارت لها بإصبعها. «هنا... واغسلي هنا أيضاً.. وفوق عينك. لا. ليست هذه العين، بل الأخرى. ألا ترين أين أشير لك؟» فأجابتها أولين: «وكيف أستطيع أن أعرف إلى أيهما تشيرين؟» فقالت: «وهناك دم قرب فمك. أخائفة أنت من الماء؟ إنه لن يعضك!».

وأخيراً غسلت أنجر الجريحة بنفسها وألقت إليها بمنشفة. وقالت أولين وهي تجفف نفسها وقد ثابت للمسالمة الآن: «لقد كنت أريد أن أكلمك بخصوص إسحق والولدين. كيف سيتغلبان على هذه الصدمة؟» فسألتها أنجر: «وهل عرف؟». «وماذا كان عساه قائلاً؟ لزم الصمت. مثلي».

وساد الصمت. وأعولت أنجر وشرعت في البكاء.. «الذنب كله ذنبك أنت»، فسألتها: «ذنبي أنا؟ ليت لي ما هو أكبر من هذا الذنب يسألني الله عنه!» فقالت: «سأسأل أوس أندرس على كل حال. ثقي بهذا». فأجابتها: «أجل! سليه».

وعادا للخوض في الموضوع كرة أخرى، وبدت أولين أقل جنوحاً للانتقام الآن. وأولين سياسية قديرة تبادر إلى إيجاد الذرائع، فهي تتحدث الآن وكأنها تشاركها المشاعر - كم سيكون الأمر فظيع الوقع على إسحق والولدين عندما يفتضح الأمر!».

وقالت أنجر وهي تبكي من جديد: «أجل لقد فكرت وعاودت التفكير في ذلك ليل نهار». ورأت أولين أنه قد يكون بوسعها أن تساعدهم وتنقذهم في وقت الشدة، فتأتي وتمكث هنا وترعى كل شيء حينما تكون أنجر في السجن.

وكفت أنجر عن البكاء. كفت فجأة كأنما لتصغي وتفكر. ثم قالت: «لا. أنت لا تهتمين بالولدين».. فأجابتها: «لا أهتم بالولدين؟ أنا؟ كيف تقولين شيئاً كهذا؟» فقالت: «إي. أنا أعرف». فأجابتها: «لئن كان شيء واحد في الدنيا يعنيني ويثير اهتمامي، فهو الأطفال». فقالت أنجر: «إي. أطفالك أنت. ولكن كيف يكون حالك مع ولديَّ؟ وحينما أفكر كيف أرسلت لي ذلك الأرنب الجبلي لا لشيء إلا لتدمريني تمام التدمير. أوه. إن أنت إلا كومة من الشر!» فقالت أولين: «أنا؟ أتعنينني أنا بهذا؟» فقالت أنجر باكية: «نعم أعنيك أنت. فقد كنت حقيرة شريرة، ولن أثق بك وسوف تسرقين الصوف كله أيضاً إن أنت أتيت. والجبن كله سيذهب إلى قومك بدلاً من قومي..» فأجابتها أولين: «أوه. يا لك من مخلوقة شريرة إذ تفكرين في شيء كهذا!».

وجعلت أنجر تبكي، وتمسح عينيها، وتقول كلمة فيما بين البكاء وتجفيف الدمع. ولم تحاول أولين الضغط عليها، فإن كانت أنجر لا تعنيها هذه الفكرة فالأمر سيان. وفي وسعها أن تذهب وتقيم لدى ابنها نيلز كما كانت تفعل دائماً. ولكن ذهاب أنجر إلى السجن سيجعل الأمر عسيراً على إسحق والولدين البريئين. وفي وسع أولين أن تبقى وترعى الأمور. وقالت أولين: «وفي مقدورك أن تعيدي النظر في الموضوع».

وخسرت أنجر الموقعة، وجعلت تبكي وتهز رأسها وتطرق مغضية بطرفها، وخرجت كمن تسير في نومها. وصنعت لفة من الطعام كي تأخذها أولين معها، وقالت أولين: «المسألة لا تستحق كل هذا التعب من جانبك» فقالت أنجر: «ليس في وسعك أن تسيري كل هذه المسافة من غير أن تتبلغي بلقمة».

ولما انصرفت أولين، خرجت أنجر متسللة ونظرت حولها ، وأصغت. لا . لا صوت من المحجر. واقتربت فسمعت أصوات الولدين يلعبان بالحجارة الصغيرة وكان إسحق جالساً ممسكاً بالعتلة بين ركبتيه ومتكئاً عليها كالعكاز. وها هو جالس هناك.

وتسللت أنجر إلى حافة الغابة. وكان ثمة بقعة من الأرض ثبتت فوقها صليباً. وها هو الصليب ملقى الآن، وقد رفع الطين المعشب عن موضعه وقلبت الأرض. وانحنت وسوت الأرض مرة أخرى بيديها. وجلست هناك.

لقد خرجت مدفوعة بالفضول لترى إلى أي حد عبثت أولين بالقبر الصغير. وجلست هناك الآن لأن الماشية لم تعد بعد إلى البيت لقضاء الليل. جلست هناك تبكي، وتهز رأسها ، مغضية إلى الأرض مطرقة...

الفصل السابع

وتمر الأيام.

وكان الوقت ميموناً على التربة بما أغدق عليها من الشمس وهميان المطر فبدت المحصولات يانعة. وأوشك جمع الدريس على الانتهاء، وفرغوا من إدخال مقدار كبير منه، يكاد يزيد على ما يتسع له المكان فرتب بعضه في حمى أحجار عالية مشرفة وفي الحظيرة وتحت أرضية البيت نفسه، وأخليت السقيفة الجانبية من كل شيء لتتسع لمزيد من الدريس. وأنجر نفسها صارت تعمل من البكور إلى ساعة متأخرة فكانت عوناً صادقاً وسنداً، واستغل إسحق كل نزول للمطر في القيام بنوبة عمل في تسقيف البيدر الجديد والانتهاء أخيراً من الجدار الجنوبي. ومتى تم إعداده صار في وسعهما أن يضعا فيه الدريس قدر ما يشاءان. العمل يمضي قدماً. وسيفلحان في تدبير الأمر، لا تخف.

ونكبتهما وحزنهما الأكبر – إي. إنها هناك فقد وقعت الواقعة، ولا بد للمقسوم أن يكون، والأشياء الطيبة يغلب ألا تترك أثراً، أما الشر فلا بد أن يتمخض عن شيء. وقد أخذ إسحق الأمر مأخذ التعقل منذ البداية فلم يتفوه بألفاظ ضخمة، بل سأل زوجته ببساطة: «كيف فعلت هذا؟» ولم تجبه أنجر عن هذا السؤال. وبعد هنيهة قال أيضاً: «خنقتها؟

هذا ما صنعته بها؟». فقالت أنجر: «نعم». فقال: «ما كان ينبغي لك أن تفعلي هذا». فوافقته قائلة: «لا». فقال: «ولا أستطيع أن أتصور كيف طاوعك قلبك على هذا». فقالت أنجر: «كانت مثلي تماماً» فسألها: «ماذا تعنين؟». فأجابته: «فمها».

وفكر إسحق في هذا لحظة ثم قال: «إي... حسن».

ولم يتحدثا في هذا الموضوع أكثر من ذلك في حينه، ومضت الأيام في سلام كالعادة، وكان أمامهما كل كمية الدريس التي يجب إدخالها، وكان المحصول في مجموعه نادر الغزارة، حتى إن الموضوع تسلل تدريجياً إلى مؤخرة رأسيهما، بيد أنه ظل ملقياً ظله عليهما وعلى المكان كله كما كان. ولم يسعهما أن يأملا في كتمان أولين للسر، فذلك كان إفراطاً مسرفاً؛ وحتى لو لم تقل أولين شيئاً فسواها حريٌّ أن يتكلم، وسيجد الشهود الخرس لساناً، حتى جدران البيت والأشجار المحيطة بالقبر الصغير في الغابة وأوس أندرس اللاب سينثر التلميحات. وأنجر نفسها فد تفشي السر نائمة أم قائمة. فهما مستعدان لأسوأ النتائج.

وأخذ إسحق الموضوع مأخذ التعقل. وماذا كان أمامه أن يصنع غير هذا؟ وأدرك الآن لماذا كانت أنجر حريصة على الدوام على أن تغدو بمفردها عند كل ولادة، كي تكون بمفردها مع مخاوفها بصدد ما عسى أن يكونه الطفل وكي تواجه الخطر وليس معها أحد. لقد كررت ذلك ثلاث مرات. وهز إسحق رأسه وقد تأثر شفقة على جدها العاثر- يا للمسكينة أنجر، وعلم بقدوم اللاب وبالأرنب الجبلي وحكم ببراءتها، وأدى ذلك إلى حب عظيم بينهما، حب ضارٍ. فقد زاد تقاربهما تحت وطأة الخطر. وفاضت أنجر بعذوبة يائسة صوبه، وأحس الرجل الضخم الثقيل الجسم

حمال الأثقال الوئيد طبعاً ورغبة فيها لا حد لهما في نفسه. ولم تكن أنجر رغم لبسها نعلاً من الأدم كاللاب امرأة صغيرة الجسم ذاوية كنساء اللاب، بل هي كبيرة فخمة. وكان الوقت صيفاً فكانت تخرج حافية القدمين عارية الساقين إلى الركبتين تقريباً. فلم يطق إسحق أن يبعد عينيه عن هذين الساقين العاريتين.

وظلت تتجول طوال الصيف وهي تغني أطرافاً من الأهازيج وعلمت «اليزيوس» أن يتلو صلواته، إلا أن كراهية غير مسيحية نمت لديها نحو جميع اللاب، وكانت تعرب عن ذلك بوضوح تام لكل من يمر بها منهم؛ فلعل أحداً قد أرسلهم مرة أخرى وربما كانت في حقائبهم أرانب جبلية كذي قبل فليمضوا في طريقهم إذاً ولينته الأمر عند هذا الحد.

«أرنب جبلي؟ أي أرنب جبلي؟».

«هوه. ألعلك لم تسمع بما فعله أوس أندرس تلك المرة؟».

«لا».

«حسن لست أبالي من الذي يعرف. لقد حضر إلى هنا ومعه أرنب جبلي عندما كنت حبلى؟».

«هذا عمل فظيع منه! وماذا حدث؟».

«لا شأن لك بما حدث اذهب في حال سبيلك وهاك شيئاً من الطعام واذهب عنا».

«ألا أجد عندك فضلة من الجلد أخصف بها نعلي؟».

«كلا ولكني سأعطيك علقة بالعصا إن لم تخرج».

واللاب يتضرع إليك بمنتهى الضعة، ولكن متى قلت له «لا» انقلب شر منقلب وأخذ يتوعد. وقد مر اثنان من اللاب ومعهما طفلان وأرسلا

الطفلين إلى البيت للاستجداء، فعادا وقالا إنهما لم يريا هناك أحداً، ووقف الأربعة يتحدثون برهة بلسانهم الخاص، ثم ذهب الرجل ليرى ودخل البيت ولبث هناك. وعندئذ ذهبت زوجته ومن ورائها الطفلان ووقف أربعتهم داخل الباب يتكلمون بلغة اللاب، ومد الرجل رأسه واسترق النظر إلى داخل الحجرة فلم يجد فيها أحداً كذلك. ودقة الساعة أوقفت الأسرة كلها تصغي وتتعجب.

ولا بد أن أنجر خطر لها وجود غرباء فقد نزلت جانب التل مسرعة وما إن رأت اللاب -وهم فضلاً عن هذا غرباء- حتى سألتهم على الفور ماذا يصنعون هناك: «ماذا تريدون بدخولكم هنا؟ ألم يكن في مقدوركم أن تروا أنه لا أحد في البيت؟» فقال الرجل: «هم..» ومرة أخرى قالت أنجر: «هيا اخرجوا وامضوا لحال سبيلكم». وخرج اللاب ببطء وعلى مضض. وقال الرجل: «كنا نصغي فقط لساعتكم فهي أعجوبة في السمع». وقالت زوجته: «أليست لديك كسرة خبز زائدة عن حاجتك؟» فسألت أنجر: «من أين أتيتم؟» وكان الجواب: «من الماء البعيد، وقد ظللنا سائرين طوال الليل». فسألتهم: «وإلى أين أنتم ذاهبون الآن؟» فقالوا: «عبر التلال».

وأعدت لهم أنجر شيئاً من الطعام. ولما خرجت به إليهم شرعت المرأة تستجدي مرة أخرى: «قطعة من القماش أو خصلة من الصوف أو قطعة من الجبن أو أي شيء». ولم يكن لدى أنجر وقت تضيعه فإسحق والولدان في حقل الدريس فقالت: «هيا انصرفوا الآن» وجربت المرأة المداهنة: «لقد رأينا مكانكم هذا ورأينا الماشية، حشد كبير منها كأنه النجوم في السماء» وقال الرجل: «شيء يثير العجب أليس لديك حذاء قديم تعطينه للفقراء؟».

فأغلقت أنجر باب البيت وعادت إلى عملها على جانب التل، وناداها الرجل من خلفها فتصنعت أنها لم تسمع واستمرت في سيرها غير مبالية وإذا بها تسمعه يقول بوضوح تام: «ألا تريدين أن تشتري شيئاً من الأرانب؟».

ولم يكن ثمة سبيل للخطأ فيما قال. وقد يكون اللاب نفسه قال ذلك ببراءة أو لعل أحداً أخبره بالمسألة أو لعله كان يعني السوء ومهما يكن من شيء فقد أخذت أنجر ذلك القول مأخذ النذير، على أنه طليعة ما يزمع أن يكون.

ومضت الأيام والمتوطنون قوم أصحاء وما أصابهم من شيء فهم ماضون في سبيل عملهم ينتظرون وقوعه. وهم يعيشون قريبين بعضهم من بعض كحيوانات الغابة ينامون ويأكلون. وكانت السنة قد أوغلت فاختبروا البطاطس الجديدة ووجدوها كبيرة كثيرة الشحم، وتلك الضربةُ التي لا بد أن تحل بهم لماذا تأخرت؟ إنهم الآن في أواخر أغسطس وعن قريب يأتي سبتمبر فهل ترى يُتركون لشأنهم مدة الشتاء؟

إنهم يعيشون في ترقب مستمر، ويدنون بعضهم من بعض كل ليلة في كهفهم شاكرين لنهارهم أنه مضى من غير حادث، وعلى هذا النحو انقضى الوقت إلى أن كان اليوم من أكتوبر أقبل فيه العمدة ومعه رجل وحقيبة وهكذا دخل القانون بابهم.

واستغرق التحقيق بعض الوقت. ودعيت أنجر وسئلت على انفراد فلم تنكر شيئاً. وفتح القبر في الغابة ونقلت محتوياته وأرسلت الجثة للفحص وكان الجثة الصغيرة ملفوفة في ثوب تعميد اليزيوس وعليها قلنسوة فيها حبات من الخرز.

وكأنما وجد إسحق لسانه مرة أخرى فقال: «لقد حاق بنا السوء الآن كأسوأ ما يكون. لقد قلت لك من قبل إنه ما كان ينبغي لك أن تصنعي هذا؟» فقالت أنجر: «لا» وسألها: «كيف فعلت هذا؟» ولم ترد أنجر، «كيف طاوعك قلبك...؟» فقالت: «كانت مثلي تماماً في منظرها فتناولت وجهها وأدرته إلى الجهة الأخرى». فهز إسحق رأسه ببطء واستطردت أنجر وقد شرعت في البكاء: «وعندئذ ماتت».

وصمت إسحق برهة ثم قال: «حسن حسن فات وقت البكاء على ما كان الآن» ونهنهت أنجر: «كان شعرها بنياً على مؤخرة رأسها».

ومرة أخرى وقف الحديث عند هذا الحد.

ومضى الوقت كسابق العهد. ولم تكن أنجر قد حُبست فالقانون كان رحيماً بها وكان سؤال العمدة «هيردال» لها كأنه يحدث أي إنسان وكان كل ما قاله: «إنه لمن المؤسف أن تحدث مثل هذه الأمور إطلاقاً». وسألته أنجر: «من الذي بلّغ ضدها؟» ولكن العمدة أجابها أن المبلغ لم يكن شخصاً معيناً. بل كثيرون لاكوا الموضوع فسمع به من مصادر متعددة: فهل قالت هي نفسها شيئاً عنه لبعض اللاب؟

وتذكرت أنجر أنها كانت قد حدثت بعض اللاب عن أوس أندرس وكيف جاءها معه بالأرنب الجبلي ذلك الصيف فأورث طفلتها التي لم تولد بعد شفة أرنب جبلي. فهل لم تكن أولين، هي التي أرسلت الأرنب الجبلي؟ ولم يكن العمدة يعرف شيئاً عن ذلك، وهو على كل حال لا يمكن أن يفكر في تسجيل هذه الخرافات الجاهلة في تقريره. فقالت أنجر: «ولكن أمي رأت أرنباً جبلياً قبل ولادتي مباشرة».

وكان البيدر قد تم فجاء مكاناً كبيراً عظيماً، على جانبيه مصاطب للدريس وفي وسطه أرضية للدارس، فأخليت الآن السقيفة والأماكن

الأخرى المؤقتة وأدخل الدريس إلى البيدر وحصد القمح وتم تجفيفه في أكداس ثم نقل بالعربة إلى الداخل وتولت أنجر أمر الجزر واللفت فصارت جميع محصولاتهم داخل البيدر. وكان كل شيء حرياً أن يمضي على ما يرام، فلديهم كل ما يحتاجون إليه وشرع إسحق في تمهيد أرض جديدة قبل قدوم الصقيع كي يوسع حقل القمح. فقد كان إسحق فلاح أرض، ولكن في نوفمبر قالت أنجر ذات يوم: «كانت حرية أن تبلغ اليوم ستة شهور من عمرها وأن تعرفنا جميعاً»، فقال إسحق: «لا خير الآن في هذا الكلام».

ولما أقبل الشتاء درس إسحق قمحه على أرض الدراس الجديدة. وكثيراً ما ساعدته أنجر بذراع لا تقل سرعة في العمل عن ذراعه. في حين كان الولدان يلعبان جانباً بين مصاطب الدريس. وكان الحب بديعاً سميناً، وفي وقت مبكر من العام الجديد كانت الطرق صالحة فشرع إسحق يحمل على العربة أحمال خشبه إلى القرية، فله فيها الآن زبائن منتظمون، والخشب الصيفي الجاف يجد ثمناً طيباً. وذات يوم اتفق هو وأنجر على وجوب أخذ العجل البديع من قرون الذهب كي يساق إلى السيدة جايزلر ومعه فضلاً عن هذا قرص من الجبن. وسرت السيدة وسألت عن الثمن، فقال إسحق: «لا شيء. لقد دفع العمدة الثمن سلفاً». فقالت السيدة جايزلر وقد تأثرت لهذا التفكير: «فلتباركه السماء. أفعل هذا حقاً؟» وأرسلت في مقابل هذا هدايا لإليزيوس وسيفرت: كعكاً وكتباً مصورة ولعباً. فلما رجع إسحق ورأت أنجر هذه الأشياء أشاحت بوجهها وبكت فسألها إسحق: «ما المسألة؟»، فأجابته أنجر: «لا شيء تذكرت فقط.. إنها كانت حرية أن تتم الآن عاماً وأن

ترى هذا كله»، فقال إسحق ليهون عليها: «نعم: ولكنك تعلمين كيف كان حالها. ثم إننا بعد كل شيء ربما خرجنا من هذا الموضوع بشيء أهون مما تظنين. وقد عرفت الآن أين جايزلر». فرفعت إليه بصرها وسألته: «ولكن كيف يمكن أن يساعدنا هذا؟»، فأجابها: «لا أدري...».

ثم حمل إسحق قمحه إلى الطاحون فطحنه وعاد بالدقيق. وعندئذ انقلب حطاباً مرة أخرى يقطع الخشب استعداداً للشتاء القادم. وكان يقضي عمره في هذا العمل وذاك على حسب الموسم، من الحقول إلى الغابة ثم يرتد إلى الحقول مرة أخرى. لقد ظل يعمل في هذا المكان ستة أعوام حتى الآن. وعملت أنجر خمسة، وكان كل شيء حرياً أن يكون على ما يرام لو أنه سمح لهما بالاستمرار بيد أن الأمر لم يكن كذلك. وكانت أنجر تعمل على نولها وتُعنى بالحيوانات، وكانت في كثير من الأحيان تتغنى بالأهازيج، إلا أنه كان غناء يبعث الأسى فكأنها ناقوس بلا لسان.

وما إن صلحت الطرق للسير حتى دعيت إلى القرية للتحقيق وكان على إسحق أن يبقى في المزرعة ولما ألفى نفسه وحده خطر بباله أن يعبر التلال إلى السويد للبحث عن جايزلر، فقد كان العمدة السابق رحيماً به وعساه يمد الآن يد العون إلى أهل سالترا، ولكن عندما عادت أنجر اتضح أنها استفسرت عن الأمور بنفسها وعرفت شيئاً عن مقدارالعقوبة التي ينتظر توقيعها بها. إنها إذا التزمنا النص الحرفي «عقوبة السجن المؤبد الفقرة١» ولكن... بعد كل شيء سيراعى أنها وقفت بنفسها في المحكمة واعترفت ببساطة والشاهدان من القرية نظرا إليها بإشفاق

والقاضي وجّه إليها أسئلته برفق، بيد أنها مع ذلك كله لم تكن كفؤاً للعقول القانونية المتوقدة. فالمحامون قوم عظماء حقاً. بالنسبة للبسطاء من الناس، ويستطيعون أن يستشهدوا بهذه الفقرة وذلك البند فما أكثر ما وعوه عن ظهر قلب وهم على أهبة الإدلاء به في أية لحظة، إنهم قوم عظماء حقاً، وبصرف النظر عن كل معلوماتهم فهم لا يخلون تمام الخلو من الفطنة وليسوا أحياناً مجردين من الرحمة، فلم يكن لدى أنجر ما تشكوه في صدد المحكمة. ولم تشر إلى الأرنب الجبلي. ولكن عندما أوضحت وهي دامعة العين أنها ما كانت لتبلغ بها القسوة أن تدع طفلتها المسكينة المشوهة تعيش، هز القاضي رأسه بهدوء وجدّ وقال: «ولكن فكري في أمرك أنت فلك شفة أرنب جبلي مشقوقة ولم تكن سبباً في فساد حياتك». وكان كل ما قالته: «لا والحمد لله».

فلم تستطع أن تخبرهم بكل ما عانته في الخفاء طفلة وفتاة.

بيد أن القاضي لا بد وقد فهم شيئاً مما يعنيه هذا، فهو شخصياً أصدف (مشوه القدم) ولا يستطيع أن يرقص وقال: «أما العقوبة فلا أكاد أعرف، إنها في الحقيقة ينبغي أن تكون السجن مدى الحياة ولكنني لا أستطيع أن أقرر ولعلنا نتمكن من الحصول على تخفيف للعقوبة في الدرجة الثانية أو الثالثة من خمس عشرة سنة إلى اثنتي عشرة سنة أو من اثنتي عشرة إلى تسع، فثمة لجنة منعقدة الآن لتعديل القانون الجنائي وجعله أكثر اتفاقاً مع الاعتبارات الإنسانية، ولكن قرارها الأخير لم يتم بعد. إلا أننا على كل حال ينبغي أن نأمل الخير».

وعادت أنجر في حالة استسلام راكد فهم لم يجدوا من الضروري إبقاءها في الحبس إلى أن يصدر القرار. ومر شهران وذات يوم وقد عاد

إسحق من صيد السمك فإذا العمدة ومساعده الجديد قد حضرا إلى سالنرا «وكانت أنجر جذلة رحبت بزوجها في رفق وأثنت على صيده وإن كان ما أتى به إلى البيت قليلاً.

وسألها: «كنت أريد أن أقول هل حضر إلى هنا أحد؟»، فقالت: «حضر أحد؟ ومن ذا عساه يحضر؟» فقال: «ثمة آثار أقدام جديدة في الخارج، آثار رجال ينتعلون أحذية» فأجابته: «لم يحضر أحد سوى العمدة ومعه آخر» فسألها: «وماذا كانا يريدان؟» فقالت: «أنت تعلم ماذا يريدان من غير سؤال». فسألها: «هل جاءا لأخذك؟» فقالت: «لأخذي؟ لا بل كان حضورهما فقط بصدد الحكم، لقد لطف بي الرب فلم يجيء الحكم بالغ السوء كما كنت أخشى». فقال إسحق بلهفة: «آه، لعله ليس طويل الأمد جداً؟» فقالت: «لا، بضع سنوات فقط» فسألها: «كم سنة؟» فقالت: «قد تراها شيئاً كثيراً ولكني أحمد الله على كل حال».

ولم تقل أنجر كم سنة سيطول سجنها، وسألها إسحق فيما بعد أثناء المساء، متى سيحضران للذهاب بها. فلم تستطع أن تخبره، أو لعلها لم تشأ أن تخبره، وعادت إلى التفكير وتحدثت عما سيحدث، ولم تستطع أن تتصور كيف يدبرون أمورهم، بيد أنها اقترحت أن يحملوا أولين على الحضور، ولم تكن لدى إسحق خطة أفضل من هذه.

وبهذه المناسبة ماذا جرى لأولين؟ إنها لم تظهر هذه السنة كعادتها، أتراها تريد أن تظل الآن بعيدة إلى الأبد بعد أن كدرت عليهم كل شيء؟ وانتهى موسم العمل ولكن أولين لم تحضر، أهي تتوقع أن يذهبوا لإحضارها؟ إنها لا تريد أن تأتي متسكعة من تلقاء نفسها ولا شك، تلك الكتلة من الشحم. تلك المتوحشة.

وأخيراً جاءت ذات يوم. وهي شخصية خارقة للمألوف. فكأن شيئاً لم يقع بحيث يكدر ما بينها وبينهم. بل إنها كانت تحيك جورباً جديداً لإلزيوس كما تقول. وقالت: «لقد جئت لأرى كيف حالكم هنا». ثم اتضح أنها أتت معها بثيابها وأشيائها في كيس تركته في مكان قريب في الغابة استعداداً للبقاء.

وفي ذلك المساء أخذت أنجر زوجها وانتحت به جانباً وقالت:

«ألم تقل شيئاً عن البحث عن جايزلر؟ إننا الآن في وقت فراغ من العمل» فقال إسحق: «نعم الآن وقد حضرت أولين، أستطيع أن أنطلق صباحاً في ساعة مبكرة». وشعرت أنجر بالفضل وشكرته وقالت: «وخذ نقودك معك. كل ما لديك منها هنا». فسألها: «ولماذا؟ أليس في وسعك أن تحتفظي بالنقود هنا؟» فقالت: «لا».

وعلى الفور أعدت أنجر لفافة كبيرة من الطعام، ونهض إسحق والليل لم يزل مخيماً، واستعد للرحيل. وخرجت أنجر على عتبة الباب لتراه وهو راحل وتودعه فلم تبك ولم تشك. بل قالت فحسب: «ربما أتوا ليأخذوني الآن في أي يوم»، فقال: «ألا تعلمين متى؟» فقالت: «لا، لا أستطيع أن أحدد ولكني لا أظن أن ذلك سيكون قريباً ولكن على كل حال... إن استطعت أن تعثر على جايزلر، فلعله يستطيع أن يقول شيئاً».

وماذا في وسع جايزلر أن يفعل الآن لمساعدتهما؟ لا شيء. ولكن إسحق انطلق.

وكانت أنجر تعلم ولا شك أكثر مما كانت مستعدة أن تصرح به. بل لعلها أيضاً هي التي أرسلت إلى أولين. ولما عاد إسحق من السويد

كانت أنجر قد ذهبت فوجد أولين هناك مع الولدين. وكانت هذه أنباء سوء تلك التي وجدها عند عودته. وكان صوت إسحق أعلى من المألوف وهو يسأل: «هل ذهبت؟» فقالت أولين: «إي». فسأل: «في أي يوم كان ذلك؟» فقالت: «في اليوم التالي لرحيلك». فأدرك إسحق الآن أن أنجر قد أبعدته عمداً. ولهذا السبب أقنعته بأخذ النقود معه. ولكن كان أحرى بها أن تبقي شيئاً قليلاً لنفسها لرحلتها الطويلة.

أما الطفلان فلم يكن في مقدورهما أن يفكرا في شيء سوى الخنزير الصغير الذي أحضره معه إسحق وهو كل ما جناه من عناء رحلته، فالعنوان الذي كان معه قديم وجايزلر غادر السويد عائداً إلى النرويج وهو الآن في ترونيم، أما الخنزير فقد حمله بين ذراعيه طول الطريق وغذاه باللبن من زجاجة ونام وهو على صدره بين التلال، فقد كان يتطلع إلى فرحة أنجر عندما تراه. أما الآن فاليزيوس وسيفرت يلعبان به وهو مصدر فرح لهما. وجعل إسحق يرقبهما فنسي همه مؤقتاً وفضلاً عن هذا كانت لدى «أولين» رسالة من العمدة فحواها أن الدولة أصدرت قرارها أخيراً في موضوع أرض سلنرا. وما على إسحق إلا النزول إلى المكتب ودفع المبلغ. وهذا نبأ طيب أجدى عليه في إنقاذه من التردي في أسوأ مهاوي اليأس. فعلى ما به من أعباء وتعب وضع شيئاً من الطعام في حقيبته وتوجه إلى القرية على الفور. ولعلّ شيئاً من الأمل كان يساوره أن يرى أنجر مرة أخرى قبل مغادرتها.

وخاب أمله، فأنجر كانت قد رحلت... إلى ثمانية أعوام، وشعر إسحق وكأنه في سحابة من الظلام والفراغ، فلم يسمع إلا كلمات متأثرة من كل ما قاله العمدة - من المؤسف أن تقع مثل هذه الأمور.. وهو

يأمل أن يكون ذلك درساً لها... وأن يصلح حالها وتصبح امرأة أفضل بعد ذلك، فلا تعود إلى قتل أطفالها.

وكان العمدة «هيردال» قد تزوج في العام السابق وليست لدى زوجته نية الإنجاب، لا أطفال له. شكراً لك ولم تنجب فعلاً. وقال العمدة: «والآن فيما يتعلق بموضوع سالنرا أجد نفسي أخيراً في وضع يسمح لي بتسويته نهائياً. فالمصلحة حسن لديها أن تتكرم بالموافقة على بيع الأرض على حسب الشروط المقترحة تقريباً. فقال إسحق: «هم» واستطرد العمدة: «لقد استغرق الموضوع وقتاً طويلاً، ولكن يسرني أن أعلم أن جهودي لم تذهب عبثاً بتمامها، فالشروط التي اقترحتها ووفق عليها بغير استثناء تقريباً». فقال إسحق: «بغير استثناء» وهز رأسه، فقال العمدة: «ها هي مستندات الملكية، وفي وسعك أن تسجل نقل الملكية في أول جلسة» فقال إسحق: «وكم ينبغي أن أدفع؟» فأجابه العمدة: «عشر دالرات في السنة فقد أجرت المصلحة تعديلاً يسيراً في هذا الصدد... عشر دالرات في السنة بدلاً من خمسة. وإخالك لا اعتراض لك على هذا؟» فقال إسحق: «ما دمت قادراً على الدفع..» فقال العمدة: «لمدة عشر سنين» فرفع إسحق بصره نصف مرتاع. وقال العمدة: «تلك هي الشروط التي تصر عليها المصلحة. وحتى على هذا الأساس فالمبلغ ليس ثمناً حقيقياً لكل هذه الأرض التي أخليت وزرعت كما هي الآن».

وكان مع إسحق عشر دالرات لهذه السنة، هي النقود التي حصل عليها ثمناً لأحمال خشبه ولأقراص الجبن التي جمعتها أنجر فدفع المبلغ وبقي معه شيء يسير. وقال العمدة: «من حسن طالعك أن المصلحة لم

يبلغ مسامعها شيء عن زوجتك. وإلا لباعت الأرض لشخص آخر». فقال إسحق: «إي». ثم سأل عن أنجر أصحيح أنها ذهبت لتمضي هناك ثمانية أعوام؟ فقال العمدة: «الأمر كذلك. ولا سبيل إلى تغييره. فالقانون يجب أن يأخذ مداه. والواقع أن العقوبة جاءت حقيقة بصورة خارقة للمألوف. وثمة شيء واحد ينبغي أن تفعله الآن. وهو أن تضع حدوداً واضحة بين أرضك وأرض الدولة في خط مستقيم مباشر على حسب العلامات التي عينتها في موضعها وسجلتها في دفتري في حينها، والأخشاب التي تزال من خط الحدود تصبح ملكاً لك وسآتي يوماً ما وألقي نظرة على ما صنعت».

ودلف إسحق يمشي بتثاقل عائداً إلى بيته.

الفصل الثامن

الزمن يطير؟ أجل. حين يشيخ الإنسان. ولم يكن إسحق عجوزاً فهو لم يفقد بعد بأسه والسنون بدت له طويلة. كان يعمل في أرضه. ويترك لحيته الحديدية تنمو على هواها.

وبين حين وحين كانت رتابة البرية تكسر حدتها بمنظر اللاب العابرين أو بشيء يحدث لأحد الحيوانات في المزرعة ثم يعود كل شيء كما كان من قبل، وذات مرة قدم عدد من الرجال فجأة ومكثوا في سالنرا وتناولوا بها شيئاً من الطعام وصحفة من البن وسألوا إسحق وأولين عن الطريق عبر التلال. وكانوا بسبيل وضع العلامات للخط التلغرافي كما قالوا. ذات مرة حضر جايزلر - بنفسه دون سواه جاء طلقاً على سجيته كالعهد به سائراً من القرية ومعه رجلان يحملان أدوات التعدين ومعولاً ورفشاً.

أوه يا لجايزلر. إنه لم يتغير، فهو على حاله كما كان دائماً. يلقي ويحيي مرحباً كأنما لم يحدث شيء. لقد تحدث إلى الأطفال، ودخل البيت وخرج منه وألقى نظره إلى الأرض وفتح أبواب سقيفة البقر وعلية الدريس وأطل داخلها وقال: «بديع يا إسحق أما زلت محتفظاً بتلك القطع من الحجارة؟» فقال إسحق متعجباً: «قطع من الحجارة» فقال: «الكتل الصغيرة الثقيلة من الحجارة التي رأيت الغلام يلعب بها عندما كنت هنا في مرة سابقة».

وكانت الحجارة في حجرة المؤن حيث تستخدم أثقالاً في كثير من مصائد الفئران فأحضرها إسحق. وفحصها جايزلر والرجلان وتحدثوا فيما بينهم ودقوا عليها هنا وهناك ووزنوها بأيديهم وقالوا: «نحاس» وسأله جايزلر: «أتستطيع أن تصعد معنا فترينا أين وجدتها؟».

وصعدوا جميعاً، ولم تكن المسافة بعيدة إلى الموضع الذي وجد فيه إسحق الحجارة بيد أنهم لبثوا بين التلال يومين يفتشون عن عروق معدنية، وأطلقوا متفجرات هنا وهناك، ونزلوا إلى سالنرا بحقيبتين مملوءتين بكتل الحجارة الثقيلة.

وفي هذه الأثناء كان إسحق قد تحدث إلى جايزلر وأخبره بكل شيء فيما يتعلق بموقفه، وعن شراء الأرض التي وصل ثمنها إلى مئة دالر لا خمسين، فقال جايزلر في يسر: «هذا شيء تافه فلديك -من الجائز- ألوف الدالرات على نصيبك من التلال» فقال إسحق: «هوه»، ورد جايزلر: «ولكن من الخير لك أن تفرغ من تسجيل مستندات الملكية رسمياً بأسرع ما تستطيع» فقال: «إي» واستطرد جايزلرك «وعندئذ لن تستطيع الدولة أن تثير المتاعب بشأنها فيما بعد أفهمت؟...» وفهم وقال: «ولكن الحال أسوأ بالنسبة لأنجر». فقال جايزلر: «إي» ثم ظل متفكراً برهة أطول من عادته إلى أن قال: «ربما أفلحنا في إعادة نظر القضية فيبسط كل شيء على حسب الأصول، ومن الجائز جداً أن نحصل على تخفيض للعقوبة بعض الشيء أو ربما استطعنا تقديم التماس العفو مما قد يؤدي إلى النتيجة نفسها في النهاية». فقال إسحق: «ولكن إن كان هذا مستطاعاً...» فقال جايزلر: «ولكن لا جدوى من محاولة الحصول على العفو فوراً.. بل يجب أن ننتظر قليلاً. وما كنت بسبيل

قوله... إنك ظللت تحمل أشياء إلى زوجتي لحماً وجبناً وأشياء أخرى - ماذا؟» فقال إسحق: «أما بخصوص هذا فالعمدة دفع ثمنه من قبل» فسأله: «وهل دفعت ثمنه حقاً؟» فأجاب: «وعاونتنا معاونة رحيمة من وجوه كثيرة» فقال جايزلر باقتضاب: «ليس هذا صحيحاً إطلاقاً هاك خذ هذه». وأخرج بضع أوراق من فئة الدالر.

وكان واضحاً أن جايزلر ليس الرجل الذي يأخذ شيئاً بلا مقابل.

وبدا عليه أنه يحمل قدراً كبيراً من المال معه دل على ذلك انتفاخ جيبه، والسماء وحدها تدري هل لديه مال حقاً أم لا.

وقال إسحق عائداً إلى فكرته الوحيدة: «ولكنها تكتب إلينا أن كل شيء حسن ويسير على ما يرام». فقال جايزلر: «ماذا؟.. أوه زوجتك» فقال إسحق: «إي، ومنذ وضعت الفتاة، فقد رزقت بطفلة ولدتها هناك، طفلة صغيرة بديعة». فقال جايزلر: «عظيم» واستطرد إسحق: إي وهم الآن جميعاً من أرفق ما يمكن بها، ويساعدونها في جميع الوجوه كما تقول» فقال جايزلر: «اسمع... أنا بسبيل إرسال هذه القطع من الحجارة إلى بعض الخبراء في التعدين لنكتشف ماذا بداخلها فإن وجدوا بها نسبة طيبة من النحاس صرت رجلاً غنياً» فقال إسحق: هم... وكم تظن أننا يجب أن ننتظر إلى أن نتقدم بطلب العفو» فقال جايزلر: «ربما لم يكن ذلك الوقت طويلاً جداً سأكتب لك الطلب فسأعود إلى هنا مرة أخرى بسرعة؛ ما هذا الذي قلت؟ زوجتك وضعت طفلة بعد رحيلها من هنا؟» فقال إسحق: «نعم» فقال جايزلر: «إذاً فهم قد أخذوها إلى السجن وهي في انتظار الوضع، هذا ليس من حقهم» فقال إسحق: «هوه» وقال جايزلر: «على كل حال هذا سبب إضافي لإطلاق سراحها

قبل نهاية المدة» فقال إسحق شاكراً: «إي فإن أمكن هذا....».

ولم يكن إسحق يدري شيئاً عن المخاطبات المطولة التي تبادلتها السلطات المختلفة بخصوص المرأة التي تنتظر مولوداً. وكانت السلطات المحلية تركت أنجر طليقة السراح أثناء نظر القضية لسببين: السبب الأول أنه ليس في القرية حبس يمكن وضعها فيه. والسبب الأخير أنهم كانوا راغبين في التساهل معها قدر الإمكان. وكانت النتيجة شيئاً لم يكونوا يتوقعونه، فعندما بعثوا في طلبها فيما بعد لم يسألها أحد عن حالتها وهي شخصياً لم تقل لهم شيئاً عنها، وقد تكون تكتمت الموضوع عامدة كي يكون معها طفل في سنوات سجنها. وإذا حسن سلوكها سمحوا لها برؤيته بلا شك بين حين وحين، أو لعلها كانت غير مكترثة فحسب. فمضت معهم بلا مبالاة رغم حالتها...

وظل إسحق يعمل ويفلح، يحفر الخنادق ويمهد أرضاً جديدة، وأقام خطوط حدوده بين أرضه وأرض الدولة، وربح رصيد موسم آخر من الخشب. ولكنه الآن- وأنجر غير موجودة لتتعجب من أفعاله- إنما يعمل مدفوعاً بالعادة أكثر مما هو مدفوع بالسرور بما يصنع، وترك دورتين تمران من غير أن يسجل مستندات ملكيته لقلة اكتراثه بها. وأخيراً استجمع همته في هذا الخريف وأنجز التسجيل. إن الأمور لم تعد كما ينبغي بالنسبة لإسحق الآن. إنه هادئ وصبور كالعادة - أجل، ولكن سبب ذلك الآن أنه لا يبالي أنه يسلخ الجلود لأنه لا بد من ذلك، جلود الماعز والعجول- ويغمسها في النهر، ويضعها بين قطع اللحاء، ويدبغها لتكون معدة لصنع الأحذية. وفي الشتاء بمجرد تمام أول دراس احتجز جانباً بذور قمحه للربيع القادم رغبة في الفراغ من المهمة، فمن الخير أن

ينجـز الإنسـان الأمـور ويفـرغ منهـا. فـهـو رجل منـهـجي، ولكـن حـيـاته أضحت عـابسـة موحشـة، ياه... يـا إلهي. لقد صـار كرّةً أخرى رجلاً بلا زوجة، وما إلى ذلك كله.

أي لذة الآن في الجلوس في البيت أيام الأحد مغتسلاً نظيفاً مرتدياً قميـصـاً أحمر نظيفاً وليس هناك أحد يسـتحق أن يكون نظيفاً أنيقاً لأجله. إن أيام الآحـاد الآن أطول الأيام. أيام يجـبـر فـيـهـا إجبـاراً على التبطل والأفكار المقيتـة، فليس لديه ما يعـمله سوى التـجوال في أرجاء المكان محصياً كل ما ينبغي عمله. وكان دائماً يأخذ الطفلين معه حاملاً على الدوام أحدهما على ذراعه. وكان يسليـه أن يسمع ثرثرتهما ويجيب على أسئلتهما حول كل شيء.

لقد أبقى أولين لأنه لم يسـتطع الحصـول على سواها. وكـانت أولين بعـد كل شيء ذات فـائدة من بعض الوجـوه فـهي تندف وتغـزل وتحـيك الجوارب والقفـازات الصوفـيـة وتصنع الجبن. إنهـا تسـتطيع أن تصنع هذا كله. ولكم كـانت تفتقر إلى اللمسة المجدودة التي كـانت تتمتع بها أنجر ولا تضع قلبها في عـملها. وما من شيء من كل ما تتناوله بيدها ملك يمينها، وكان ثمة شيء اشتراه ذات مرة من متجر القرية وعـاء من الخزف على غطائه رأس كلب. كـان في الواقع صندوق طبـاق وضعـه على الرف فـأخـذت أولين الغطاء وأسـقطتـه على الأرض. وكـانت أنجـر قـد خلفت وراءها عـقـلاً من نبات الفـوكسـيـا تحت غطاء من الزجاج، فنزعت أولين الزجـاج ولما أعـادته ضـغطتـه بشـدة وبسـوء نـيـة وفي اليـوم التـالي كـانت جميع العقل ميتـة. ولم يكن من اليسير على إسحق أن يتحمل مثل هذه الأعـمـال فـبدا عـليـه الاسـتـيـاء وأظهـره لهـا، ولما كـان إسحق مـجرداً من

مقومات الرشاقة والرقة فالراجح أنه أظهر ذلك الاستياء بوضوح. ولكن أولين لا تبالي بما أظهره إلا قليلاً، وتقول له بلسانها المعسول المعهود: «وهل كانت لي في ذلك حيلة؟» فأجابها إسحق: «لا أستطيع أن أقول هذا، ولكن كان في وسعك أن تدعي الأشياء وشأنها. فقالت أولين: «لن ألمس أزهارها بعد الآن ولكن الأزهار كانت قد ماتت فعلاً».

ثم كيف اتفق أن اللاب أكثروا من القدوم إلى سالنرا بهذه الصورة في الفترة الأخيرة؟ هذا أوس أندرس لا شأن له بهذا المكان إطلاقاً، وكان ينبغي أن يمضي في سبيله، ولكن حضر مرتين في صيف واحد عبر التلال وأوس أندرس -كما ينبغي أن نتذكر- ليس لديه شيء من الرنة يرعاها، بل يعيش بالاستجداء والحلول على غيره من اللاب. وما إن يأتِ إلى المكان حتى تترك أولين عملها وتنصرف إلى الثرثرة معه عن الناس في القرية. وعندما يرحل تكون غرارته قد ملئت بأشياء لا آخر لها؛ وظل إسحق سنتين متحملاً هذه الحال ولا يقول شيئاً.

ثم رغبت أولين في حذاء جديد أيضاً، فلم يعد في استطاعته السكوت. وكان الوقت خريفاً، وأولين تلبس الحذاء كل يوم، بدلاً من لبس القبقاب الخشبي أو حذاء من الأدم الخشن. وقال إسحق مفتتحاً الكلام: «يبدو أن الجو اليوم بديع.. هم... أقراص الجبن هذه يا اليزيوس. ألم تكن عندما عددتها هذا الصباح عشرة فوق الرف؟» فقال إليزيوس: إي. فقال اليزيوس: «إي». فقال إسحق: «حسن ليس ثمة منها الآن سوى تسعة».

وأعاد اليزيوس عدها وظل يفكر صامتاً ثم قال: «نعم، ولكن أوس أندرس حصل على قرص منه ليأخذه معه، فيكون المجموع عشرة»،

وساد الصمت مرة أخرى. وأخيراً شعرت أولين بأنها ينبغي أن تقول شيئاً، فقالت: «إي... لقد أعطيته بالفعل قرصاً، هذا صحيح، ولم يخطر لي أن في هذا ضرراً. ولكن هذين الطفلين ما إن يقدرا على الكلام حتى يظهرا ما في دخيلتهما ومن يحذو حذوها أكثر مما كنت أظن أو أحدس فهذا ليس أسلوبك يا إسحق فيما أعلم».

وكان التلميح أوضح من أن يُترك بلا رادع، فقال إسحق باقتضاب: «الصغيران بخير، ولكني أحب أن أعرف: أي خير أسداه لي أو لذويَّ في يوم من الأيام أوس أندرس؟» فسألته: «أي خير؟» فقال: «إي هذا ما قلته» فعادت تسأله: «أي خير أسداه أوس أندرس...؟» فقال: «أجل حتى ينبغي أن أعطيه في مقابله جبناً».

وكان الوقت قد اتسع أمام أولين للتفكير، فصارت متأهبة بردها الآن: «آه ما كان يخطر لي ببال أن أظن بك هذا يا إسحق. فهل كنت أنا التي بدأت بالاتصال بأوس أندرس، ليتني لا أبرح هذه البقعة حية إن كنت في عمري قد نطقت حتى باسمه المجرد».

وكان نصراً باهراً لأولين. وكان على إسحق أن يستسلم كما فعل مرات كثيرة من قبل، ولكن أولين كان لديها مزيد لتقوله: «وإن كنت تعني أن عليّ أن أمشي هنا حافية القدمين، والشتاء على الأبواب من غير أن أطالب بزوج من الأحذية، فعليك من فضلك أن تخبرني هذا. وأنا قد أشرت إلى المسألة منذ ثلاثة أسابيع أو أربعة وقلت إني بحاجة إلى حذاء، ولكني لم أرَ أثراً حتى يومنا هذا، وهاك أنا...» فقال إسحق: «ما عيب قبقابك إذاً، حتى لا تستعمليه؟» فكررت أولين عبارته وقد أخذت على غير أهبة. فقال: «هذا ما أريد أن أعرفه». فقالت:

«قبقابي؟» فقال: «إي» فقالت: «حسن... وأنا أندف وأغزل وأعنى بالماشية والأغنام وكل شيء وأرعى هذين الطفلين. أليس لديك ما تقوله في هذا الخصوص؟ فهل كنت تترك زوجتك الموجودة الآن في السجن جزاء ما اقترفته، حافية على الجليد؟» فقال إسحق: «كانت تلبس قبقابها وللذهاب إلى الكنيسة والزيارات وما أشبه كان حسبها أن تلبس حذاء من الأدم الخشن» فقالت أولين: «وكانت تبدو أنيقة جداً بلا شك» فقال: «إي... هكذا كانت وعندما كانت تلبس حذاء من الأدم في الصيف لم تكن تزيد على أن تدس قليلاً من العشب في الحذاء، أما أنت فلا بد لك من لبس جورب في حذائك على مدار السنة» فقالت أولين: «أما عن هذا فسوف أبلي قبقابي في الوقت المناسب بلا شك؛ ولكن لم يخطر ببالي أن ثمة مثل هذا التعجل لإبلاء قبقاب جيد على الفور. وكانت تتكلم بنعومة ورقة ولكن بعينين نصف مغمضتين، فهي أولين الماكرة المعهودة بعينها. وقالت: «أما بخصوص أنجر (المتقبلة) كما كنا ندعوها فقد عاشرت أولادي وتعلمت معهم هذا الشيء وذاك سنوات طويلة وهذا ما نجنيه جزاء ذلك؛ ولأن لي ابنة تعيش في بيرجد ومكبس القبعة، تحتم على أنجر فيما أرى أن تمضي جنوباً فذهبت إلى تورنيم لتشتري قبعة أيضاً... هئ هئ.

ونهض إسحق ليغادر الحجرة، ولكن أولين كانت قد فتحت قلبها وفضت مغاليق ما بداخله من السواد القاتم، وأخرجت منه شعاعات مظلمة، وإنها لتحمد الله على أن أحداً من ذريتها ليس ذا وجه مشقوق كأنه «تنين ينفث النار» كما يقولون. ولكن ذلك لم يضرهم كلا. فليس كل امرئ على دراية وسرعة في التخلص من الأطفال الذين يلدهم...

فيخنقهم في مثل لمح البرق.. وصاح إسحق: «تدبري ما تقولين» وكي يزيد ما يعنيه وضوحاً أردف: «أيتها الحيزبون العجوز اللعينة».

ولكن أولين لم تكن مستعدة لتدبر ما تقول إطلاقاً. هئ هئ. فرفعت عينيها إلى السماء وأشارت تلميحاً إلى الشفة المشقوقة كشفة الأرنب الجبلي: «قد تكون كذا وكيت ولكن بعض الناس يمضون في ذلك إلى أبعد مما ينبغي هئ هئ».

ولعل إسحق كان حرياً أن يفرح بالخروج سالماً من البيت في النهاية، وماذا كان بوسعه سوى أن يجيء أولين بالحذاء؟ إن هو الآن إلا حراث أرض في البرية، ولم يعد أشبه بإله يستطيع أن يقول لخادمة: «اخرجي» فلا حيلة له بدون أولين؛ وقائلة ما قالت وفاعلة ما فعلت فما عليها أن تخشى شيئاً، وهي بهذا عليمة.

لقد غدت الليالي أشد برودة الآن والقمر بدر وتصلبت أرض المستنقعات حتى أوشكت أن تتحدب، ولكنها ذابت مرة أخرى عندما برزت الشمس وصارت مستنقعاً لا يمكن اجتيازه ونزل إسحق القرية ذات ليلة باردة ليأمر بصنع حذاء لأولين، وأخذ معه قرصين من الجبن لفراو جايزلر.

وفي منتصف المسافة إلى القرية ظهر متوطنٌ آخر، رجل ميسور الحال بلا شك، لأنه أحضر رجالاً من القرية ليبنوا له بيته واستأجر رجالاً ليحرثوا قطعة من أرض المستنقعات الرملية من القرية للبطاطس، وهو شخصياً لم يكن يصنع إلا القليل أو كان لا يصنع شيئاً. وهذا الرجل الجديد هو بريد أولسن مساعد العمدة الذي يذهب إليه الناس عندما يحتاجون لدعوة طبيب، أو لقتل خنزير. ولم يكن بلغ الثلاثين ولكن لديه أربعة أطفال يعولهم، فضلاً عن زوجته التي كانت شخصياً في حكم

الطفلة، أوه لعل بريد ليس ميسور الحال إلى هذا الحد بعد كل شيء، فلم يكن المال الذي يكسبه من الجري هنا وهناك في أعمال عرضية أو لجباية الضرائب من قوم لا يريدون أداءها بالشيء الكثير.

ولذا شرع الآن في مغامرة جديدة بالفلاحة. واقترض من البنك ليقيم بيتاً في البرية، وسمى المزرعة بريد بليك، وكانت عقيلة العمدة «هيردال» هي التي ابتكرت ذلك الاسم الفخم.

ومر إسحق بالبيت مسرعاً. غير مضيع وقته بالنظر إلى داخله ولكنه استطاع أن يلمح من النافذة الأطفال وقد استيقظوا كلهم، رغم أن الوقت كان مبكراً. ولم يكن لدى إسحق وقت يضيعه إن كان يريد العودة إلى بيته من هذه الطريق في الليلة القادمة والطرقات لم تزل صلبة. ومن يعيش في البرية عليه أن يفكر في الشيء الكثير وأن يقدر الظروف ويتصرف على غير وجه، ولم يكن الموسم الراهن أشد الأوقات شغلاً لديه، ولكنه كان قلقاً على الطفلين وقد تركهما وحدهما مع أولين.

وفكر وهو سائر في أول مرة جاء فيها من هذه الطريق، لقد مر الوقت وكانت السنتان الأخيرتان طويلتين وجرت في سالنرا أشياء كثيرة طيبة وأشياء كثيرة ليست كذلك. يا! يا إلهي. والآن! ها هو رجل آخر يخلي الأرض في البرية. وكان إسحق يعرف المكان جيداً. إنها بقعة من ألطف البقاع التي لاحظها بنفسه في طريق قدومه، بيد أن تجاوزها إلى ما هو أبعد، فهي أقرب إلى القرية بالتأكيد ولكن خشبها ليس جيداً جداً، والأرض أقل نشوزاً، ولكن تربتها أفقر، ومن السهل العمل على سطحها ولكن التعمق فيها صعب. وسيكتشف هذا الفتى بريد أن الأمر يقتضي أكثر من تقليب التربة للحصول على حقل مثمر. ولماذا لم يشيد

سقيفة من نهاية علية الدريس للعربات والأدوات؟ ولاحظ إسحق أن عربة تركت في الفناء بلا غطاء في العراء.

وأنجز مهمته مع الإسكافي، ولما كانت فراو جايزلر قد غادرت المكان فقد باع جبنه لصاحب المتجر. وفي المساء شرع في العودة. إن الصقيع الآن أشد صلابة فأمسى المشي أفضل ومع هذا كان إسحق يسير بتثاقل، ومن يدري متى يعود جايزلر وقد رحلت الآن زوجته؟ ألعله لن يعود إطلاقاً؟ إن أنجر بعيدة عنه جداً والوقت يمر...

ولم ينظر إلى داخل بيت بريد في طريق العودة بل هو على العكس سلك طريقاً بعيدة ليتجنب المرور بذلك المكان. إنه ليس حريصاً على الوقوف والتحدث إلى الناس، بل هو يمضي في طريقه. إن عربة بريد لم تزل في العراء. أتراه ينوي أن يتركها هناك؟ حسن. هذا شأنه، إن لدى إسحق الآن عربة خاصة به. ولها عريشة تأوي إليها ولكنه ليس أسعد حالاً لهذا السبب، فبيته ليس إلا نصف بيت، وكان يوماً ما بيتاً كاملاً. أما الآن فهو نصف بيت فحسب.

وكان النهار قد وضح عندما وصل إلى مرمى النظر من بيته على جانب التل؛ وأبهجه ذلك بعض الشيء وبه ما به من التعب والإعياء بعد أن قضى ثمانياً وأربعين ساعة على قارعة الطريق. ها هو البيت والمباني وها هو الدخان يتصاعد متموجاً من المدخنة. والصغيران كلاهما في الخارج وخبطا لملاقاته عندما بدا لهما. ودخل البيت فوجد اثنين من اللاب جالسين، وصاحت أولين في دهشة: «ماذا؟ هل عدت هكذا سريعاً؟» وكانت تصنع قهوة على الموقد. قهوة... قهوة.

وكان إسحق قد لاحظ هذا الشيء بعينه من قبل، فكلما حضر أوس أندرس أو سواه من اللاب تظل أولين تصنع القهوة في وعاء أنجر الصغير

فترة طويلة بعد ذلك، تصنعها حينما يكون إسحق في الغابة أو في الحقول، وعندما يعود على غير انتظار ويراها لا تقول شيئاً ولكنه يعلم أن ذلك يكلفه في كل مرة قرصاً من الجبن أو حزمة من الصوف؛ وأنه مما يذكر له بالخير أنه لا يلتقط أولين بين أصابعه ويسحقها جزاء حقارتها. وإسحق يحاول عموماً أن يجعل من نفسه إنساناً أفضل، وأن يرتقي بنفسه في معارج الفضل أياً كانت فكرته في ذلك؛ وسواء أكانت رغبة في حفظ السلام في البيت أم أملاً في أن يرد اللاب إليه أنجر في مدة أقصر، فهو ميال إلى الاعتقاد بالخرافات والتمعن في الأمور. بل إن فطنته الريفية بريئة في بابها. وفي وقت مبكر في ذلك الخريف وجد الطين المحفوظ بالعشب فوق سقف الحظيرة بدأ يتدلى من الداخل فظل إسحق مطرقاً يفكر برهة طويلة ثم ابتسم ابتسامةً من فهم النكتة ووضع أعمدة بعرض السقف لحفظه من السقوط. ولم يقل كلمة واحدة توحي بالمرارة، وشيء آخر: السقيفة التي يحتفظ فيها بخزينه من المؤن مبنية ببساطة فوق أقدام صخرية عالية عند أركانها وليس فيما بينها شيء وبعد قليل بدأت الطيور تعرف طريقها إلى هذه الثغرات الكبيرة في الجدار حيث تظل ترفرف حائمة في الداخل لا تدري كيف تخرج. وشكت أولين من أن الطيور تنقر الطعام وتفسد اللحم وتنشر القذارة والفوضى في المكان. فقال إسحق: «إي؛ إنه لمما يؤسف له أن تدخل الطيور الصغيرة ولا تقدر الخروج ثانية» وفي إبان موسم العمل تحول إلى بنّاء بالحجارة وسدَّ ثغرات الحائط.

والله أعلم ماذا كان يدور في رأسه حتى نظر إلى الأمور هذه النظرة، لعله تخيل أن أنجر يمكن أن تُرَدَّ إليه قبل الأوان جزاء له على رأفته تلك.

الفصل التاسع

مرت الأعوام.

ومرة أخرى جاء زائرون إلى سالنرا: مهندس ومعه مقدِّم عمال وعاملان لوضع العلامات التي يركب فيها الخط التلغرافي فوق التلال. وعلى أساس الطريق التي يتخذونها الآن سيمر الخط أعلى من مستوى البيت قليلاً ويخترق الغابة في خط مستقيم. ولا ضير في ذلك فسيصبح المكان أقل وحشة. وقد تفلح لمحة من العالم الخارجي أن تجعله أكثر إشراقاً.

وقال المهندس: «سيكون هذا المكان حوالي منتصف المسافة بين خطين يخترقان الواديين على الجانبين. ومن المحتمل جداً أن يطلبوا إليك أن تتولى منصب ملاحظ الخطين». فقال إسحق: «هو» وقال المهندس: «وسيكون معنى هذا دخول خمسة وعشرين دالراً سنوياً في جيبك». فسأله إسحق: «هم» وماذا سيكون علي أن أفعل مقابل ذلك؟»، فأجابه: «أن تبقي الخط صالحاً وتصلح الأسلاك عند الضرورة وتخلي نباتات الغابة من الخط عندما تنمو. وسيركِّبون آلة صغيرة هنا في البيت تعلقها على الحائط لتخبرك متى يحتاجون إليك. وعندما يحدث هذا يجب أن تترك أي شيء في يدك وتنطلق». وفكر إسحق في الأمر ثم قال: «أستطيع هذا تماماً في الشتاء». فقال المهندس: «هذا لا يجدي فلا بُدَّ من الاستمرار طوال السنة

صيفاً وشتاء على السواء». فقال إسحق: «مستحيل. ففي الربيع والصيف والخريف لدي عملي في الأرض ولا وقت عندي للأمور الأخرى».

وتطلع إليه المهندس برهة طويلة ثم سأله في استغراب على النحو التالي: «وهل تستطيع أن تربح نقوداً أكثر من هذا السبيل». فقال إسحق: أربح نقوداً أكثر؟» فقال المهندس: «هل تستطيع أن تربح نقوداً في كل يوم عن طريق العمل في الأرض أكثر مما تستطيع أن تربحه من العمل لنا؟». فأجاب إسحق: «في هذا الخصوص لا أستطيع أن أقطع برأي، فالمسألة لا تُرى على هذا النحو: أنا هنا من أجل الأرض، وعندي أنفس كثيرة وحيوانات أكثر لا بد أن أعولها. والأرض هي التي تقيم أودنا. إنها معاشنا» وقال المهندس: «إن كنت لا تريد ففي وسعي أن أجد شخصاً آخر».

ولكن إسحق بدا وكأنه ارتاح إلى التهديد. فهو لا يحب أن يكدر الرجل العظيم، وحاول أن يوضح له الأمر: «المسألة على هذا النحو. عندي حصان وخمس بقرات فضلاً عن الثور. وعندي عشرون رأساً من الغنم وست عشرة عنزة. وهذه الحيوانات تعطينا الطعام والصوف والأدم. فيجب أن أقدم لها الطعام». فقال الآخر باقتضاب: «نعم نعم، بالطبع» واستطرد إسحق: «حسن. وهذا ما يجعلني أقول كيف أطعمها وأنا ملتزم بالجري في الخارج طوال الوقت في موسم العمل مشغولاً بالخط التلغرافي؟» فقال المهندس: «لا لزوم لمزيد من الكلام في هذا. سأحصل على خدمات الرجل الذي يقيم في موضع أدنى منك وهو «بريد أولسن» وسيبهجه أن يقبل العمل»، ثم التفت إلى رجاله وقال بإيجاز: «والآن يا فتيان يجب أن ننطلق».

والآن كانت «أولين» قد سمعت من الطريقة التي يتكلم بها إسحق أنه صلب الرأي وغير معقول في تفكيره، وقررت أن تستغل ذلك إلى أقصى حد فقالت: «ما هذا الذي قلته يا إسحق؟ ست عشرة عنزة؟ لا توجد سوى خمس عشرة». فنظر إليها إسحق ونظرت أولين مثبتة نظراتها في وجهه، وقال: «أليست ست عشرة عنزة؟» فقالت: «لا» ونظرت كمن لا حيلة لها صوب الغرباء كأنها تستشهد بهم على عدم تعقله، فقال إسحق بلطف: «هوه» وجذب خصلة من لحيته بين أسنانه ووقف يمضغها.

ومضى المهندس ورجاله في طريقهم.

والآن، لو أن إسحق أراد أن يظهر سخطه على أولين ورغب في جلدها عقاباً لها على أفاعيلها، لكانت هذه فرصته السانحة. فالسماء وهبته هذه الفرصة لينفذ إرادته. وكانا وحدهما في البيت، فالصغيران كانا قد خرجا وراء الرجال عند انصرافهم، ووقف إسحق في وسط الحجرة، أما أولين فكانت جالسة بجوار الموقد. تنحنح إسحق مرة أو مرتين ليظهر أنه يتأهب ليقول شيئاً إن أراد، بيد أنه لم يقل شيئاً، وكانت هذه هي قوته الروحية، أليس يعلم عدد عنزاته كما يعرف أصابع يديه؟ أجنت المرأة؟ أمن الممكن أن تكون إحداها مفقودة وهو يعرف كل واحدة منها شخصياً ويكلمها كل يوم. يكلم عنزاته الست عشرة؟ فلا بد أن أولين باعت إحداها في اليوم السابق عندما حضرت المرأة من «بريدابليتك» لتلقي نظرة على المكان. وقال إسحق: «ههم»، وفي هذه المرة كانت الكلمات على طرف لسانه. ما الذي فعلته أولين؟ إنها لم تقتل بالضبط. ربما؛ ولكنها فعلت شيئاً لا يبعد كثيراً عن القتل. وفي

وسعه أن يتكلم بجد جاد عن هذه العنزة السادسة عشرة، ولكنه لم يستطع أن يظل واقفاً إلى الأبد في وسط الحجرة لايقول شيئاً، فقال: «همم. هوه. إذن لا توجد الآن سوى خمس عشرة عنزة كما تقولين؟» فأجابت أولين بلطف: «هذا كل ما أجده منها، ولكن الأفضل أن تعدها بنفسك وترى».

إن فرصته قائمة الآن. وفي استطاعته أن يفعل فعلته فيمد يديه ويغير سحنة أولين تغييراً هائلاً بقبضة واحدة جيدة من يده. يستطيع أن يفعل هذا. بيد أنه لم يفعل. بل قال بجرأة وهو يتجه صوب الباب: «لن أقول أكثر من هذا الآن». ثم خرج وكأنه يظهر لها بوضوح أنه في المرة التالية ستكون لديه أقوال واضحة يدلي بها.

ونادى: «اليزيوس».

أين اليزيوس؟ أين الطفلان؟ إن لدى أبيهما شيئاً يسألهما عنه. فهما الآن كبيران وفي وجهيهما عيون يقظة. ووجدهما تحت أرض البيدر. زحفا إلى أبعد ما استطاعا واختفيا عن الأنظار هناك. إلا أنهما فضحا نفسيهما بتهامسهما المتلهف، وخرج الاثنان يزحفان كالآثمين.

وجلية الأمر أن اليزيوس وجد جذمة من قلم رصاص ملون تركها المهندس وراءه وراحا يجريان خلفه ليرداها إليه، ولكن الرجال الكبار بخطواتهم الطويلة كانوا قد أوغلوا في الغابة. وتوقف اليزيوس عن الجري وخطرت له فكرة مؤداها أن يحتفظ بالقلم. ألا ليته يستطيع ذلك، وتصيد سيفرت الصغير كي يكونا على الأقل اثنين يقتسمان الإثم، ثم زحف الاثنان تحت أرض البيدر بغنيمتهما. أوه... إن هذه الجذمة من قلم الرصاص كانت حدثاً في حياتهما وأعجوبة، ووجدا قصاصات خشب

غطياها بالعلامات. واكتشفا أن قلم الرصاص يحدث علامات زرقاء بأحد طرفيه وعلامات حمراء بالطرف الآخر. وصارا يتداولانه في الاستعمال. فلما نادى أبوهما بهذا الصوت المرتفع وهذا الإلحاح همس اليزيوس: «لقد حضروا لاسترداد القلم»، وتبددت فرحتهما في لحظة وطارت من ذهنيهما بلمسة، وبدأ قلباهما الصغيران يدقان عنيفاً، وزحف الأخَوَان فخرجا ومد اليزيوس قلم الرصاص على طول ذراعه: «ها هو». فهما لم يكسراه. وتمنيا لو أنهما لم يريا هذا الشيء فقط.

ولم يكن ثمة مهندس يرى. وثاب قلباهما إلى خفقان أهدأ. وإنها لنعمة أن يتخلصا من هذا التوتر الفظيع. وقال الأب: «كانت هنا بالأمس امرأة؟» فقالا: «نعم» فسألهما: «إنها المرأة من ذلك المكان الذي هناك في الأسفل. فهل رأيتماها وهي منصرفة؟» فأجابا: «نعم» فسألهما: «هل كانت معها عنزة؟» فقال الولدان: «لا. عنزة؟» فعاد يسألهما: «ألم تكن معها عنزة عندما انصرفت؟» فقالا: «لا. أي عنزة؟».

وعجب إسحق ثم عجب. وفي المساء عندما عادت الحيوانات إلى البيت عدّ الماعز مرة أخرى فإذا هي ست عشرة، وعدها مرة ثالثة إلى أن بلغ العد خمس مرات، فإذا هي ست عشرة لا تنقص واحدة.

وتنفس إسحق الصعداء. ولكن ما معنى هذا كله؟ ألا تستطيع هذه المخلوقة التعسة «أولين» أن تعد إلى ست عشرة، وسألها بغضب: «ما كل هذا الهراء؟ ثمة ست عشرة عنزة». فسألته ببراءة: «أهي ست عشرة؟» فقال: «إي» فقالت: «إي. حسن إذن» فقال: «يا لك من بارعة في الإحصاء» وأجابت أولين بهدوء في لهجة من أوذيت: «ما دامت

العنزات كلها موجودة فالحمد لله إذن على أنك لا تستطيع أن تقول عن «أولين» إنها أكلتها، وهذا أفضل لها تلك المسكينة».

لقد خدعته أولين تمام الخداع بمكرها، فهو مسرور الآن يخيل إليه أن كل شيء على ما يرام. فلم يخطر له مثلاً أن يعد الغنم، ولم يتعب نفسه بعدّها في إحصاء الماشية على الإطلاق، فأولين بعد كل شيء ليست من السوء بحيث كان من الممكن أن تكون. وهي تدير المنزل له على نحو ما، وترعى الماشية وكل ما هنالك أنها مغفلة، وما الضير في هذا عليها، فلتبق ولتعش، فهي ليست جديرة بأن يزعج نفسه بشأنها، ولكن حياة إسحق كانت الآن كالحة خالية من السرور.

لقد مرت الأعوام. ونما العشب فوق سقف البيت. وحتى سقف البيت الذي كان أحدث عهداً ببضع سنوات قد اخضر. والفأر البري الذي يقطن الغابات وجد منذ زمن طويل طريقه إلى المخزن، والعصافير الصغيرة وسائر صنوف صغار الطير كثرت في المكان. وزادت الطيور على جوانب التل. وحتى الغربان جاءت إلى هنا، وأعجب من هذا كله أن طيور النورس البحرية ظهرت في الصيف الماضي، آتية كل تلك المسافة من الساحل لتستقر في الحقول وسط البرية. لقد أصبحت مزرعة إسحق معروفة، ذائعة الصيت لدى المخلوقات البرية جميعاً. وماذا عن اليزيوس والصغير سيفرت عندما رأيا النوارس؟ أوه. إنها طيور غريبة آتية من مكان بعيد جداً، ولم يكن عددها كبيراً، وإنما هي ستة طيور بيضاء متشابهة تمام الشبه؛ تتهادى هنا وهناك بين الحقول وتنقر العشب بين حين وحين.

وسأل الصبيان أباهما: «يا أبانا. لماذا أتت هذه الطيور؟» فقال أبوهما: «إن البحر يوشك أن يتعرض لطقس سيئ» وكان شيئاً عظيماً أن ترى هذه النوارس.

وعلّم إسحق، ولديه أشياء كثيرة صالحة تفيدهما معرفتها. وكانا في سن تسمح لهما بالذهاب إلى المدرسة، ولكن المدرسة كانت تبعد أميالاً كثيرة، فهي هناك في القرية بعيداً عن متناولهما. وعلّم إسحق الولدين بنفسه الحروف الأبجدية أيام الآحاد، ولكن ليس في وسعه وهو المجبول على فلاحة الأرض أن يقدم لهما شيئاً من التعليم أرقى من هذا، فاستقر كتاب أصول الدين وتاريخ الكتاب المقدس بهدوء فوق الرف بجوار أقراص الجبن. ويبدو أن إسحق كان يرى أنَّ من الأفضل للبشر أن يشبوا من غير معرفة بالكتب بدليل طريقته في معاملة ولديه. وكان كلاهما مصدر فرح ونعمة عنده. وكثيراً ما فكر في الأيام التي كانا فيها صغيرين جداً فلم تكن أمهما تدعه يلمسهما لأن يديه كانتا لزجتين من الراتنج. أوه. إن الراتنج أنظف شيء في العالم. إن القطران ولبن الماعز والنخاع مثلاً كلها أشياء ممتازة. أما الراتنج وهو الصمغ النقي الذي تجود به أشجار الشربين - ولا كلمة!

وهكذا شب الولدان في فردوس من القذارة والجهل. ولكنهما مع هذا كانا ولدين بديعين عندما يغتسلان، وذلك ما يحدث في الفينة بعد الفينة. وكان سيفرت الصغير فتى فخماً، وإن كان اليزيوس أرهف منه وأعمق. فهو يسأل: «وكيف تعرف النوارس الطقس سلفاً؟» فقال أبوه: «عن طريق اضطراب تحسه عند قرب تغير الطقس، وهي في ذلك لا تزيد شيئاً على الذباب. ولست أدري كيف يعرف الذباب ذلك. وهل يصيبه النقرس أو يشعر بالدوار أو غير ذلك، ولكن إياكما أن تضربا ذبابة، لأن الضرب يجعلها شراً عما كانت. تذكر هذا: أما ذبابة الفرس فنوع مختلف لأنها تموت من تلقاء نفسها. إنها تظهر فجأة ذات يوم في

الصيف فإذا بها هنا. ثم ذات يوم أيضاً تختفي فجأة فيكون ذلك آخر العهد بها»، فسأله اليزيوس: «وكيف تموت؟» فقال: «يتصلب الدهن الذي في داخلها فتستلقي ميتة».

وكانا يتعلمان كل يوم شيئاً جديداً. فعندما تقفز مثلاً من فوق الصخور العالية يجب أن تبقي لسانك بداخل فمك ولا تدعه بين أسنانك. ولما كبرا وأرادا أن تكون رائحتهما جميلة عند الذهاب إلى الكنيسة علمهما أن يدلكا جسديهما بشيء من حشيشة الدود التي تنبت على جانب التل. لقد كان أبوهما يفيض بالحكمة. وعلم الولدين ما يتعلق بالأحجار والصوان وكيف أن الحجر الأبيض أصلب من الحجر الأشهب، وأن المرء حين يعثر على قطعة صوان يجب أيضاً أن يصنع صوفاناً فيستطيع أن يقدح به ناراً. وعلمهما كل شيء عن القمر، فعندما تستطيع أن تجعل الجانب المجوف في ثنية يدك اليسرى فهو آخذ في النمو. تذكرا هذا: وبين حين وحين كان إسحق يشتط ويغدو غامضاً. فذات يوم أعلن أنه أصعب على الجمل أن يدخل ملكوت السموات من أن يدخل الإنسان من ثقب إبرة. وفي مرة أخرى روى لهما عن الملائكة وعظمتهم، مبيناً أن للملائكة في أعقابهم نجوماً بدلاً من مسامير النعال. وهي تعاليم طيبة بسيطة تناسب المتوطنين في البرية. ومعلم المدرسة في القرية حريٌ أن يضحك من ذلك كله، ولكنَّ ولدي إسحق وجدا لها فائدة طيبة في حياتهما الباطنة. فهما قد تربيا وتعلما الحياة في عالمهما الصغير. وماذا يريدان خيراً من ذلك؟ وفي الخريف عندما يحين للحيوان أن يذبح كان الولدان يشعران بفضول شديد وخوف وشجن في قلبيهما من أجل الحيوانات التي ستموت، وهذا إسحق يمسك الذبيحة

بيد وباليد الأخرى يستعد ليضرب ضربته. وتقوم أولين بتقليب الدم. ولما أخرج التيس الكبير بلحيته وحكمته وقف الولدان يسترقان النظر حول الركن. وقال اليزيوس وهو يشيح ليمسح عينيه: «الريح باردة قذرة هذه المرة» أما سيفرت الصغير فبكى بصورة أوضح ولم يستطع أن يغالب صيحة: «أوه... يا للتيس العجوز المسكين»، ولما قتل التيس أقبل إسحق صوبهما وألقى عليهما هذا الدرس: «إياكما أن تقفا عن قرب وتقولا يا للمسكين مبديين التحسر عند قتل الحيوانات، فإن ذلك يجعلها أخشن لحماً وأصعب ذبحاً. تذكرا هذا».

وهكذا مرت الأعوام، واقترب الربيع مرة أخرى.

وكان أنجر قد كتبت أنها بخير، وأنها تتعلم -حيث توجد- أموراً كثيرة، وأن ابنتها الصغيرة كبرت وسميت «ليوبولدين» على حسب اليوم الذي ولدت فيه وهو ١٥ نوفمبر. إنها تعرف الآن كل شيء وصارت نابغة في أشغال الأجور والكورسيه والتطريز الفاخر الذي تجيده على التيل الكانفاه».

والعجيب في أمر هذا الخطاب أن أنجر كتبته وتهجته بنفسها. ولم يكن إسحق قد بلغ من التعليم أن يقرأه، بيد أنه جعل أحدهم في القرية يطالعه له وهو صاحب المتجر، ولكن ما إن دخلت العبارات رأسه حتى استقرت فصار يعرفه عن ظهر قلب عندما وصل إلى البيت.

جلس بوقار شديد على رأس المائدة وبسط الخطاب وتلاه بصوت عال للولدين، فقد كان راغباً في أن ترى أولين أيضاً كيف يستطيع بسهولة أن يقرأ الكتابة، إلا أنه لم يوجه إليها كلمة واحدة مباشرة، ولما فرغ قال: «والآن يا اليزيوس، وأنت يا سيفرت، اعلما أن أمكما بنفسها كتبت هذا

الخطاب وتعلمت كل هذه الأمور. وحتى شقيقتكما تعرف الآن أكثر مما نعرف جميعاً هنا. تذكرا هذا» وجلس الولدان ساكتين وتعجبا في صمت.

وقالت أولين: «إي. هذا شيء عظيم».

وماذا تعني بهذا؟ أتراها تشك في أن أنجر قالت الحق؟ أم خامرها الشك في قراءة إسحق؟ ليس من السهل أن يدرك الإنسان ما تفكر فيه أولين حقاً وهي جالسة هناك بوجهها البسيط تقول أشياء غامضة. وقرر إسحق ألا يلقي إليها بالاً، وقال للولدين: «وعندما تعود أمكما إلى البيت ستتعلمان الكتابة أيضاً».

ونقلت أولين بعض الثياب التي كانت معلقة قرب الموقد لتجف. ونقلت وعاء. ثم نقلت الثياب مرة أخرى. وتشاغلت بصورة عامة. وكانت تفكر طوال الوقت. وأخيراً قالت: «شيء بديع وعظيم شأن كل ما يحدث هنا، وأحسبك كنت حرياً أن تشتري كيس بن للبيت». فسألها إسحق: «بن؟» لقد باحت بمكنونها وأجابت أولين بهدوء: «لقد لبثت حتى الآن أشتري قليلاً من البن بين حين وحين من نقودي الخاصة، ولكن...».

وكان البن شيئاً من قبيل الأحلام الخرافية بالنسبة لإسحق كأنه قوس قزح. إن أولين تنطق هذراً بالطبع. وهو ليس غاضباً عليها ولكنه على بطء تفكيره تذكر أخيراً مضايقتها مع اللاب، فقال بمرارة: «إيه. سأشتري لك بناً. سأفعل هذا. كيس بن. أهذا ما طلبت؟ ولماذا لا يكون رطلاً من البن بالمرة». فقالت: «لا لزوم للكلام بهذه الطريقة يا إسحق. فأخي «نيلز» يتناول القهوة. وهناك في «بريدا بليك» أيضاً يشربون القهوة»، فقال: «إي. فليس لديهم لبن. ولا نقطة واحدة من اللبن عندهم

في ذلك المكان». فقالت: «هذا جائز. ولكنك أنت يا من تعرف كثيراً وتقرأ الكتابة على أتم وجه كما يجري الصرصار، ينبغي أن تعلم أن القهوة شيء يجب أن يوجد في بيت كل إنسان». فقال إسحق: «أيتها المخلوقة!».

وعندئذ جلست أولين ولم يبق سبيل لإسكاتها. قالت: «أما بخصوص أنجر تلك، إن جاز لي أن أتجاسر فأقول مثل هذه الكلمة...» فقال: «قولي ما تشائين، فالأمر سيان عندي» فقالت: «إنها ستأتي إلى البيت وقد تعلمت كل شيء. ولعلها أيضاً ستكون في قبعتها خرزات وريش؟» فقال: «إي، هذا جائز». فقالت أولين: «إي. ولها أن تشكرني شيئاً ما على كل ما أصابته من الرقي والعظمة»، فسألها إسحق: «أنت؟»... لقد باحت بمكنونها.

وأجابت أولين بتواضع: «إي. فبصنيعي المتواضع أمكن اقتيادها إلى هناك».

وخرس إسحق من فرط الذهول. احتبست كلماته فجلس يحملق. أتراه لم يخطئ السمع؟ وجلست أولين هناك وكأنها لم تقل شيئاً. وإسحق ضائع لا محالة حين تنشب معارك الكلام.

وخرج متناوحاً من البيت والأفكار السوداء تملأ رأسه. أولين هذه الدابة التي تتغذى بالشر وتسمن عليه، لماذا لم يقطم رقبتها في أول سنة؟ هكذا فكر وهو يحاول استجماع شتاته. كان في وسعه أن يفعل ذلك - هو؟ ألم يكن يستطيع؟ ما من أحد يستطيعه خيراً منه.

ثم حدث شيء مضحك عندئذ، فقد دخل إسحق السقيفة وأخذ يعد الماعز فوجدها كلها هناك مع صغارها كاملة العدد، وأحصى البقرات

والخنزير وأربع عشرة دجاجة وعجلين، ثم قال لنفسه: «لقد كدت أنسى الغنم» وأحصى الغنم وتظاهر بالقلق خشية أن تكون إحداها ناقصة. وكان إسحق يعلم تمام العلم إن إحداها ناقصة. كان يعلم ذلك منذ زمن طويل. فلماذا يتظاهر بغير ذلك؟ لقد حدث الأمر هكذا. فقد خدعته أولين ببراعة مرة من قبل قائلة إن إحدى العنزات ناقصة، مع أن العنزات جميعاً كما هي. وأثار ضجة كبيرة حول المسألة في ذلك الحين ودون طائل، وكان ذلك يحدث دائماً عندما يختلف مع أولين. فلما حل وقت الذبح في الخريف تبين على الفور أن النعاج تنقص واحدة. ولكنه لم يجد الشجاعة لمحاسبتها حينئذ. ولم يجد تلك الشجاعة بعد ذلك.

أما اليوم فهو متجهم. إسحق متجهم. فقد استطاعت أولين أن تثير غضبه تمام الإثارة هذه المرة، فعد الغنم مرة أخرى وراح يضع سبابته على كل رأس وهو يعدها بصوت مرتفع، ولأولين أن تسمعه إن شاءت وكانت في الخارج. وفاه بأشياء قاسية بخصوص أولين، فاه بها بصوت مرتفع: كيف أنها تستخدم طريقة جديدة من ابتكارها في تغذية الأغنام، طريقة تجعلها تختفي، فها هي نعجة قد اختفت، إنها لصة ساقطة، لا أقل. ولها أن تعلم هذا: أوه. كم يتمنى أن تكون أولين واقفة في الخارج لتسمعه وتشعر بالفزع.

وخرج من السقيفة وذهب إلى الحظيرة فعد الحصان. ومن هناك سيدخل إلى البيت. أجل سيدخل البيت ويعلن رأيه بصراحة. وكان يمشي بسرعة حتى إن قميصه خرج من الخلف. ولكن أولين كانت وكأنها لم تلاحظ شيئاً. فهي تتطلع من زجاج النافذة. ثم تبرز عند الباب بهدوء وثبات وفي يديها دلوان في طريقها إلى حظيرة البقر. وسألها: «ماذا

صنعت بتلك النعجة ذات الأذنين المسطحتين؟» فسألته: «نعجة؟» فقال: «إي. فلو كانت هنا لولدت الآن حملين، ماذا صنعت بها؟ لقد كانت تضع اثنين دائماً. فأنت قد سلبتني ثلاثاً مرة واحدة أتفهمين؟».

وبدت أولين ذاهلة تماماً. وكأنما تداعت أمام هذا الاتهام، فهزت رأسها وبدا أن رجليها قد خارتا من تحتها، فهي معرضة للوقوع فتصاب بأذى. إن رأسها مشغول طوال الوقت. وكانت بديهتها الحاضرة تسعفها دائماً وتحسن خدمتها. فلا ينبغي أن تتخلى عنها الآن. وبهدوء قالت: «أنا أسرق العنزات وأسرق العنم. وماذا أصنع بها؟ هذا ما أحب أن أعرف. إخالني لا آكلها بمفردي؟» فقال: «أنت أدرى بما تصنعين بها» فقالت: «هوه... كأنما لم أحظ بكفايتي وما يفيض عن حاجتي من اللحم والطعام وكل شيء مما تعطيني إياه يا إسحق فأضطر لسرقة المزيد من ذلك؟ ولكني أستطع أن أقول على كل حال إنه لم تكن لي حاجة إلى هذا كله في كل تلك السنوات». فقال: حسن. وماذا صنعت بالنعجة؟ هل أخذها أوس أندرس؟» فوضعت أولين الدلوين وعقدت يديها وقالت: «أوس أندرس؟ ليت ذنوبي لا تتجاوز هذا الذنب. ما كل هذا الكلام الذي تقوله عن النعجة والحملان؟ أتعني النعجة ذات الأذنين المفرطحتين؟» فقال إسحق مشيحاً بوجهه: «أيتها المخلوقة!» فقالت: «حسن، إنك لأعجوبة يا إسحق... إن لديك كل ما ترغب فيه من كل صنف، وقطيعاً غزيراً من الغنم والماعز وما إليها في سقيفتك، ولكنك لا تكتفي. فكيف لي أن أعلم أي نعجة وأي حملين تحاول الآن أن تبتز مني؟ كان ينبغي أن تشكر الرب على مراحمه من جيل إلى جيل. هذا ما ينبغي أن تفعل. فبعد انقضاء هذا الصيف ومضيّ برهة تقربنا من الشتاء

سيحل عندك موسم ولادة الحملان، ويصبح لديك ثلاثة أضعاف ما عندك مرة أخرى!».

يا لتلك المرأة أولين!

وخرج إسحق وهو يزمجر كالدب وقال في نفسه ناعتاً إياه بشتى أنواع الشتائم: «ما أحمقني إذ لم أقتلها في أول يوم، إني لأبله. وكتلة أنا من النفايات، ولكن الأوان لم يفت بعد. انتظر: فلتذهب إلى سقيفة البقر كما تشاء. وليس من الحكمة أن أصنع شيئاً الليلة، وغداً... نعم غداً صباحاً هو الوقت المناسب، ثلاثة أغنام فقدت وضاعت: وتقول إنها تريد بنا!».

الفصل العاشر

كان مقدراً لليوم التالي أن يأتي بحدث ضخم. فقد جاء المزرعة زائر. جايزلر. ولم يكن الصيف قد حل بعد في أرض المستنقعات، ولكن جايزلر لم يبال بحالة الأرض. وجاء راجلاً في حذاء طويل غالي الثمن ذي حافة عليا عريضة لامعة. لابساً قفازاً أصفر اللون أيضاً، فكان منظره أنيقاً، ومعه رجل من القرية يحمل له أشياء.

وكان قدومه في الواقع لشراء قطعة من أرض إسحق، في الجزء المرتفع بين التلال - بها منجم نحاس، وماذا عن الثمن؟ وكان معه أيضاً، على فكرة، رسالة من أنجر- وهي فتاة طيبة، الجميع يحبونها، فقد كان في ترونيم ورآها.

«لقد أنجزت أعمالاً جديدة هنا يا إسحق».

«إي. أظن هذا. وهل رأيت أنجو؟».

«ما هذا الذي أقمته هناك؟ أبنيت طاحوناً خاصة بك؟ لتطحن قمحك؟ بديع. وأراك قلبت قطعة كبيرة من الأرض منذ آخر مرة كنت فيها هنا».

«أهي بخير؟».

«إيه؟ أوه. زوجتك؟ نعم. بخير وعافية. هيا بنا إلى الحجرة المجاورة وسأخبرك بكل شيء».

فقالت أولين: «إنها غير مرتبة» وكانت لدى أولين أسبابها الخاصة لعدم رغبتها في ذهابهم إلى هناك، ولكنهم ذهبوا مع هذا إلى الحجرة الصغيرة وأغلقوا الباب، ووقفت أولين في المطبخ ولم تستطع أن تسمع شيئاً.

وجلس جايزلر، وضرب على ركبته بيد قوية، فها هو ذا مهيمن على مصير إسحق. وسأله: «ألم تبع تلك البقعة التي بها النحاس بعد؟» فأجابه: «لا» فقال: «حسن... سأشتريها لنفسي. نعم، لقد رأيت أنجر وأناساً آخرين أيضاً، وستخرج قبل مضي وقت طويل، إن لم أكن مخطئاً بالغاً، فقد رفعت القضية إلى الملك» فسأله: «الملك؟» فقال: «نعم، الملك، وقد ذهبت لأتحدث إلى زوجتك وقد دبروا لي ذلك بالطبع ولم أجد صعوبة في هذا، وتحدثنا طويلاً: حسن يا أنجو. كيف أحوالك؟ بخير. أليس كذلك؟ ليس لدي ما أشكو منه. أتحبين أن تعودي إلى البيت؟ إي لن أقول: لا. فقلت لها: وستعودين قبل مضي أجل طويل جداً وأستطيع أن أقول لك يا إسحق إن أنجر فتاة طيبة، لم تنتحب، ولم تذرف دمعة، بل كانت باسمة ضاحكة... وقد أصلحوا لها فمها، على فكرة، وخاطوه لها بجراحة. وقلت لها: وداعاً إذن، لن يطول مكثك هنا كثيراً، أعدك بهذا. ثم ذهبت إلى محافظ السجن - وقد قابلني بالطبع، فلم أجد في ذلك صعوبة وقلت له: لديك هنا امرأة ينبغي أن تكون خارج هذا المكان في بيتها، هي أنجر سالنرا. فقال: أنجر؟ نعم. إنها من النوع الطيب، وأتمنى لو احتفظنا بها عشرين سنة. فقلت له: حسن. سوف لا يتم لكم هذا، فقد لبثت هنا بالفعل أطول مما ينبغي. فقال: أطول مما ينبغي؟ أتدري لماذا هي هنا؟ فقلت: أعرف كل ما يتعلق بهذا الموضوع لأني عمدة الناحية. فقال: أفلا تجلس؟ وكان هذا هو القول

اللائق طبعاً. ثم قال المحافظ: إننا نعمل لأجلها كل ما في وسعنا هنا ولأجل ابنتها أيضاً. إذن فهي من أبناء ناحيتك في الإقليم؟ لقد ساعدناها في الحصول على آلة للحياكة خاصة بها، ومرت في الورش حتى الذروة، فقد علمناها شيئاً كثيراً: النسيج وتدبير المنزل، والصباغة، والتفصيل: أتقول إنها مكثت هنا أطول مما ينبغي، وكان جوابي عن هذا السؤال حاضراً في ذهني، بيد أني آثرت الانتظار، ولذا اكتفيت بأن أقول إن قضيتها حدث فيها خلط رديء جداً ويجب أن تنظر من جديد الآن بعد أن تم تعديل القانون الجنائي، إذ كان من الجائز أن تُبَرَّأ تماماً. وأخبرته بموضوع الأرنب الجبلي. فقال المحافظ: أرنب جبلي، فقلت أرنب جبلي، وولدت الطفلة ولها شفة أرنب جبلي، فقال باسماً: أوه. فهمت وأنت تظن أنه كان ينبغي عليهم أن يزدادوا تسامحاً معها بسبب ذلك، فقلت إنهم لم يتسامحوا معها إطلاقاً، لأن هذه النقطة لم تثر، فقال: «حسن إن الحكم لم يكن سيئاً جداً بعد كل شيء»، فقلت: «بل هو سيئ جداً بالنسبة لها على كل حال» فقال: «أتعتقد أن الأرنب الجبلي يستطيع إذاً أن يأتي بالمعجزات؟» فقال: أما عن هذا فقدرة الأرنب الجبلي أو عدم قدرته على صنع المعجزات مسألة لا أريد أن أناقشها الآن. لأن موضوعنا هو ما التأثير الذي يمكن أن يحدثه مشاهدة أرنب جبلي لدى امرأة بها هذا التشويه، وهي في حالة حمل، ففكر في الأمر برهة ثم قال أخيراً: همم. ربما. ربما. ولكننا على كل حال غير مختصين بهذا الموضوع هنا. وكل ما يجب علينا هو استقبال الأشخاص الذين يبعثون بهم إلينا، لا أن نراجع الأحكام الصادرة ضدهم. وعلى حسب الحكم الصادر على أنجر لم تنته مدة عقوبتها بعد، وعندئذ شرعت فيما كنت أريد أن أقوله

طوال الوقت فقلت: لقد حدث تجاوز خطير بالسهو عند إحضارها إلى هنا ابتداء، فسألني: تجاوز بالسهو. فقلت: نعم فهي أولاً لم يكن ينبغي أن ترسل عبر القطر وفي حالتها تلك، فنظر إليّ بتصلب وقال: لا. هذا صحيح تماماً ولكن لا شأن لنا به هنا كما تعلم. فقلت: ولم يكن ينبغي ثانياً أن تظل في السجن شهرين كاملين من غير أن يفطن أحد من المختصين إلى حالتها. ورأيت بوضوح أن هذا القول كدّره، وظل برهة طويلة لا يقول شيئاً ثم قال أخيراً: ألديك تفويض بالعمل لصالحها؟ فقلت: نعم، وعندئذ شرع يعبر لي عن مدى سرورهم منها وسرد على مسامعي مرة أخرى كل ما علموها إياه وما صنعوه من أجلها هناك. وقال لي إنهم علموها الكتابة أيضاً. وإن الفتاة الصغيرة عهد بها كي تربّى لدى أشخاص مهذبين وما إلى ذلك. وعندئذ أخبرته بحالة الأسرة في البيت بسبب غياب أنجر وقد تركت صبيّين صغيرين لا يقوم على رعايتهما أحد سوى امرأة أجيرة وما إلى ذلك. وقلت: ولديّ تفويض من زوجها يخول لي حرية التصرف سواء بطلب مراجعة القضية مراجعة دقيقة شاملة أو بطلب العفو عن بقية العقوبة، فقال المحافظ: أحب أن أرى هذا التفويض، فقلت: وهو كذلك سأحضره معي غداً في ساعة الزيارة».

وكان إسحق جالساً يصغي وقد أثاره أن يسمع قصة عجيبة عن جهات أجنبية، ولذا كان يتابع فم «جايزلر» بعينين ضارعتين. واستطرد جايزلر: «وعدت مباشرة إلى الفندق وكتبت التفويض وفعلت كل شيء بنفسي طبعاً ووقعه إسحق سالنرا، ولكن لا تتوهم أنني قلت كلمة واحدة من قبل الطعن على طريقتهم في معالجة الأمور في السجن. ولا كلمة

واحدة. وفي اليوم التالي توجهت إلى هناك بالورقة. وقال المحافظ بمجرد دخولي من الباب، أفلا تجلس؟ وقرأ ما كتبته وجعل يهز رأسه هنا وهناك وأخيراً قال: «حسن جداً حقاً. وقد يكون من الصعب أن يعاد النظر في القضية من جديد ولكن... » فقلت: انتظر قليلاً فعندي وثيقة أخرى قد تصحح الوضع فيما أعتقد، لقد غلبته على أمره في هذا أيضاً كما ترى، فقال متعجلاً: «حسن. لقد ظللت أفكر في هذا الأمر منذ أمس وأعتقد أن ثمة مبرراً قوياً كافياً لطلب العفو»، فسألته: وهل سيظفر هذا الطلب بتأييد الحكومة؟ فقال: نعم بالطبع. وسأوصي على الطلب خير التوصية. وعندئذ انحنيت وقلت: في هذه الحالة لن يلاقي العفو صعوبة بالطبع، وأنا أشكرك يا سيدي باسم امرأة معذبة وبيت مهدم. فقال: لا أعتقد أنه ستكون ثمة حاجة إلى بيانات جديدة -أعني من المركز- عن قضيتها، فأنت تعرف المرأة شخصياً، وهذا ينبغي أن يكون كافياً، وكنت أعرف تمام المعرفة بالطبع لماذا أراد أن يسوي المسألة بأقصى ما يمكن من الهدوء، ولذا وافقته قائلاً إن هذه البيانات لن تفيد إلا في تعطيل الإجراءات انتظاراً لجمع المعلومات... وها هي ذي القصة كلها يا إسحق» ثم نظر جايزلر إلى ساعته وقال: «والآن لنشرع في العمل. أتستطيع أن تصعد معي إلى تلك الأرض مرة أخرى؟».

وكان إسحق مخلوقاً صخرياً قرماً من الرجال، فلم يجد من السهل عليه تغيير الموضوع في الحال، لأنه كان منهمكاً في أفكاره وعجبه، فشرع يلقي الأسئلة حول هذا الأمر وذاك فعلم أن التماس العفو قد أرسل إلى الملك وقد يفصل فيه في إحدى الجلسات الأولى بمجلس الدولة، فقال: «الأمر كله معجزة».

وبعدئذ صعدوا إلى التلال: جايزلر ومعاونه وإسحق، وظلوا هناك بضع ساعات. وفي وقت قصير جداً كان جايزلر قد تتبع امتداد عرق النحاس في مساحة واسعة من الأرض ووضع علامات لحدود البقعة التي يريدها فكان هنا وهناك وفي كل مكان، بيد أنه لم يكن مغفلاً رغم حركاته السريعة. فهو سريع في الحكم إلا أنه على سرعته تلك صائب الرأي.

ولما عادوا إلى المزرعة مرة أخرى بزكيبة مملوءة بعينات من الركائز، أخرج أدوات الكتابة وجلس ليكتب، ولكنه لم يدفن نفسه تماماً فيما يكتب، بل كان يتكلم بين فينة وفينة: «حسن يا إسحق. إن المبلغ لن يكون كبيراً جداً هذه المرة في مقابل الأرض. ولكني أستطيع أن أعطيك مئتي دالر على كل حال فوراً» ثم كتب قليلاً إلى أن قال: «ذكرني قبل رحيلي فأنا أريد أن أرى طاحونك» ثم لمح علامات زرقاء وحمراء على إطار النول فسأله: «من رسم هذا؟» وكان راسمه اليزيوس، رسم حصاناً وعنزة، وكان يستخدم قلمه الرصاص الملون للرسم على النول وعلى خشب البيت أينما كان لأنه ليس لديه ورق. فقال جايزلر: «إنه ليس رديئاً على الإطلاق»، وأعطى اليزيوس قطعة نقود، وواصل جايزلر الكتابة برهة ثم رفع بصره وقال: «سيأتي أناس آخرون ليأخذوا أرضاً في المناطق المجاورة قبل مضي وقت طويل». وعندئذ قال الرجل الذي معه: «لقد بدأ بعضهم بالفعل» فقال جايزلر: «هوه. ومن عساه يكون؟» قال إسحق: «هناك أولاً المقيمون في بريدابليك كما يسمونها... إنه الرجل بريد في بيدابليك» فنشق جايزلر بازدراء وقال:«ذاك؟ يوه»... «ثم هناك واحد أو اثنان آخران اشتريا أرضاً»

فقال جايزلر: «أشك في أن يكون أحد من هؤلاء جميعاً صالحاً لذلك». ولاحظ في الوقت نفسه وجود الصبيين في الحجرة فقبض على سيفرت الصغير وأعطاه قطعة نقود. لقد كان جايزلر رجلاً مرموقاً. وكانت عيناه، على فكرة، قد بدأتا تبدوان محتقنتين، فثمة شيء من الاحمرار عند حافتيهما. وقد يكون ذلك نتيجة عدم النوم. كما أن ذلك ينتج أحياناً من تعاطي المشروبات القوية، ولكنه لم يكن يبدو خائر النفس إطلاقاً، ورغم حديثه كله في هذا الأمر وذاك في غضون الكتابة، إلا أن تفكيره كان متجهاً بلا شك إلى وثيقته طوال الوقت لأنه تناول القلم فجأة وكتب فقرة إضافية. وأخيراً بدا أنه فرغ منها فالتفت إلى إسحق وقال: «حسن. هذه الصفقة -كما قلت لك- لن تجعلك غنياً على الفور ولكن قد يأتيك مزيد بعد ذلك فسوف نرتب الأمر بحيث تحصل على مزيد فيما بعد، ولكني على أيةحال أستطيع أن أعطيك مئتين الآن».

ولم يفهم إسحق إلا القليل من المسألة كلها، ولكن المائتي دالر معجزة أخرى على كل حال، وهي مبلغ غير معقول. وسيحصل عليها على الورق طبعاً، لا نقداً. ولكن لا بأس. ففي رأس إسحق الآن أمور أخرى. فقد سأله: «أتظن أنه سيعفى عنها؟» فأجابه: «أيه؟ أوه. زوجتك. حسن. لو كان في القرية مكتب تلغرافي لكنت أبرقت إلى ترونيم وسألت هل أطلق سراحها حقاً أم لا؟».

وكان إسحق قد سمع أناساً يتحدثون عن التلغراف، وهو شيء رائع عجيب.... سلك معلق بين أعمدة كبيرة، شيء مرتفع عموماً فوق الأراضي العامة، وبدا أنه ذكره الآن هزّ إيمانه بكلمات جايزلر، فقال بقلق: «ولكن هب الملك قال لا» فقال جايزلر: «في هذه الحالة أرسل وسيلتي

الاحتياطية، وهي بيان كامل عن الموضوع بأكمله. وعندئذ يتحتم عليهم أن يطلقوا سراحها، وليس في هذا شائبة ريب».

ثم تلا ما كتبه، وهو عقد شراء الأرض. مئتا دالر فوراً، ثم فيما بعد نسبة مئوية من حصيلة إيرادات الأعمال، أو التصرف النهائي ببيع في المستقبل لمنجم النحاس. وقال جايزلر: «وقع باسمك هذا».

وكان إسحق حرياً أن يوقع طواعية، ولكنه لم يكن عالماً، ولم يتقدم في حياته كلها إلى أبعد من حفر الحروف الأولى من الأسماء في الخشب. ولكن تلك المخلوقة الكريهة أولين واقفة تنظر إليه، فتناول القلم -وهو شيء كريه أخف في اليد من أن يسهل استعماله على كل حال- ومد طرفه الصحيح إلى أسفل وكتب - كتب اسمه. وعندئذ أضاف جايزلر شيئاً، شرحاً على الأرجح، ووقع الرجل الذي جاء به معه بوصفه شاهداً، وبذلك تم العقد.

ولكن أولين كانت لم تزل هناك، واقفة لا تتحرك. والآن فقط تحولت إلى التصلب في وقفتها. فماذا يزمع أن يحدث؟

وقال إسحق، وربما كانت لهجته ناضحة بالوقار والمهابة بعد أن وقع باسمه كتابة على الورق: «العشاء على المائدة يا أولين» ثم استطرد مخاطباً جايزلر: «في حدود ما في استطاعتنا تقديمه» فقال جايزلر: «يبدو من رائحته أنه طيب. لحم جيد ولبن. هاك يا إسحق نقودك» وأخرج جايزلر حافظة نقوده -وكانت سميكة - سمينة- وأخرج منها حزمتين من الأوراق المالية وضعهما أمامه قائلاً: «عدها بنفسك مرة ثانية».

لا حركة. لا صوت.

وقال جايزلر مرة أخرى: «إسحق».

وأجابه إسحق: «إي. نعم» وغمغم مذهولاً: «ما كنت لأطلبها منك أو آخذها، بعد كل ما فعلته لي!» فقال جايزلر باقتضاب: «عشر عشرات في هذه -كما ينبغي- وعشرون خمسة في هذه. وآمل أن يكون هناك أكثر من هذا بكثير جداً مقابل نصيبك في وقت قريب».

وعندئذ أفاقت أولين من شرودها. لقد حدثت الأعجوبة بعد كل شيء ووضعت الطعام على المائدة.

وفي الصباح التالي خرج جايزلر إلى النهر لينظر إلى الطاحون. وكان الطاحون صغيراً ومبنياً بناء خشناً، أي طاحون للمسخوطين والأقزام، ولكنه طاحون قوي ونافع لعمل الرجل. وقاد إسحق ضيفه مسافة أبعد على طول النهر صوب المنبع وأراه مسقطاً آخر كان يعمل عنده كي يحوله إلى منشر للأخشاب، إن أعطاه الله الصحة، وقال: «الشيء الوحيد الذي يقلقني أن المكان بعيد عن المدرسة. ولذا سأضطر إلى إقامة الولدين في القرية». ولكن جايزلر كان كالعهد به دائماً مسارعاً إلى العثور على حل، فلم يجد في ذلك داعياً للقلق وقال: «هناك أناس جدد يشترون الأرض ويستقرون هنا الآن. فلن يطول الوقت حتى يكون هناك عدد كاف لإنشاء مدرسة، فقال إسحق: «ربما ولكن ليس قبل أن يكون ولداي قد كبرا» فقال جايزلر: «حسن. ولماذا لا تتركهما يعيشان في مزرعة بالقرية؟ في مقدورك أن تذهب والولدين بالعربة ومعكما بعض الزاد، وتعود بهما مرة أخرى بعد ثلاثة أسابيع أو ستة. إن هذا سيكون سهلاً عليك بالتأكيد؟» فقال إسحق:

«إي. ربما».

إي. إن كل شيء سيكون سهلاً إن عادت أنجو إلى البيت. إن لديه الآن بيتاً وأرضاً وطعاماً وأشياء عظيمة، ومبلغاً كبيراً من المال أيضاً، ولديه قوته وإنه لصلب كالمسامير... والصحة والقوة، أجل، كاملتان غير معطوبتين ولا منهكتين من أي وجه. صحة وقوة رجل بمعنى الكلمة.

ولما انصرف جايزلر بدأ إسحق يفكر في أمور كثيرة جريئة. إي. ألم يقل جايزلر -وإنه لبركة عليهم جميعاً- عند رحيله إنه سيبعث برسالة في وقت قريب جداً، سيرسل برقية بأسرع ما يستطيع. وقال: «في وسعك أن تمر بمكتب البريد في مدى أسبوعين» وهذا في حد ذاته شيء عجيب. وشرع إسحق في صنع مقعد للعربة. مقعد يمكن بالطبع رفعه عندما يستخدم العربة لنقل السماد العضوي، ويمكن إعادته عندما يريد المرء الركوب. ولما فرغ من صنع المقعد بدا شديد البياض والجدة بحيث وجب طلاؤه بلون أدكن. وأما عن الطلاء، فثمة أشياء كثيرة يجب طلاؤها: المكان كله بحاجة -ابتداء- إلى طلاء. وهو منذ سنين يفكر في بناء بيدر ذي قنطرة ليخزن فيه المحصولات. وكان قد فكر أيضاً في تركيب ذلك المنشور والانتهاء منه، وتسوير جميع أرضه المزروعة وبناء قارب على البحيرة بين التلال. أشياء كثيرة فكر في صنعها. ولكن مهما اجتهد في العمل، وبلغ اجتهاده حداً غير معقول، فما جدوى ذلك في مواجهة الزمن؟ الزمن دائماً أقصر مما ينبغي. فيوم الأحد يحل قبل أن يدري بحلوله، ثم بعد ذلك مباشرة إذا به في يوم الأحد مرة أخرى.

إنه سيقوم بالطلاء على كل حال. هذا أمر مقرر ومؤكد. فالمباني كانت قائمة بلونها الأشهب العاري، وكأنها بيوت في قمصان بلا سترات، ولم يزل أمامه وقت قبل حلول موسم العمل، فالربيع لم يكد يبدأ، وبواثق النبت برزت، بيد أن الصقيع لم يزل في الأرض.

وتوجه إسحق إلى القرية، وأخذ معه بضع عشرينات من البيض لبيعها كي يعود بالطلاء، وكان ثمة ما يكفي لطلاء بناء واحد، وطلاء البيدر، فطلاهما باللون الأحمر. وجلب مزيداً من الطلاء، وكان أصفر طفلياً هذه المرة لطلاء البيت نفسه، وكانت أولين تزمجر كل يوم: «إي. الأمر كما قلت. سيكون كل شيء هنا فخماً عظيماً» وكان في مقدور أولين أن تحدس، ولا ريب أن مدة إقامتها في سالنرا ستنتهي قريباً، وهي من الصلابة والقوة بحيث تتحمل هذا، وإن لم تخلُ من مرارة، وإسحق من جانبه لم يعد يفكر في الانتقام منها الآن، وإن كانت تختلس وتخفي الأشياء في إسراف شديد قرب نهاية مدتها. وأهداها كبشاً مخصياً صغير السن، لأنها بعد كل شيء قد أقامت معه مدة طويلة وعملت لديه بأجر قليل. ولم تكن أولين سيئة جداً مع الولدين، فلا هي صارمة ولا متزمتة أو ما إلى ذلك، فلها مهارة خاصة في معاملة الطفلين: تصغي لما يقولان وتتركهما يصنعان تقريباً ما يريدان. وإذا اقتربا منها وهي تصنع الجبن أعطتهما قطعة ليتذوقاها، وإذا توسلا إليها أن تعفيهما من غسيل وجهيهما يوم الأحد أعفتهما.

ولما طلى إسحق جدرانه بأول طبقة نزل القرية مرة أخرى وعاد بكل ما يستطيع حمله من الطلاء، وأتم الطلاء ثلاث طبقات، وطلى أفاريز النوافذ وأركانها باللون الأبيض. فمن عاد الآن ونظر إلى بيته هناك على جانب التل فكأنما ينظر إلى قصر مسحور. لقد أصبحت البرية مأهولة لا يكاد يعرفها الناظر إليها. لقد حلت عليها بركة، وأفاقت فيها الحياة من حلم قديم، فهنا آدميون يعيشون وأطفال يلعبون حول البيت، والغابة تمتد عظيمة لطيفة مصعدة إلى القبة الزرقاء.

وفي آخر مرة ذهب فيها إسحق إلى القرية لجلب الطلاء أعطاه صاحب المتجر مظروفاً أزرق مختوماً وتقاضاه بخمسة سكيلنجات. وكان هذا المظروف برقية أتمت طريقها إلى هناك بالبريد، مرسلة من العمدة جايزلر. بورك في هذا الرجل جايزلر، فما أعجبه من رجل. لقد أبرق إليه في كلمات قلائل: «إن أنجر أطلق سراحها، وستكون في بيتها بأقرب وقت ممكن - جايزلر». وعندئذ أخذ المتجر يلف ويدور بصورة غريبة وصار البنك، والذين في المتجر بعيدين عنه فجأة، وشعر إسحق بنفسه - أكثر مما سمع نفسه- يقول: «يا إلهي!» و«حمداً وشكراً للرب».

وقال صاحب المتجر: «قد تصل إلى هنا غداً على الأكثر إن كانت قد غادرت ترونيم في الوقت المناسب» فقال إسحق: «هوه!».

وانتظر إلى اليوم التالي، وجاء الساعي بخطابات من المرسى الذي تقف عنده الباخرة، ولكن لم تصل أنجر. فقال صاحب المتجر: «سوف لا تصل إذاً قبل الأسبوع المقبل».

وكان خيراً تقريباً أن يكون أمامه وقت للانتظار، فقد كانت لدى إسحق أشياء كثيرة يصنعها، فهل له أن ينسى نفسه تماماً ويهمل أرضه؟ ورحل إلى البيت مرة أخرى وشرع بنقل السماد العضوي. وفرغ من ذلك بسرعة، وغرس عتلة في الأرض، وقد لاحظ تلاشي الصقيع من يوم إلى آخر. فالشمس الآن كبيرة وقوية، والثلج قد ذهب، وبرت الخضرة الآن في كل مكان، وخرجت الماشية للرعي. وحرث إسحق يوماً، وبعد بضعة أيام بذر القمح وزرع البطاطس. وكان الصغيران أيضاً يزرعان البطاطس كالملائكة. إن لهما أياديَ صغيرة مباركة، وماذا في وسع أبيهما أن يصنع سوى المراقبة.

وعندئذ غسل إسحق العربة عند النهر، ووضع فيها المقعد، وتحدث إلى الولدين عن رحلة لا بد أن يقوم بها إلى القرية، فقالا: «ألن تذهب ماشياً؟» فقال: «ليس اليوم. خطر لي أن أذهب اليوم بالعربة والحصان». فقالا: «أفلا نذهب معك؟» فقال: «عليكما أن تكونا عاقلين وتبقيا في البيت هذه المرة، فسوف تحضر أمكما قريباً جداً وتعلمكما أشياء كثيرة».

وكان اليزيوس شديد الميل إلى التعلم، فسأل: «يا أبي، عندما قمت بتلك الكتابة على الورق، ماذا كان شعورك؟» فقال: «لا تكاد تشعر بشيء، فكأنما ليس في اليد شيء». فسأله: «ولكن ألا ينزلق كأنما يجري على الثلج؟» فقال: «ما الذي ينزلق؟» فقال: «القلم، ذلك الشيء الذي تكتب به؟» فقال: «إي... هناك القلم. ولكن يجب أن تتعلم كيف توجهه، وسترى».

أما سيفرت الصغير فكان من طراز آخر، فلم يقل شيئاً عن الأقلام، بل كان يريد أن يركب العربة. يريد فقط أن يركبها قبل شد الحصان إليها، ويقودها هكذا، بسرعة شديدة، والعربة بلا حصان. وبسببه سمح لهما أبوهما أن يركبا معه كلاهما مسافة طويلة على الطريق.

الفصل الحادي عشر

ساق إسحق عربته حتى وصل إلى بركة في البرية أشبه ببحيرة صغيرة وسط المستنقعات فجذب العنان. بحيرة وسط المستنقعات قائمة عميقة الغور وسطح البحيرة ساكن سكوناً تاماً. فأدرك إسحق فيما تغير فهو لم يكد يستخدم في حياته مرآة سوى برك الماء في المستنقعات. ونظر ليرى كم يبدو لطيفاً أنيقاً اليوم في قميص أحمر، ثم أخرج مقصاً وشذب لحيته، يا له من رجل حمال أثقال مغرور. أتراه يريد أن يجعل نفسه وسيماً على الفور ويقص ما نبت في خمس سنوات في لحيته الحديدية؟ إنه يقص منه ويقص ناظراً إلى نفسه في مرآته. وكان حرياً أن يصنع ذلك كله في البيت بالطبع لولا أنه خجل من القيام به أمام أولين. وكان حسبه أن يقف هناك قبالة أنفها ويرتدي قميصاً أحمر. إنه يقص ويقص. وجانب من لحيته يتساقط في مرآته اللامعة. وفرغ صبر الحصان أخيراً وبدأ يتحرك. وقرت عين إسحق رضى عن نفسه كما هو فنهض. والحق أنه بات يشعر الآن أنه أصغر سناً بالفعل على نحو ما. والشيطان وحده يعلم ماذا يمكن أن يكون سبب ذلك. ولكنه أخفّ جرماً على نحو ما، ومضى إسحق بعربته إلى القرية.

وفي اليوم التالي وصلت سفينة البريد، وتسلق إسحق صخرة بجوار رصيف مرفأ صاحب المتجر، وتطلع ولكنه لم ير أثراً لأنجر. كان ثمة

ركاب، أناس كبار ومعهم أطفال - يا إلهي: ولكن لا أنجر. ولبث في المؤخرة جالساً على صخرة ولكن لم تعد ثمة حاجة للبقاء في المؤخرة فنزل عن الصخرة وذهب إلى الباخرة. وكانت ثمة براميل وصناديق تُدحرج إلى الشاطئ. وأناس وزكائب بريد، ولكن إسحق لم يزل يفتقد ما جاء ينشده. وكان هناك شيء ما - امرأة ومعها بنت صغيرة عند المدخل إلى سلم النزول. بيد أن المرأة كانت أحلى منظراً من أنجر -وإن كانت مليحة. ماذا- لماذا- ولكن... إنها هي أنجر. وقال إسحق وهو يتدحرج إلى فوق ليلقاهما «هم» وقالت أنجر محيية: «طاب يومك» ومدت يدها. وكانت باردة قليلاً وشاحبة بعض الشيء بعد الرحلة، فقد أصابتها وعكة في الطريق، ووقف إسحق هناك جامداً في مكانه، وأخيراً قال: «همم، إنه يوم بديع» وما إلى ذلك. فقالت أنجر: «لقد رأيتك هناك في أسفل طول الوقت، ولكني لا أحب أن أزاحم بين الآخرين للنزول إلى الشاطئ. إذاً فأنت قد نزلت القرية اليوم؟»، «إي. نعم. همم» فسألته: «وكل شيء على ما يرام في البيت وفي خير حال؟» فقال: «إي... أشكرك على تلطفك». فقالت: «هذه ليوبولدين لقد تحملت الرحلة أفضل من تحملي لها بكثير، هذا أبوك يا ليوبولدين تعالي وصافحيه بلطف» فقال إسحق وهو يشعر بغرابة شديدة: «همم» نعم إنه كغريب وهو معهما فجأة. وقالت أنجر: «إذا وجدت آلة حياكة على الشاطئ بجوار السفينة فهي ملكي. وهناك صندوق أيضاً».

وانطلق إسحق وهو أكثر من مسرور بالانطلاق- للبحث عن الصندوق وأراه رجال السفينة أي صندوق هو. أما آلة الحياكة فكانت شيئاً آخر وعلى أنجر أن تنزل لتعثر عليها بنفسها. وكانت صندوقاً

سليماً غريب الشكل فوقه غطاء مستدير وله يد لحمله. آلة حياكة في هذه الأصقاع؟ ورفع إسحق الصندوق وآلة الحياكة على كتفه وساروا إلى موضع العربة فقال: «إي. لم أشأ أن أحضرها كل هذه المسافة خشية ألا تحضري اليوم». فقالت: «همم، ما هذا الذي كنت تقول من قبل- الولدان بخير وما إلى ذلك؟» فقال: «إي. أشكرك على تلطفك» فسألته: «إخالهما صارا الآن غلامين كبيرين؟» فقال: «إي. هذا صحيح. وكانا يزرعان البطاطس» فقالت الأم باسمة وهي تهز رأسها: «أوه، أفي مقدورهما فعلاً أن يزرعا البطاطس؟» فقال إسحق مزهواً: «ولم لا؟ اليزيوس يساعدني في هذا الشيء... وسيفرت الصغير يساعد في ذاك».

وطلبت ليوبولدين الصغيرة شيئاً تأكله. أوه. يا للمَخلوقة الصغيرة الجميلة كأنها دوقة فوق عربة. إنها تتكلم وفي صوتها غنة، وبلكنة غريبة على نحو ما تعلمت في ترونيم. وكان على أنجر أن تترجم كلامها بين الحين والحين، وكانت لها ملامح أخويها: العينان البنيتان والوجنتان البيضاويتان، وهي الملامح التي أخذها ثلاثتهم عن أمهم. أجل إنهم أبناء أمهم، ومن الخير أنهم كذلك. وكان إسحق خجلاً بعض الشيء من ابنته الصغيرة، خجلاً من حذائها الصغير، وجواربها الطويلة الرفيعة الصوفية وثوبها القصير عندما أقبلت لتلاقي أباها الغريب وثنت ركبتها وانحنت ومدت إليه يداً دقيقة.

ودخلوا الغابة وتوقفوا للراحة ولتناول وجبة الطعام. وقدم للحصان علفه وراحت ليوبولدين تجري بين نبات الخلنج، وكانت تأكل أثناء جريها.

وقالت أنجر وهي ناظرة إلى زوجها: «إنك لم تتغير كثيراً» فنظر

إسحق نظرة جانبية وقال: «لا. أتظنين ذلك؟ ولكنك أصبحت فخمة جداً وما إلى ذلك» فقالت معابثة: «ها ها: لا. أنا الآن امرأة عجوز».

ولم تكن ثمة فائدة من محاولة إخفاء الواقع: فإسحق لم يعد واثقاً بنفسه الآن إطلاقاً. وعجز عن استعادة سيطرته على نفسه، إلا أنه ظل متباعداً متهيباً كأنه خجل من نفسه. كم يمكن أن تكون زوجته قد بلغت من العمر الآن؟ إنها لا يمكن أن تكون أقل من الثلاثين -يعني أنها لا يمكن أن تزيد عليها بالطبع. ومع أن إسحق كان يأكل الطعام إلا أنه لم يمنع نفسه من جذب عسلوج خلنج ثم راح يقضمه بأسنانه، فصاحت به أنجر ضاحكة: «ماذا؟ أتأكل الخلنج؟» فرمى إسحق العسلوج من يده وتناول ملء فمه من الطعام ثم ذهب إلى الطريق فأمسك بالحصان من قائمتيه الأماميتين ورفعه إلى أعلى إلى أن وقف الحيوان على قائمتيه الخلفيتين. وكانت أنجر تنظر بدهشة، فسألته: «لماذا تصنع ذلك؟» فقال إسحق: «أوه. إنه لعوب جداً». ثم أنزل الحصان ثانية.

والآن لماذا أفعل ذلك؟ إنه باعث مفاجئ دفعه إلى إتيان ذلك العمل بالذات، ولعله فعله ليخفي ما يشعر به من حرج.

واستأنفوا السير، فمشى ثلاثتهم جزءاً من الطريق معاً إلى أن وصلوا إلى مزرعة جديدة، فسألته أنجر: «ما هذا الذي هناك؟» فقال: «هذا مكان «بريد»، المكان الذي اشتراه». فقالت: «بريد؟» فأجابها: «وهو يسميه بريدابليك. وهنا أرض مستنقعات واسعة بيد أن الخشب فقير».

وظلا يتحدثان عن ذلك المكان الجديد وهما سائران. ولاحظ إسحق أن عربة بريد لا تزال متروكة في العراء، وكانت الطفلة قد بدأت تشعر

بالنعاس فحملها إسحق بين ذراعيه بلطف وسار بها، وظلا سائرين إلى أن غرقت ليوبولدين في النوم، فقالت أنجر: «سنلفها في البطانية ونرقدها في العربة فتنام كما تشاء» فقال إسحق: «إن العربة ستهزها وتضعضعها» وظل يحملها ماشياً بها وعبرا المستنقعات ودخلا في الغابة مرة أخرى. ونادت أنجر الحصان ليقف فوقف ثم أخذت الطفلة من إسحق وجعلته ينقل الصندوق وآلة الحياكة فوسعا مكاناً لليوبولدين في قاع العربة وقالت: «هل ستهتز؟ ولا أنملة» ورتب إسحق كل شيء على ما يرام ولف ابنته الصغيرة في البطانية وطوى سترته فوضعها تحت رأسها ثم انطلقا مرة أخرى.

وأخذ الرجل وزوجته يثرثران في هذا الموضوع وذاك، وظلت الشمس طالعة إلى وقت متأخر من المساء، فكان الجو دافئاً. وسألت أنجر: «وأين تنام أولين؟» فقال: «في الحجرة الصغيرة». فقالت: «أوه، والولدان؟» فقال: «لديهما فراشهما في الحجرة الكبيرة. فهناك فراشان كما كان الحال عند رحيلك». فقالت أنجر: «أستطيع وأنا أنظر إليك الآن أن أرى أنك كما كنت من قبل بالضبط. وكتفاك هاتان حملتا ولا شك كثيراً من الأثقال على طول هذه الطريق، بيد أن ذلك فيما يبدو لم يوهن منهما شيئاً» فقال: «همم. ربما. ما كنت أريد أن أقوله: كيف كانت أحوالك طيلة هذه السنوات، محتملة؟» أوه. إن إسحق الآن لين القلب. وقد وجه إليها هذا السؤال وهو يتعجب في سريرته، وقالت أنجر: «إي. لم يكن الحال داعياً للشكوى».

واتخذ حديثهما معاً مزيداً من الصبغة العاطفية، فسألها إسحق: «ألم تتعبي من السير فتركبي العربة بعض الطريق؟» فقالت: «لا.

أشكرك على كل حال وإن كنت لا أدري ماذا بي اليوم، فأنا أشعر بالجوع طول الوقت بعد أن أصابتني الوعكة على ظهر السفينة» فسألها: «أتريدين شيئاً إذاً؟» فقالت: «نعم. إن لم يكن لديك مانع من الوقوف وقتاً كافياً».

يا لأنجر: لعل طلبها لم يكن لنفسها إطلاقاً، بل لأجل إسحق. فقد أرادت له أن يأكل مرة أخرى بعد أن أفسدت وجبته السابقة بمضغ أغصان الخلنج الصغيرة.

وكان المساء واضحاً دافئاً. ولم تبق أمامهما إلا أميال قليلة، فجلسا وأكلا مرة أخرى. وأخرجت لفافة من صندوقها وقالت: «معي أشياء قليلة أتيت بها للأولاد. فلندخل بين الأشجار، لأن الجو هناك أدفأ». وتوجها صوب الأشجار وأرته الأشياء: حمالات أنيقة ذات أبزيم ليلبسها الولدان. وكتب للخط بها أمشق رأس الصحيفة، وقلم رصاص لكل منهما، ومبراة لكل واحد أيضاً. وكان ثمة كتاب بديع لنفسها. «انظر. إن اسمي مكتوب عليه وكل شيء، كتاب صلوات»، وكان هدية من محافظ السجن على سبيل التذكار.

وأعجب إسحق بكل شيء في صمت، وأخرجت حزمة من بنيقات صغيرة وكانت هذه تخص ليوبولدين. وأعطت إسحق منديل عنق أسود لامعاً كالحرير، فسألها: «أهذا لي؟» فقالت: «نعم، هذا لك» فتناوله بعناية بين يديه وأخذ يرتبه. فسألته: «أتراه لطيفاً؟» فقال: «لطيف. بل إنني أستطيع أن أطوف العالم كله وأنا لابس مثل هذا المنديل» ولكن أصابع إسحق كانت خشنة فتشابكت أنامله في نسيج المنديل الحريري الغريب.

ولم يعد لدى أنجر ما تريه إياه، ولكنها بعد أن رتبت كل شيء في مكانه كما كان جلست هناك ساكنة. ومن طريقة جلوسها كان في استطاعته أن يرى ساقيها وأن يرى جوربها وحافته العليا الحمراء، فقال: «همم، أحسب هذا الجورب من مصنوعات المدينة؟» فقالت: «الصوف مشترى من المدينة ولكنني حبكت الجورب بنفسي. إنه طويل جداً، يصل إلى ما فوق الركبة بكثير... انظر..».

وبعد هنيهة يسيرة سمعت نفسها تهمس: «أوه. ويحك. إنك لم تزل كما كنت.... كما كنت دائماً أبداً».

وبعد هذه الوقفة مضيا بالعربة مرة أخرى وقد جلست فوقها أنجر تمسك بالأعنة وقالت: «لقد جئت معي أيضاً بكيس بن. ولكنك لن تستطيع أن تتناول شيئاً من القهوة الليلة لأني لم أحمصه بعد» فقال: «لا حاجة بنا إلى مزيد هذا المساء».

وبعد ساعة غربت الشمس واشتدت البرودة فنزلت أنجر لتمشي. ولف الاثنان البطانية بصورة أكثر إحكاماً حول ليوبولدين وابتسما وهما يرقبان مدى عمق نومها. وتحدث الرجل وزوجته معاً مرة أخري في طريقهما، وإنها لمسرة لقلبه أن يسمع صوت أنجر، فما من أحد أوضح من أنجر الآن كلاماً. وسألته: «ألم يكن ما عندنا أربع بقرات؟» فقال مزهواً: «لدينا الآن أكثر من هذا. لدينا ثمان» فهتفت: «ثماني بقرات!» فقال: «إي. وبيض» فسألته: «ماذا؟ ألدينا دجاج؟» فقال: «إي طبعاً. وخنزير أيضاً».

وبلغ من تعجب أنجر من ذلك كله أنها نسيت نفسها تماماً فتوقفت لحظة «بترو» وشعر إسحق بالزهو، واستمر محاولاً أن يذهلها تماماً فقال:

«وجايزلر، ألا تذكرينه؟ لقد أتى إلينا منذ مدة؟» فقالت: «أوه؟» فقال: «لقد بعثه منجم نحاس» فقالت: «ما هذا؟ منجم نحاس؟» فقال: «نعم نحاس. هناك بين التلال على طول الشقة الجنوبية من الماء» فقالت: «أنت لا تعني أنه أعطاك نقوداً في مقابل ذلك؟» فقال: «إي. بل دفع. جايزلر لا يقبل أن يشتري شيئاً بغير مقابل» فسألته: «وكم أعطاك إذاً؟» فقال: «هم... حسن. قد لا تصدقين ولكنه أعطاني مئتي دالر». فصاحت أنجر وهي تقف الحصان مرة أخرى صائحة به بترو: «أنت حصلت على مئتي دالر؟» فقال إسحق: «أجل. وقد دفعت ثمن أرض منذ أمد طويل» فقالت: «حسن. أنت أعجوبة. أعجوبة».

والحقيقة أنه وجد سروراً في رؤية أنجر وقد استبدت بها الدهشة، وفي أن يجعل منها زوجة غنية. ولم ينس إسحق أن يضيف إلى ما تقدم أنه خالٍ من الديون، وليست عليه استحقاقات في المتجر أو في أي مكان. ونقود جايزلر المئتان لم تمس فحسب بل لديه أيضاً أكثر منها مئة وستين دالراً، ففي وسعهما حقاً أن يكونا شاكرين للرب.

وتحدثا عن جايزلر مرة أخرى فاستطاعت أنجر أن تخبره كيف ساعدها على إطلاق سراحها. ولم يكن الأمر سهلاً عليه بعد كل شيء فيما يبدو فقد استغرق إنجاز الموضوع مدة طويلة وزار المحافظ مراراً كثيرة. وكان جايزلر قد كتب أيضاً إلى بعض مستشاري الدولة وإلى غيرهم من كبار المسؤولين، بيد أنه فعل ذلك من وراء ظهر المحافظ، فلما علم المحافظ غضب، ولا عجب، ولكن جايزلر لم يخف وطلب إعادة النظر في القضية بمحاكمة جديدة، وتحقيق جديد وكل شيء، وبعد ذلك اضطر الملك للتوقيع.

لقد كان العمدة السابق جايزلر صديقاً طيباً لكليهما على الدوام، وكانا يتساءلان في كثير من الأحيان عن السبب. فهو لم يربح شيئاً من كل ذلك سوى شكرهما الجزيل. لقد كان الأمر فوق متناول فهمهما، وكانت أنجر قد تحدثت إليه في ترونيم وعجزت عن سبر غوره، وقالت: «إنه فيما يبدو لا يهتم إطلاقاً بأحد من القرية سوانا» فسألها: «أهو قال هذا؟» فقالت: «نعم إنه غاضب على القرية هنا، وقال إنه سيريهم» فقال إسحق: «هوه». واستطرد وقال: «إنهم سيكتشفون الحقيقة يوماً ما ويندمون على فقده».

ووصلوا إلى حافة الغابة فصاروا على مرمى النظر من بيتهم. وكانت هناك أبنية أكثر من ذي قبل وكلها مطلية طلاء لطيفاً. وكادت أنجر لا تعرف المكان ووقفت جامدة مذهولة ثم صاحت: «أنت... أنت لا تعني أن تقول إن هذا مكاننا... هذا كله؟».

وصحت ليوبولدين الصغيرة أخيراً وجلست وقد استوفت راحتها فرفعاها وتركاها تسير. وسألت: «هل وصلنا الآن؟» فقالت أمها: «نعم أليس المكان بديعاً؟».

وكان هناك شخصان صغيران يتحركان قرب البيت هما اليزيوس وسيفرت يقومان بالمراقبة. وأسرعا يجريان صوبهم. وأصيبت أنجر ببرد مفاجئ -برد فظيع في الرأس مع تشقق بالأنف وسعال- وحتى عيناها كانتا حمراوين تماماً ومخضلتين أيضاً. إن ركوب السفن يصيب المرء دائماً ببرد فظيع، يخضل العينين وكل شيء.

ولكن عندما اقترب الصبيان توقفا عن الجري وحملقا، فقد نسيا ماذا كان شكل أمهما، وها هي أخت صغيرة لم يرياها قط من قبل. وأبوهما لم يعرفاه إطلاقاً إلى أن صار قريباً منهما جداً، فقد قص لحيته الغزيرة.

الفصل الثاني عشر

كل شيء الآن على ما يرام.

إسحق يبذر شوفانه، ويمهِّد الأرض ويدحوها، وتأتي ليوبولدين الصغيرة وترغب في الجلوس على المدحاة -تجلس على المدحاة؟- كلا. إنها صغيرة جداً ولا دراية لها بذلك بعد، وأخواها أكثر منها دراية، فمدحاة أبيها ليس فوقها مقعد. ولكن الأب يرى في قدوم ليوبولدين الصغيرة إليه بكل هذه الثقة شيئاً لطيفاً مبهجاً ويكلمها ويريها كيف تسير سيراً حسناً فوق الحقول من غير أن تملأ نعليها بالطين.

«ثم ما هذا؟ أراك ترتدين اليوم ثوباً أزرق، تعالي ودعيني أرى. إي... إنه أزرق فعلاً. وحوله حزام وكل شيء؟ أتذكرين عندما جئت على ظهر السفينة الكبيرة؟ والآلات؟ أرأيتها؟ هذا أحسن. والآن اجري إلى البيت حيث الصبيان وسيجدان لك شيئاً تلعبين به».

لقد رحلت أولين واستأنفت أنجر عملها القديم مرة أخرى في البيت وفي الغناء. ولعلها تبالغ قليلاً في النظافة والترتيب لمجرد إظهار أنها تريد أن يكون كل شيء الآن مختلفاً عن ذي قبل. والحق إنه كان رائعاً أن يرى المرء التغير الذي تم، فحتى زجاج النوافذ في الكوخ القديم المبني بالطين جرى تنظيفه وأخلي من الصناديق.

ولكن ذلك كله كـان في الأيام الأولى أو الأسـبـوع الأول، ثم بدأت لهـفتـها على العـمل تخف. فلم تكن هناك في الواقع حاجة إلى كل ذلك العناء بصـدد سقـيفة البقر ومـا إلى ذلك. ففي وسعـها الآن أن تسـتـخدم وقـتـها فـيمـا هو خير من ذلك. فـأنجر كانت تعلمت الشيء الكثـير وهي مقيمة بين أهل المدينة، وإنها لخسارة ألا تفيد مما تعلمت. فانصرفت مرة أخرى إلى مغزلها ونولها. بل إنها والحق يقال صارت أسرع وأشد أناقة في ذلك العمل من ذي قبل. وكانت تسرف في السرعة -وي؟- لا سيما حينما يكون إسحق واقفاً ينظر إليها، فلم يكن يتصور كيف يتسنى لأي إنسان أن يتعلم استخدام أصابعه على هذا النحو، تلك الأصابع الطويلة البديعة التي كانت لها في يديها الكبيرتين. ولكن أنجر كانت لها طريقتها الخاصة في إسقاط قطعة من عملها لتتناول قطعة أخرى في لحظة واحدة. حسن. حسن. ثمة الآن أشياء تحتاج إلى عنايتها أكثر من ذي قبل. ولعلها لم تعد ذات صبر كما كانت. فثمة شيء يسير من القلق قد دب إليها.

وأول كل شيء هناك تلك الأزهار التي أحضرتها معها على صورة أبصال وعقل، وهي كائنات حية صغيرة لا بد من الاهتمام بها. والنافذة الزجاجية أصغر مما ينبغي، وطنفها أضيق مما ينبغي لوضع آنية الزهر عليه، ثم إنه ليس لديها آنية زهر، فلا بد أن يصنع إسحق صناديق صغيرة لنبات البيجونيا (أذن الفيل) والفوكسيا (الفخساء) والورد. وفضلاً عن هذا لا تكفي هذه النافذة الواحدة. تصور حجرة ذات نافذة واحدة فقط.

وقالت أنجر: «وبهذه المناسبة أريد مكواة أيضاً. فليس في المكان مكواة كما تعلم. وفي وسعي أن أستخدم مكواة مسطحة لكيِّ الثياب

وأنا أقوم بالحياكة، وليس في وسع المرء أن يقوم بالعمل على ما يرام دون مكواة. ».

ووعد إسحق أن يكلف حداد القرية بصنع مكواة للملابس من الطراز الأول. أوه. إن إسحق كان مستعداً أن يفعل أي شيء وأن ينفذ كل ما تطلبه منه من جميع الوجوه، لأنه صار يرى بوضوح أن أنجر تعلمت الآن أموراً كثيرة، وأصبحت بارعة براعة لا تجارى، وهي تتكلم أيضاً بطريقة مختلفة، وبصورة أرقى، وتستخدم كلمات أنيقة. فهي لا تصيح به الآن كما كان من عادتها أن تصيح: تعال كل، بل تقول بدلاً من ذلك: الطعام مع، من فضلك، فكل شيء الآن مختلف عن ذي قبل. ففي الأيام الخوالي كان يجيبها ببساطة: «إي» أو لا يقول شيئاً على الإطلاق ويمضي في عمله برهة قبل المجيء. أما الآن فهو يقول: «شكراً» ويمضي على الفور. فالحب يستخف حلم الحليم، وبين حين وحين يقول إسحق: «شكراً. شكراً» أجل كل شيء الآن مختلف بل لعله أرقى مما ينبغي من بعض الوجوه. فحين يتحدث إسحق عن الروث بلهجة فظة كما يتحدث الفلاحون، تفضل أنجر أن تدعوه سماداً «رعاية لوجود الأطفال كما تعلم».

وكانت شديدة العناية بالأطفال، وعلمتهم كل شيء، وهذبتهم. فهي تتيح للصغيرة ليوبولدين أن تمضي في أشغال الكروشيه بسرعة، وتتيح للصبيين أن يمضيا في تعلم الكتابة والدرس، فلن يكونا مختلفين تماماً عندما يحين الوقت لذهابهما إلى المدرسة في القرية، وكان اليزيوس خاصة قد نما وصار فتى بارعاً أما الصغير سيفرت فلم يكن ذا بال في الحقيقة. وإنما هو أرعن عيات. بل إنه تجاسر على العبث قليلاً بآلة

حياكة أمه، واقتطع شظايا من المائدة والكراسي بمطواة جيبه الجديدة، حتى إن أنجر هددته بأخذها منه نهائياً.

وبطبيعة الحال كان لدى الأولاد شتى الحيوانات في أرجاء المكان، ولم يزل لدى اليزيوس قلمه الملون فكان يستخدمه بعناية فائقة وقلما يعيره لأخيه، ومع ذلك كله غطيت الجدران بمضي الوقت برسوم زرقاء وحمراء، وأخذ القلم يتضاءل تدريجياً. وفي النهاية اضطر اليزيوس اضطراراً إلى تحديد استخدام سيفرت للقلم فصار لا يعيره إياه إلا يوم الأحد فقط ليرسم به رسماً واحداً فقط. ولم ترق سيفرت هذه التسوية، بيد أن اليزيوس كان فتى لا يطيق الأخذ والرد فيما لا طائل تحته. إنه قد لا يكون الأقوى إلا أنه كان الأطول ذراعاً، والأقدر عندما يصل الأمر إلى التضارب.

ولكن يالذاك الفتى سيفرت. إنه في حين بعد حين يقع على عش طائر في الغابة. وذات مرة تحدث عن جحر فأر عثر عليه وأطنب في تهويل هذا الأمر. وفي مرة أخرى كان حديثه عن سمكة عظيمة في مثل ضخامة الإنسان رآها في النهر، ولكن ذلك كان بداهة من اختراعه. فسيفرت كان ميالاً بعض الشيء إلى أن يقلب الأسود أبيض، إلا أنه مع ذلك كله كان طيب المعدن. فعندما وضعت الهرة هُريراتها كان هو الذي جلب لها اللبن، لأنها كانت تموء على اليزيوس أكثر مما ينبغي. ولم يمل قط سيفرت من الوقوف متأملاً الصندوق الحافل بالحركة كأنه عش من المخالب المتمردة ذات الفراء.

والدجاج أيضاً؛ كان يرقبها كل يوم: الديك يرقب بهيئته المتعالية واختياله في ريشه الفاخر، ويرقب الدجاجات تروح وتغدو وهي تقيق

بصوت منخفض وتنقر الرمل أو تصرخ كأنما أصيبت بأذى بالغ في كل مرة تضع فيها بيضة.

وكان ثمة الكبش الكبير المخصي. وسيفرت الصغير كان قد طالع الشيء الكثير فوق ما يعرفه من قبل، ولكن لم يسعه أن يقول عن الكبش المخصي إنَّ له أنفاً رومانياً بديعاً، بحق السماء! ذاك شيء لم يسعه أن يقوله ولكن وسعه أن يفعل ما هو خير من هذا، فهو قد عرف الكبش المخصي منذ كان حملاً صغيراً، ففهمه وامتزج به حتى صار بمثابة ذي قرابة به، وأخاً في الخليقة له. وذات مرة ومضت في إحساساته ومضة بدائية غريبة، وكانت تلك لحظة لم ينسها قط. وكان الكبش المخصي يرعى بهدوء في الحقل حينما رفع فجأة رأسه وتوقف عن المضغ وظل واقفاً هناك ببساطة ينظر إلى بعيد، فنظر سيفرت بلا وعي في ذلك الاتجاه بعينه، فلم يجد شيئاً يستوقف النظر، بيد أن سيفرت نفسه شعر بشيء غريب في داخله وقال في نفسه: «الراجح أنه وقف ينظر إلى جنة عدن».

وكانت ثمة الأبقار، لكل طفل اثنتان، وهي مخلوقات ضخمة تتهادى في مشيتها كثيرة المودة والدماثة حتى إنها تسمح لك أن تمسكها كلما أحببت وتسمح لأطفال البشر أن يدللوها. وهناك أيضاً الخنزير، وهو أبيض وشديد العناية بشخصه عندما توفر له الرعاية، يصغي لكل صوت. وهو مخلوق مضحك يتلهف دائماً على الطعام، شديد التقلب والملل كالببغاء. وثمة أيضاً التيس. فلا بد أن نرى على الدوام تيساً عجوزاً، وما إن يُمتْ أحدها حتى يكون غيره قد أعد ليحل محله. وهل من شيء مهيب على نحو مضحك كالتيس العجوز. كلما نظرت إليه؟ إن لديه الآن عدداً كبيراً من العنزات يرعى أمورها، بيد أنه

في بعض الأحيان يسأمها كلها ويملها فيرقد على الأرض ويبدو بلحيته ومنظره المطرق المتفكر أشبه بالأب الجليل. ثم بعدئذ وفي لحظة واحدة ينشط قائماً من جديد وينبري بهمة ونشاط لقطيع عنزاته. وهو دائماً يخلف وراءه ذيلاً من رائحة نتنة.

إن الدورة اليومية في المزرعة مستمرة. وبين حين وحين يأتي مسافر في طريقه صاعداً إلى التلال ويسأل: «وكيف حال الجميع هنا؟» ويجيب إسحق: «أشكرك على تلطفك».

وإسحق يعمل ويعمل، ويراجع التقدم في كل ما يعمل. ويلاحظ أوجه القمر، ويلقي باله إلى علامات الطقس ويواصل العمل. وهو قد طرق السكة إلى القرية مراراً كثيرة جداً بحيث يستطيع الآن أن يسير فيه بالحصان والعربة، ولكنه في الغالب يحمل بنفسه أعماله من الجبن أو الجلود واللحاء والراتنج والزبد الأبيض وكل ما يستطيع أن يبيعه ليجلب بدلاً منه سلعاً أخرى، بل إنه في الصيف لا يستخدم العربة في الذهاب إلى القرية كثيراً لأن الطريق من بريدابليك -وهي الجزء الأخير من السكة- سيئة التمهيد جداً. وقد طلب إلى بريد أولسن أن يساعده في صيانة الطريق ويقوم بنصيبه من ذلك، إلا أن بريد أولسن يعد ولا يفي بكلمته. ولذا لم يطلب منه إسحق ذلك مرة أخرى، بل بقي يفضل أن يحمل على كتفه أحماله. وتقول أنجر: «لست أفهم كيف يتسنى لك أن تقوم بذلك كله» ولكنه يستطيع أن يقوم بكل شيء. ولديه حذاء طويل ثقيل ثقلاً لا يتصوره العقل وسميك ذو صفائح من الحديد في نعليه. وأحزمته نفسها مثبتة بمسامير من النحاس، فكان عجيباً أن يستطيع إي إنسان المشي في مثل هذا الحذاء على الإطلاق.

وفي إحدى رحلاته إلى القرية مر ببضع شراذم من الرجال يعملون في أراضي المستنقعات ويثبتون في الأرض تجويفات حجرية ليضعوا فيها أعمدة التلغراف. وكان بعضهم من القرية. ومعهم بريد أولسن أيضاً على أنه حصل على أرض خاصة به وكان ينبغي أن يعمل فيها. وتعجب إسحق من استطاعة بريد أن يجد وقت فراغ.

ويسأل مقدم العمال إسحق: هل في استطاعته أن يبيعهم أعمدة للتلغراف؟» فيجيب إسحق بالنفي. حتى ولو تقاضى فيها ثمناً طيباً؟ لا. فإسحق الآن صار أسرع إلى حسم صفقاته، وفي استطاعته أن يقول «لا» على الفور. فلو أنه باعهم بصفة أعمدة لحصل بالتأكيد على نقود تدخل جيبه تزيد ما لديه كذا من الدالرات، ولكن لا فائض من الخشب لديه فلن يربح شيئاً من البيع. ويتقدم المهندس المكلف بالعملية بنفسه ليطلب إليه ذلك ولكن إسحق يرفض ويقول المهندس: «لدينا أعمدة كافية. ولكن من الأسهل لنا أن نحصل عليها من أرضك هنا لنوفر تكاليف النقل» فيقول إسحق: «ليس لدي خشب يفيض عن حاجتي شخصياً. وأريد أن أقيم منشاراً لأقوم بقطع بعض الأشجار، فثمة مبانٍ إضافية أريد أن أنجزها سريعاً.

وعندئذ يتدخل بريد أولسن قائلاً: «لو كنت مكانك يا إسحق لبعتهم الأعمدة» وعلى ما به من صبر فقد رشق إسحقُ بريد بنظرة وقال له: «نعم. إخالك تفعل ذلك» فسأله بريد: «حسن. لماذا إذاً لا تبيعهم؟» فقال إسحق: «ذلك أني لست أنت»، فضحك فريق من العمال لهذا الرد.

أجل كان لدى إسحق حينئذ مبرر كاف لكبح جاره، فقد رأى في ذلك اليوم بالذات ثلاثة رؤوس من الغنم في حقول بريدابليك ومن بينها

النعجة التي يعرفها، تلك التي لها أذنان مفرطحتان وكانت أولين قد قايضت بها، وقال إسحق في نفسه وهو ماض في سبيله إن له أن يحتفظ بها، ولبريد وامرأته أن يحصلا من الغنم ما يريدان.

وكان موضوع المنشار يجول في خاطره باستمرار، وكان الأمر كما قال: ففي الشتاء الماضي عندما كانت الطرق صلبة حمل على عربته الشفرة الكبيرة الدائرية وأجهزتها اللازمة لتركيبها، وكان قد طلبها من ترونيم عن طريق متجر القرية. وهذه الأجزاء ملقاة الآن في إحدى السقائف وقد طليت طلاء جيداً بالزيت لمنع الصدأ. وكان قد جلب أيضاً من القرية دعامات من الخشب لإقامة هيكل البناء بحيث يستطيع أن يشرع في البناء متى شاء. بيد أنه أرجأ ذلك. فماذا عسى أن يكون السبب؟ أهو قد شرع يتراخى؟ أم تراه أخذ ينال منه التعب؟ إنه شخصياً عاجز عن فهم السبب. ولعل المسألة لم تكن لتدهش سواه، أما إسحق فلا يصدق ذلك. أهو الانحدار؟: إنه لم يكن ليخشى فيما مضى الشروع في عمل ما. أما الآن فلا بد أنه تغير على نحو ما منذ ذلك الحين الذي شاء فيه نقل طاحونة عبر نهر كبير كهذا النهر. وكان في استطاعته أن يحصل على مساعدين من القرية، ولكن لا بد له أن يحاول مرة أخرى بمفرده، وأن يشرع في مدى يوم أو يومين وفي وسع أنجر أن تمد له يد العون. وقد حدَّث أنجر في ذلك قائلاً: «همم. لست أدري هل لديك متسع من الوقت في يوم قريب لتعينيني على إقامة المنشار؟» وفكرت أنجر لحظة ثم قالت: «.. نعم. إن استطعت تدبير ذلك. إذاً فأنت عازم على إقامة منشر؟» فقال: «إي. هذه نيتي، وقد أعددت كل شيء في ذهني». فسألته: «وهل يكون هذا أشق من إقامة الطاحون؟» فأجاب:

«أشق بكثير. أشق عشر مرات. فيجب أن يكون كل شيء دقيقاً محكماً حتى أصغر التفاصيل والخطوط. ويجب أن يكون المنشار نفسه في الوسط بالطبع». فقالت أنجر بغير تدبر: «هذا إن استطعت أن تنهض به» فشعر إسحق بالإهانة وأجابها: «أما هذا فسوف ننظر فيه»، فسألته: «أليس في مقدورك أن تحضر مساعداً يكون على دراية بالعمل؟» فأجابها: «كلا» فقالت مرة أخرى: «إذاً لن تستطيع النهوض به» فرفع إسحق يده إلى شعره، فكان أشبه بدب يرفع مخلبه وقال: «هذا بالضبط ما كنت أخشاه. ألا أستطيع النهوض به. ولهذا السبب كنت أريد منك أنت التي تعلمت أشياء كثيرة جداً أن تساعديني».

لقد كانت هذه هزيمة للدب. ولكنه لم يجن شيئاً على كل حال. فقد هزت أنجر رأسها وأشاحت عنه بلا رحمة ولم تكترث بمنشاره، فقال إسحق: «حسن إذاً» ... فسألته: «أتريد أن أقف مغمورة بالماء وسط النهر كي ألزم الفراش عليلة؟ ومن الذي يقوم بالحياكة ويرعى الحيوانات ويدير شؤون البيت وسائر الأمور كلها؟» فقال إسحق: «هذا صحيح».

ولكن كل ما كان بحاجة إلى المساعدة فيه هو إقامة أعمدة الأركان الأربعة والأعمدة الوسطى الخاصة بالجانبين الطويلين. فهل حقاً تغيرت أنجر إلى هذا الحد في داخل سريرتها بسبب معيشتها بين أبناء المدن؟.

والواقع أنَّ أنجر كانت قد تغيرت إلى حد كبير. فتفكيرها في مصلحتهما المشتركة أقل الآن من تفكيرها في نفسها. لقد عادت إلى النول والمغزل من جديد بيد أن آلة الحياكة كانت أقرب إلى ميولها. وعندما جاء بمكواة الملابس من عند الحداد كانت قد تأهبت للقيام بدور صانعة الثياب كاملة التدريب. فلها الآن حرفة، وبدأت بصنع ثوبين صغيرين للبوبولدين.

ووجدهما إسحق جميلين فأثنى عليهما. ولعل ثناءه كان مسرفاً، فلاحظت أنجر إلى أن ذلك ليس شيئاً بالقياس إلى ما تستطيعه حينما تحاول التجويد. فقال إسحق: «ولكنهما قصيران جداً» فقالت أنجر: «هكذا يلبس الناس الثياب في المدينة. ولا دراية لك بشيء من هذا القبيل».

فأدرك إسحق أنه تجاوز المدى. ورغبة في إصلاح خطئه قال شيئاً ما عن إحضار شيء من القماش لأنجر نفسها لتصنع لها ثوباً. فسألته أنجر: «عباءة؟» فقال: «أو أي شيء تحبين» فوافقت أنجر على إحضار شيء يصلح لعباءة، ووصفت نوع القماش الذي تريده. ولكنها بعد أن فرغت من صنع العباءة كان لا بد لها من العثور على أحد تريه إياها. ولذا عندما نزل الولدان إلى القرية ليدخلا المدرسة ذهبت معهما أنجر بنفسها. وكان من الممكن أن تبدو هذه الرحلة شيئاً صغيراً. إلا أنها تركت أثرها. فقد وصلوا أولاً إلى بريدابليك فخرجت المرأة وأطفالها ليروا من الذي يمر بهم، فإذا أنجر جالسة مع الولدين تقود العربة في أبهة، فالولدان في طريقهما إلى المدرسة -لا أقل من ذلك- وأنجر لابسة عباءة. فأحست المرأة بوخزة شديدة لمرآها. وكان من الممكن أن تستغني عن العباءة، فهي بحمد الله لا تقيم وزناً لهذه الحماقات، ولكن... إن لديها أطفالاً أيضاً: باربرو فتاة صارت كبيرة بالفعل، وهيلجي التالية لها، ثم كاترين، وثلاثتهن في سن الذهاب إلى المدرسة. والكبريان ذهبتا إلى المدرسة فيما مضى عندما كانوا يعيشون في القرية. ولكن بعد النقلة إلى بريدابليك، ذلك المكان البعيد عن العمران وسط المستنقعات كان عليهما أن تنقطعا عن المدرسة، وهكذا ارتد الثلاثة إلى عماية الجهل مرة أخرى.

وقالت المرأة: «لعلك بحاجة إلى لقمة للولدين؟» فأجابتها أنجر: «طعام؟ أترين إلى هذا الصندوق؟ إنه حقيبة سفري التي أتيت بها معي. وهي مليئة عن آخرها بالطعام». فسألتها: «وماذا بها من الأصناف؟» فأجابت: «الأصناف؟ وضعت فيها لحماً ولحم خنزير بكمية كبيرة وخبزاً وزبداً وجبناً أيضاً» فقالت الأخرى: «أجل لا يعوزكم شيء في «سيلانوا»» وراحت بناتها المسكينات الهضيمات الوجه يصغين بعيونهن وآذانهن إلى هذا الحديث عن تلك المأكولات الفاخرة ثم سألت أمهن: «وأي سيقيمان؟» فقالت أنجر: «في بيت الحداد» فقالت الأخرى: «هوه... وأطفالي أيضاً سيعودون إلى المدرسة قريباً، وسيقيمون لدى العمدة» فقالت أنجر: «هوه» فقالت المرأة: «نعم. أو في بيت الطبيب، أو ربما في بيت القس. فبريد وثيق الصلة بأكابر القوم».

وأخذت أنجر تعبث بعباءتها وأفلحت في تقليبها بحيث يظهر طرف من هدابها الحريري الأسود بصورة أخاذة، فسألتها المرأة: «من أين حصلت على العباءة؟ لعلك أحضرتها معك؟» فقالت: «بل صنعتها بنفسي» فقالت المرأة: «نعم نعم. إنكم كما قلت تتقلبون في الترف والنعيم...»».

واستأنفت أنجر قيادة عربتها وهي مستشعرة البهجة والرضى عن نفسها. ولعلها عند دخولها القرية كانت متجاوزة الحد بعض الشيء في خيلائها، ولم تكن السيدة عقيلة العمدة هيردال مفرطة السرور لمرأى تلك العباءة، فالمرأة المقيمة في سيلانرا قد نسيت فيما يبدو مكانها الحق. ونسيت من أين جاءت بعد غيبة خمس سنوات. إلا أن أنجر ظفرت على الأقل بفرصة للتباهي بعباءتها، وفكرت زوجة صاحب المتجر وزوجة

الحداد وزوجة معلم المدرسة في الحصول لأنفسهن على عباءات مثلها. ولكن يجب عليهن أن ينتظرن.

ولم يمر وقت طويل حتى بدأت أنجر تستقبل الزائرات. فامرأة أو امرأتان جاءتا عبر التلال من الجانب الآخر على سبيل الاستطلاع، ولعل أولين فاهت بشيء دون قصد لهذه أو تلك. والقادمات الآن يأتين بأنباء عن مسقط رأس أنجر. فمن الطبيعي أن تقدم إليهن أنجر قدحاً من القهوة وتدعهن ينظرن إلى آلة حياكتها! وجاءت فتيات يانعات زرافاتٍ من الساحل ومن القرية يسألن أنجر المشورة. فقد حل الخريف وهن قد ادخرن شيئاً لشراء ثوب جديد ويردن منها أن تساعدهن. وأنجر طبعاً تعرف كل شيء عن آخر الأزياء بعد أن عرفت الدنيا. وبين حين وحين قد تقوم بتفصيل بعض الثياب. وكانت نفس أنجر تبتهج بهذه الزيارات وتسر وتبدي العطف والمعاونة، وتقوم بالعمل ببراعة. فضلاً عن أنها تستطيع أن تقص القماش بغير نموذج. وفي بعض الأحيان قد تكف ثوباً بطوله على آلة حياكتها وبلا مقابل ثم تعيد القماش إلى الفتيات وهي تمازحهن بلطف: «هاكن! في وسعكن الآن أن تحكن الأزرار بأنفسكن!».

وفي أواخر العام دعيت أنجر إلى القرية لتقيم بعض الوقت وتصنع بعض الثياب لفريق من العيلة، ولكن أنجر لم تستطع الذهاب فلديها أهل بيتها ترعاهم، وحيواناتها أيضاً، ومهنة البيت كلها ولا خادم لديها.

ليس لديها ماذا؟ خادم!

وقالت لإسحق ذات يوم: «لو أن لدي أحداً يعاونني لأنفقت مزيداً من الوقت للحياكة». ولم يفهم إسحق مرادها فسألها: «يعاونك؟» فقالت: «نعم يعاونني في أعمال البيت. خادمة».

ولا بد أن إسحق أجفل عند سماع ذلك ثم ضحك في لحيته الحديدية ضحكة يسيرة وأخذ الأمر مأخذ المزاح وقال: «إي. ينبغي أن تكون لنا خادم» فقالت أنجر: «ربات البيوت في المدن لديهن دائماً خادمة». فقال إسحق: «هوه».

ولعل إسحق لم يكن أحسن في حالات مزاجه عندئذ، فلم يكن بالضبط لطيفاً راضياً، لأنه كان قد شرع يعمل في إقامة منشار، وكان العمل بطيئاً مرهقاً إذ لم يكن في وسعه أن يمسك ألواح السقف بيد واحدة وفي اليد الأخرى ميزان الماء، ثم يثبت الأطراف في الوقت نفسه. ولكن عندما عاد الولدان من المدرسة صار الأمر أيسر، لأن الولدين كانا نافعين في مساعدته. بورك فيهما! وكان سيفرت على الخصوص عبقرياً في دق المسامير، أما اليزيوس فكان أمهر في استخدام الفادن (وهو ميزان استقامة البناء) وفي نهاية الأسبوع كان إسحق والولدان قد ثبتوا أعمدة الأساس فعلاً تثبيتاً متيناً بشدادات تضارع الدعامات في السمك.

ونجحت العملية. فكل شيء ينجح على نحو ما. ولكن إسحق بدأ يشعر بالتعب الآن في المساء. أيا كان سبب ذلك. ولم يكن بناء المنشار والفراغ منه كل ما عليه أن يقوم به. فثمة شتى الأعمال زيادة على ذلك. أجل إن الدريس قد أدخل ولكن القمح لم يزل قائماً، وعن قريب ينبغي أن يقطع ويكوم.

وهناك البطاطس أيضاً، فلا بد من جمعها قبل مضي وقت طويل. ولكنّ الولدين كانا عوناً رائعاً. ولكنه لم يشكرهما، فليس ذلك هو الأسلوب المتبع لدى أناس من طرازهم، إلا أنه كان مسروراً غاية السرور منهما لكل ما قاما به. وبين حين وحين قد يجلس ثلاثتهم وسط العمل

يتحادثون فيما بينهم، ويكاد الأب يسأل ولديه النصح فيما ينبغي أن يصنعوا بعد ذلك فيشعر الولدان في تلك اللحظات بالفخر، ويتعلمان أيضاً كيف يفكران جيداً قبل الكلام حتى لا يترديا في الخطأ.

وقال أبوهما: «إنها لخسارة لو أننا لم نتمكن من تسقيف المنشار قبل هطول أمطار الخريف».

آه لو كانت أنجر كالعهد بها في الأيام الخوالي ولكن أنجر لم تعد قوية فيما يبدو كما كانت، وهذا طبيعي جداً بعد إقامتها الطويلة داخل الجدران. يضاف إلى هذا أن عقلها أيضاً يبدو أنه تغير. وإنه لعجيب أن يرى المرء قلة تفكيرها وعنايتها الآن، فهي ضحلة غير مبالية. أهذه أنجر؟

وذات يوم تحدثت عن الطفلة التي قتلتها فقالت: «كانت حماقة مني أن أقدم على ذلك. إذ كان في وسعنا أن نحيك فمها أيضاً، وعندئذ لم تكن بي حاجة إلى خنقها» ولم تعد تتسلل الآن إلى القبر الصغير في الغابة حيث سوت الأرض ذات مرة بيديها وأقامت صليباً صغيراً.

ولكن أنجر لم يكن قلبها قد تحجر بعد، فهي مهتمة بأطفالها الآخرين وتحافظ على نظافتهم وتصنع لهم ثياباً جديدة. وربما سهرت إلى ساعة متأخرة من الليل تصلح لهم ثيابهم، وكانت أمنيتها في الحياة أن تراهم يشقون طريقهم في الدنيا.

وحصد القمح وجمعت البطاطس، وجاء الشتاء. ولم يمكن تسقيف مكان المنشار ذلك الخريف. ولكن لا حيلة في ذلك. ثم إن الأمر على كل حال لم يكن أمر حياة أو موت. وفي الصيف القادم سيكون ثمة متسع من الوقت ومن الوسائل.

الفصل الثالث عشر

كانت دورة العمل في الشتاء كسابق العهد، فهي نقل الخشب في العربة وإصلاح الأدوات والآلات. وأنجر تدبر البيت وتقوم بالحياكة في وقت فراغها. وكان الأولاد في القرية لحضور الفصل الدراسي الطويل. وكانا على مدى بضعة من فصول الشتاء السابقة يقتسمان بينهما (سكي) واحداً، وكانا يتدبران الأمر على ما يرام حينما كانا في البيت، فينتظر الواحد منهما الآخر إلى أن يفرغ من دورته، أو يقف أحدهما خلف الآخر. أجل تدبرا الأمر على ما يرام بسكي واحد فقط، وكان استخدامه أبدع ما يعرفان من اللهو، وكانا بريئين طروبين. أما هناك في القرية فالوضع يختلف، فالمدرسة مملوءة بالسكي، وحتى الأطفال في بريدابليك لدى كل واحد منهم فيما يبدو سكي خاص به. وكانت النتيجة أن إسحق اضطر لصنع سكي جديد لاليزيوس، واحتفظ سيفرت لنفسه بالقديم.

وصنع إسحق ما هو أكثر من هذا، فعمل على حسن هندام الولدين واشترى لهما حذاءين متينين، وعندما فرغ إسحق من ذلك توجه إلى صاحب المتجر وطلب منه خاتماً. فسأله الرجل: «خاتم؟» فقال: «خاتم يلبس في الإصبع. أجل لقد بلغت من اليسر والمكانة الآن ما يفرض عليّ

إهداء زوجتي خاتماً». فسأله الرجل: «أتريده من فضة أم من ذهب، أم تريده خاتماً من نحاس مطلي، ويبدو كما لو كان ذهباً؟» فقال إسحق: «ليكن من فضة». ففكر صاحب المتجر برهة ثم قال: «اسمع يا إسحق. إن كنت تريد الشيء اللائق بحيث تقدم لزوجتك خاتماً لا تخجل من لبسه، فمن الخير أن يكون الخاتم من ذهب». فصاح إسحق: «ماذا؟» وإن كان في سريرته قد ظل يفكر طول الوقت في أن يكون الخاتم ذهبياً.

وبحثا الأمر جدياً، واتفقا على وجوب الحصول على يعناس من نوع ما للخاتم، وأكثر إسحق من التفكير وهز رأسه وقال: «إن الخاتم الذهبي مسألة ضخمة»، ولكن صاحب المتجر رفض أن يوصي بصنع خاتم ما لم يكن من ذهب. وعاد إسحق إلى البيت مسروراً في أعماقه بقراره هذا، ولكنه كان قلقاً بعض الشيء رغم ذلك كله للمصروفات الباهظة التي أقدم عليها، لا لشيء إلا لأنه مغرم بزوجته.

وكان سقوط الثلج في المعدل الجيد ذلك الشتاء. وفي أوائل العام عندما صارت الطرقات صالحة للمرور شرع أناس من القرية في نقل أعمدة التلغراف بالعربات فوق أرض المستنقعات وجعلوا يسقطون أحمالهم في فترات منتظمة. وكانت العربات تجرها أزواج ضخمة من الخيول مارة ببريدابليك ومزرعة سيلانرا. حيث يلتقون بعد قليل بأزواج أخرى من الخيل قادمة بأعمدة من الناحية الأخرى من التلال، فقد تم الخط.

وهكذا مضت الحياة يوماً في إثر يوم دون وقوع حادث كبير. وماذا كان من الممكن أن يحدث على أية حال؟ ها قد أقبل الربيع وبدأ العمل لتركيب الأعمدة وإقامتها، ومرة أخرى ظهر بريد أولسن مع شراذم من

العمال مع أنه كان المفروض أن يعمل في أرضه الخاصة في ذلك الموسم، وقال إسحق في نفسه: «من العجيب أن يجد لذلك فسحة من الوقت».

أما إسحق شخصياً فلا يكاد يجد الوقت للأكل والنوم. فمن الشاق الآن أن يفرغ من عمل الموسم كله بعد أن مهد كل تلك الأرض للزراعة. أما فيما بين مواسم العمل فقد قام بتسقيف المنشار واستطاع أن يشرع في تجميع أجزاء الآلة وليكن مفهوماً أن ما أقامه لم يكن بدعاً من أعاجيب النجارة الدقيقة، بل كان شيئاً متيناً أشبه بعملاق بين التلال ينتصب قائماً للعمل النافع. والمنشار يعمل ويقطع كما ينبغي لآلة النشر أن تعمل. وكان إسحق قد فتح عينيه جيداً وهو في القرية وأحسن استخدامها في ملاحظة ما حوله. إن هذا المنشار الذي أقامه صغير وقوي، بيد أنه كان راضياً عنه، مسروراً به فحفر التاريخ فوق باب المدخل ونقش فيه علامته.

وفي هذا الصيف حدث في سيلانرا على كل حال شيء خارق للمألوف. فقد وصل عمال التلغراف الآن إلى موضع موغل وسط أرض المستنقعات حتى إن المجموعة المتقدمة من العمال حضرت ذات مساء إلى المزرعة وطلبت المأوى تلك الليلة. فآواهم البيدر الكبير. وبمرور الأيام أتت المجموعات الأخرى تباعاً ونزلت في سيلانرا. وتجاوز العمل مكان المزرعة. بيد أن الرجال ظلوا يعودون للنوم في البيدر ليلاً. وذات مساء سبت أقبل المهندس المكلف بالعملية ليدفع رواتب الرجال. وما إن رأى اليزيوس المهندس حتى شعر بقلبه يقفز في صدره، وتسلل من البيت خشية أن يسأله عن القلم الملون. وقد أيقن أن المتاعب ستثور الآن وهو لا يرى أثراً لسيفرت مما يعرضه لمواجهة العاصفة وحده. وانسل اليزيوس

حول زاوية البيت كالشبح الشاحب ولجأ إلى أمه فتوسل إليها أن تطلب من سيفرت الحضور، فلا مناص الآن لهما.

وأخذ سيفرت المسألة مأخذاً أيسر، فهو ليس المذنب الأساسي. وابتعد الأخوان قليلاً ثم جلسا، وقال اليزيوس: «لو قلت الآن إنك الجاني»، فقال سيفرت: «أنا؟» فقال اليزيوس: «إنك الأصغر، ولن يفعل بك شيئاً».

وفكر سيفرت في ذلك، ووجد أخاه في محنة، وأزهاه أن يشعر بأن الآخر في حاجة إليه، فقال في صوت من شب عن الطوق: «لعل في استطاعتي أن أساعدك على النجاة من هذا المأزق». فقال اليزيوس: ليتك تفعل» وببساطة أعطى أخاه جذمة القلم الباقية قائلاً: «يمكنك الاحتفاظ بها نهائياً».

وكانا بسبيل الدخول ثانية معاً، ولكن اليزيوس تذكر أن لديه ما يفعله في المنشار، أو على الأصح في الطاحون. فثمة شيء يجب أن يهتم به هناك وقد يستغرق منه زمناً فلا يفرغ منه بسرعة. ودخل سيفرت وحده.

وهناك كان المهندس جالساً يدفع إلى الرجال بأوراق النقد والفضة. ولما فرغ من ذلك قدمت إليه أنجر اللبن ليشربه، قدمته إليه في إبريق وأعطته كوباً، فشكرها ثم تحدث إلى ليوبولدين الصغيرة، وبعد ذلك لاحظ وجود الرسوم على الجدران فسأل على الفور: من صنعها؟ والتفت إلى سيفرت قائلاً: أهو أنت؟ ولعل الرجل قد شعر بأنه مدين بشيء ما لأنجر في مقابل كرمها فأثنى على الرسوم لمجرد إرضائها. وقامت أنجر من جانبها بشرح الموضوع على حقيقته، فولداها كلاهما صنعا هذه

الرسوم. ولم تكن لديهما أوراق إلى أن عادت هي إلى البيت وأشرفت على تسيير الأمور، ولذا خطوا رسومهم على الحيطان كلها، وقلبها لا يطاوعها على محوها، فقال المهندس: «ولماذا؟ دعيها على حالها أتقولين ليس لديهما ورق؟» وأخرج كومة من الصحائف الكبيرة البيضاء ثم قال: «هاك ارسم على هذه إلى أن أعود في المرة القادمة. وماذا لديك من الأقلام؟».

وببساطة تقدم سيفرت إليه بجذمة القلم التي معه وأراه صغرها. فإذا بالرجل يعطيه قلم رصاص ملوناً جديداً لم يُبْرَ بعد قائلاً: «هاك الآن يمكنك أن تبدأ من جديد، ولو كنت مكانك للونت الأحصنة باللون الأحمر، والماعز باللون الأزرق. أرأيت في حياتك حصاناً أزرق؟».

ومضى المهندس إلى حال سبيله.

وفي ذلك المساء نفسه جاء رجل من القرية ومعه سلة، فسلم العمال بضع قوارير ثم انصرف، ولكن بعد انصرافه تبددت السكينة التي كانت تسود المكان، فعزف بعضهم على أكورديون، وصار الرجال يتكلمون بصوت مرتفع، وصار في سيلانرا غناء، ورقص أيضاً وطلب أحد الرجال إلى أنجر أن تراقصه، وإذا بأنجر -ومن كان يظن بها هذا؟- تضحك ضحكة يسيرة وتراقصه فعلاً بضع دورات. وبعد ذلك طلب مراقصتها رجال آخرون، وفي النهاية رقصت رقصاً غير يسير.

ها هي أنجر -ومن ذا يستطيع أن يقول ماذا يدور في رأسها؟- ترقص بمرح، وربما لأول مرة في حياتها. فهي مطلوبة يتعقبها ثلاثون رجلاً في عربدة، وهي الوحيدة التي تختار من بينهم بلا منافسة. ورجال التلغراف الصاخبون هؤلاء، كم يرفعونها، ولماذا لا ترقص؟ اليزيوس

وسيفرت يغطان في النوم بالحجرة الصغيرة لا تقلقهما الضجة في الخارج. وليوبولدين الصغيرة مستيقظة تنظر بعجب إلى أمها وهي ترقص. وإسحق كان في الخارج في الحقول طوال الوقت، وقد خرج مباشرة بعد العشاء. ولما عاد إلى البيت ليأوي إلى فراشه عرض عليه أحدهم قارورة شرب منها قليلاً وجلس يرقب الرقص وليوبولدين فوق حجره وقال برقة لأنجر: «ها أنت تحظين بوقت بهيج وترقصين على ما يرام الليلة» وبعد برهة توقفت الموسيقى وانتهى الرقص. وتأهب العمال للانصراف ذاهبين إلى القرية لقضاء بقية الأمسية ثم اليوم التالي، على أن يعودوا صباح يوم الاثنين وسرعان ما ساد الصمت من جديد سيلانرا، ولم يبق من الرجال إلا اثنان مسنان دخلا ليناما في البيدر.

واستيقظ إسحق في الليل، فلم يجد أنجر، فهل تراها ذهبت لتطمئن على البقر؟ ونهض فاتجه إلى سقيفة البقر ونادى «يا أنجر» ولا جواب. وأدارت البقرات رأسها ونظرت إليه، وكان كل شيء ساكناً، وبلا تفكير، وبدافع من العادة القديمة، أحصى الرؤوس ثم أحصى الغنم أيضاً. وكانت لإحدى النعاج عادة سيئة بالبقاء خارج الحظيرة ليلاً، فوجدها الآن في الخارج فعلاً. ونادى مرة أخرى: «يا أنجر» ولم يتلق جواباً في هذه المرة أيضاً. لا شك في أنها لا يمكن أن تكون قد ذهبت معهم إلى القرية. وكانت ليلة صيف دافئة خفيفة الجلباب، فلبث إسحق برهة جالساً على عتبة الباب ثم انطلق إلى الغابة ليبحث عن النعجة. فوجد هناك أنجر، وكان معها شخص آخر، وقد جلسا في الخلنج، وهي تدير قلنسوته المدببة حول إصبع واحدة من يدها، وهما مستغرقان في الحديث. إنهم فيما يبدو وراءها مرة أخرى...

ومشى إسحق بتثاقل صوبهما، والتفتت أنجر فرأته، وانحنت إلى الأمام حيث كانت جالسة، وفارقتها روحها فصارت كالخرقة، وسألها إسحق: «همم: أتعلمين أن تلك النعجة عادت إلى قضاء الليل في الخارج؟ ولكن لا، ما كنت لتعلمي هذا».

والتقط عامل التلغراف الشاب قلنسوته وشرع في التسلل وهو يقول: «سألحق بالباقين. طاب ليلكما». ولم يجبه أحد. وقال إسحق: «أنت إذن جالسة ها هنا. لعلك تريدين البقاء قليلاً؟» واستدار صوب البيت فنهضت أنجر على ركبتيها ثم قامت على قدميها وتبعته، وهكذا سارا: الرجل أمامها والمرأة خلفه كالمترادفين على جواد، ومضيا إلى البيت.

ولا بد أن الوقت اتسع أمام أنجر للتفكير، فوجدت لها مخرجاً، وقالت: كنت أبحث عن النعجة. لاحظت أنها غائبة هذه الليلة أيضاً، ثم تقدم أحد الرجال وساعدني في البحث. ولم يكن قد انقضى على جلوسنا لحظة عند قدومك، أين أنت ذاهب الآن؟» فقال: «أنا. يبدو أنه من الأفضل أن أبحث عن النعجة بنفسي». فقالت: «لا. اذهب أنت وارقد، فإن كان لا بد لأحد أن يذهب فهو أنا. اذهب واضطجع فأنت بحاجة إلى الراحة. ثم إن في وسع النعجة أن تبقى حيث هي الآن، فهذه ليست المرة الأولى». فقال إسحق: «ويلتهمها وحش من الوحوش». ثم خرج. فجرت أنجر وراءه قائلة: «لا تذهب لا تذهب، إنها لا تستحق كل هذا العناء، أنت بحاجة إلى الراحة. دعني أذهب». وانقاد إسحق؛ ولكنه لم يوافق على خروج أنجر بنفسها للبحث ودخل كلاهما البيت.

وتوجهت أنجر على الفور للاطمئنان على الأطفال، فدخلت الحجرة

الصغيرة حيث الولدان كأنها كانت في الخارج في مهمة طبيعية للغاية، وبدا عليها تقريباً كما لو كانت تريد التودد إلى إسحق، وكأنها تتوقع منه أن يكون أشد هياماً بها في هذه الليلة من ذي قبل، بعد أن فسرت له كل شيء تفسيراً محكماً، ولكن لا. إن إسحق ليس من اليسير تغيير فكره، وكان يفضل أن يراها مكروبة أخرجها الندم عن ظهورها، كان هذا أفضل. فأي قيمة لانهيارها لحظة واحدة عندما هبط عليها فجأة في الغابة- أي خبر في هذا وقد انتهى بهذه السرعة الشديدة؟

وفي اليوم التالي أيضاً كان بعيداً عن التلطف معها، وكان يوم أحد، فخرج وتفقد المنشر، والطاحون، والحقول إما وحده أو مع الأطفال. وحاولت أنجر ذات مرة أن تنضم إليه، ولكنه ردها عنه قائلاً: «إني ذاهب إلى النهر، فثمة شيء ما هناك...» وكان باله مكدوراً بما فيه الكفاية، بيد أنه تحمل ما به في صمت ولم يتشاجر. فقد كان فيه جانب عظيم، لأنه يعقوب يحصد الخديعة من كل وعد يوعد به، وهو على إيمانه.

ولما حل يوم الاثنين صار التوتر أقل مظهراً، وبمرور الأيام تضاءل أثر مساء ذلك السبت المنكود، فالزمن يصلح أموراً كثيرة. فإن هو إلا العمل الدائب ثم الطعام هجعة ليل حتى يأسو أبلغ الجراحات. ولم يكن همّ إسحق بالغ السوء كما كان حرياً أن يكون بعد كل شيء، فهو ليس واثقاً بأنه ضير ثم إنه لديه - إلى جانب هذا أموراً أخرى يفكر فيها، فالحصادُ على الأبواب. وأخيراً وليس آخراً إن الخط التلغرافي قد تم الآن، وبعد قليل سيتركونهم في سلام، وها هو الطريق عريض مضيء، طريق زراعي سلطاني، قد شق في ظلمات الغابة، وثمة أعمدة تمتد عبر التلال.

وفي وقت أداء الأجور من يوم السبت التالي -وهو آخر مرة لأدائها للعمال- تعمد إسحق أن يكون بعيداً عن البيت، لأنه أراد ذلك، فنزل القرية بجبن وزبد وعاد يوم الأحد ليلاً، وكان الرجال جميعهم تقريباً قد أخلوا البيدر، فقد كان آخر رجل منهم يغادر الفناء ولفافته على كتفه، فكلهم إذن قد انصرفوا ما عدا آخرهم. فليس الأمان تاماً بعد فيما يرى إسحق، لأن لفافة كانت ملقاة على أرض البيدر، ولم يستطع أن يقول أين صاحبها، ولم يعنه أن يعرف أين هو، ولكن كانت ثمة قلنسوة مدببة فوق اللفافة- تجبه العين..

وطوح إسحق باللفافة إلى الفناء، وطوح وراءها بالقلنسوة، وأغلق الباب، ثم دخل الإسطبل وأطل من النافذة وفكَّر على النحو التالي: «فلتبق اللفافة هناك، ولتبق القلنسوة هناك، وسيان عندي من يكون مالكهما، فهو قاذورة لا تستحق اهتمامي».. هكذا لعله فكر، ولكن عندما يأتي ذلك الشخص لينشد لفافته لا يداخلك شك في أن إسحق سيكون في انتظاره ليتناوله من ذراعه فيترك فيها أثراً أزرق اللون بعض الشيء. أما عن ركله إلى خارج المكان بأسلوب لن ينساه، فثق بأن إسحق سيفعل به ذلك أيضاً.

وبعد ذلك غادر إسحق نافذته في الإصطبل وعاد إلى سقيفة البقر، وأطل من هناك، ولم يلق السكينة، وكانت اللفافة مربوطة بخيط، فالمسكين لم يكن لديه قفل لحقيبته، وانحل الخيط، ولم يكن في وسع إسحق أن يثق بأنه لم يقس في تناوله تلك اللفافة قسوة تجاوزت الحد. وأياً كان الوضع، فهو ليس واثقاً بأنه تصرف تصرفاً عادلاً. فهو منذ برهة كان في القرية وشاهد مسلفته الجديدة، مسلفة لامعة في جدتها كان

قد أوصى عليها. ويا لها من آلة رائعة كأنها هي وثن يعبد، وقد وصلت لتوها. ولا بد لشيء كهذا أن يحمل معه اليمن. والقوى العلوية التي تقود خطا البشر لعلها ترقبه الآن في هذه اللحظة لترى هل يستحق هذه النعمة أم لا، وأعار إسحق اهتماماً كبيراً لتلك القوى العلوية. أجل إنه رأى الله بعينيْ رأسه ذات ليلة في وقت الحصاد، في الغابة وكان المنظر عجيباً.

وخرج إسحق إلى الفناء ووقف على اللفافة، وكان لم يزل نهباً للشك، فدفع بقبعته إلى الخلف وهرش رأسه، مما أضفى عليه في تلك اللحظة مظهر المستهين بكل شيء، فهو متعال وغير مبال، كأنه إسباني. ولكن لا بد أنه فكر في شيء من قبيل: «لا. ها أنا ذا، بعيد كل البعد عن الأبهة والامتياز، كلب حقير» ثم ربط اللفافة مرة أخرى بإحكام، والتقط القلنسوة وحمل الكل إلى البيدر ثانية، وانتهى من هذا الأمر.

وفيما هو متجه بعد خروجه من البيدر إلى الطاحون. مبتعداً عن الفناء وعن كل شيء، لم ير أثراً لأنجر في نافذة البيت. ليدعها إذن حيث شاءت فلا شك في أنها الآن في الفراش، وأين عساها تكون؟ ولكن في الأيام الخوالي، في تلك السنوات البريئة الأولى، لم تكن أنجر لتستريح، بل كانت تجلس ساهرة في الليل تنتظر أوبته حينما يكون في القرية. أما الآن فالحال مختلف من جميع الوجوه، فمثلاً عندما أهداها ذلك الخاتم، أكان من الممكن أن يكون شيء أخيب من هذا؟ فإسحق كان في غاية التواضع، ولم يجسر على مصارحتها بأنه من الذهب: «إنه ليس شيئاً عظيماً، ولكن في وسعك أن تضعيه في إصبعك لمجرد التجربة» فسألته: «أهو من الذهب؟» فقال: «نعم ولكنه ليس

سميكاً». وكان أحرى بها أن تجيبه: «بلى إنه سميك فعلاً». ولكنها قالت بدلاً من ذلك: «إنه ليس سميكاً جداً، ومع هذا...» فقال في النهاية وقد قطع كل رجاء: «لا، فلعله لا يساوي أكبر من حفنة من العشب» إلا أن أنجر فرحت بالخاتم فعلاً، ولبسته في يدها اليمنى، فكان يبدو بديعاً وهي تحيك الثياب، وبين حين وحين كانت تسمح لفتيات القرية أن يجربنه ويجلسن وهو في إصبعهن برهة عندما يحضرنَ لسؤالها عن هذا الشيء أو ذاك. يا لإسحق من أبله إذ لا يدرك أنها مزهوة به زهواً يتجاوز كل حد...

وما من جدوى للجلوس بمفرده في الطاحون يصغي لسقوط الماء طول الليل، فإسحق لم يقترف شيئاً، وليس هناك ما يدعوه للتواري عن الأنظار فغادر الطاحون، وتوجه إلى الحقول، ثم عاد إلى البيت فدخله.

وهناك أحس إسحق بالخزي وبالفرح في آن واحد، فقد كان جاره بريد أولسن دون سواه هو الجالس هناك يشرب القهوة، وكانت أنجر ساهرة، وكلاهما يتحدثان ببساطة وهدوء وهما يحسوان القهوة.

وقالت أنجر بأقصى بشاشة: «ها هو إسحق» ونهضت فصبت له فنجاناً من القهوة، وقال له بريد: «طاب مساؤك» وكان بشوشاً مثلها أيضاً، وأدرك إسحق أن بريد كان يقضي المساء مع جماعات عمال التلغراف في الليلة الماضية قبل رحيلهم. ولعله كان مستاء لذلك الرحيل، إلا أنه مع ذلك كان ودوداً معتدل المزاج. أجل إنه كان يتنفح قليلاً كعادته بأنه لا وقت لديه في الواقع للاهتمام بهذا العمل التلغرافي، فالمزرعة تستوعب كل وقت الرجل، إلا أنه لا يملك أن يقول للمهندس وهو متلهف على إلحاقه بالعمل «لا» وهكذا تبين أيضاً أن

بريد قبل منصب مفتش الخط، لا حباً في المال طبعاً، فإن في وسعه أن يربح أضعاف ذلك في القرية، ولكن لأنه لم يحب أن يرفض، وقد أعطوه آلة صغيرة أنيقة ركبوها في الحائط، وهي شيء غريب صغير بمثابة ضرب من التلغراف في حد ذاتها.

أجل إن بريد نفاج متلاف، ولكن إسحق لا يكن له الحقد مع هذا، فهو شخصياً كان مستريحاً لوجود جاره في البيت في ذلك المساء بدلاً من شخص غريب. وكان إسحق متحلياً بهدوء عقل الفلاح، وقلة مشاعره، وثبات جأشه وعناده، فثرثر مع بريد وهز رأسه إزاء ضحالته وقال: «فنجاناً آخر لبريد» فصبت أنجر فنجاناً آخر.

وتحدثت أنجر عن المهندس، وكيف كان رجلاً رقيقاً رقة تجاوزت كل حد، فقد نظر في رسوم الولدين وكتاباتهما، بل وقال شيئاً عن إلحاق اليزيوس بالعمل تحت إمرته. فقال إسحق: «ليعمل معه؟» فقالت: «نعم. في المدينة، فيقوم له بالكتابة وما إلى ذلك ويكون كاتباً لديه في مكتبه، لا لشيء إلا لأنه كان مسروراً جداً بكتابة الصبي ورسمه». فقال إسحق: «هوه» فقالت أنجر: «فما قولك؟ وسيقوم أيضاً بتثبيته، وهذا شيء عظيم في نظري» وقال بريد: «نعم. شيء عظيم حقاً. وعندما يقول المهندس إنه سيفعل شيئاً فهو لا بد فاعله. أنا أعرفه، ونستطيع الاعتماد على رأيي في هذا الصدد». فقال إسحق: «لا يمكننا الاستغناء عن اليزيوس في هذه المزرعة فيما أعلم».

وساد شيء أشبه بالصمت المؤلم بعد ذلك، فإسحق لم يكن بالرجل الذي يسهل التحدث إليه، وأخيراً قالت أنجر: «ولكن ما القول إذا كان الصبي نفسه يريد التقدم في الدنيا، ولديه أيضاً الاستعداد لذلك».

وساد الصمت مرة أخرى. وعندئذ قال بريد وهو يضحك: «أتمنى لو طلب مني أحدَ أولادي على كل حال. فعندي منهم ما فوق الكفاية، ولكن باربو هي الكبرى، ثم هي فتاة...» فقالت أنجر على سبيل المجاملة: «وفتاة صالحة أيضاً» فقال بريد: «نعم لست أقول لا. باربو فتاة طيبة وماهرة في هذا وذاك، وستذهب للمساعدة في بيت العمدة». فسألته: «أتذهب إلى بيت العمدة؟». فقال: «أجل. كان لا بد أن أدعها تذهب. فزوجته شديدة التلهف على ذلك. نعم لا يسعني أن أقول لا».

وكان الوقت قد اقترب من انبلاج الصبح، فنهض بريد للانصراف وقال: «لي لفافة وقلنسوة تركتهما في البيدر»، ثم أردف مازحاً: «هذا إذا لم يكن الرجال قد ذهبوا بهما».

الفصل الرابع عشر

ومضى موكب الزمن.

أجل، أرسل اليزيوس إلى المدينة بعد كل شيء، لأن أنجر تولت تدبير ذلك. ولبث هناك سنة، ثم تم تثبيته، وبعدئذ صار له مركز منتظم في مكتب المهندس. وازدادت مهارته في الكتابة وما إلى ذلك. وما أجمل أن ترى الخطابات التي صار يبعث بها إلى أهله، وهي أحياناً مكتوبة بحبر أحمر وحبر أسود، حتى لكأنها الصور. وبالكلام الذي تتضمنه، والألفاظ التي يستخدمها، وبين حين وحين يطلب نقوداً لنفقاته الخاصة. وكان لا بد له أيضاً من ساعة وسلسلة مثلاً حتى لا يسترسل في النوم صباحاً فيتأخر عن مكتبه. ولا بد له أيضاً من غليون وطباق ليكون كنظرائه من الكتبة الشبان في المدينة. وهو بحاجة كذلك لشيء يسميه مصروف «الجيب» وشيء اسمه «الفصول المسائية» حيث يتعلم الرسم والتربية البدنية وأشياء أخرى تناسب مكانته ومركزه. فلم يكن من السهل على العموم إبقاء اليزيوس في بحبوحة من العيش في المدينة.

وسأل إسحق: «مصروف جيب؟ لعلها النقود التي يحتفظ بها المرء في جيبه» فقالت أنجر: «لا بد أن تكون كذلك ولا شك. حتى لا يكون خالي الوفاض بالكلية. وهي ليست بالشيء الكثير. دالر فحسب بين

حين وحين». فقال إسحق بجفاء: «إي. فقط دولار بين حين وحين، ثم...» ثم بيد أن خشونته كلها كانت نابعة من افتقاده لاليزيوس نفسه ورغبته في أن يعود إلى البيت. وقال: «إن المجموع يصل على طول المدى إلى عدد كبير من الدولارات، وليس في وسعي أن أثابر على هذا، فيجب أن تكتبي إليه لتخبريه أنه لا سبيل إلى حصوله على مزيد من النقود»، فقالت أنجر بلهجة تنضح بالاستياء: «هو، حسن جداً إذاً»، فقال: «هاك سيفرت. ماذا ينال على سبيل مصروف الجيب؟» فأجابته أنجر: «إنك لم تذهب إلى المدينة فلا معرفة لك بهذه الأمور. إن سيفرت لا حاجة به إلى مصروف جيب. وما دمنا نتحدث عن النقود فاعلم أن سيفرت لن يكون بحاجة إلى شيء عندما يموت الخال سيفرت» فقال إسحق: «أنت لا تدرين» فأجابته: «بلى أدري».

وكان هذا صحيحاً على نحو ما، فالخال سيفرت كان قد قال شيئاً عن اتخاذه سيفرت الصغير وريثاً له. الخال سيفرت كان قد سمع باليزيوس وأعماله الباهرة في المدينة، فلم تعجبه هذه القصة وهز رأسه وعض شفتيه وغمغم قائلاً: إن سليل أخته الذي سمي باسمه -فهو سَمِيٌّ الخال سيفرت- ينبغي ألا يعضه ناب الحاجة. ولكن ما تلك الثروة التي كان مفروضاً أن الخال سيفرت يمتلكها؟ ألديه حقاً فضلاً عن مزرعته المهملة ومسكته تلك الكومة من النقود والموارد التي يخالها الناس عموماً لديه؟ لا أحد يدري على وجه اليقين. يضاف إلى هذا أن الخال سيفرت نفسه رجل عنيد ألح في أن يذهب سيفرت الصغير للإقامة معه. وكانت هذه الرغبة مسألة كرامة بالنسبة له، فهو يرى من حقه أو واجبه أن يأخذ سيفرت الصغير ويرعاه كما فعل المهندس باليزيوس.

ولكن كيف يمكن هذا؟ أيبعث بسيفرت الصغير ليقيم بعيداً عن البيت؟ هذا شيء خارج عن نطاق البحث، فهو كل العون الذي بقي لإسحق الآن. ثم إن الفتى نفسه ليست لديه رغبة شديدة في الذهاب للإقامة مع خاله الشهير. فهو قد جرب ذلك مرة، بيد أنه عاد إلى البيت، لقد تم تثبيته وطالت قامته فجأة واشتد عوده، وظهر عذاره زغباً على صدغيه ويداه كبيرتان كأنهما عبدان طيعان، وهو يعمل عمل رجل.

وما كان إسحق ليستطيع إتمام بناء البيدر الجديد إطلاقاً دون معاونة سيفرت. وها هو البيدر قائم الآن بقنطرته وثقوب تهويته وكل شيء، في مثل ضخامة بيدر دار الكنيسة نفسها. أجل إنه بناء نصفه فقط مغطى بألواح ولكنه بناء شديد المتانة، مزود الأركان بمسامير البرشام الحديدية، ومغطى بألواح سمكها بوصة صنعت في منشر إسحق الخاص، وقد قام سيفرت بدق أكثر من مسمار في ذلك العمل، وحمل الدعامات الثقيلة اللازمة لهيكل البناء إلى أن يكاد يغمى عليه. فسيفرت ينسجم أشد الانسجام مع أبيه ويعمل بدأب إلى جانبه، لأنه جُبِلَ من طينته نفسها، ومع ذلك لم يكن فوق مستوى التصرفات الساذجة من قبيل الصعود إلى جانب التل للحصول على حشيشة الدود[1] كي يدلك بها جسمه وتفوح منه رائحة طيبة حين يذهب إلى الكنيسة. ولكن ليوبولدين كانت صاحبة النزوات بين أطفاله، وذلك أمر طبيعي، لأنها فتاة، ولأنها ابنته الوحيدة. وفي هذا الصيف من فضلك اكتشفت أنها لا تستطيع أن تأكل العصيدة في العشاء دون عسل أسود. ولا تستطيع بتاتاً. وهي بلا نفع كبير في أي نوع من أنواع العمل أيضاً.

١- أعشاب طيبة الرائحة يستخدمها أهل الشمال في تطييب الطعام. المترجمة.

ولم تكن أنجر قد تنازلت عن تفكيرها في الحصول على خادمة، فجعلت تثير الموضوع في كل ربيع، وإسحق يعارض في كُلّ مرة بعناد. ما أكثر أعمال التفصيل وحياكة النسيج الدقيق التي تستطيع القيام بها، فضلاً عن صنع أخفاف مزركشة مطرزة لو اتسع أمامها الوقت فقط. وفي المدة الأخيرة أمسى إسحق أقل حزماً في رفضه، وإن ظل على زمجرته. هوه: بتلك المرة الأولى، فقد ألقى خطبة طويلة بأكملها في الموضوع، لا عن استمساك بالحق والصواب، ولا بدافع الكرامة، ولكن للأسف عن ضعف وعن غضب من مجرد الفكرة أما الآن فيبدو أنه أخذ ينقاد، وهو أشبه بالخجلان.

وقالت أنجر: «إن كنت مزمعة أن أحصل على مساعدة في أعمال البيت، فهذا هو الأوان المناسب. فبعد سنوات قلائل ستكون ليوبولدين قد كبرت وصارت قادرة على القيام بهذا العمل وذاك» فقال إسحق: «مساعدة؟ وفيم تريدين المساعدة على كل حال؟» فقالت: «فيم أريدها حقاً؟ ألا تحظى أنت شخصياً بعون؟ أليس سيفرت معك طول الوقت؟» وماذا يسع إسحق أن يقول رداً على حجة خالية من المعنى كهذه الحجة؟ لقد أجاب: «حسن، أحسبك عندما تحصلين على فتاة ستكونين قادرة على القيام بالحرث والبذر والحصاد وتتدبرين ذلك كله معها وحدكما، وعندئذ أستطيع أنا وسيفرت أن نمضي لحال سبيلنا»، فقالت أنجر: «ربما كان الأمر كذلك، ولكني سأقول ذلك فحسب، في استطاعتي أن أجعل باربو تأتي الآن إلى هنا، فقد كتبت إلى ذويها بذلك» فقال إسحق: «أي باربو؟ أتعنين ابنة بريد؟» فأجابت: «نعم. فهي الآن في برجن» فقال: «لن أسمح لباربو ابنة بريد هذه بالحضور إلى هنا، ومهما صنعتِ فلن أوافق عليها مطلقاً».

وكان هذا أفضل من لا شيء، فلئن كان إسحق يرفض حضور باربو إلا أنه لم يعد مصراً على عدم استحضار خادمة إطلاقاً.

ولم تكن باربو ابنة أصحاب بريدابليك طراز الفتاة التي تروق إسحق، فهي ضحلة وغير مستقرة كأبيها، ولعلها كأمها أيضاً مخلوقة مهملة لا ثبات في طباعها على الإطلاق. ولم تطل إقامتها في بيت العمدة أكثر من عام. وبعد تثبيتها ذهبت للمساعدة في بيت صاحب المتجر، ولبثت هناك عاماً آخر. وعندئذ اتجهت إلى التقوى والاهتمام بالدين، ولما حضر جيش الخلاص إلى القرية انضمت إليه وصارت تتجول معه بشريط أحمر على كمها وتحمل قيثارة. ورحلت إلى «برجن» في هذا الزي على سفينة صاحب المتجر. وكان ذلك في العام الماضي. وقد أرسلت أخيراً إلى أهلها في بريدابليك صورة تمثلها، ورأى إسحق تلك الصورة فإذا شابة غريبة عقصت شعرها إلى أعلى وتتدلى فوق صدرها سلسلة طويلة بها ساعة. وكان أهلها فخورين بباربو الصغيرة، فجعلوا يبرزون الصورة لكل من يقدم عليهم متباهين بأن يرى الناس كيف تعلمت أساليب معيشة أهل المدن، وتقدمت في الدنيا. أما عن الشريط الأحمر والقيثارة فيبدو أنها تخلت عنهما. وقال بريد: «لقد حملت الصورة وأريته لعقيلة العمدة فلم تعرفها» فقال إسحق بارتياب: «أهي عازمة على البقاء في برجن؟» فقال بريد: «ولم لا؟ ما لم تنتقل إلى كريستيانا. وربما فعلت ذلك. فماذا تستطيع أن تصنع هنا؟ إن لديها عملاً جديداً الآن، فهي مدبرة بيت اثنين من الكتبة الشبان، وهما بغير زوجات أو قريبات، ويؤديان لها أجراً طيباً». فقال إسحق: «كم؟» فقال أبوها: «إنها لم تذكر المبلغ بالضبط في خطابها، ولكن لا بد أنه مختلف

تمام الاختلاف عما يدفعه الناس هنا. هذا واضح. وهي تحصل أيضاً على هدايا في عيد الميلاد وهدايا في أوقات أخرى؛ كذلك لا يخصم من أجرها إطلاقاً. فقال إسحق: «هوه» وسأله بريد: «ألا تحب أن تحصل عليها في بيتك؟» فسأله إسحق مأخوذاً أخذاً شديداً: «أنا؟» فقال بريد: «كلا بالطبع هي هي؟ إنما هو أسلوب من أساليب الكلام فقط، فباربو على ما يرام حيث هي. ولكني ماذا كنت مزمعاً أن أقول؟ ألم تلاحظ عيباً في الخط التلغرافي؟» فقال إسحق: «الخط التلغرافي؟ لا» فقال بريد: «لا. لا. لا عيب فيه كثيراً الآن بعد أن توليت أمره. ثم إن لدي هنا آلتي الخاصة على الحائط لتنبهني إذا حدث شيء، ولكن يجب أن أسير على طول الخط يوماً من الأيام لأرى كيف تمضي الأمور. إن لديَّ مهامَّ كثيرة تفيض عن طاقة رجل واحد، ولكن ما دمت أنا المفتش هنا وأشغل منصباً رسمياً فليس في وسعي بطبيعة الحال أن أهمل واجباتي، ولكن لولا عملي في التلغراف بالطبع.. وإن كان هذا قد لا يطول كثيراً...» فسأله إسحق: «لماذا؟ ألعلك تفكر في تركه؟» فقال بريد: «لا أستطيع أن أقول بالضبط، فأنا لم أقرر بعد تماماً. فهم يريدون مني أن أنتقل إلى القرية مرة أخرى» فسأله إسحق: «ومن الذي يريد ذلك؟» فقال: «أوه. كلهم. العمدة يريدني؛ عليّ أن أذهب وأساعده هناك، والطبيب يرغب في أن أسوق له عربته، وزوجة القس قالت أكثر من مرة إنها تفتقد مساعدتي لولا طول المسافة من هنا إلى هناك. وكيف الحال بالنسبة لتلك القطعة من التل التي بعتها يا إسحق؟ هل حصلت ثمناً لها على مبلغ كبير كما يقولون؟» فأجابه إسحق: «نعم. ليس الأمر أكذوبة» فقال بريد: «ولكن فيم كان يريدها جايزلر على كل حال؟ إن

قطعة الأرض لم تزل باقية هناك على حالها، وذلك شيء غريب؛ إن العام يمضي في إثر العام ولا يحدث شيء».

وكان ذلك شيئاً غريباً فعلاً، وكثيراً ما تساءل إسحق نفسه عن ذلك. وتحدث إلى العمدة في شأنه. وسأل عن عنوان جايزلر وفكر في الكتابة إليه.. أجل إنه لغز. وقال إسحق: «هذا شيء لا أستطيع تفسيره» ولم يكتم بريد اهتمامه بموضوع البيع، فقال: «إنه توجد أرض كثيرة من نفس النوع هناك إلى جانب أرضك، وقد يكون فيها أكثر مما تدري. وإنها لخسارة أن نجلس هنا كالعجماوات جاهلين كل شيء عنها. لقد فكرت في أن أذهب إلى هناك يوماً ما بنفسي لألقي نظرة». فسأله إسحق: «ولكن هل تعرف شيئاً عن المعادن وما إليها؟» فأجابه بريد: «أعرف بعض شيء، وقد سألت شخصاً أو شخصين آخرين، ويجب على كل حال أن أجد شيئاً ما، لأني لا أستطيع أن أعيش وأعول جميع الموجودين هنا من هذه المزرعة الصغيرة، هذا رابع المتسحيلات، ولكن الأمر مختلف بالنسبة لك ولديك كل تلك الأخشاب والأرض الجيدة من تحتها أما هنا فالأرض كلها سبخة»، فقال إسحق باقتضاب: «أرض المستنقعات أرض جيدة، وأرضي من هذا النوع». فقال بريد: «ولكني لا أستطيع تصفية مائها، إذ الصرف غير ممكن».

ولكنه ممكن. وقد لاحظ إسحق وهو قادم في ذلك اليوم مواضع من الأرض أخليت من الشجر، وقطعتان منها أقرب إلى القرية، ولكن ثمة قطعة ثالثة فيما بين بريدابليك وسيلانرا. أجل لقد شرع الناس يعملون الآن في الأرض. وفي الأيام الخالية عندما جاء إسحق أول مرة كانت الأرض كلها خراباً، وهؤلاء المتوطنون الثلاثة الجدد أناس جاؤوا من

مناطق أخرى؛ أناس في رؤوسهم عقول مفكرة كما يدل على ذلك ظاهر الأمور، فهم لم يبدؤوا باقتراض أموال لبناء بيت، كلا، بل حضروا عاماً وقاموا بأعمال التمهيد بالرش ثم عادوا من حيث أتوا واختفوا كأنهم ماتوا. وهذه هي الطريقة المثلى: أن يحفر المرء أولاً الخنادق ثم بعد ذلك يحرث ويبذر. إن «اكسل شتروم» أقربهم إلى أرض إسحق الآن، فهو جاره اللصيق، وهو فتى ماهر أعزب قادم من هليجلاند؛ وقد اقترض سلفة إسحق الجديدة لتمهيد أرضه، ولم يقم سقيفة للدريس وكوخاً من الطين لنفسه وبهيمته قبل السنة الثانية، وأطلق على مزرعته اسم مانلاند، لأن المكان يبدو لطيفاً في ضوء القمر، ولم تكن له قريبات من النسوة، ووجد مشقة في الحصول على معين في الصيف لبعد مكانه، بيد أنه تدبر الأمور على ما يرام بلا شك، فلم يفعل مثل بريد أولسن الذي بنى بيته أولاً ثم جاء بأسرة كبيرة وأطفال صغار وما إلى ذلك، وليس لديه من التربة ولا من البهائم ما يكفي لطعامهم، فماذا يعرف بريد أولسن عن صرف أرض المستنقعات وتمهيد تربة جديدة.

إن بريد يعرف كيف يضيع وقته في التراخي والتسكع، فقد حضر إلى «سيلانرا» ذات يوم في طريقه صاعداً إلى التلال، لا لشيء إلا للبحث عن المعادن الثمينة، وعاد في المساء نفسه وقال: إنه لم يجد شيئاً محدداً، وإنما هي علامات معينة، ثم أومأ برأسه، وهو حريّ أن يصعد مرة أخرى قريباً فيفتش بين التلال بدقة متجهاً إلى ناحية السويد.

وفعلاً صعد بريد مرة أخرى. ولا شك في أنه استطاب هذا العمل. بيد أنه ادعى أن الأمر في هذه المرة يتعلق بعمله في التلغراف، فلا بد له أن يصعد ليفحص الخط كله، وفي تلك الأثناء كانت زوجته وأطفاله في

البيت لرعاية المزرعة، أو لعلهم غادروها لترعى نفسها. وقد عاف إسحق زيارات بريد وسئمتها نفسه، فصار يغادر الحجرة كلما جاء، فتجلس أنجر مع بريد ويتحدثان بانهماك معاً. وفيم كان حديثهما؟ إن بريد كثيراً ما ينزل القرية ولديه دائماً أخبار يرويها عن أكابر الناس هناك، وأنجر من جانبها تستطيع دائماً أن تستمد موضوعاً للكلام من رحلتها الشهيرة إلى ترونيم وإقامتها هناك. وكانت قد تعلمت كثرة الكلام في السنوات التي قضتها بعيداً، فصارت مستعدة دائماً للثرثرة مع أي إنسان. كلا. إنها لم تعد أنجر البسيطة المستقيمة القصد والقول كما كانت في سالف الأيام.

وكانت الفتيات والنساء يأتين باستمرار إلى «سيلانرا» لتفصيل ثوب أو لحياكة هدب طويل بالآلة في لحظة واحدة. وكانت أنجر تحسن ضيافتهن، وأتت أولين مرة أخرى. ولعلها لم تستطع مغالبة رغبتها في الحضور، فأتت في الربيع وفي الخريف معسولة اللفظ ناعمة كالزبد كلها خديعة. وفي كل مرة كانت تقول: «قلت آتي لأرى كيف أحوالكم هنا، وقد اشتقت كثيراً لمرأى الصبيين، فأنا شديدة الغرام بهما، فقد كانا ملاكين صغيرين. نعم إنهما الآن فتيان كبيران، ولكن العجب أني لا أستطيع أن أنسى الوقت الذي كانا فيه صغيرين تحت رعايتي، وها أنتم تشيدون وتشيدون مرة أخرى وتحولون المكان إلى مدينة كاملة، ولعلكم ستقيمون ناقوساً يدق في سقف البيدر كما هي الحال في الكنيسة؟».

وذات مرة جاءت أولين وأحضرت امرأة أخرى معها، وقضت كلاهما مع أنجر يوماً لطيفاً، فكلما كثرت الجالسات من حول أنجر حسن عملها في الحياكة والتفصيل فتستعرض مهارتها وتلوح بمقصها وتطوح

مكواتها. وكأنما يذكرها ذلك بالمكان الذي تعلمت فيه هذا كله، فقد كان عددهن كبيراً على الدوام في المشغل هناك، ولم تكن أنجر تكتم المكان الذي حصلت فيه هذه المعارف وفنها كله. إنه ترونيم. وكأنما لم تكن في السجن على الإطلاق على النحو المعتاد، بل في مدرسة أو معهد حيث يتعلم المرء كيف يحيك وينسج ويكتب وينسق ويصبغ، فهي قد تعلمت ذلك كله في ترونيم. وكانت تتحدث عن ذلك المكان وكأنه بيت، وفيه أناس كثيرون تعرفهم ما بين مشرفات ومقدمات عمال وخدم. وقد شعرت بالسأم والفراغ لعودتها إلى هنا ووجدت مشقة على نفسها في الانقطاع عن الحياة وعن المجتمع اللذين تعودتهما، بل إنها تباهت إلى حد ما بإصابتها ببرد، لأنها لا تستطيع أن تتحمل الهواء الشديد الطلق، فبعد عودتها بسنوات ظلت صحتها أضعف من أن تتحمل العمل خارج البيت في جميع الفصول. فلا بد لها من خادمة للعمل خارج البيت.

وقالت أولين: «لترحمنا السماء. ولماذا لا تكون لديك خادمة حقاً ولديك الوسائل وأنت متعلمة ولك بيت كبير بديع وكل شيء؟»

وكان مبهجاً لها أن تجد تعاطفاً، فلم تنكر أنجر ذلك وراحت تعمل على آلة حياكتها إلى أن ارتج المكان، والخاتم يلمع في إصبعها، وقالت أولين للمرأة التي معها: «أنت ترين أن ما قلته صحيح. فأنجر تلبس خاتماً ذهبياً في إصبعها، فسألتها أنجر وهي تخلعه: «أتحبين أن تريه؟» وبدا كأن أولين لم يزل يساورها الشك، وقلبت الخاتم بين أصابعها كما يقلب القرد بندقية، ونظرت إلى العلامة وقالت: «الأمر كما قلت، فأنجر ترتع في الغنى واليسار».

وتناولت المرأة الأخرى الخاتم بإجلال وابتسمت بتواضع، فقالت لها أنجر: «في وسعك أن تلبسيه برهة إن شئت، لا تخافي. سوف لا ينكسر».

فكانت أنجر متلطفة ورقيقة فحدثتهما عن كاتدرائية ترونيم، بادئة في الحديث هكذا: «لعلكما لم تريا كاتدرائية ترونيم؟ لا. إنكما لم تذهبا إلى هناك؟» وكأنها كاتدرائيتها الخاصة وهي تطريها وتتباهى بها، وتخبرهما عن ارتفاعها وعمقها، وأنها لأعجوبة! سبعة قسوس يستطيعون إلقاء العظات بها في آن واحد من غير أن يسمع أي منهم الآخر. ثم لا أظنكما رأيتما بئر القديس أولاف؟ إنها في وسط الكاتدرائية نفسها، أي على جانب من جوانبها وهي بئر بغير قرار؛ عندما ذهبنا إلى هناك أخذت كل واحدة منا معها حجراً وأسقطته فيها، ولكن الحجر لم يصل إلى القاع قط». وتهامست المرأتان، وهما تهزان رأسيهما: «لم يصل إلى القاع؟» فصاحت أنجر بحبور: «وهناك ألف شيء آخر فضلاً عن هذا في الكاتدرائية. هناك أولاً «الصندوق الفضي» وهو الصندوق الفضي الخاص بالقديس أولاف المقدس. وأما كنيسة الرخام -وهي كنيسة صغيرة مصنوعة كلها من المرمر الخالص- فقد أخذها منا الدانمركيون في الحرب...».

وآن للمرأتين أن تنصرفا، فانتحت أولين بأنجر جانباً وقادتها إلى مخزن المؤن حيث تعلم أن الجبن كله مخزون، وأغلقت الباب، فسألتها أنجر: «ما المسألة؟» فهمست أولين: «إن لوس أندرس لا يجسر أن يأتي إلى هنا فقد أخبروه» فقالت أنجر: «هوه؟» واستطردت أولين: «لقد أخبرته إنه إن تجاسر على الحضور بعد ما فعله بك» فقالت أنجر: «إي.

ولكنه جاء إلى هنا مرات كثيرة بعد هذا وفي وسعه أن يأتي إن أراد، فأنا لست خائفة منه». فقالت أولين: «لا. الأمر ليس كذلك، ولكني أعرف ما أعرف، وفي استطاعتي إذا شئت أن أوجه إليه الاتهام» فقالت أنجر: «هوه. لا. لا ينبغي لك أن تفعلي ذلك. فالمسألة لا تستحق الاهتمام» بيد أنها لم تكن مستاءة لانضمام أولين إلى جانبها وقد كلفها ذلك قرصاً من الجبن بالتأكيد، ولكن أولين شكرتها بسماحة قائلة: «الأمر كما قلت وكما كنت أقول دائماً: أنجر تعطي بكلتا يديها من غير حقد ومن غير شح. كلا قد لا تكونين خائفة من أوس أندرس، ولكني حرمت عليه الدخول إلى هنا على كل حال، فقد كان هذا أقل ما يجب أن أصنعه لأجلك»، وعندئذ قالت أنجر: «وما الضرر لو أنه جاء على كل حال؟ لم يعد في مقدوره أن يلحق بي الأذى؟»، فأرهفت أولين أذنيها وقالت: «هوه... لعلك تعلمت طريقة جديدة؟» فقالت أنجر: «بل إنني سوف لا أنجب أطفالاً بعد الآن؟» وهكذا تعادلت كفتاهما، لأن كلاً منهما كانت تحمل في يدها ورقة رابحة: فأولين كانت تعلم طوال الوقت أن اللالي أوس أندرس كان قد قضى نحبه في اليوم السابق.

ولكن لماذا قالت أنجر إنها سوف لا تنجب أطفالاً بعد؟ إن العلاقات بينها وبين زوجها لم تكن سيئة. بل هي أبعد ما تكون عن العلاقة بين القط والكلب. أجل إن لكل منهما مزاجه الخاص، ولكن قلما كانا يتشاجران. وإن تشاجرا فلا يطول الخصام أمداً طويلاً. بل سرعان ما يتصالحان -وكم من مرة غدت أنجر فجأة كما كانت في الأيام الخوالي- تعمل بجد في سقيفة البقر أو في الحقل كأنما أصابتها «نكسة» من الصحة والعافية، وفي تلك الأوقات كان إسحق ينظر إلى زوجته بعينين

شاكرتين، ولو كان رجلاً من الطراز الذي يصرح لسانه بما في قلبه لكان حرياً أن يقول لها حسن تقديره لصنيعها، ولكنه كان ينتظر مدة أطول مما ينبغي فيأتي ثناؤه متأخراً جداً أكثر مما ينبغي، ولذا وجدت أنجر -ولا شك- أن المسألة لا تستحق منها هذا العناء، ولم تجشم نفسها مشقة المثابرة.

وكان من الممكن أن تنجب أطفالاً إلى أن تتجاوز الخمسين، وهي الآن لعلها لم تكد تبلغ الأربعين، وقد تعلمت أشياء كثيرة في المؤسسة، فهل تعلمت أيضاً أنواعاً من الحيل بالنسبة لشخصها؟ لقد عادت مدربة تمام التدريب ومتعلمة بعد معاشرتها الطويلة للقاتلات الأخريات. فلعل الرجال أيضاً من السجانين والأطباء علموها أشياء. وقد أخبرت إسحق ذات يوم بما قاله أحد الأطباء عن جريمتها الصغيرة: «ولماذا تعتبر جريمة قتل الأطفال، حتى ولو كانوا أصحاء؟ إنهم ليسوا أكثر من كتل من اللحم على كل حال» فسألها إسحق: «ألم يكن ذلك الرجل نفسه قاسياً قسوة فظيعة؟» فصاحت أنجر: «هو؟» وراحت تخبره عن مبلغ رقته معها شخصياً فهو الذي أتاها بطبيب آخر ليجري بفمها جراحة جعلت منها مخلوقة آدمية، فلا أثر بها الآن إلا ندبة صغيرة.

أجل ندبة صغيرة. وهي امرأة بديعة في بابها، طويلة غير مفرطة الامتلاء، سمراء، ذات شعر غزير، وفي الصيف تمشي غالباً حافية القدمين وقد شمرت ثوبها عالياً، فأنجر لا تخشى إظهار ساقيها للعيان، فكان إسحق يراهما وقد كان مستطيعاً ألا يراهما.

كلا لم يكونا يتشاجران، فإسحق ليست لديه موهبة الشجار، وزوجته أمست أسرع بديهة في الردود، والعراك المحتدم يستغرق وقتاً

طويلاً كي تنضج دواعيه لدى إسحق، وهو الرجل الثقيل التفكير، فكان يلفي نفسه متعثراً في ألفاظها، فلا يجد ما يرد به عليها. ثم إنه فضلاً عن ذلك كان متيماً بها، وما كان أشد حب إسحق، ولم تكن الأحايين التي يحتاج فيها للرد كثيرة، فأنجر لا تشكو. وهو زوج ممتاز من وجوه كثيرة، فهي تدعه وشأنه ومم عساها تشكو؟ فإسحق رجل لا يزدرى بل إنها كانت قمينة أن تتزوج رجلاً أسوأ منه. أهو متداع؟ أجل إن بعض علائم التعب أخذت تظهر عليه الآن في بعض الأوقات، ولكنها أعراض ليست ذات بال. فهو ذو أساس صحي متين، وعافيته لم تهدر، وهو في ذلك صنو لها، وهو قائم في خريف حياتهما الزوجية بما عليه بمثل الحرارة التي لديها.

ولكن أليس فيه شيء جميل أو عظيم بصفة خاصة؟ لا. ومن هنا جاء تفوقها. ففي وسع أنجر أحياناً أن تفكر في نفسها كم من الرجال عرفتهم ممن هم أبدع منه؟ فهم سادة وسيمون لهم عصا أنيقة للمشي، ومناديل ويلبسون بنيقات منشاة... واهاً لهؤلاء السادة سكان المدن! وهكذا كانت تبقي إسحق في موضعه وتعامله كما ينبغي معاملة لا تزيد على ما لا يستحقه؛ فإنه فلاح ريفي جلف من أهل البراري. ولو أن فمها كان منذ البداية كما هو الآن لما تزوجته يقيناً. كلا. بل كانت حرية أن تحصل على ما هو خير منه: فالبيت الذي أعطاها والحياة التي قدمها لها فقيران. وكانت حرية على الأقل أن تتزوج شخصاً من قريتها وتعيش بين جيران محاطة بدائرة من الأصدقاء بدلاً عن عيشها منبوذة في البرية. إن هذا المكان لم يعد يصلح لها الآن وقد تعلمت أن تنظر إلى الحياة نظرة مختلفة.

وعجيب أن تتغير نظرة الإنسان إلى الأمور هذا التغير. إن أنجر لا تجد الآن لذة في الإعجاب بعجل جديد ولا تصفق بيديها دهشة حينما يعود إسحق هابطاً من التلال بسلة كبيرة من السمك! كلا؛ فقد عاشت سنوات بين أشياء أعظم من هذه. وفي المدة الأخيرة انقطعت حتى عن الرقة والعذوبة حين تناديه لتناول الغداء، فكل ما تقوله الآن: «طعامك جاهز. ألن تأتي؟» ولم يكن ذلك حسن الوقع على السمع، وتعجب إسحق قليلاً في البداية لطريقتها الغريبة في الكلام، فهي طريقة قذرة غير مبالية كأنها تقول له سيان أن تأتي أو لا تأتي، فكان يجيبها: «ولكني لم أكن أدري أنه جاهز» ولكن عندما تجيبه أنجر أنه كان ينبغي أن يدري لو أن يخمن على كل حال بالنظر إلى الشمس، كان لا يجيب ويترك المسألة عند هذا الحد.

آه، ولكنه ذات مرة تمكن منها وأحسن استغلال ذلك. وكان هذا عندما حاولت أن تسرق منه نقوده. وليس هذا لأن إسحق بخيل في الإنفاق عليها، بل لأن النقود كانت نقوده هو بوضوح. هوه: كاد الأمر يفضي به هذه المرة إلى خرابها ونكبتها، ولكن حتى هذا لم يكن بالضبط عن رداءة تامة شاملة من جانب أنجر، لأنها كانت تريد النقود لاليزيوس، لولدها المبارك اليزيوس في المدينة الذي أرسل إليها يطلب دالرو مرة أخرى. أتراه يمكن أن يعيش وسط كل هؤلاء القوم الراقين خالي الوفاض؟ إن لها بعد كل شيء قلب أم. وقد طلبت النقود أولاً من أبيه ولما لم تجن من وراء ذلك طائلاً أخذتها بنفسها. وسواء كان إسحق قد ارتاب في الأمر قبل ذلك أو اكتشفه بالصدفة، فهو اكتشفه على كل حال، وفجأة ألفت أنجر نفسها مقبوضاً عليها من ذراعيها وشعرت بنفسها وقد رفعت عن الأرض ثم

ضربت بها مرة أخرى، وكان ذلك شيئاً غريباً فظيعاً كأنه انهيار جبل من الجليد. ولم تكن يدا إسحق ضعيفتين أو متداعيتين في تلك اللحظة، وأتت أنجو وسقط رأسها إلى الوراء وارتعدت ثم تنازلت عن النقود.

وحتى في تلك المناسبة لم يتكلم إسحق كثيراً وإن كانت أنجر لم تحاول أن تعوقه عن الكلام، فكل ما قاله نطق به في الواقع في نفس واحد كأنه ينتزعه انتزاعاً: «هس أنت.. أنت غير جديرة بالبقاء في هذا المكان» ولم تكد تعرفه بعد ذلك، ولكن لا بد أن ذلك كان بسبب مرارات طال اختزانها ولم يعد يستطيع كبحها.

وكان يوماً تعساً أعقبته ليلة طويلة، وامتد ذلك إلى يوم آخر. وخرج إسحق من البيت ورقد في الخارج، وكان عليه أن يدخل الدريس، فعمل سيفرت مع أبيه. وكانت الصغيرة ليوبولدين مع أنجر ومعها أيضاً الحيوانات بيد أنها على ذلك كله شعرت بالوحدة وظلت تبكي طول الوقت تقريباً وتهز رأسها لنفسها، فلم يحدث لها قط من قبل أن تأثرت إلى هذا الحد إلا مرة واحدة عادت ذاكرتها بها إليها في هذه المناسبة، وكان ذلك عندما رقدت في فراشها وخنقت طفلتها الوليدة.

أين ذهب إسحق وابنه؟ إنهما لم يركنا للكسل، بل اختلسا يوماً وليلة أو نحو ذلك من وقت حصاد الدريس وصنعا زورقاً على شاطئ البحيرة. وهو زورق خشن قبيح الشكل إلى حد بعيد، إلا أنه قوي ومتين شأن جميع ما يصنعان دائماً. إن لديهما الآن زورقاً، وفي وسعهما أن يمضيا فيه للصيد بالشباك.

ولما عادا إلى البيت كان الدريس جافاً كما كان، فهما قد خدعا العناية بأن وثقا بها، ولم تلحق بهما خسارة، بل كسبا من وراء ذلك،

وعندئذ عد سيفرت ذراعاً وقال: «هوه! أمي كانت تعمل في حصاد الدريس» وأجال إسحق طرفه في الحقول وقال: «همم» وكان إسحق قد لاحظ من قبل أن جانباً من الدريس قد نقل من موضعه. ولا بد أن أنجر الآن في البيت لطعام الظهيرة. وكان حسناً منها أن تدخل الدريس بعد أن قرعها في اليوم السابق وقال لها: «هتش» ولم يكن ما نقلته من الدريس خفيف الحمل فلا بد أنها عملت بجد، ثم إن عليها أن تحلب كل تلك الأبقار والماعز فضلاً عن ذلك. وقال سيفرت: «ادخل وكل شيئاً» فسأله: «ألن تأتي أنت إذن؟» فأجابه: «لا».

وبعد قليل خرجت أنجر وجلست باتضاع على عتبة الباب وقالت: «أفلا تفكر في نفسك قليلاً، وتدخل لتأكل لقمة» فزمجر إسحق وقال: «همم». ولكن كان عجيباً في المرة الأخيرة من أنجر أن تظهر الاتضاع على أية حال.

ولذا تزعزع عناده. وقالت هي إن استطعت أن تركب سنين في كباشتي فسوف يكون في مقدوري أن أساعد مرة أخرى في جمع الدريس».

آه ها هي ذي تأتي إلى زوجها رب المكان لتطلب منه شيئاً وهي بادية الشكر لأنه لم يشح عنها بازدراء.

وقال لها: «لقد عملت ما فيه الكفاية. من جمع ونقل بالعربة وكل شيء» فقالت: «لا ليس ذلك كافياً» فقال: «لا وقت عندي على كل حال لإصلاح الكباشات الآن. ففي وسعك أن تري أن المطر سيهطل قريباً».

ومضى إسحق إلى عمله.

وكان مراده من ذلك بلا شك أن يجنبها التعب، لأن ضياع دقيقتين في إصلاح الكباشات كان سيعوضه السماح لأنجر بالعمل عشرات الأضعاف. ولكن أنجر خرجت على كل حال بكباشاتها كما هي وأكبت على جمع الدريس بعزم، وجاء سيفرت بالحصان وعربة الدريس، وتعاون الجميع في العمل وتصبب عرقهم وتم إدخال الدريس، فكان ذلك عملاً عظيماً، وثاب إسحق إلى التفكير مرة أخرى في القوى العلوية التي تقود جميع خطواتنا، من سرقة دالر إلى إدخال محصول كامل من الدريس، وفضلاً عن هذا تم صنع الزورق بعد نصف جيل من التفكير في ذلك، وها هو الآن قد تم وصار قائماً هناك على شاطئ البحيرة.

وهتف إسحق: «ياه! يا إلهي».

الفصل الخامس عشر

كانت أمسية غريبة في مجموعها، بل كانت نقطة تحول. فأنجر كانت شاردة عن الخط المألوف منذ أمد طويل، فكانت دفعة واحدة عن الأرض كافية لإعادتها إلى مكانها. ولم يتكلم أحد منهما فيما حدث، فقد شعر إسحق بالخجل من نفسه بعد ذلك. كله حدث بسبب دالر، بسبب مبلغ تافه من النقود، كان حرياً أن يعطيها إياه على كل حال، لأنه كان يسره أن يسمح به للفتى. ثم أليست النقود بعد هذا كله نقود أنجر مثلما هي نقوده؟ وجاء وقت شعر فيه إسحق أن دوره حان كي يتضح.

وحانت أنواع كثيرة من الأوقات، فلا بد أن أنجر قد غيرت رأيها ثانية فيما يبدو. فإذا بها مختلفة مرة أخرى عما كانت وقد نسيت تدريجياً أساليبها الراقية وارتدت ذات حمية من جديد: زوجة متوطن شديدة الاهتمام والجد كما كانت في مبدأ الأمر. ومن ذا يظن قبضة رجل شديدة حرية أن تصنع مثل هذه الأعاجيب؟ ولكنها الحقيقة. فها هنا امرأة ذات قوة وعافية وتعمل أفسدها والتوى بها الاحتباس الطويل في جو صناعي فارتطمت برجل يقف على قدم ثابتة لم يغادر قط لحظة واحدة مكانه الطبيعي على الأرض، على التربة - فما من شيء يمكن أن يحركه.

أنواع كثيرة من الأوقات وفي العام التالي جاء القحط مرة أخرى فقضى على النماء ببطء، وهو أركان الشجاعة البشرية، فإذا بالقمح يذوي. أما البطاطس -تلك البطاطس العجيبة- فلم تزد، بل راحت تزهر وتزهر. لقد انقلبت المراعي إلى لون الرماد، أما البطاطس فازدهرت. إن القوى العلوية توجه كل شيء ولا شك، ولكن المراعي استحالت إلى لون الرماد.

وذات يوم أقبل جايزلر - العمدة السابق جايزلر- أقبل أخيراً، وكان جميلاً أن يكتشف المرء أنه لم يمت، بل عاد مرة أخرى. ولكن فيم جاء الآن؟

ولم تكن لدى جايزلر هذه المرة فيما يبدو مفاجآت كبيرة، فلا شراء لحقوق التعدين ولا وثائق وما إلى ذلك، فقد كان جايزلر في ثياب حقيرة، وقد دبت في لحيته وشعره نسبة أكبر من الشيب، وصارت عيناه أشد احمراراً عند حافتيهما من أي وقت قبل. ولم يكن معه رجل يحمل له أشياءه، بل كانت أوراقه في أحد جيوبه، فليست معه حقيبة.

وقال جايزلر: «طاب يومكما» فأجاب إسحق وأنجر: «طاب يومك. ومرحباً بالضيف الذي طال انقطاعه لنا!» فهز جايزلر رأسه، وقالت أنجر من تلقاء نفسها: «شكراً لك على ما صنعته تلك المرة في ترونيم». وهز رأسه موافقاً على هذا القول وقال: «كلانا مدين لك بالشكر على هذا».

أما جايزلر فلم يكن الرجل الذي تستغرقه المشاعر والعاطفيات، فقال: «نعم. وأنا الآن في طريقي إلى السويد».

ورغم انشغال بال أهل سيلانرا بالقحط فإنهم كانوا مسرورين برؤية جايزلر مرة أخرى، فقدموا إليه خير ما عندهم؛ وأبهجهم أن يصنعوا له ما يستطيعون جزاء كل ما صنعه لهم.

أما جايزلر نفسه فلم تكن لديه هموم ظاهرة، وفجأة انطلق لسانه، وأجال طرفه في الحقول وهز رأسه. وكان منتصب القامة كالعهد به وبدا كما لو كانت في جيوبه عدة مئات من الدولارات مما أشاع فيهم الحيوية وخفف همهم أن يكون في بيتهم: لا لأنه يصطنع المرح الصاخب بل لأنه محدث دافق الحيوية. قال: «سيلانرا مكان بديع. مكان فخم. وها قد أقبل الآن آخرون تباعاً منذ بدأت أنت بالاستقرار هنا يا إسحق، وقد عددت منهم خمسة بنفسي، فهل ثمة سواهم؟» فأجابه: «سبعة عقارات، لنقل إنها تضم خمسين نفساً، على هذا المعدل سيكون عدد السكان كثيفاً في هذا الجوار قبل مضي وقتٍ طويل، وقد سمعت أن لديكم الآن مدرسة، فأجابه إسحق: «نعم لدينا مدرسة» فصاح جايزلر: «هاك ألم أقل لك؟ مدرسة خصيصاً لكم عند مزرعة بريد، لأنها أقرب إلى توسط المنطقة. تصور بريد مزارعاً في البراري». وضحك جايزلر لهذا التصور واستطرد: «أجل لقد سمعت كل شيء عنك يا إسحق، فأنت أفضل الرجال هنا، وقد سرني هذا. ألديك الآن منشر أيضاً؟» فقال إسحق: «نعم على قدر الحال، ولكنه يكفي لأعمالي. وكذلك قمت بنشر بعض الأخشاب بين حين وحين للجيران»، فصاح جايزلر: «مرحى هكذا الهمة!» فقال إسحق: «يسعدني أن أعرف رأيك فيه يا سيادة العمدة، إن تكرمت فألقيت شخصياً نظرة على هذا المنشر»، فهز جايزلر رأسه هزة الخبير، وقال إنه سيلقي نظرة على المنشر ويفحصه بدقة، ثم سأله: «لديك ولدان أليس كذلك؟ أين ذهب الآخر؟ في المدينة؟ كاتب في مكتب؟ همم! ولكن الفتى هنا يبدو متين البنية. وما اسمك الآن يا فتى؟» فأجابه الفتى: «سيفرت» فسأله: «واسم الآخر؟» فأجابه: «اليزيوس»، فقال

جايزلر: «وهو في مكتب مهندس، وماذا يتوقع أن يتعلم هناك؟ إنها مهنة جياع. كان الأفضل له أن يأتي عندي»، فقال إسحق على سبيل المجاملة: «نعم». وكان يشعر بالشفقة على جايزلر في تلك اللحظة، فهذا الرجل الطيب لا يبدو عليه أنه قادر على استخدام كتبة، بل عليه أن يعمل وحده بجد فيما يلوح، وسترته هذه نال منها البلى نيلاً شديداً عند المعصمين.

وقالت أنجر: «ألا تحب أن تلبس جورباً طويلاً جافاً؟» وأتته بأحد جواربها وهو من بقايا أيام عزها: رقيق فاخر، وله طنف، فقال جايزلر باقتضاب مع أنه كان ولا شك مبللاً بالماء أشد البلل: «لا وشكراً» ثم قال راجعاً بالحديث إلى اليزيوس: «كان أفضل كثيراً له لو جاءني، فأنا في حاجة شديدة إليه» وتناول صندوق طباق صغير من الفضة من جيبه وجلس يعبث به بين أصابعه، ولعله آخر شيء ثمين بقي له الآن.

ولكن جايزلر كان قلقاً لا يستقر، ينتقل بالحديث من موضوع إلى موضوع، ودس الصندوق في جيبه ثانية وشرع في موضوع جديد: «ولكن ما هذا؟ إني أرى المراعي بلون الرماد، لقد حسبت ذلك اللون ظلاً، لقد تشققت الأرض من شدة الجفاف. تعال معي يا سيفرت».

ونهض عن المائدة فجأة وقد ترك التفكير في الطعام، والتفت عند الباب ليقول لأنجر: «شكراً لك على الطعام»، ثم اختفى وسيفرت في أثره، فاجتاز الأرض إلى النهر وجايزلر يمعن التحديق فيما حوله طول الوقت، ثم صاح: هنا، ووقف، وبعد ذلك قال: «ما الحكمة في ترك الأرض تجف وتصبح عدماً ولديكم نهر كبير يكفي لإغراقها في دقيقة! سنجعل هذا المرعى يخضر غداً!» فقال سيفرت بدهشة شديدة: «نعم»

فقال جايزلر: «احفر هنا حفراً مائلاً أفهمت؟ اجعل الحفر منحدراً. إن الأرض مستوية فيجب أن تجعل فيها نوعاً من النفق، وأعتقد أن لديكم هنا منشراً، وأظن أنك تستطيع أن تجد فيه بضعة ألواح سميكة؟ حسن، اذهب وأحضر معولاً ورفشاً وابدأ الحفر من هنا، وسأعود لأرسم خطاً دقيقاً واضحاً».

وعاد جرياً إلى البيت وحذاؤه الكبير الطويل يحدث صوتاً لكثرة ما امتلأ به من الماء، وكلف إسحق بصنع أنابيب كثيرة توضع حيث يتعذر حفر خنادق في الأرض، وحاول إسحق أن يعترض قائلاً إن الماء قد لا يصل إلى الحقول المتشققة، فبين له جايزلر أن ذلك قد يستغرق وقتاً، وأن الأرض يجب أن تشرب قليلاً من الماء أولاً، ولكن الماء سيصل تدريجاً، فالحقل والمرعى سيخضران عندما يحل مثل هذا الوقت غداً» فقال إسحق: «هوه»، ثم أكب على صنع أنابيب مربعة من ألواح الخشب الطويلة بأقصى ما يستطيع من جد وسرعة.

أما جايزلر فعاد مسرعاً إلى سيفرت مرة أخرى: «أحسنت. استمر على هذا النحو. ألم أقل إنه فتى متين البنيان؟ اتبع العلامات التي وضعتها، وإذا وصلت إلى منطقة من الجلاميد أو الصخور فعليك أن تدور حولها ولكن حافظ على المستوى فيجب أن يكون الحفر في عمق واحد. أفهمت ما أقول؟» ومرة أخرى عاد إلى إسحق: «ها قد أنجزت أنبوبة، عظيم! ولكننا بحاجة إلى مزيد. ربما إلى ستة. استمر يا إسحق سوف يخضر كل شيء غداً. لقد أنقذنا محصولك!» ثم جلس جايزلر على الأرض وضرب ركبتيه بكلتا يديه مبتهجاً وراح يثرثر، ويفكر في مثل وميض البرق: «ألديك هنا شيء من القطران وخيوط الكتان أو ما إلى

ذلك؟ هذا عظيم. إن لديك كل شيء. إن هذه الأنابيب الخشبية سينزل الماء من أركانها في الدلية ولكن الخشب سينتفش بعد قليل وتصبح محكمة كقوارير من زجاج. تصور أن لديك أيضاً قطراناً وخيوط كتان. ماذا؟ أتقول إنك صنعت قارباً؟ وأين القارب؟ هناك على البحيرة؟ عظيم يجب أن ألقي عليه نظرة أيضاً».

لقد كان جايزلر فياضاً بالوعود يغدو ويروح بخفة، وبدا هذه المرة أميل إلى الزؤاط من ذي قبل فهو يعمل بصورة متقطعة، ولكنه متى بدأ العمل مضى فيه بسرعة جنونية، وكانت فيه سمة من التفوق بعد كل شيء، أجل إنه يبالغ قليلاً، فمن المستحيل أن يخضر كل شيء في مثل هذا الوقت من الغد كما قال. ولكن جايزلر على كل حال متوقد الذكاء سريع الحزم في اتخاذ القرارات. أجل إن جايزلر رجل غريب؟ فهو الذي أنقذ دون سواه المحصولات تلك السنة في سيلانرا.

«كم أنبوباً أفرغت من صنعه؟ هذا لا يكفي. فكلما كثرت الأخشاب التي تمدها في الأرض زادت سرعة جريان الماء، واجعل طول الواحد عشرين قدماً أو خمسة وعشرين إن استطعت. أتوجد ألواح بهذا الطول هنا؟ عظيم؛ أحضرها واستعملها وستجد أنها عوضتك خيراً في موسم الحصاد».

وعاد لكثرة الحركة فانطلق إلى سيفرت مرة أخرى: «وهذه هي الطريقة يا سيفرت. إنك تعمل بجد. وأبوك ينتج البرابخ بسرعة ومهارة، وستكون لدينا كمية أكثر مما كنت أظن، فاذهب الآن وأحضر بعضها وسنشرع في العمل.

فكان بعد ظهر ذلك اليوم نوبة من العمل الدائب، حتى إن سيفرت لم ير في حياته مثل هذه السرعة في إنجاز العمل، ولم يكن متعوداً على

رؤية الأشياء يتم إنجازها بمثل هذه السرعة، فإنهم كادوا لا يسمحون لأنفسهم بالوقت اللازم لتناول الطعام، ولكن الماء كان قد بدأ بالمسيل حقاً! وكان عليهم أن يحفروا هنا وهناك إلى مستوى أعمق، وهنا أو هناك كان عليهم أن يخفضوا هذا البربخ أو يرفعوه قليلاً، ولكن الماء كان يتدفق، وظل الرجال الثلاثة منهمكين في العمل إلى ساعة متأخرة من الليل يصلحون عملهم ويترصدون بعناية أي خطأ أو نقص، ولكن عندما بدأ الماء يقطر متجاوزاً أشد البقاع جفافاً عم الحبور في سيلانرا، وصاح جايزلر: «لقد نسيت أن أحضر ساعتي، ترى كم الساعة الآن؟ أجل سيكون كل شيء قد اخضر في مثل هذا الوقت غداً».

ونهض سيفرت في منتصف الليل ليرى كيف تسير الأمور فوجد أباه في الخارج لهذا الغرض نفسه، ولكنه كان وقتاً مثيراً، كان ذلك اليوم مليئاً بالأحداث العظيمة، ولكن جايزلر لزم الفراش في اليوم التالي إلى قرب الظهر، وقد ظهر عليه الإعياء بعد انقضاء النوبة فلم يجشم نفسه الخروج والذهاب إلى موضع الزورق ليراه على البحيرة، ولولا ما قاله بالأمس لما فكر في إلقاء نظرة على المنشر، بل إن أعمال الري نفسها قل اهتمامه بها عن ذي قبل، ولما وجد أن المرعى والحقل لم يخضرا في غضون الليل فترت همته ولم يفكر قليلاً وقال: «قد ينقضي بعض الوقت، وربما لا ترون تغيراً قبل الغد، ولكن كل شيء سيكون على ما يرام. لا تخافوا».

وفي وقت تالٍ من ذلك النهار أقبل بريد أولسن يمشي متراخياً وقد أحضر معه عينات من الصخور يريد من جايزلر أن يراها قائلاً: «وهي شيء خارج عن المألوف هذه المرة فيما أعتقد» ولكن جايزلر لم يعر هذه

الأشياء نظره وسأله بازدراء: «أهذه طريقتك في إدارة المزرعة؟ تنقب بين التلال باحثاً عن الثروة؟» ولم يهضم بريد فيما يبدو أن يوبخه رئيسه السابق فأجاب بحدة ودون إبداء شيء من الاحترام مخاطباً العمدة السابق كما لو كان نداً له: «أتعتقد أن رأيك فيّ يهمني؟» فقال جايزلر: «إنك لست أعقل مما كنت. فلم تزل تضيع وقتك هباء» فقال بريد: «وماذا عنك أنت؟ أحب أن أعرف ماذا عنك؟ إن لديك في هذه التلال منجماً فماذا صنعت به؟ إنه ملقى هناك بلا فائدة. فهل أنت طراز الرجل الذي يمتلك منجماً؟» فقال جايزلر: «كف عن هذا!» ولم يطل بريد البقاء، بل حمل عيناته على كتفه ومضى إلى بيته من غير أن يلقي التحية، وجلس جايزلر وراح يراجع بعض الأوراق بعناية شديدة وهو مستغرق في التفكير، ويبدو أن الحمى أصابته أيضاً، فهو يريد الآن أن يراجع موضوع منجم النحاس والعقد والتحليلات. إن الركاز ممتاز ويكاد يكون نحاساً صافياً ويجب أن يصنع به شيئاً ما ولا يترك كل شيء على حاله؛ وقال لإسحق: «إن ما أتيت لأجله هو الانتهاء من الموضوع كله. فقد كنت أفكر في ابتداء العمل هنا في وقت قريب جداً فأحضر عدداً من الرجال للعمل وأدير المشروع كما يجب. فما رأيك؟» وشعر إسحق بالرثاء للرجل ولم يقل شيئاً يعارض به هذا الاقتراح. فقال جايزلر: «إن الموضوع يخصك كما يخصني لما سيترتب عليه من المضايقات بالطبع، لأن عدداً كبيراً من الرجال سيأتون إلى هنا وستحدث منهم مشاغبات أحياناً كما هو محتمل. وستجري تفجيرات في التلال ولست أدري إلى أي حد يروقك هذا، ومن جهة أخرى ستدب في المنطقة حيوية دافقة متى بدأنا العمل، فتتيسر لك سوق طيبة تحت يدك مباشرة للمنتجات

الزراعية وما إلى ذلك من الأمور، وسيكون لك أن تحدد الأسعار التي تريدها أيضاً». فقال إسحق: «إي» وعاد جايزلر يقول: «يضاف إلى هذا أن لك نصيباً في المنجم وستحصل على نسبة مئوية عالية من الأرباح كما تعلم، وذلك مال وفير يا إسحق» فقال إسحق: «لقد أعطيتني ثمناً عادلاً بالفعل، وما أخذته فيه أكثر من الكفاية...».

وفي الصباح التالي انطلق جايزلر مسرعاً صوب الشرق في اتجاه السويد، وقال بإيجاز عندما عرض عليه إسحق أن يمضي معه: «لا وشكراً لك»، فقد كان من المؤلم تقريباً أن يراه يرحل بهذا الأسلوب الفقير راجلاً وبمفرده، وكانت أنجر قد أعدت لفافة فاخرة من الطعام ليأخذها معه، تحرت أن يكون طعاماً طيباً إلى أقصى حدود استطاعتها، وصنعت شيئاً من الرقاق خصيصاً لذلك الغرض. ولم يكفها هذا فكانت مستعدة أن تعطيه أيضاً حقاً من القشدة وكمة كاملة من البيض، بيد أنه رفض أخذهما مما أصاب أنجر بخيبة أمل.

ولا بد أن جايزلر نفسه وجد من العسير عليه مبارحة سيلانرا من غير أن يؤدي مقالاً لإقامته بسخاء كما كان من عادته عموماً أن يفعل، ولهذا تظاهر بأنه دفع ذلك المقابل وتصنع وضع ورقة مالية كبيرة، وقال للبوبولدين الصغيرة: «هاك يا طفلتي شيئاً لك أيضاً» وقدم إليها صندوقه الفضي، صندوق الطباق وقال: «في وسعك أن تغسليه وتحتفظي فيه بدبابيسك وسائر أشيائك. وهو ليس شيئاً لائقاً للإهداء حقاً، فلو كنت في بيتي لوجدت لك شيئاً آخر. فعندي أشياء لا حصر لها...».ولكن جهاز الري الذي ابتدعه جايزلر تطوّر بعد رحيله، وظل يعمل ويأتي بالمعجزات ليلاً ونهاراً وأسبوعاً في إثر أسبوع حتى ارتدت الحقول خضراء وكفت البطاطس عن الإزهار، وانبثق القمح نامياً.

وأقبل المتوطنون من الضياع البعيدة متلهفين على مشاهدة هذه الأعجوبة بأنفسهم، وأقبل أيضاً أكسل شتروم جارهم في مزرعة مانلاند، وهو الرجل الذي لا زوجة له وليست لديه امرأة تعاونه، بل يدبر أموره بنفسه، وكان منشرح الصدر في ذلك اليوم، وأخبرهم كيف حصل على وعد بحضور فتاة لمساعدته مدة الصيف، وبذلك انزاح عن كاهله عبء. ولم يقل من هي هذه الفتاة، ولم يسأله إسحق.

ولكن الفتاة التي كانت مزمعة أن تحضر هي باربو ابنة بريد، وسيكلفه هذا أجر برقية إلى برجن لاستقدامها، ولكن أكسل دفع المبلغ مع أنه ليس من طراز الرجل المشرف. بل هو أقرب إلى الشح. وكان جهاز الري هو الذي أغراه اليوم بالجوز فشاهده من أوله إلى آخره وأثار ذلك اهتمامه كثيراً. ولئن لم يكن لديه ألواح أيضاً ليصنع منها البرابخ ففي استطاعته أن يحفر الأنفاق في الأرض. فذلك كله ممكن. ولم تكن الأمور قد ساءت إلى أقصى حد في أرضه بعد، فهي واقعة في أسفل المنحدر. ولكن إذا استمر القحط فلا بد له من الالتجاء إلى الري. ولما رأى ما أراد أن يراه استأذن في الانصراف وعاد على الفور ولم يقبل الدخول، إذ ليس لديه وقت لذلك فهو سيشرع في حفر الخنادق هذا المساء نفسه، وانطلق.

وغير هذا المسلك كان مسلك بريد. فبريد جعل يجري بين مزارع أرض المستنقعات يذيع الأنباء فيقول: «أعمال عجيبة ومعجزة في الري في سيلانرا، لا لزوم للإفراط في العمل بالأرض. انظروا إلى إسحق هناك، فقط ظل يحفر ويحفر حتى اضطر أخيراً لري أرضه كلها».

وكان إسحق صبوراً، بيد أنه تمنى في كثير من الأحيان لو تخلص من ذلك المخلوق الذي يكثر من التودد والحومان حول سيلانرا بأساليبه

المتباهية. وكان يعزو كل شيء إلى التلغراف ما دام موظفاً عمومياً، فمن واجبه أن يبقى الخط منتظماً، ولكن شركة التلغراف سنحت لها فرص كثيرة لتوبيخه على إهماله وعرضت المنصب على إسحق. لا. لم يكن التلغراف هو الذي يشغل بال بريد طول الوقت، بل ركائز المعدن بين التلال، فهي فكرته الوحيدة الآن ومصدر هوسه.

وتعود الإلمام كثيراً بسيلانرا، مدعياً أنه وجد الكنز، ويهز رأسه قائلاً: «لا أستطيع أن أخبركم بكل شيء الآن ولكني لا أبالي أن أصارحكم بأني عثرت هذه المرة على شيء ذي بال». وهكذا يضيع ساعات ويهدر طاقته فيما لا طائل تحته، وعندما يعود في المساء إلى بيته الصغير يلقي على الأرض بزكيبة صغيرة من العيّنات ويطنب في التشدق بما صنعه في يومه كأنما لم يفلح أحد بمجهود أشق من مجهوده للحصول على خبزه اليومي. وكان يستنبت قليلاً من البطاطس في تربة هزيلة فحمية ويحسن قليلاً من زراعة الأعشاب التي تنمو من تلقاء نفسها على الأرض حول البيت، وكانت هذه كل زراعة بريد، فهو لم يخلق ليكون فلاحاً ولن تكون للمسألة كلها إلا نهاية واحدة، وسقفه المصنوع من الطين والأعشاب بدأ يتهاوى قِطَعاً، والدرج المفضي إلى المطبخ أفسدته الرطوبة، وعلى الأرض حجر طاحون ملقى، والعربة لم تزل متروكة بغير غطاء في العراء.

ولعل بريد كان حسن الطالع من حيث أن هذه الأمور الصغيرة لم تزعجه قط. فعندما كان الأطفال يدحرجون في حجر طاحونه للعب به كان رقيقاً ومتسامحاً معهم، وربما ساعدهم في دحرجته بنفسه، فهو ذو طبع سهل كسول ليس جاداً على الإطلاق، ولكنه في الوقت نفسه ليس مطية

لليأس إطلاقاً، فهو ضعيف غير مسؤول إلا أنه كان يفلح في إيجاد الطعام في حدوده المتواضعة ويقيم أوده وأود ذويه من يوم إلى يوم على نحو ما من الأنحاء. ولكن صاحب المتجر ليس من المتوقع أن يواصل إطعام بريد وأسرته إلى الأبد. وقد قال ذلك أكثر من مرة لبريد نفسه، وهو يقوله الآن ويعنيه، وأقر بريد أنه على حق، ووعد أن يبدأ صفحة جديدة، فهو ينوي أن يبيع المزرعة ويجني من ذلك ربحاً طيباً ويؤدي ما عليه للمتجر.

ولكن بريد ينوي أن يبيع على كل حال حتى ولو بخسارة. فما جدوى المزرعة لديه؟ إنه يشعر بحنين شديد للعودة إلى القرية والحياة الثرثرة السهلة هناك والدكان الصغير، فذلك أكثر ملاءمة له من الاستقرار هنا للعمل ومحاولة نسيان العالم الخارجي. أتراه مستطيعاً أن ينسى شجرات عيد الميلاد والحفلات والمآدب القومية في يوم الدستور أو الأسواق الخيرية التي تقام في قاعات الاجتماعات؟ إنه يحب التحدث إلى أنداده، وتبادل الأنباء والآراء، ولكن إلى من يتحدث هنا؟ إن أنجر هناك في سيلانرا بدت كأنها من طرازه فترة من الزمن، ثم تغيرت بعد ذلك فلم يعد في وسعه استخراج كلمة من فمها الآن، ثم إنها كانت في السجن، وبالنسبة لرجل له مركزه.. لا. هذا لا يستقيم.

لا. لقد أخطأ إذ غادر القرية، فكأنما أضاع نفسه. ولاحظ بعين الحسد أن العمدة استخدم مساعداً آخر، وأن الطبيب استخدم رجلاً آخر ليسوق عربته، فهو قد فر ممن هم بحاجة إليه، فلما لم يعد بين سمعهم وبصرهم دبروا أمورهم من دونه، ولكن الذين حلوا محله لا خير فيهم بالطبع، فإن أردنا الحق وجب أن يعاد -وهو بريد- إلى القرية على الأعناق!

ثم هناك باربو. فلماذا أيد فكرة إحضارها للمعاونة في سيلانرا؟ حسن. لقد تم هذا بعد أن تباحث في الأمور مع زوجته. فلو سار كل شيء على ما يرام فقد يعني ذلك ضمان مستقبل طيب للفتاة، بل ربما ضمن بذلك مستقبلاً من نوع ما لهم جميعاً. ولا بأس إطلاقاً أن تعمل مدبرة بيت لكاتبين شابين في برجن. ولكن من يدري ماذا تجنيه من وراء ذلك على المدى الطويل؟ وباربو فتاة مليحة وتحب أن تظهر بأحسن مظهر، وقد تكون أمامها فرصة أفضل هنا بعد كل شيء، ففي مزرعة سيلانرا ابنان، ولكن عندما رأى بريد أن خطته لن تتمخض عن شيء انتقل إلى فكرة أخرى فليس ثمة كبير مغنم بعد كل شيء في مصاهرة قوم أنجر، أنجر التي كانت في السجن، وثمة فتيان آخرون يستحقون التفكير في أمرهم عدا هذين الفتيين في سيلانرا. هناك أكسل شتروم مثلاً، فلديه مزرعة وكوخ خاص به، وهو رجل اجتهد وادخر فاستطاع تدريجياً أن يقتني عدداً من السائمة وما إلى ذلك، ولكنه بلا زوجة أو امرأة تعينه على ذلك كله، فقال له بريد: «حسن.. لست أبالي أن أخبرك إن أنت حصلت على باربو أنها ستكون العون كل العون الذي تريده. انظر ها هي صورتها، وتستطيع أن ترى مصداق قولي بنفسك».

وبعد أسبوع أو نحو ذلك حضرت باربو وكان اكسل في منتصف جمع دريسه، وكان عليه أن يحصد بالنهار ويكوم الأكداس بالليل ويفعل كل ذلك بمفرده، ثم جاءت باربو! فهي إذن هبة من السماء. وبسرعة أظهرت له باربو أنها لا تخشى العمل، فغسلت الثياب ونظفت الأشياء وطبخت وحلبت وساعدت في حقل الدريس، ثم ساعدته في إدخال الدريس. وقرر اكسل أن يمنحها أجراً طيباً، فليست في ذلك خسارة.

فهي هنا ليست مجرد صورة لسيدة راقية، فباربو منتصبة القامة، نحيلة ذات صوت أجش بعض الشيء تبدو عليه الحصافة والتجربة من وجوه شتى، فهي ليست طفلة. وعجب اكسل مما جعلها نحيلة شاحبة الوجه هكذا، وقال لها: «كنت مستطيعاً أن أعرفك من سحنتك ولكنك لا تشبهين الصورة». فقالت: «هذا من أثر الرحلة فقط، والمعيشة في جو المدينة كل ذلك الوقت».

وفعلاً سمنت بسرعة فائقة، وعاد إليها رواؤها وقالت باربو: «صدقني إن رحلة كهذه ومعيشة في المدن كتلك المعيشة يحطمان الصحة» وألمحت أيضاً إلى مغريات الحياة في برجن وكيف ينبغي على المرء أن يكون حذراً هناك. ولكن في أثناء جلوسهما للكلام رجته أن يرتب صحيفة -إحدى صحف برجن- كي يتسنى لها أن تطالع قليلاً وتقرأ أخبار الدنيا فقد تعودت القراءة والمسارح والموسيقى، والإقامةُ في مكان كهذا مسئمة جداً.

وسر اكسل بنتائج هذه المعاونة الصيفية ورتب صحيفة. وتجلد أيضاً لزيارات أسرة بريد المتكررة التي أكثر أفرادها من الحضور باستمرار إلى بيته حيث يأكلون ويشربون، فقد كان متلهفاً على إظهار تقديره لخادمته تلك. وأي شيء ألطف وأشد إيناساً من منظر باربو وهي جالسة هناك في مساء يوم أحد تداعب أوتار قيثارة، وتغني قليلاً بصوتها الأجش؟ وتأثر اكسل بذلك كله وبتلك الأغاني الجميلة الغريبة، وبأن شخصاً ما يجلس حقيقة هناك ليغني له في مزرعته الفقيرة نصف المحترقة.

أجل إنه في غضون الصيف عرف كثيراً من جوانب طبع باربو الأخرى، بيد أنه على الجملة كان راضياً، وكانت لها نزواتها، فهي

تتسرع في الرد أحياناً، بل تصل في ردودها إلى حد الرعونة والطيش شيئاً ما. ففي مساء ذلك السبت مثلاً عندما ذهب اكسل بنفسه إلى القرية لإحضار بضعة أشياء أخطأت باربو بالهرب من الكوخ والحيوانات وتركت المكان خالياً وتبادلا بعض كلمات في هذا الشأن وأين كانت؟ لقد ذهبت فقط إلى بيتها في بريدابايك. ومع هذا... فعندما رجع اكسل إلى الكوخ تلك الليلة، لم تكن باربو هناك فاهتم بالحيوانات ثم أعد لنفسه شيئاً يأكله ودخل. وقرب الصباح جاءت باربو وقالت له في شيء من الزراية: «أردت فقط أن أعرف كيف يكون المشي على أرض من الخشب مرة أخرى». ولم يجد اكسل شيئاً كثيراً يقوله رداً على ذلك لأن كل ما لديه حتى الآن كوخ من الطين والعشب، وأرضيته من الطين كذلك. ومع ذلك قال إن الأمر إن كان كذلك ففي استطاعته أن يحصل بنفسه على بضعة ألواح ولا شك أنه سيكون لديه في الوقت المناسب بيت له أرضية من الخشب. وأظهرت باربو الندم عندئذ. ولم تكن خالية من الرقة كلية. ومع أن اليوم يوم أحد فقد خرجت على الفور إلى الغابة وجمعت عروقاً غضة من العرعر لتفرشها على الأرض المصنوعة من الطين.

وإذ رآها طيبة القلب، رائعة المسلك إلى هذا الحد، لم يسع اكسل إلا أن يخرج عصابة الرأس التي اشتراها لها في المساء السابق، مع أنه كان قد فكر جدياً في إبقائها برهة إلى أن يحصل منها على شيء محترم في مقابلها. وها هي قد سرت بها كثيراً وجربتها على الفور، واستدارت إليه وسألته ألا تبدو مليحة فيها. وكانت مليحة حقاً، وفي وسعها أن تضع على رأسها أيضاً قلنسوته القديمة المصنوعة من الفراء إن شاءت فتبدو مليحة كذلك! وضحكت باربو لهذا القول وحاولت أن تقول له شيئاً لطيفاً

حقاً في مقابل ذلك، فقالت: «إني أفضل كثيراً أن أذهب إلى الكنيسة وأتناول العشاء الرباني في هذه العصابة على أن أذهب مرتدية قبعة. وإن كنا في برجن بالطبع نرتدي القبعات دواماً، اللهم إلا الفتيات الخادمات والعاديات القادمات من الريف».

وهكذا عادا صديقين مرة أخرى، على خير ما يكون الأصدقاء.

وعندما أحضر اكسل الصحيفة التي جاء بها من مكتب البريد جلست باربو تطالع أخبار الدنيا: عن سطو على متجر جوهري في أحد شوارع برجن، ومشاجرة بين اثنين من الغجر في شارع آخر، وعن شيء فظيع عثر عليه في الميناء، جثة طفل ميت حديث الولادة خيطت في قميص قديم مقطوع الكمين. وقالت باربو: «إني لأعجب من عساه فعل هذا؟» وطالعت قائمة بأسعار السوق أيضاً كعادتها دائماً.

وهكذا انقضى الصيف.

الفصل السادس عشر

تغيرات كبرى في سيلانرا.

لم يعد في الإمكان التعرف على المكان مرة أخرى، فقد استحدث بعد ما كان عليه في البداية: طاحون ومنشر وأبنية من جميع الأنواع والأجناس، وأصبحت البرية ريفاً مأهولاً في الوقت الحاضر. وهي في انتظار مزيد. بيد أن أنجر كانت أعجب شيء في هذا كله، فشد ما تغيرت وارتدت إلى سيرتها الأولى من الصلاح والمهارة، فحدث السنة الماضية العظيم عندما وصلت الأمور إلى ذروتها ربما لم يكن كافياً في حد ذاته لتغيير أساليبها غير المبالية. إذ حدثت ردات بين حين وحين فألفت نفسها وقد شرعت تنحدر مرة أخرى عن «المؤسسة» وعن «الكاتدرائية» في ترونيم، وهي أمور بريئة في حد ذاتها، ثم إنها خلعت خاتمها وأطالتْ ذيل ثوبها بضع بوصات وغدت كثيرة التفكر وساد المكان مزيد من الهدوء، وأمست الزيارات أقل من ذي قبل وأصبحت الفتيات والنساء لا يأتين الآن من القرية إلا نادراً لأن أنجر لم تعد تهتم برؤيتهن فما من أحد يعيش في أعماق البراري يتسع وقته لهذه النزهات فالسعادة والرعونة شيئان متباينان.

وفي البرية لكل فصل أعاجيب، ولكن ثمة على الدوام وبلا تغير ذلك الصوت الهائل العميق، صوت السماء والأرض والإحساس بأن

الإنسان محاط من جميع الجهات بظلام وبطاقة الأشجار. فكل شيء ثقيل وناعم في آن واحد، وما من فكرة تبدو هناك مستحيلة، وكانت إلى الشمال من سيلانرا بحيرة صغيرة هي غدير متخلف من ماء المطر لا يزيد حجمه على حجم حوض للأحياء المائية. وهناك كانت تعيش بضعة من صغار السمك الدقاق لا تنمو مطلقاً، بل تعيش وتموت هناك من غير جدوى على الإطلاق، يا إلهي! لا جدوى على الأرض. وذات مساء وقفت أنجر هناك تصغي لأجراس البقر، وكان كل شيء حولها ميتاً فلم تسمع شيئاً، ثم انبعثت أغنية من البركة. أغنية صغيرة غاية الصغر تكاد لا تسمع. وتلك كانت أغنية دقاق السمك.

وكان من حسن طالع أهل سيلانرا أنهم يرون في كل ربيع وخريف الإوز الرمادي يحلق أسراباً فوق البرية، ويسمعون أصواته وهو في الهواء كأنه يبث حديثاً محموماً، وكأن الدنيا أخلدت للسكون لحظة إلى أن يمر ذلك القطيع. أفلا تشعر النفوس البشرية من أسفله بشيء من الدهن يسري فيها أيضاً الآن؟ ويقبلون على عملهم مرة أخرى ولكن بعد أن يزفروا أولاً لأن شيئاً ما قد تحدث إليهم مما وراء المنظور.

بدائع عظيمة تحيط بهم في كل وقت. فهناك في الشتاء نجوم، وكثيراً ما تتراءى في الشتاء أيضاً الأضواء الشمالية وكأنها سماء من الأجنحة أو ألسنة لهب في منازل الرب. وبين حين وحين على فترة لا بصفة معتادة كانوا يسمعون الرعد، وأكثره يكون في الخريف، فإذا شيء خطير مدلهم لدى الإنسان والحيوان على السواء: الحيوانات التي ترعى قرب البيت تتقارب وتتجمع وتقف منتظرة وقد حنت رؤوسها، وأي شيء تنتظر؟ أتراها تنتظر النهاية؟ والإنسان؟ ماذا عن الإنسان الواقف في البرية خافضَ الرأس في انتظار حينما يقبل الرعد؟ أي شيء ينتظر؟

الربيع - أجل، الربيع بسرعته وفرحه وخفة طربه. أما الخريف: إنه يستثير الخوف من الظلام ويدفع بالمرء إلى تلاوة صلاة المساء. فحوله تحوم رؤى، وفي الجو نذر قد يخرج الناس ذات يوم في الخريف بحثاً عن شيء. فالرجل يبحث عن قطعة من الخشب لعمله، والمرأة تبحث عن سائمة شردت في طلب نبات عيش الغراب، وكلاهما يعود إلى البيت وفي ذهنه أسرار كثيرة، أتراهما وطئا عن غير قصد نملة فسحقا عجيزتها وثبتاها بالدرب فلم تعد مقدمتها تستطيع تحرير نفسها؟ أم تراهما مرا على مسافة أقرب مما ينبغي إلى عش قطاط بيضاء فانبعثت الأم في هسيس شديد تموء عليهما؟ حتى عيش الغراب البقري الكبير ليس خلواً من المعنى تمام الخلو، فهو ليس محض فراغ أبيض في العين، وعيش الغراب الكبير لا يزهر ولا يتحرك ولكنه في منظره شيء مدمر، فهو شيء وحشي، شيء أشبه برئة تنتصب حية عارية، رئة بغير جسد.

وأخيراً انقلبت أنجر خائرة النفس فقد أرهقتها البرية واتجهت إلى التدين. وأي حيلة لها في ذلك؟ ما من أحد يستطيع ذلك في البرية. فالحياة هناك ليست كلها جهداً أرضياً وعملاً دنيوياً، بل هناك تقوى، وهناك خشية الموت، وهناك طِيَرة شديدة. ولعل أنجر استشعرت أسباباً أقوى من أسباب سواها من الناس لخوف حساب السماء، وهو حساب لن يتغاضى عنها، وهي تعلم كيف يسير الرب في الأعالي وقت المساء ناظراً إلى بريته بعين لا يفوتها شيء. فلا بد له أن يضبطها. وليس في حياتها اليومية شيء كثير تستطيع أن تحقق فيه تقدماً. أجل إنها قد تستطيع دفن خاتمها الذهبي في أعماق صندوق ثيابها، وقد تكتب إلى اليزيوس طالبة إليه أن يرتد إلى الصراط القويم أيضاً ثم لا تجد بعد ذلك

شيئاً عدا القيام بعملها على خير وجه، غير مدخرة في ذلك جهداً ولا عافية. بل هناك شيء واحد تستطيعه فوق ذلك، ألا وهو ارتداء أشد الثياب تواضعاً، مكتفية بربط شريط أزرق حول عنقها يوم الأحد. وهذه فاقة مزيفة لا ضرورة لها، إلا أنها تعبير عن لون من الفلسفة وإذلال النفس والرواقية. ولم يكن الشريط الأزرق جديداً، فهي قد اقتطعته من قلنسوة كبرت عليها ليوبولدين الصغيرة. وهي ناصلة هنا وهناك. بل إنها في الحقيقة قذرة بعض الشيء. فكانت أنجر ترتديها باعتبارها لوناً من الحلية المتواضعة في الأيام المقدسة، ولعلها تجاوزت الحد المعقول في التظاهر بالفقر، محاولة بالتمويه محاكاة البائسين الذين يعيشون في المزابل، ولكن حتى إن تحقق لها هذا أترى صحراؤها من الممكن أن تكون أكبر لو أن هذه الحلية التعسة كانت خير ما عندها؟ لندعها في سلام، فمن حقها أن تحظى بالسلام.

إنها تبالغ في إتقان الأشياء، وتعمل بجد أشد مما ينبغي لها، فثمة رجلان في المكان، بيد أن أنجر كانت تنتهز فرصة غياب كليهما معاً لتشرع في نشر الخشب بنفسها. وأي جدوى لتعذيب جسدها وإذلاله حتى الموت على هذا النحو؟ إنها مخلوقة لا وزن لها وما أقل قيمتها، وقواها من نوع شائع جداً، وموتها أو حياتها لا يدرك لهما أثر في الأرض، ولا في الدولة، بل هنا فقط في البرية. فهي ها هنا تكاد تكون عظيمة، بل إنها أعظم الجميع على كل حال، ومن الممكن أن تخال نفسها جديرة بكل التأديب الذي تفرضه وتتحمله، وقال زوجها: «لقد تحدثنا في الأمر أنا وسيفرت، وسوف لا نسمح لك بنشر الخشب وإرهاق قواك» فأجابت: «إنما أصنع ذلك لإراحة ضميري»،

الضمير: لقد حملت هذه الكلمة إسحق على التفكر مرة أخرى، فهو يتقدم في السن، وفكره بطيء إلا أنه رجيح الرأي كلما تبصر في أمر من الأمور. ولا بد إذاً أن يكون الضمير شيئاً بالغ القوة مادام قد استطاع أن يقلب أنجر رأساً على عقب على هذا النحو. ومهما يكن من شيء فقد أحدث كلام أنجر تغييراً فيه كذلك، فسرت إليه عدواها، وغدا أليفاً ميالاً للإطراق والتفكر. وكانت الحياة ثقيلة الوطأة متجهمة ذلك الشتاء فنشد الوحدة في مكان يواريه. وكان قد اشترى قطعة من غابة الدولة القريبة ليبقي على أشجاره الخاصة، وكان في تلك الغابة خشب جيد، وهي واقعة في اتجاه الحدود السويدية، فجعل يسقط الشجر وحده رافضاً كل عون، وأمر سيفرت أن يبقى في البيت ليمنع أمه من الإسراف في العمل.

وهكذا في أيام الشتاء تلك القصار جعل إسحق يخرج إلى عمله في الظلام ويعود إلى البيت في الظلام. ولم تكن في تلك الليالي أضواء من القمر أو من النجوم على الدوام. وفي بعض الأحيان كان أثر قدميه اللذين تركهما في الصباح يطمر بالثلج قبل هبوط الليل، فيجد مشقة في الاهتداء إلى طريقه. وذات مساء حدث أمر. كان قد اقترب من البيت فرأى في ضوء القمر البديع سيلانرا رابضة على جانب التل أنيقة متميزة من الغابة، بيد أنها صغيرة في مرأى العين كأنها دور الشجر، لارتفاع ما تراكم من الثلوج على جدرانها. وقد أصبح لديه الآن مزيد من الخشب وستكون دهشة أنجر عظيمة وكذلك دهشة الصغار عندما يسمعون بما ينوي أن يصنعه به، وهو ذلك البناء الرائع الذي ارتسم في ذهنه، وجلس على الجليد ليستريح قليلاً حتى لا يبدو مجهداً عندما يعود إلى البيت.

وكـان كل شيء حـوله هـادئاً، ونعـمـة الله شـاملة هذا الهـدوء والإطراق. فكل شيء طيب! وإسـحق رجل يعـمل في إخلاء جـزء من الأرض في الغـابة ويجيل طرفه في الأرض ليقدر في ذهنه ما سوف يخليه في الدورة القادمة، مزيحاً صخوراً عظيمة في ذهنه، فقد كان موهوباً حقاً في هذا العمل وهو يعلم الآن أن ثمة بقعة جرداء عميقة في أرضه مليئة بالركاز، إذ توجد على الدوام غلالة معدنية فوق كل بركة ماء هناك. وقد عزم الآن على حفر تلك البقعة لاستخراج الركاز، وجعل يخطط بعينيه مربعات ويرسم مشروعاته لكل شيء، ويفكر في كل شيء. فلا بد من أن تغدو الأرض كلها خضراء مثمرة، وإن قطعة من الأرض المعدة للزراعة لنعمة جزيلة، فهي بالنسبة لعقله بمثابة الصواب والنظام، وفرحة أيضاً لقلبه بعد ذلك.

ونهض وقد شعر فجأة بالحيرة: همم... ماذا حدث الآن؟ لا شيء سوى أنه قضى برهة جالساً، ولكن ها هو الآن شيء ما قد انتصب أمامه، كائن روح، في حرير رمادي.. لا. هذا ليس شيئاً، وشعر بإحساس غريب فخطا خطوة مترنحة إلى الأمام، فإذا به يدخل في سحنة، سحنة عظيمة، في عينين. وفي هذه اللحظة عينها بدأت أشجار الحور القريبة ترسل وسوستها. وكل إنسان يعرف كيف تكون وسوسة ذلك الشجر فظيعة مروعة في بعض الأحيان. وإسحق على كل حال لم يسمع قط من قبل وسوسة بالغة الفظاعة كهذه الوسوسة؛ وارتجفت أوصاله، ومد إحدى يديه أمامه، ولعلها كانت أشد حركة أتى بها في حياته قلة غناء. ولكن ما هذا الذي أمامه؟ أشبحٌ أم حقيقة؟ لقد كان إسحق حرياً أن يقسم سائر أيام حياته إن ما رآه قوة علوية، وإنه رأى تلك القوة العلوية على الحقيقة مرة من قبل. بيد أن ما رآه هذه المرة لا

يشبه قوة الرب. ألعلها روح القدس؟ إن كان الأمر كذلك ففيم وقوفها هنا على كل حال في وسط اللامكان، وإنما هما عينان تنظران ولا زيادة؟ لئن كانت أتت إليه لتقبض روحه، ليكن ذلك إذاً. فهذا شيء لا بد أن يحدث يوماً ما على كل حال، فيمضي إلى السماء ويقيم بين القديسين، وتلهف إسحق على تبين ما يكون بعد ذلك وهو لم يزل على ارتجافه، لأن الشكل الذي تبدى أمامه كأنما كانت تنبعث منه برودة. فلا بد أن يكون الشرير! وعندئذ لم يعد إسحق واثقاً من الأرض التي يقف عليها كما يقولون. قد يكون ذلك الشرير، فماذا عساه يريد منه ها هنا؟ وماذا تُرى إسحق كان صانعاً؟ إنه لم يصنع شيئاً سوى الجلوس في سكينة وفلاحة الأرض بذهنه، فهل في ذلك خير؟ إنه لا يستطيع أن يتذكر الآن جريرة أخرى اقترفها، فقد كان عائداً من عمله في الغابة كما يعود الحطاب الجائع المتعب، متجهاً إلى بيته في سيلانرا لا يفكر في أذى.

وخطا خطوة أخرى إلى الأمام، ولكنها كانت خطوة صغيرة، ثم إنه -إن أردنا الحقيقة- ارتد بخطوته على الفور إلى الوراء ثانية، فما تراءى له لم يتزحزح من مكانه، وقطب إسحق حاجبيه وكأنما بدأ يرتاب في شيء، فلئن كان هذا هو الشرير، فليكن إذاً! فالشرير ليس كليٍّ القدرة. إن «لوثر» مثلاً قتل الشيطان بنفسه تقريباً، فضلاً عن كثيرين أرغموه على الفرار برسم علامة الصليب وباسم يسوع. وليس معنى هذا أن إسحق فكر في تحدي الخطر الماثل أمامه، ولم يجل بذهنه أن يجلس ويضحك ساخراً في وجهه. ولكنه نبذ فكرته الأولى عن الموت والعالم الآخر وخطا خطوتين إلى الأمام قدماً صوب ما تراءى له مباشرة ورسم على نفسه علامة الصليب وصاح: «باسم يسوع».

همم!... لقد ثاب إلى نفسه فعلاً حين سمع صوته شخصياً، ورأى سيلانرا هناك على جانب التل مرة أخرى وتلاشت العينان الماثلتان في الهواء، فلم يضيِّع وقتاً في العودة إلى البيت، ولم يتخذ خطوات أخرى لتحدي ذلك الشبح، إلا أنه عندما ألفى نفسه مرة أخرى آمناً على عتبة بيته تنحنح في بأس وأمان ودخل البيت بطلعة شامخة دخول رجل، أجل دخول رجل من أهل الدنيا.

حملقت فيه أنجر عندما رأته وسألته عن سر شحوبه الشديد، فلم ينكر التقاءه بالشرير شخصياً، فسألته: «أين؟» فقال: «هناك في أعلى الطريق إلى البيت». ولم تظهر أنجر غيرة من جانبها ولم تثن عليه والحق يقال، ولكن مظهرها كان خالياً من خشونة اللفظ أو زراية الإيمان. لقد غدت أنجر نفسها أخف قلباً وأرق حاشية في المدة الأخيرة كائناً ما كان السبب، ولذا اكتفت الآن بسؤاله: «الشرير نفسه؟» فأومأ إسحق برأسه! فعلى قدر ما تبين له كان هو نفسه لا سواه، فسألته: «فكيف تخلصت منه؟» فقال إسحق: «هجمت عليه باسم يسوع» فهزت أنجر رأسها مذهولة ذهولاً تاماً، وانقضى وقت قبل أن تتمكن من وضع عشائه على المائدة، وفي النهاية قالت: «إننا لن نسمح على كل حال بخروجك بعد الآن وحدك إلى الغابة؟ فقد قلقت عليك». وقد ارتاح حين علم هذا وتظاهر بالجرأة كالعادة، وبأنه لا يبالي إطلاقاً أوحدَهُ ذهب أم في صحبة. ولكنه تظاهر بذلك ليهدئ بال أنجر، ولا يروعها أكثر مما ينبغي بالأمر المخيف الذي حدث له شخصياً فواجبه أن يحميها ويحميهم جميعاً، لأنه الرجل والقائد. ولكن أنجر نفذت إلى ما وراء ذلك التظاهر وقالت: «أوه. أعلم أنك لا تريد أن تفزعني، ولكنك ينبغي أن تأخذ

سيفرت معك على كل حال». ولم يزد إسحق على تشمم الهواء في تنسم مسموع، واستطردت: «وقد تصيبك وعكة على حين غرة فتخر مريضاً في الغابة. فصحتك في المدة الأخيرة لم تكن في منتهى العافية» وتشمم إسحق الهواء مرة أخرى. تمرض؟ إنه قد يكون متعباً مجهداً بعض الشيء، أما المرض فلا حاجة بأنجر إلى الشروع في القلق وتغفله. إنه صحيح معافى بما فيه الكفاية، فهو يأكل وينام ويعمل وصحته هائلة مستعصية على المرض. وقد حدث ذات مرة وهو يسقط شجرة أنها وقعت على أم رأسه وقطعت أذنه فاستخف بالأمر ووضع الأذن في موضعها ثم أبقاها في مكانها يلبس قلنسوة فوقها ليل نهار فالتحمت بهذه الطريقة، وأما بخصوص العلل الباطنية فهو يداوي نفسه بعقار يغلى في اللبن كي يتصبب عرقاً، وهو شيء اسمه العرقسوس يشتريه من المتجر، لأنه علاج مجرب، إنه ترياق الأقدمين، وإن حدث له أن جرح يده فهو يعالج الجرح بسائل موجود لديه دائماً به أملاح فيلتئم في مدى أيام قلائل. لم يحدث قط أن دُعِي طبيب لزيارة سيلانرا.

كلا؛ إسحق ليس مريضاً، ومقابلة الشرير قد تحدث لأصح الرجال، وهو لم يشعر بانحطاط في قواه على إثر هذه المغامرة، بل على العكس يبدو أنها زادته قوة، وباقتراب الشتاء -لم يكن الانتظار حتى الربيع فظيعاً- بدا وهو الرجل والقائد، يشعر وكأنه بطل تقريباً، فهو يفهم هذه الأمور وعليك فقط أن تثق به فيكون كل شيء على ما يرام. وعند الاقتضاء سيكون في وسعه أن يطرد الشرير نفسه!.

لقد أصبحت الأيام الآن أطول وأخف بوجه عام. وانقضى الفصح وكان إسحق قد سحب كل أخشابه وبدا كل شيء بهيجاً وصار في وسع الناس أن يتنفسوا مرة أخرى بعد انقضاء شتاء آخر.

وكانت أنجر أول من عاودها الإشراق. فهي منذ زمن طويل أكثر مرحاً، فما السبب؟ السبب بسيط جداً: أنجر مثقلة مرة أخرى تنتظر مولوداً. وكل شيء يمضي في حياتها في يسر ودون عقبات، ويا لها من رحمة بعد الذي اقترفت من إثم! إن ذلك ليتجاوز كل ما خطر ببالها أن تتوقعه. ألا ما أسعد طالعها. وقد لاحظ إسحق نفسه شيئاً ما ذات يوم وسألها على الفور: «يبدو لي كما لو كنت بسبيل الإنجاب مرة أخرى فما قولك؟» فأجابته: «نعم. شكراً للرب. الأمر كذلك يقيناً».

ودهش كلاهما على السواء. لا لأن أنجر تجاوزت سن الإنجاب بالطبع، ففي ذهن إسحق أنها لم تتقدم في السن أكثر مما ينبغي بأي حال، ومع هذا فطفل جديد... حسن، حسن.. والصغيرة ليوبولدين تذهب إلى المدرسة بضع مرات في السنة في بريدابليك، فهم الآن بغير صغار في البيت، ثم إن ليوبولدين نفسها قد شبت الآن عن الطوق.

ومرت بضعة أيام واستغنى إسحق عمداً عن نهاية أسبوع كاملة من مساء السبت إلى صباح الاثنين فقام برحلة إلى القرية، ولم يقل فيم ذهابه عندما رحل، إلا أنه جاء معه حين عاد بفتاة قائلاً: «هذه ينسين» جاءت للمساعدة. فقالت أنجر: «هذا خرق منك لا حاجة إلى مساعدة على الإطلاق». فأجابها إسحق: «إنها بحاجة إلى مساعدة في الوقت الحاضر».

وسواء أكانت بحاجة أم لم تكن، فقد كان هذه الفكرة من جانبه رقيقة كريمة أخجلت أنجر وملأتها بالشكران. وهذه الفتاة الجديدة ابنة الحداد وستبقى معهم في الوقت الحاضر مدة الصيف على كل حال، ثم بعد ذلك ينظرون في الأمر.

وقال إسحق: «وقد أرسلت برقية إلى اليزيوس» فأجفلت أنجر إجفالة الأم. برقية؟ أفي نيته أن يهزها هزاً تاماً بفرط عنايته؟ لقد كان مصدر أسى عظيم لها في المدة الأخيرة، إن الفتى اليزيوس بعيد عنها في المدينة، في المدينة الشريرة. وكانت قد كتبت إليه عن الرب وشرحت له أيضاً كيف أن والده هنا بدأ ينوء تحت أعباء العمل. والمكان ينمو باستمرار، وسيفرت الصغير لا يستطيع أن يدير الأمر بمفرده. ثم إنه فضلاً عن هذا مزمع أن يرث مالاً من خاله يوماً ما. كتبت إليه بذلك كله وأرسلت إليه نقوداً لرحلة العودة النهائية. ولكن اليزيوس كان قد صار الآن من عشاق حياة المدينة المتأنقين ولم يعد متلهفاً إلى حياة الفلاحين، فرد عليها متسائلاً: ماذا عساه يصنع على كل حال إن عاد إلى البيت؟ أيعمل في المزرعة ويهدر كل المعرفة والتعليم اللذين حصّلهما. وعبر عن ذلك بقوله: «إنني في الواقع لا رغبة عندي الآن في العودة. فلو أرسلت إلي شيئاً من القماش للملابس الداخلية لوفرت علي شراءها بالنسيئة»، هكذا كتب إليها، ومع ذلك أرسلت إليه أمه القماش وكانت ترسل إليه كميات صغيرة من القماش بين حين وحين لثيابه الداخلية. ولكنها بعد أن اهتدت إلى الصراط القويم واستغرقت في التدين وسقطت الغشاوة عن عينيها وأدركت أن اليزيوس كان يبيع القماش وينفق النقود في أغراض أخرى. وأدرك أبوه أيضاً هذا، ولكنه لم يتكلم، فقد كان يعلم أن اليزيوس حبيب أمه. وكان يعلم كيف تبكي لبعده عنها وتهز رأسها تحسراً عليه، ولكن قطع القماش الرقيق النسج ذهبت قطعة وراء قطعة في هذا السبيل عينه، وهو يعلم أنها أكثر مما يستطيع أي إنسان أن يستخدمه في ثيابه الداخلية. وفي النهاية وصل الأمر إلى هذا الحد:

وصل إلى وجوب اضطلاع إسحق بمسؤوليته رجلاً وقائداً مرة أخرى، ورأساً للبيت، فينبغي أن يتقدم إلى الأمام ويتدخل. وقد كلفه مبلغاً كبيراً؟ بالتأكيد أن يكلف صاحب المتجر إرسال برقية، ولكن البرقية قبل كل شيء قمينة أن تترك أثراً قوياً في الفتى، ثم إنه كان شيئاً خارق الروعة أن يعود إلى البيت ويخبر أنجر بما فعل. لقد عاد حاملاً صندوق الفتاة الخادمة على ظهره وهو سائر على قدميه. إلا أنه كان يشعر بالزهو وبما يملأ جوانحه من الأسرار الثقال على نحو ما شعر به وهو عائد إلى البيت بذلك الخاتم الذهبي.

وكان كل شيء على أبدع حال بعد ذلك، فأنجر لبثت مدة طويلة لا ترى شيئاً مما تفعله كافياً في نظرها لإظهار زوجها على مبلغ ما تستطيعه من الخير والنفع، فهي تقول له الآن مثلما كانت تقول في الأيام الخوالي: «إنك تقتل نفسك بكثرة العمل» أو: «هذا أكثر مما يحتمله أي إنسان» أو: «لا تعمل أكثر من هذا، وينبغي الآن أن تدخل وتتغدى، فقد صنعت لك شيئاً من الرقاق» ولكي تسره تقول: «أحب أن أعرف الآن ماذا يدور في رأسك في شأن كل هذا الخشب، وماذا ستبني الآن بعد ذلك؟» فيقول إسحق متعمداً الإلغاز: «لا أستطيع أن أقرر ذلك بعد».

أجل، تماماً كما في الأيام الخوالي وبعد ولادة الطفلة، فقد جاءت فتاة عظيمة كبيرة بديعة المنظر متينة البناء سليمة الأعضاء، لا بد أن يكون إسحق قد قُدّ من صخر أو شخصاً خسيساً إن لم يشكر الرب. ولكن ماذا سيبني؟ سيكون البناء الجديد في سيلانرا مادة لأخبار جديدة تنطلق أولين هنا وهناك لتنشرها على الناس. سيكون جناحاً جديداً

يضاف إلى البيت، سيكون بيتاً جديداً، فعددهم الآن كبير في سيلانرا، ولديهم خادمة، واليزيوس سيعود إلى البيت، وها هي تلك الطفلة الصغيرة الجديدة قد أقبلت لتوها، فالبيت القديم لن يعدو الآن أن يكون حجرة إضافية لا زيادة.

وبطبيعة الحال كان عليه أن يخبر أنجر بذلك يوماً ما، وكانت شديدة الفضول إلى معرفته، ومع أن أنجر ربما كانت قد عرفت كل شيء سلفاً عن طريق سيفرت -فكثيراً ما انصرفا إلى التهامس- إلا أنها دهشت دهشة بالغة إلى أقصى حد، وتركت ذراعيها تسقطان وقالت: «هذا بعض هذرك. أتعني حقاً؟» وماجت العظمة في باطن إسحق وأجابها: «هذا أقل ما أستطيع فيما يبدو ما دمت تملئين البيت بكم لا أدري من الأطفال».

وجعل الرجلان يخرجان الآن كل يوم لإحضار الحجارة لجدران البيت الجديد، وصارا يعملان معاً بأقصى طاقتهما، كل منهما على طريقته. فالشاب ببنيانه الوثيق التركيب يسارع إلى تبين طريقه وتميز الأحجار الصالحة بعلامات، والكهل بصلابته وذراعيه الطويلتين ووطأته الشديدة في الانحناء على العتلة. وكلما فرغا من عملية شاقة بصورة خاصة جلسا يستردان أنفاسهما ويتحدثان بطريقة غريبة متحفظة خاصة بهما. فيقول الأب: بريد يتحدث عن رغبته في البيع». فيقول الابن: «نعم. وإني لأتساءل كم سيطلب ثمناً لمزرعته»، فيقول الأب: «نعم وأنا أتساءل أيضاً». فيسأله الابن: «ألم تسمع شيئاً؟» فيجيب الأب: «لا»، فيقول الابن: «سمعت أنه يطلب مئتين» ويفكر الأب برهة ثم يقول: «أتظن أن هذه الصخرة جيدة؟» فيقول سيفرت وهو ينهض بسرعة قائماً على قدميه ماراً يده بمطرقة التثبيت إلى أبيه ومتناولاً مطرقة الدق الكبيرة (المرزبة):

«كل شيء يتوقف على استطاعتنا نزع هذه القشرة عنها. ثم يجحر ويسهم وهو يبسط قامته على ارتفاعها ويهوي بالمطرقة ثم ينهض ثانية ليهوي بها مرة أخرى، إلى أن تبلغ المرات عشرين مرة تقريباً كأنما هي عشرون صاعقة منقضة. فهو لا يدخر أداته أو قوته. فالعمل شاق وقميصه يبرز من بنطلونه عند الخاصرة فيبدو عارياً من قبل، لأنه يشب على أصابع قدميه كل مرة ليتمكن من إجادة تطويح المطرقة. عشرون ضربة. ويصيح الأب: «والآن هيا ننظر» فيكف الابن ويسأله: «هل أحدثنا أثراً». ويرقد الاثنان معاً لينظرا إلى الصخرة. ويا لها من وحش، ويا لها من شيطان. فكل هذه الضربات لم تترك فيها أثراً. ويقول الأب وهو ينهض: «إني أفكر في تجربة المرزبة وحدها وهو عمل أشق لأنه يعتمد على القوة المجردة وحدها وتسخن المرزبة وينسحق الفولاذ ويتبلد السن. ويتوقف الرجل قائلاً: «إنها ستفلت الرأس. وأنا لم أعد كفؤاً لهذا العمل».

بيد أنه لم يكن يعني ذلك إطلاقاً، ولم يكن رأيه أنه لم يعد كفؤاً لهذا العمل فهذا الأب. حمال الأثقال، البسيط، الممتلئ صبراً وطيبة يريد أن يترك ابنه يضرب الضربات القلائل الأخيرة ويفلق الصخرة، وها هي أخيراً وقد كسرت فلقتين، فيقول الأب: «لقد ظفرت بالمراد. نعم همم. بريدابليك. قد تصنع من ذلك المكان شيئاً» فيقول الابن: «نعم. أعتقد هذا» فيقول الأب: «يجب فقط أن تشق المصارف في الأرض وتقلب كما يجب». ويقول الابن: «ويجب إصلاح البيت»، فيقول الأب: «طبعاً. يجب إصلاح المكان كله. وهذا يعني عملاً كثيراً في البداية، وما كنتُ أريد أن أقوله، أتعرف ستذهب أمك إلى الكنيسة يوم الأحد القادم؟» فيجيب الابن: «نعم. فقد قالت شيئاً بهذا المعنى» فيقول

الأب: «هوه. همم. افتح عينيك الآن وابحث عن عتبة باب كبيرة جيدة للبيت الجديد. ألم تر شيئاً يصلح لذلك الغرض؟» فيقول سيفرت: «لا»، ويعودان للعمل.

وبعد يومين قرَّ رأيهما على أنه قد تجمع لديهما الآن ما يكفي من الحجارة للجدران. وكان ذلك في مساء يوم الجمعة. فجلسا يتحدثان ريثما يستجمعان أنفاسهما برهة. وقال الأب: «همم... ماذا تقول؟ لعلّ من المناسب أن نفكر في موضوع بريدابليك؟» فسأله الابن: «ماذا تعني؟ ماذا ستصنع» فأجابه الأب: «أنا لا أدري إن المدرسة هناك، وهي في منتصف الطريق الآن»، فسأله الابن: «ثم ماذا؟ لست أدري ماذا يمكن أن نصنع بها. فهي لا تساوي كثيراً بحالتها الراهنة» فسأله أبوه: «أهذا ما كنت تفكر فيه؟» فأجاب: «لا؛ لم يكن تفكيري على هذا النحو. ما لم يشأ اليزيوس أن يحصل على ذلك المكان ليعمل فيه؟» فقال الأب: «اليزيوس؟ لا. لا أدري»..

وساد الصمت برهة طويلة وكلا الرجلين يفكر بإمعان، ثم بدأ الأب يجمع الأدوات ويستعد للعودة إلى البيت، فقال سيفرت: «نعم ما لم.. وفي وسعك أن تسأله رأيه في ذلك»، فوضع أبوه حداً للموضوع على هذا النحو: «حسن. ها هو يوم آخر قد انقضى ولم نعثر على عتبة الباب تلك».

وكان اليوم التالي يوم سبت، وكان عليهم أن يرحلوا في وقت مبكر لعبور التلال بالطفلة ومعهم «ينسين» الخادمة فهي شبينة، وبقية الشبائن عليهم أن يتخذوهم من بين قوم أنجر في الضفة الأخرى. وكانت أنجر تبدو حسنة المظهر وكانت قد صنعت لنفسها ثوباً لطيفاً من القطن محلى بالبياض عند الرقبة والمعصمين. أما الطفلة فكانت في ثوب أبيض ناصع

ذي شريط جديد حريري أزرق يصل إلى الطرف الأدنى من الثوب، ولكنها كانت طفلة أعجوبة حقاً، فهي تبتسم وتثرثر على صغر سنها، وترقد مصغية لدقات الساعة على الحائط. وكان أبوها قد اختار لها اسمها، وذلك من حقه، وكان مصمماً على تنفيذ رأيه، كل الأمر إليه، وقد تردد بين اسمي يعقوبة ورفقة، وهما من أسماء أقارب إسحق. وأخيراً مضى إلى أنجر وسألها بحياء: «ما رأيك الآن في اسم رفقة؟» فقالت أنجر: «ليكن» فلما سمع إسحق ذلك غدا فجأة مستقبل الرأي وسيداً في بيته وقال بحدة: «إن كانت متخذة اسماً على الإطلاق فهو رفقة. لا بد من هذا».

وسيذهب بطبيعة الحال مع المجموعة إلى الكنيسة، ليحمل الطفلة من جهة ورعاية للأصول من جهة أخرى، فلا يليق أن يترك رفقة تذهب إلى حفلة تعميدها دون حاشية مناسبة، وشذب إسحق لحيته ولبس قميصاً أحمر كسالف العهد في أيام شبابه، وكان الوقت من أسوأ أيام الجو الحار إلا أنه ارتدى حلة شتوية جديدة جميلة كانت تبدو حسنة المنظر على جسده. ولكن إسحق رغم ذلك كله لم يكن الرجل الذي يخضع للزخرف والمظهر، فهو الآن مثلاً قد انتعل حذاء طويلاً مسرفاً في ثقله في السير، وبقي سيفرت مع ليوبولدين لرعاية المكان، وعبرت الجماعة البحيرة في زورق ذي مجداف، فكان ذلك أسهل بكثير من تلك الأيام التي كان عليهم فيها أن يدوروا سيراً على الأقدام حول البحيرة، ولكن في منتصف العبور حلت أنجر أزرار ثوبها لترضع الطفلة فلاحظ إسحق شيئاً براقاً معلقاً في خيط حول عنقها لم يعرف ما هو، وفي الكنيسة لاحظ أنها كانت تضع ذلك الخاتم الذهبي في إصبعها.

يا لأنجر: لقد كان الأمر أكثر مما تطيق في نهاية المطاف.

الفصل السابع عشر

عاد اليزيوس إلى البيت.

وكان قد قضى بعيداً عنه حتى الآن بضع سنوات، وصار أطول قامة من أبيه، ذي يدين طويلتين بيضاوين وشعر قصير قاتم فوق شفته العليا. ولم يحاول التظاهر بل كان يبدو متلهفاً على الظهور بمظهر طبيعي عطوف - مما أدهش أمه وسرها. وشارك سيفرت حجرة النوم الصغيرة فانسجم الشقيقان معاً وصار كل منهما يصنع الملاعيب بالآخر على سبيل الفكاهة، ولكن اليزيوس ينبغي طبعاً أن يقوم بنصيبه من العمل في بناء البيت، وكان العمل يجهده ويشقيه لأنه لم يتعود التعب البدني من هذا النوع، وكان الأمر أسوأ عندما تحتم على سيفرت أن يرحل تاركاً العبء كله للرجلين الآخرين، فغدا اليزيوس عندئذ أقرب إلى العقبة منه إلى العون.

وإلى أين رحل سيفرت؟ لقد حضرت أولين عبر التلال ذات يوم تحمل رسالة من الخال سيفرت أنه على وشْك الموت، فكان على سيفرت الصغير أن يذهب إليه بالطبع. فخلق ذلك على الفور موقفاً سيئاً للغاية. فلا يمكن أن يحدث ما هو أسوأ من اضطرار سيفرت للرحيل على عجل في هذا الوقت بالذات، ولكن لم تكن في ذلك حيلة.

قالت أولين: «لم يكن عندي وقت للجري في هذه المهام. هذه هي الحقيقة ولكن مع هذا كله فإن الصغار هنا جميعاً لي بهم شغف، وسرني أن أعين سيفرت الصغير في الحصول على ميراثه...» فسألتها أنجر: «وهل الخال سيفرت في حالة سيئة إذاً؟» فأجابتها: «سيئة؟ لترحمْنا السماء فهو في هبوط مستمر يوماً بعد يوم». فسألتها: «أهو ملازم الفراش إذاً؟» فقالت: «الفراش؟ كيف تتحدثين بهذه الخفة والاستهانة عن الموت أمام عرش الرب؟ إن خالك سيفرت لن يستطيع بعد أن يحجل أو يجري في هذه الدنيا».

وهذا كله يعني فيما يبدو أن الخال سيفرت لن يعيش طويلاً، فألحت أنجر في وجوب رحيل سيفرت الصغير على الفور، بيد أن الخال سيفرت، ذلك الوغد العجوز الذي لن يرعوي، لم يكن على فراش موته، بل لم يكن ملازماً الفراش على الإطلاق، فلما حضر سيفرت الصغير وجد المزرعة الصغيرة في حالة فوضى وارتباك هائلة، فهم لم يفرغوا بعد من عمل موسم الربيع على ما ينبغي، بل إنهم لم يُخرجوا كل سماد الشتاء. أما عن وفاته الوشيكة فلم ير شيئاً يدل عليها، والخال سيفرت رجل مسن الآن، تجاوز السبعين، شبه مقعد، يتسكع نصف عار في البيت، وكثيراً ما يظل في فراشه وقتاً طويلاً، وهو بحاجة إلى العون من وجوه كثيرة، ومن ذلك مثلاً شباك الرنجة التي علقت وكادت تتعفن في السقائف، بيد أنه مع ذلك كله لم يكن في الرمق الأخير إطلاقاً، فلم يزل في وسعه أن يأكل الفسيخ ويدخن الغليون.

وما إن قضى سيفرت هناك نصف ساعة وتبين حقيقة الأمر حتى رغب في العودة إلى البيت، فقال الشيخ: «البيت؟» فقال سيفرت:

«إننا سنبني بيتاً جديداً وليس مع أبي من يعينه كما يجب» فقال الخال: «هوه! ألم يعد اليزيوس إلى البيت إذاً؟» فأجابه: «بلى، ولكنه لم يتعود العمل»، فسأله: «لماذا جئت إذاً على الإطلاق؟» فأخبره سيفرت بأولين ورسالتها وكيف قالت إن الخال سيفرت على شفا الموت. فصاح الشيخ: «على شفا الموت؟ أقالت إني على شفا الموت؟ يا للعجوز الحمقاء اللعينة». فقال سيفرت: «ها ها ها»، فرمقه الشيخ بحدة وقال: «إيه؟ أتضحك من رجل يحتضر، وقد سموك باسمي؟» وكان سيفرت أصغر من أن يضع على وجهه سيما الجبانات في ذلك الموقف ولم يهتم قط بخاله كثيراً، وهو راغب الآن في العودة. فقال الشيخ مرة أخرى: «هوه. إذاً أنت صدقت هذا أيضاً؟ ظننت أنني في الرمق الأخير. وكان هذا ما جاء بك؟» فأجابه سيفرت: «أولين هي التي قالت ذلك» وظل خاله صامتاً برهة ثم قال: «اسمع: إن أنت أصلحت شبكتي هذه على ما يرام أريتك شيئاً» فقال سيفرت: «همم... وما هو؟» فقال الشيخ باكتئاب: «حسن، لا تهتم» ثم أوى إلى فراشه مرة أخرى.

وكان واضحاً أن المسألة ستطول. وتلوى سيفرت بغير ارتياح. وخرج فألقى نظرة على المكان فإذا كل شيء مهمل محروم من العناية بصورة مخجلة فلا أمل في جدوى الشروع في العمل هنا، ولما دخل بعد برهة وجد خاله جالساً أمام الموقد يصطلي. فأشار الخال إلى صندوق من خشب البلوط على الأرض عند قدميه قائلاً: «أترى هذا؟» وكان صندوق نقوده. والواقع أنه كان صندوقاً مبطناً مما يصنع لحمل القوارير، وكان يستعمله القضاة الزائرون وغيرهم من أكابر القوم حين كانوا يطوفون في أرجاء البلاد في الزمن السالف، إلا أنه الآن خال من القوارير، لأن الشيخ

كان يستخدمه لحفظ مستنداته وأوراقه بوصفه صراف الناحية، وفيه حساباته ونقوده. وكان الذائع أنه مليء بأموال لا حصر لها، ويهز أهل القرية رؤوسهم ويقولون: «آه لو كان عندي فقط مثل ما في صندوق الشيخ سيفرت».

وأخرج الخال سيفرت ورقة من الصندوق وقال بصرامة: «أحسبك تستطيع القراءة؟» ولم يكن سيفرت الصغير بارعاً في ذلك الفن في الحقيقة، بيد أنه استطاع أن يتبين من الكتابة ما عرفه أنه سيرث كل ما يمكن أن يخلفه خاله عند وفاته. وقال الشيخ: «هاك. والآن لك أن تتصرف كما يحلو لك» ورد الورقة إلى داخل الصندوق، ولم يكن الوقع عظيماً على نفس سيفرت لأن الورقة لم تعرفه أكثر مما يعرف من قبل، فمنذ طفولته كان يسمع جميع من حوله يقولون إنه سيحصل على ما يخلفه خاله سيفرت من بعده يوماً ما. ولكن رؤية الكنز قد يكون لها شأن آخر فقال: «يخيل إلي أن في داخل هذا الصندوق بضعة أشياء عظيمة» فقال الشيخ بإيجاز: «فيه أكثر مما تظن».

وكان الخال غاضباً فخيب الآمال في سليل أخته فأقفل الصندوق بالمفتاح وأوى إلى فراشه مرة أخرى حيث رقد وراح يدلي بنفثات من المعلومات: «لقد كنت صراف الناحية القيم على الأموال العامة في هذه القرية نيفاً وثلاثين سنة، فلست بحاجة إلى التوسل واستجداء المعونة في العمل من أي إنسان. وأحب أن أعرف من الذي أخبر أولين بأنني كنت على فراش الموت؟ بوسعي أن أبعث ثلاثة رجال وعربة لإحضار طبيب إن أردت طبيباً، فلا تجرب ألاعيبك معي أيها الشاب، فأنت لا يواتيك الصبر إلى أن أرحل عن الدنيا فيما يبدو. لقد أريتك الوثيقة وقد

قرأتها. وهي هنا داخل الصندوق. وهذا كل ما عندي لأقوله لك. ولكن إن أنت هربت الآن وتركتني ففي وسعك أن تبلغ اليزيوس دعوتي له كي يحضر. إنه لم يُطلق عليه اسمي، ولكن فليأت». وبعد هنيهة من هذه اللهجة المتوعدة لم يزد سيفرت على أن فكر لحظة ثم قال: «أجل سأخبر اليزيوس كي يأتي».

وكانت أولين لم تزل مقيمة في سيلانرا عندما عاد سيفرت. وكانت قد وجدت فسحة من الوقت للقيام بزيارة أكسل شتروم وباربو في موضعهما وعادت حافلة الوطاب بالألغاز والهمسات: «هذه الفتاة باربو أخذ جسمها يمتلئ امتلاء شديداً في الفترة الأخيرة. والله أعلم ماذا وراء ذلك؟ ولكن ولا كلمة واحدة عن أني قلت ذلك، وهل عاد سيفرت؟ لا حاجة للسؤال عن الأنباء فيما أظن؟ خالت سيفرت انتقل إلى دار البقاء؟ حسن. لقد كان عجوزاً طاعناً في السن على حافة القبر. ماذا؟ لم يمت؟ حسن حسن. فلنشكر الرب. أتقول إني أهذي به، ليت أني لا أحاسب على ما هو أكثر من ذلك، وكيف كان بوسعي أن أعرف أن خالك كان مستلقياً هناك يلفق الأكاذيب ويتصنعها أمام الرب؟ فقد قلت إنه سوف لا يعيش طويلاً. وأنا متمسكة بهذه الكلمة عندما يحين الوقت أمام عرش الرب. ما هذا الذي تقول؟ حسن ألم يكن مستلقياً هناك بلحمه ودمه في فراشه عاقداً يديه فوق صدره يردد أن النهاية قد قربت؟

ولم تكن ثمة جدوى من مناقشة أولين لأنها تذهل خصومها بما تقول وتهزمهم. وما إن علمت أن الخال سيفرت أرسل يطلب اليزيوس حتى تلقفت هذه الكلمة وأحسنت استغلالها لجانبها: «هاك» فهل تراني كنت أهذي؟ ها هو الشيخ سيفرت يدعو أقاربه تواقاً إلى نظرة من لحمه ودمه.

إنه موشك على نهايته وليس في وسعك أن ترفض يا اليزيوس. هيا انطلق على الفور، بل في هذه الدقيقة لترى خالك لم يزل فيه نفس يتردد، وأنا أيضاً سأسير في هذا الاتجاه. فلنذهب معاً».

ولم تغادر أولين سيلانرا دون أن تنتحي بأنجر جانباً لمزيد من التهامس في شأن باربو: «ولا كلمة واحدة مما قلت. ولكنني أستطيع أن أرى الدلائل بوضوح. وأتوقع الآن أن تغدو الزوجة المسيطرة على المزرعة هناك. أجل بعض الناس ولدوا لعظائم الأمور وإن كانوا في أول أمرهم هينين كرمال الشاطئ، ومنذا كان يظن ذلك بتلك الفتاة باربو؟ إن أكسل ولا شك من الطراز العامل المجد المفلح، وله يدان كبيرتان ماهرتان، ولديه موارد ووسائل كالتي لديكم هنا. وذلك أكثر مما يصل إليه علمنا في الجانب الآخر من التلال. وأنت تعلمين هذا على حقيقته يا أنجر، لأنك ولدت ونشأت هناك شخصياً، وكان لدى باربو شيء قليل من الصوف في صندوق. لم يكن سوى صوف شتوي ولم أطلبه منها، وهي أيضاً لم تعرضه علي. لم تقل سوى طاب يومك ووداعاً مع أنني أعرفها منذ كانت طفلة تتدحرج على الأرض حينما كنت هنا في سيلانرا بسبب غيابك لتحصيل العلوم والمعارف في المؤسسة...» فقالت أنجر تقاطع أولين: «هي رفقة تبكي» ولكنها أعطتها حفنة من الصوف، وأعقبت ذلك خطبة شكر منيفة من جانب أولين: ألم يكن هذا بالضبط ما قالته لباربو نفسها عن أنجر؟ وكيف أنه لا نظير لها في إعطاء المنح للناس. أجل إنها تعطي إلى أن تتجرد من كل ما لديها، ثم بعد ذلك تعطي لحم أصابعها حتى العظام ولا تتذمر. نعم ادخلي وانظري ماذا تطلب الملاك الصغيرة، فليس في الدنيا كلها طفلة أشبه بأمها من رفقة. كلا أتذكر

أنجر كيف قالت لها ذات يوم إنها لن ترزق بأطفال بعد ذلك. ها هي ترى! لا الأفضل أن تعير سمعها لمن تقدمن في السن وأنجبن أطفالاً. فمنذا يستطيع أن يسبر غور غابات الرب؟ هذا ما قالته أولين.

وبعد ذلك سارت في إثر اليزيوس صاعدة عبر الغابة وقد تقلصت بفعل السن وشابت وضؤلت. ولكنها ظلت تتشمم بأنفها كل خفي ولا تؤذن بزوال. وهي الآن ذاهبة إلى الشيخ سيفرت لتعرفه كيف أنها، هي وأولين، استطاعت أن تقنع اليزيوس بالمجيء.

ولكن اليزيوس لم يكن بحاجة إلى إقناع ولم تكن ثمة صعوبة لأن اليزيوس كان قد صار بعد كل شيء إلى خير مما كان في مبدأ أمره: فتى مهذباً في بابه عطوفاً سهل القياد منذ طفولته، وكل ما هناك أنه ليس على شيء كثير من القوة البدنية، ولم يكن بغير سبب أنه كان راغباً عن العودة إلى البيت هذه المرة. لقد كان يعلم تمام العلم أن أمه دخلت السجن لقتل طفلة، وهو لم يسمع كلمة واحدة عن ذلك الموضوع هناك في المدينة. أما في القرية فكل إنسان قمين أن يتذكر هذا الأمر. وليس بلا مبرر أنه كان يعيش مع رفاق من طراز آخر. فقد شب على مزيد من الحساسية؛ ورقّةُ المشاعر أخذتْ تزيد على ما كان لديه من قبل، فعرف أن الشوكة ضرورية ضرورة السكين بالضبط. وهو باعتباره رجل أعمال فإنه يستخدم ألفاظ ومصطلحات المسكوكات الحديثة، أما هناك في البرية فلم يزل الناس يحسبون النقود كعملة الدالر القديمة. أجل إنه لم يكن زاهداً في السير عبر التلال إلى أصقاع أخرى. فهو هنا في البيت كان مكرهاً باستمرار على مطامنة من تفوقه. وحاول جهده أن يكيف نفسه لينسجم مع الآخرين، وأفلح في ذلك فلاحاً طيباً، ولكن كان ينبغي دائماً

أن يكون على حذر. كما حدث مثلاً عندما عاد إلى سيلانرا منذ أسبوعين؛ فقد أحضر معه معطف الربيع الخفيف مع أن الوقت كان في منتصف الصيف، فلما علقه على مسمار كان في وسعه أن يقلبه لتبدو اللافتة الفضية التي بداخله وعليها الأحرف الأولى من اسمه. بيد أنه لم يفعل. وكذلك الحال في شأن عصاه، عصا المشي. أجل إنها كانت في الواقع عصا مظلة عراها من قماشها ونزع عنها هيكلها، ولكنه لم يستخدمها هنا كما كان يستخدمها في المدينة حين كان يطوحها وهو سائر، وإنما هو يحملها متوارية بجوار فخذه. كلا ليس مستغرباً أن يجتاز اليزيوس التلال، فهو ليس بارعاً في بناء البيوت وإن كان بارعاً في الكتابة بالحروف، وهي شيء لا يستطيعه كل إنسان. أما هنا في موطنه فلا أحد يعرف قيمة هذا الفن؛ اللهم إلا أمه. ولذا انطلق مبتهج القلب عبر الغابة يسبق أولين بمسافة بعيدة، ففي وسعه أن ينتظر لحاقها به فيما بعد. إنه كان يجري كالعجل ويسرع. وكان اليزيوس قد تسلل على نحو ما من المزرعة، وكان يخشى أن يراه أحد، إلا أنه إذا أردنا الحقيقة أخذ معه في هذه الرحلة معطف الربيع وعصا المشي. فقد تسنح له فرصة هناك في الجانب الآخر كي يرى الناس ويروه. وقد يتاح له أن يذهب إلى الكنيسة. وهكذا تصبب عرقاً وهو سعيد تحت وبر معطف الربيع الذي لا لزوم له في قيظ الشمس.

ولم يفتقده أحد في عملية البناء، بل الأمر بالعكس، فقد عاد سيفرت إلى إسحق، وسيفرت يوازي فيلقاً من طراز أخيه في ذلك العمل، فهو قادر على الدأب من الصباح إلى الليل. ولم ينقض وقت طويل حتى نهض هيكل البناء، وكان عبارة عن ثلاثة جدران لأنهما شادا

البيت الجديد امتداداً للبيت القديم. وكان عناؤهما بالنسبة للخشب أقل، إذ كان في استطاعتهما قطع الألواح في المنشر كما كان أمرُهما بالقطع الخارجية اللازمة للتسقيف في الوقت نفسه. وذات يوم صحو كان البيت كله قد تم أمام أعينهما واكتمل له السقف والأرضية والنوافذ. ولم يكن لديهما متسع من الوقت لأكثر من هذا فيما بين الموسمين. أما التلويح والطلاء ففي وسعهما أن تنتظرا.

وها قد جاء جايزلر ومعه حاشية كبيرة عبر التلال من السويد، وكان من معه من الرجال على صهوات الخيل، وخيولهم لامعة ذات سروج صفر، فلا شك أنهم مسافرون ثريّون. فالرجال ممتلئة أجسامهم، ثقيلة أوزانهم، تكاد تنوء الخيول بهم من تحتهم، ووسط كل هذه الشخصيات الكبيرة جاء جايزلر راجلاً. وكانوا أربعة سادة وجايزلر خامسهم، ثم هناك أيضاً خادمان يقود كل منهما حصاناً محملاً بالمتاع. وترجل الراكبون خارج المزرعة وقال جايزلر: «ها هو إسحق. ها هو مالك المكان نفسه. طاب يومك يا إسحق! لقد عدت كما ترى، وكما قلت لك».

وكان جايزلر على حاله دائماً، فمع أنه جاء راجلاً إلا أن لهجته لم يظهر عليها شيء من الشعور بالدونية إزاء الباقين. أجل إن سترته البالية كانت تبدو طويلة زرية المنظر فوق ظهره المتقلص، إلا أنه رغم ذلك كله كان يتكلم بسلطان، بل إنه قال: «نحن عازمون على الصعود إلى التلال قليلاً أنا وهؤلاء السادة وسيجدي عليهم أن ينقصوا وزنهم شيئاً ما».

وكان السادة أنفسهم مهذبين لطافاً فابتسموا عند سماع كلمة جايزلر وأعربوا عن أملهم في أن يغفر لهم إسحق حضورهم ليعيشوا فوق

أرضه على هذا النحو. وهم قد أحضروا معهم مؤونتهم الخاصة فلن تحدثهم نفسهم أن يأتوا على ما في بيته من طعام، ولكنهم يسعدون كثيراً إن هو منحهم المأوى تلك الليلة. فلعله مستطيع أن ينزلهم ذلك البناء الجديد هناك؟

ولما استراحوا برهة دخل خلالها جايزلر إلى حيث أنجر والأطفال، توجهت الجماعة كلها صاعدة إلى التلال ولبثت هناك حتى المساء. وبين حين وحين في غضون ما بعد الظهر سمع أهل سيلانرا دوياً ثقيلاً غير مألوف عن بعد، ثم أقبل رتلهم هابطين بأكياس جديدة من العينات، وقالوا وهم يومئون برؤوسهم إلى الركاز: «نحاس أزرق» ثم تحدثوا طويلاً حديثاً مثقلاً بالعلم ورجعوا إلى ضرب من الخرائط فتحوه أمامهم، وكان من بينهم مهندس وخبير مناجم. وأحدهم فيما يبدو كان مالكاً كبيراً من ملاك الأراضي أو مدير مصانع. وتحدثوا عن خط حديدي هوائي وعن مد كابلات. وكان جايزلر يلقي بكلمة بين فينة وفينة وكأنه في كل مرة يسدي إليهم نصحاً، فكانوا يعيرون ما يقول كبير اهتمام. وسأل أحدهم إسحق: «من مالك الأرض جنوبي البحيرة؟» فأجاب جايزلر بسرعة: «الدولة». فقد كان شديد اليقظة والتنبه ممسكاً في يده بالوثيقة التي كان إسحق قد مهرها ذات مرة بتوقيعه، وقال: «لقد قلت لكم من قبل إن المالك هو الدولة فلا لزوم لإعادة السؤال. وإن كنتم لا تصدقونني ففي وسعكم أن تتحروا بأنفسكم إن شئتم».

وبعد ذلك في غضون المساء انتحى جايزلر بإسحق جانباً وقال له: «اسمع: هل تبيع منجم النحاس هذا؟» فقال إسحق: «أما عن هذا الأمر، فقد اشتراه العمدة مني من قبل ودفع ثمنه» فقال جايزلر: «هذا

صحيح، لقد اشتريت الأرض. ولكن ثمة تحفظاً يجعل من حقك الحصول على نسبة مئوية من إيرادات التشغيل أو البيع، فهل أنت مستعد للتصرف في نصيبك؟».

وكان هذا فوق طاقة إسحق على الفهم، فتعين على جايزلر أن يشرحه له. إن إسحق لا يستطيع أن يستغل منجماً لأنه مزارع وقاطع أخشاب في الغابة وجايزلر نفسه لا يستطيع أن يدير منجماً كذلك. النقود؟ ورأس المال؟ هوه! قدر ما يشاء فلا تخف! ولكنه لا يجد الوقت لذلك فلديه مهام أكثر مما ينبغي. فهو دائماً يجوب البلاد لتفقد أملاكه في الجنوب وأملاكه في الشمال، ولذا يفكر جايزلر الآن في البيع لهؤلاء السادة السويديين الموجودين هنا. وكلهم من أقارب زوجته ومن الأثرياء» فهل فهمت مرادي؟ فقال إسحق: «سأفعل ما يتراءى لك» ومن الغريب أن هذه الثقة الكاملة أراحت بال جايزلر فيما يبدو بصورة هائلة وهو في رأسماله. فقال في تفكر: «حسن. لست واثقاً أن هذا أفضل ما يمكن أن تصنع»، ثم فجأة عاوده اليقين، واستطرد: «ولكن إن أنت أطلقت يدي في العمل على بصيرتي استطعت أن أتصرف لمصلحتك خيراً مما تستطيع أنت شخصياً»، وشرع إسحق يقول له: «همم» لقد كنت دائماً رجلاً كريماً طيباً معنا جميعاً هنا..» ولكن جايزلر قطب جبينه عند سماع ذلك وقاطعه قائلاً باقتضاب: «وهو كذلك إذاً».

وفي صباح اليوم التالي جلس السادة ليكتبوا، وكان الأمر خطيراً. فهناك أولاً وقبل كل شيء عقد بأربعين ألف كرونر نظير بيع المنجم. ثم وثيقة تنازل بمقتضاها جايزلر عن المبلغ كله لزوجته وأطفاله. ودُعي إسحق وسيفرت للدخول والتوقيع شاهدين على هاتين الوثيقتين. ولما

انتهى هذا الجانب من الصفقة أراد السادة أن يشتروا حصة إسحق بمبلغ زهيد جداً: خمسمئة كرونر، فوضع جايزلر حداً لذلك قائلاً: «لندع المزاح».

ولم يكن إسحق نفسه يفقه إلا القليل من الموضوع برمته. فهو قد باع المكان مرة وحصل على نقوده. ولكنه على كل حال لا يهتم كثيراً بالكرونر، لأنه ليس نقوداً حقيقية مثل الدالر. أما سيفرت فكان من جانبه يتتبع المسألة بمزيد من الإدراك، فدار بذهنه أن في لهجة هذه المباحثات شيئاً يميزها بصفة خاصة، فهي أشبه بمسألة عائلية تبحث بين الأطراف المختلفة، فأحد الغرباء قد يقول: «لا ينبغي يا عزيزي جايزلر أن تحمر عيناك هكذا»، فيرد جايزلر على ذلك بحدة وإن كان في شيء من الروغان: «لا أعرف أن هذا لا ينبغي لي، ولكننا لا نحصل جميعاً على ما ينبغي لنا في هذا العالم، وبدا من المرجح جداً أنَّ إخوةَ زوجة جايزلر وأقاربها يحاولون شراء كل ما يملكه زوجها ليحصنوا أنفسهم ضد زياراته في المستقبل ويتخلصوا من قريب مزعج. أما المنجم فهو يساوي شيئاً في حد ذاته بلا شك، ولا أحد ينكر هذا. إلا أنه بعيد عن الطريق، والمشترون أنفسهم قالوا إنهم يشترونه بقصد بيعه مرة أخرى لمن يرى نفسه في وضع أفضل من وضعهم لتشغيله. وليس في هذا الكلام شيء غير معقول. وأعلنوا أيضاً بصراحة تامة أنه لا فكرة لديهم عما يمكنهم الحصول عليه ثمناً له وهو على حاله، فإن اشتراه أحد وأداره فقد يتضح أن الأربعين ألفاً لا تمثل إلا جزءاً ضئيلاً من قيمته. أما إن ترك على حاله، فكأن النقود ضاعت هباء. بيد أنهم على كل حال يرغبون في الحصول على حقوق ملكية خالصة من الشوائب. ولذا عرضوا على إسحق

خمسمئة كرونر مقابل حصته. فقال جايزلر: «أنا أتصرف باسمه ولن أبيع حصته بأقل من عشرة في المائة من ثمن الشراء». فقال الآخرون: «أربعة آلاف» فقال جايزلر: «أربعة آلاف. لقد كانت الأرض ملكاً له وحصته تصل إلى أربعة آلاف ولم تكن الأرض ملكاً لي، وقد حصلت على أربعين ألفاً. تكرموا بتقليب هذا الأمر في أذهانكم» فقالو: «نعم. ولكن... أربعة آلاف كرونر» فنهض جايزلر من مكانه وقال: «هذا أو لا بيع».

وفكروا في الأمر وتهامسوا بشأنه فيما بينهم وخرجوا إلى الفناء وتحادثوا ما طاب لهم التحدث، ثم نادوا الخادمين: «أعدوا الخيل». ودخل أحد السادة البيت إلى أنجر ودفع إليها بسخاء ملكي ثمن القهوة والقليل من البيض والإقامة، وكان جايزلر يتجول غير مكترث، ولكنه كان شديد اليقظة مع ذلك، وسأل سيفرت: «عمَّ تمخض نظام الري في السنة الماضية؟» فأجابه: «لقد أنقذ المحصول كله» فقال له: «لقد أزلتم تلك الرابية التي كانت هناك منذ آخر مرة كنت فيها هنا. أليس كذلك؟» فأجابه: «بلى» فقال جايزلر: «لا بد لكم من حصان آخر في المزرعة فقد كان يلاحظ كل شيء».

وتقدم أحد الغرباء فقال: «والآن هيا بنا نسوّي هذا الموضوع ونفرغ منه» فدخلوا كلهم مرة أخرى إلى البناء الجديد وعدوا لإسحق الأربعة آلاف كرونر، وأعطوا جايزلر ورقة دسها في جيبه كأنما لا قيمة لها على الإطلاق وقالوا له: «احرص عليها، وبعد بضعة أيام ستتلقى زوجتك إخطار البنك» قطّب جايزلر جبينه وقال باقتضاب: «حسن جداً».

ولكنهم لم يكونوا قد فرغوا من جايزلر بعد. ولم يكن ذلك لأنه فتح

فمه وطلب شيئاً، بل هو قد وقف هناك ببساطة فرأوا كيف يقف هناك. ولعله كان قد اشترط سلفاً الحصولَ على مبلغ طفيف من حسابه، فأعطاه كبيرهم حزمة من أوراق النقد، وببساطة هز جايزلر رأسه مرة أخرى وقال: «حسن جداً»، فقال الآخر: «والآن ينبغي أن نشرب كأساً مع جايزلر».

وشربوا، وانتهى الأمر ثم استأذنوا من جايزلر. وفي هذه اللحظة بالذات أقبل بريد أولسن صاعداً. فماذا يريد الآن؟ لا بد أنه يريد سماع أصوات طلقات التفجير في اليوم السابق فأدرك أن ثمة شيئاً ما يجري بخصوص المناجم وها هو ذا قد أتى متأهباً أن يبيع شيئاً كذلك. وتجاوز جايزلر واتجه مباشرة إلى السادة فوجه إليهم الخطاب، فهو قد عثر على بضع عينات بديعة من الصخور في هذه المنطقة، وهي عينات خارقة للمألوف: بعضها دموي اللون وبعضها فضي، وهو يعرف كل شق وركن في التلال المحيطة ويستطيع أن يتجه مباشرة إلى كل بقعة منها. وهو على علم بوجود عروق طويلة من معدن ثقيل أياً كان ذلك المعدن. فسأله خبير المناجم: «ألديك عينات؟» وكانت لدى بريد عينات، ولكن ألا يستطيعون الصعود معه لينظروا إلى المواضع على الفور؟ إنها غير بعيدة العينات؟ أوه. زكائب منها وصناديق شحن مليئة بأكملها، كلا. إنه لم يحضرها معه، فهي في البيت، ولكنه يستطيع أن يجري إلى هناك ويحضرها، ولكن الأسرع أن يجري إلى التلال ويأتيهم بمزيد من العينات إن أرادوا ذلك.

وهز الرجال رؤوسهم ومضوا في سبيلهم، وأنّبهم بريد بنظرة من يلقى إهانة. ولئن راوده بصيص من الأمل، فقد انطفأ هذا البصيص الآن. إن القدر يناصبه العداء. فما من أمر من أموره يتم له. وكان لخير بريد

أنه لا تخور نفسه بسهولة. ولذا أتبع الرجال بنظره وهم منطلقون على صهوات خيولهم وقال أخيراً: «أتمنى لكم رحلة طيبة؟» وكان هذا هو كل شيء.

وثاب بعد ذلك إلى تواضعه مع جايزلر رئيسه السابق ولم يعد يعامله معاملة الند، بل صار يستخدم في خطابه صيغة الاحترام. وكان جايزلر قد أخرج حافظة نقوده بذريعة أو أخرى مما أتاح لأي إنسان أن يراها محشوة عن آخرها بالأوراق المالية. فقال بريد: «لو ساعدني العمدة بعض الشيء» فقال جايزلر: «عد إلى بيتك وافلح أرضك كما ينبغي» ولم يساعده بشيء فقال بريد: «كان من السهل أن آتي معي بحمل عربة يد كامل من العينات ولكن ألم يكن الأسهل أن يصعدوا وينظروا إلى المكان بأنفسهم وهم هنا؟ أترى ماذا صنعت بهذه الوثيقة؟ إنها في غاية الأهمية. تتوقف عليها بضع ألوف من الكرونرات. وها هي وسط حزمة من أوراق النقد» فسأل بريد: «من هؤلاء الناس؟ هل خرجوا لمجرد النزهة على ظهور الخيل أم ماذا؟».

وكان جايزلر قد عانى قلقاً شديداً ولا شك. أما الآن فقد هدأت نفسه إلا أنه لم تزل فيه بقية من الحياة واللهفة تكفي للقيام بعمل صغير آخر، فصعد إلى التلال مع سيفرت وحمل معه ورقة كبيرة ورسم خريطة للأرض جنوبي البحيرة. والله أعلم ماذا كان يدور بذهنه، ولما نزل إلى المزرعة بعد بضع ساعات كان بريد لم يزل بها. فلم يلق جايزلر بالاً إلى أسئلته. فقد كان مجهداً فأزاحه جانباً ونام كالصخرة إلى بكرة الصباح فنهض مع الشمس وقد عاد إلى سيرته الأولى. وقال وهو يقف في الخارج وينظر فيما حوله: «سيلانرا». فقال إسحق: «هل من حقي أن

آخذ كل هذه النقود ؟ » فقال جايزلر: «كل؟ يا إلهي ألا تستطيع يا رجل أن ترى أنه كان ينبغي لك أن تحصل على ما هو أكثر منها بكثير جداً ؟ ثم إنني كنت مسؤولاً في الحقيقة عن أن أؤدي لك حصتك بموجب تعاقدنا ولكنك ترى كيف كان الموقف. وأن هذه هي الطريقة الوحيدة للتصرف فيه ثم علام حصلت؟ على ألف دالر فقط بالحساب القديم. لقد كنت أفكر أنك بحاجة إلى حصان آخر في المزرعة الآن». فقال إسحق: «إي» واستطرد جايزلر: «حسن، إني أعرف حصاناً يصلح لك. فذلك الرجل مساعد هيردال يترك مزرعته نهباً للخراب والدمار. فمعظم اهتمامه بالجري هنا وهناك لعرض ممتلكات الناس للبيع. وقد باع جانباً كبيراً من ماشيته بالفعل. وسيكون على استعداد لبيع الحصان» فقال إسحق: «سأقابله لهذا الغرض» فلوح جايزلر بيده في إشارة عريضة شملت ما حوله وقال: «مالك أرض. هذا أنت. بيت وماشية وأرض مزروعة، فلن يستطيعوا تجويعك إن حاولوا»، فقال إسحق: «لا ، لدينا كل ما يمكن أن نتمنى من كل ما صنعه الرب».

ومضي جايزلر ينقب في المكان، وفجأة دخل إلى حيث أنجر وسألها: «أتستطيعين تدبير شيء من الطعام لي آخذه معي مرة أخرى؟ شيء قليل من الرقاق. ولكن لا زبد ولا جبن، ففي الرقاق ما يكفي من الطيبات. لا. اصنعي ما أقوله لك فلا أستطيع أن أحمل مزيداً».

وخرج مرة أخرى. فجايزلر لا يقر له قرار، ودخل المبنى الجديد وجلس ليكتب. وكان قد فكر في كل شيء سلفاً فلم يستغرق التدوين وقتاً طويلاً. إنه يزمع إرسال طلب إلى الحكومة كما شرح لإسحق بشيء من التفاخر -إلى وزارة الداخلية، نعم فلدي أمور لا نهاية لها يجب أن

أهتم بها في وقت واحد. ولما حصل على لفافة طعامه وودعهم بدا عليه أنه تذكر شيئاً فجأة فقال: «أوه. بهذه المناسبة أخشى أن أكون مديناً لكم بشيء من المرة الماضية، فقد تعمدت أن أخرج ورقة مالية من حافظتي ثم دسستها في جيب صداري سهواً حيث وجدتها بعد ذلك. ما أكثر الأشياء التي علي أن أفكر فيها في وقت واحد». ووضع شيئاً في يد أنجر وانطلق.

أجل انطلق جايزلر بإقدام كافٍ كما يدل ظاهر الأمر، فلا هو خائر النفس أو يبدو عليه أنه قارب نهايته. وقد عاد إلى سيلانرا بعد ذلك ومضت سنوات طوال قبل أن يموت. وفي كل مرة يغادر فيها سيلانرا كأن أهلها يفتقدون فيه صديقاً. وقد فكر إسحق في أن يسأله بخصوص بريدابليك ليحصل على نصحه، ولكنه لم يفعل. ولعل جايزلر كان حرياً أن يثنيه عن عزمه في هذا الشأن إذ يرى من المجازفة شراء أرض صالحة للزراعة كي يعطيها لاليزيوس. وهو موظف كتابي.

الفصل الثامن عشر

وأخيراً مات الخال سيفرت. قضى اليزيوس ثلاثة أسابيع في العناية به ثم مات الشيخ، فرتب اليزيوس مراسم الجنازة وساس كل شيء على خير ما يرام، فأفلح في الحصول على بضع أزهار من نوع الفوكسيا وما إليها من الأكواخ المجاورة واستعار علماً رفعه منكساً في منتصف السارية واشترى قماشاً أسود من المنجر للمصاريع الخشبية المسدلة وبعث في طلب إسحق وأنجر فحضرا الجنازة وقام اليزيوس بدور المضيف وقدم المرطبات للضيوف، وعندما أخرج الجثمان وأنشدوا ترنيمة ألقى اليزيوس بضع كلمات مناسبة أمام التابوت وشعرت أمه بمنتهى الفخر واهتزت لنفسها تأثراً حتى إنها اضطرت لاستخدام منديلها. ومضى كل شيء على أفخم صورة. وفي طريق العودة إلى البيت مع أبيه اضطر اليزيوس إلى حمل معطف الربيع علانية، وإن تمكن من إخفاء العصا في أحد كميه، وسار كل شيء على ما يرام إلى أن تعين عليهم عبور الماء في زورق وإذا بأبيه يجلس فوق المعطف على غير انتظار، وإذا فرقعة تسمع، فسأله أبوه: «ما هذا؟» فقال اليزيوس: «أوه. لا شيء..» بيد أنه لم يرم عصاه المكسورة بل أكب بمجرد وصولهما إلى البيت على البحث عن قطعة من أنبوبة أو ما إلى ذلك ليصلحها بها. وقال له سيفرت الذي لا يرعوي عن شيء: «سنصلحها خير إصلاح. اسمع. هات

قطعتي خشب سميكتين وضع كل واحدة منهما على أحد جانبي العصا، واربط الكل بخيط مشمع» فقال اليزيوس: «سأربطك أنت بخيط مشمع» فأجابه سيفرت: «ها. ها. ها لعل الأفضل أن تربطها برباط ساق أحمر؟» وعندئذ ضحك اليزيوس نفسه: «ها ها ها» ودخل على أمه وحملها على إعطائه كستباناً قديماً ثم برد طرفه وجعل منه (جلبه) حلقة بديعة. أوه. اليزيوس ليس عديم الحيلة بعد كل شيء بيديه الطويلتين البيضاوين.

وجعل كل من الأخوين يعابث الآخر على مأثور عادتهما. فسأل اليزيوس أخاه: «إلى أن أتملك ما تركه الخال سيفرت؟» فسأله سيفرت: «تتملكه؟ وما مقداره؟» فأجابه: «ها ها ها. أنت تريد أن تعرف مقداره أولاً أيها البخيل العتيق» فقال سيفرت: «حسن. في وسعك أن تتملكه على كل حال» فقال عندئذ اليزيوس: «إنه يتراوح بين خمسة وعشرة آلاف» فصاح سيفرت غير متمالك نفسه: «دالر؟».

ولم يكن اليزيوس يستخدم الدالر في حسابه على الإطلاق. ولكنه لم يحب أن يقول لا في هذا الحين، فاكتفى بهز رأسه وترك المسألة عند هذا الحد حتى اليوم التالي، وعندئذ أثار المسألة من جديد قائلاً ألست آسفاً لأنك أعطيتني ذلك كله الأمس! «فقال سيفرت» يا ذا الرأس الخشبي كلا بالطبع «إلا أنه لم يخل من التفكير في الخمسة آلاف دالر، وهي ليست مبلغاً صغيراً. فما لم يكن أخوه هندياً حقيراً متوحشاً فهو راد إليه نصفه.

وشرح اليزيوس الأمر قائلاً: «حسن إن أردنا الحق فلست أخالني أحصل على شيء كثير من هذه الوصية بعد كل شيء «فنظر إليه سيفرت في دهشة وقال: «هوه أحقاً!» فأجابه: «لا. فهي ليست شيئاً ذا

وزن خاص. ليست ما يمكن أن تسميه بالإطلاق» وكانت لدى اليزيوس بعض المعرفة بالحسابات طبعاً، وقد فتح صندوق نقود الخال سيفرت وهو صندوق القوارير الشهير وفحصت محتوياته في وجوده وكان عليه أن يراجع جميع الحسابات ويقوم بعمل الميزانية. ولم يكن الخال سيفرت قد طلب منه العمل في الحقول أو إصلاح شباك الرنجة بل زج به في خليط مرهق من الأرقام يعتبر أعوص عملية إمساك دفاتر عرفها الناس، فإن كان أحد قد دفع ضرائبه منذ بضع سنوات عيناً، كأن يكون ذلك عنزة أو حملاً من البقل المجفف، فلا أثر لذلك الآن في الدفاتر، إلا أن الشيخ سيفرت كان ينبش ذاكرته ثم يقول: «لقد أداها» فيقول اليزيوس: «إذاً نشطب اسمه» وكان اليزيوس رجل هذا النوع من العمل؛ فهو متوقد الذكاء سريع في الإنجاز ويشجع الشيخ المريض بتأكيده له أن الأمور على ما يرام وهكذا انسجم الاثنان معاً إلى حد المزاح أحياناً. وقد يكون اليزيوس أبلد في بعض الأمور، ولكن كذلك كان خاله أيضاً. وهكذا جلس الاثنان هناك يحرران وثائق مستفيضة لا لمصلحة سيفرت الصغير فحسب، بل وأيضاً لمصلحة القرية كلها، وهي المجتمع الذي خدمه الشيخ ثلاثين سنة. أوه: لقد كانت أياماً مجيدة! وقال الخال سيفرت: «ما كنت لأحصل على من هو خير منك للمساعدة في هذا كله يا فتاي اليزيوس» وبعث فابتاع لحم ضأن في وسط الصيف، وجيء بالسمك طازجاً من البحر، وقام اليزيوس بأداء الثمن نقداً من الصندوق، وعاشا على خير وجه. ووضعا يديهما على أولين -فما كانا ليجدا خيراً منها لدعوتها إلى مأدبة، ولا من يتكفل خيراً منها بإذاعة أنباء عظمة الخال سيفرت حتى النهاية. وكان الرضا متبادلاً، فقال الخال سيفرت: «لا بد أن نصنع

شيئاً لأولين أيضاً، فهي أرملة غير ميسورة الحال، وسيتبقى ما فيه الكفاية لسيفرت الصغير على كل حال». وتكفل اليزيوس بالأمر بجرة قلم، فحرر ملحقاً للوصية الأخير، فإذا أولين شريكة في الميراث.

وقال لها الخال سيفرت: «سأهتم بشأنك. وإن قدر لي أن تتحسن صحتي هذه المرة وأعود للدبيب على الأرض فسأهتم برعايتك» فأعلنت أولين أنها عاجزة عن الكلام، ولكنها لم تكن عاجزة عنه فبكت وتأثرت تأثراً قلبياً وأفعمت بالشكر لصنيعه. فلا أحد يضارع أولين في إيجاد الصلة المباشرة بين العطية الدنيوية «وبين» جزائها ألف ضعف إلى الأبد في العالم الآخر. كلا. لم تكن عاجزة عن الكلام.

واليزيوس!؟ لعله في البداية تمثل أحوال خاله في صورة براقة إلى حد كبير، ولكنه بدأ يراجع فكره بعد برهة، ثم باح مما عنده أيضاً. فحاول في مبدأ الأمر أن يستخدم التلميح الهين فقال: «الحسابات ليست كما ينبغي أن تكون بالضبط» فقال الشيخ: «حسن. دعك من هذا. سيكون ثمة ما يكفي وزيادة عندما أغادر الدنيا». فقال اليزيوس: «لعل عندك مالاً سائلاً إلى جانب هذا؟ في بنك أو ما إليه؟» فبذلك جرت الأحاديث، فقال الشيخ: «همم... ربما. ولكن عندنا على كل حال المسمكة والمزرعة والأبنية والماشية من بقرات حمر وبقرات بيض وما إلى ذلك، فلا تشغل بالك بهذا الأمر يا فتاي اليزيوس».

ولم تكن لدى اليزيوس أدنى فكرة عما يمكن أن تساويه المسمكة. بيد أنه كان قد رأى الماشية وهي عبارة عن بقرة واحدة بعضها أحمر وبعضها الآخر أبيض. فلا بد أن الخال سيفرت كان يهذي. وجانب من الحسابات أيضاً استعصى على الفهم تماماً، فقد كانت تلك الحسابات

خليطاً متداخلاً وخبيصة من الأرقام، ولا سيما منذ تاريخ تغيير العملة. فكان صراف الناحية كثيراً ما يحسب الكرونر الصغير وكأنه دالر كامل. فلا عجب أن يخال نفسه غنياً ولكن عندما رد كل شيء إلى ما يشبه النظام داخل اليزيوس الخوف ألا يتبقى في النهاية شيء كثير. بل لعل ما يتبقى لا يكون كافياً للتسوية على الإطلاق، أجل في وسع سيفرت أن يعده بسهولة بكل ما يؤول إليه عن خاله.

وتبادل الأخوان المزاح حول هذا الموضوع. ولم ينزعج سيفرت إطلاقاً بل لعله في الواقع كان حرياً أن يشعر بالضيق لو أنه كان قد فرط في الخمسة آلاف دالر. وكان يعلم تمام العلم أن تسميته باسم خاله كانت نوعاً من المضاربة الاستثمارية التخمينية، فلم يكن له حق في أي شيء. هناك. فانقلب الآن بحث اليزيوس على أخذ كل ما هناك. قائلاً: «هو لك طبعاً. هيا بنا فسجل ذلك كتابة. فإني أحب أن أراك غنياً. لا تتكبر فتأبى أن تأخذه».

أجل. لقد ضحكا كثيراً معاً. وكان سيفرت في الواقع هو الذي ساعد بالأكثر على إبقاء اليزيوس في البيت، ولولاه لكان الأمر أشق على نفسه بكثير والحقيقة أن اليزيوس عاوده الفساد مرة أخرى، فالأسابيع الثلاثة التي قضاها متكاسلاً في الجانب الآخر من التلال لم تفئ عليه خيراً كثيراً. وكان قد ذهب إلى الكنيسة هناك واستعرض نفسه -أجل بل وقابل أيضاً عدة فتيات هناك أما هنا في سيلانرا فلا شيء من هذا القبيل. وبنسين الخادمة ليست شيئاً فهي عاملة لا أكثر، وهي أليق بسيفرت. وذات يوم قال اليزيوس: «خطر لي أن أذهب لأرى كيف أصبحت هذه الفتاة باربو من بريدابليك بعد أن شبت عن الطوق» فقال سيفرت: «حسن. اذهب إلى موضع أكسل شتروم وانظر إليها».

وتوجه اليزيوس إلى هناك يوم أحد - وهو قد تقرب وأفاد ثقة بنفسه فارتفعت روحه المعنوية مرة أخرى وذاق لذة التوفز على نحو ما، فأشاع الحيوية في جو بيت أكسل الصغير. ولم تكن باربو نفسها حقيقة بالزراية على الإطلاق. فهي على كل حال الفتاة الوحيدة في أي موضع قريب من الدار. وعزفت على القيثارة وتحدثت طواعية. ولم يكن ما يفوح منها رائحة حشيشة الدود، بل رائحة عطر حقيقة من ذلك النوع الذي يشترى من المتاجر، وأفهمها اليزيوس من جانبه أنه لم يجيء إلى البيت إلا في إجازة، وعما قريب سيدعى للعودة إلى المكتب. ولكنه ليس مستاء من وجوده في البيت القديم العهود. فلديه طبعاً حجرة النوم الصغيرة يقيم بها، ولكن هذا لا يضارع الإقامة في المدينة. فقالت باربو: «كلا. هذه كلمة حق. فالمدينة مختلفة جداً عن هذا». وألفى أكسل نفسه خارج الموضوع وقد انعقد الحديث بين هذين الاثنين من أهل المدن، فشعر بالضجر في صحبتهما وآثر الخروج لتفقد أرضه وترك الاثنين يفعلان ما يشاءان، وتصرف اليزيوس على أوسع نطاق فأخبرها كيف رحل إلى القرية المجاورة ليدفن خاله، ولم ينس أن يشير إلى الخطبة التي ألقاها على تابوته. ولما استأذن في الانصراف طلب من باربو أن تمشي جانباً من طريق العودة معه، ولكن باربو شكرته ولم تبد استعداداً لذلك. وسألته: «أهكذا يصنعون في المدينة التي كنت بها؟» أعلى السيدات أن يوصلن السادة إلى بيوتهم؟» فكانت تلك ضربة قذرة لأليزيوس، واحمر وجهه وأدرك أنه أهانها. ومع هذا توجه إلى مانلاند مرة أخرى يوم الأحد التالي. وأخذ معه في هذه المرة عصاه وتحدث كالمرة السابقة، ووجد أكسل نفسه خارج المجال كذي قبل فقال: «إن مزرعة أبيك كبيرة ويبدو

أنه يبني الآن شيئاً جديداً» فقال اليزيوس متلهفاً على التباهي بعض الشيء: «نعم. حاله على خير ما يرام. وهو قادر على تكاليف التوسع في البناء. ولكن الأمر مختلف بالنسبة للفقراء مثلنا». فسأله: «ماذا تعني؟» فأجاب: «أوه... ألم تسمع؟ لقد حضر إلينا جماعة من أصحاب الملايين السويديين منذ أيام واشتروا منه منجماً للنحاس» فقال أكسل: «أحقاً ما تقول؟ ولا بد إذاً أنه حصل على مبلغ ضخم من المال؟» فأجابه: «مبلغ طائل. ولست أريد التفاخر، ولكنه على كل حال آلاف كثيرة جداً. ماذا كنت بسبيل قوله؟ البناء؟ إن لديك هنا مقداراً كبيراً من الخشب. فمتى تشرع في البناء؟ وعندئذ تدخلت باربو لتقول: «لن يشرع» وكان ذلك محض مبالغة ووقاحة. فقد جمع أكسل أحجاره في الخريف السابق ثم حملها على العربة إلى البيت هذا الشتاء والآن فيما بين الفصول قام بإتمام جدران الأساس. ومخزن المؤونة وما إلى ذلك. ولم يبق الآن إلا إقامة الجزء الخشبي من البناء فوقها. وفي مأموله أن يتم تسقيف جزء منه هذا الخريف، وكان يفكر في دعوة سيفرت لمعاونته في العمل بضعة أيام، فما رأي اليزيوس في ذلك وكان رأي اليزيوس أن هذا جائز. ولكنه قال باسماً: «ولماذا لا تطلب هذا مني أنا؟» وقال أكسل بلهجة الاحترام لهذه الفكرة: «أنت؟ إن لك مواهب في أمور أخرى كما أعلم».

أوه... ولكن من المبهج أن يلفي المرء نفسه موضع تقدير هنا في البرية؛ وقال اليزيوس بلباقة: «أخشى أن يدي لا تصلحان كثيراً لهذا النوع من العمل» فقالت باربو: «دعني أنظر إليهما» وتناولت يده. وترك أكسل الحديث مرة أخرى، وخرج فتركهما بمفردهما، وهما تِرْبان،

وكانا يذهبان إلى المدرسة معاً ويلعبان ويتبادلان القبلات ويتسابقان. وهما الآن يتحدثان عن تلك الأيام الخوالي في زراية وعدم مبالاة. ولعل باريو كانت ميالة إلى التباهي قليلاً أمام صاحبها. أجل إن اليزيوس ليس كالشبان الراقين الحقيقيين العاملين في المكاتب، الذين يتخذون النظارات والساعات الذهبية وما إلى ذلك، ولكن بحكم اعتباره من السادة هنا في البرية ولا مراء. وأخرجت صورتها وأرته إياها -فهكذا كانت تبدو يومئذ وقالت باريو: «وأنا الآن جد مختلفة بالطبع» وتنهدت، فسألها: «لماذا؟ ماذا بك الآن؟» فسألته: «ألا تعتقد أني تغيرت للأسوأ منذ ذلك الحين؟» فقال: «تغيرت للأسوأ حقاً! أنا لا أبالي أن أقول لك إنك لم تكوني في يوم من الأيام أملح منك الآن؛ فقد امتلأ جسمك واستدار. للأسوأ؟ هوه: يا لها من فكرة بديعة» فقالت: «ولكن الثوب كان جميلاً. ألا ترى ذلك؟ مفتوح قليلاً من الخلف، وكنت أرتدي تلك السلسلة الفضية التي تراها هناك وقد تكلفت مبلغاً باهظاً، وهي هدية من أحد الكتبة الشبان الذين كنت معهم حينئذ، ولكني أضعتها، لم أضيعها بالضبط، بل كنت بحاجة إلى النقود كي أعود إلى البيت» فسألها اليزيوس: «أأستطيع أن أحتفظ بالصورة؟» فسألته: «أتحتفظ بها؟ همم... وماذا تعطيني في مقابلها؟» وكان اليزيوس يعرف تمام المعرفة ما يريد أن يقول لها، ولكنه لم يجسر فقال: «سألتقط صورة عندما أعود إلى المدينة وأبعث بها إليك» فأخفت باريو الصورة وقالت: «لا، إنها الوحيدة الباقية لي»، وكانت تلك ضربة قاتمة لقلبه الشاب، فمد يده نحو الصورة، فقالت ضاحكة: «حسن، أعطني في مقابلها شيئاً على الفور. وعندئذ نهض فقبلها كما ينبغي.

وبعد ذلك صار كل شيء سهلاً. وأشرق اليزيوس وانطلق تمام الانطلاق فتغازلا وتمازحا وضحكا وصارا صديقين حميمين. وقال لها: «عندما تناولتِ يدي منذ قليل فكأنما لمستني حوافي إوزة برية. هكذا كان ملمس يدك» فقالت باربو: «أوه. إنك ستعود إلى المدينة مرة أخرى ولن نراك بعدها قطعاً؟» فسألها اليزيوس: أتظنينني من هذا الطراز من الناس؟» فقالت: «آه أعتقد أن هناك شخصاً ما أنت هائم به؟» فقال: «لا. لا أحد هناك وبيني وبينك أنا غير مشغول القلب إطلاقاً» فقالت: «أوه. نعم أنت مشغول. أنا أعرف» فقال: «لا. صدقيني إنني غير مشغول القلب».

واستمر حديثهما على هذا النحو برهة طويلة. وكان واضحاً أن اليزيوس عاشق. وقال لها: «سأكتب إليك أتسمحين؟» فقالت: «نعم» فقال: «لأني لن أقحم نفسي عليك بالكتابة ما لم يهمك الأمر». وفجأة شعر بالغيرة فسألها: «لقد سمعتهم يقولون إنك موعودة لأكسل. فهل هذا صحيح؟» فقالت بازدراء: «أكسل؟ بعداً له» فأشرقت أساريره مرة أخرى: «بيد أنها عندئذ ندمت على ما قالت واستطردت: «إن أكسل طيب المعشر بالنسبة لي مع ذلك.. فقد رتب لأجلي صحيفة أطالعها ويعطيني هدايا بين حين وحين. هدايا كثيرة إني أعترف له بها» فوافقها اليزيوس قائلاً: «إنه طبعاً قد يكون فتى ممتازاً في بابه. بيد أن هذا ليس كل شيء...».

ويبدو أن التفكير في أكسل أثار قلق باربو فنهضت وقالت لاليزيوس: «يجب أن تنصرف الآن فلا بد لي من تفقد الحيوانات».

وفي يوم الأحد التالي توجه اليزيوس إلى هناك متأخراً كثيراً عن المعتاد، وحمل إليها الخطاب بنفسه. ويا له من خطاب: «لقد جشمته

كتابته مشقة هائلة وأسبوعاً بأسره من التوفز، ولكن ها هو في النهاية قد تمكن من إتمام ذلك الخطاب «إلى الآنسة باربو بريدسن، لقد سعدت برؤياك مرتين أو ثلاث مرات، سعادة لا توصف...».

أما وقد جاء متأخراً جداً هذه المرة. فلا بد أن تكون باربو قد فرغت على كل حال من تفقد الحيوانات، ولعلها تكون أيضاً قد آوت إلى فراشها. ولا بأس بهذا. بل الأمر بالعكس في الواقع.

ولكن باربو كانت مستيقظة وجالسة في الكوخ. وبدا عليها الآن وكأنها نبذت فجأة كل تفكير في التلطف معه ومطارحته الغرام. وخيل إلى اليزيوس أن أكسل ربما استولى على قيادتها وحذرها: «ها هو الخطاب الذي وعدتك به؟» فقالت: «أشكرك» وفتحته وطالعته من غير أن يبدو عليها شديد تأثر. وقالت: «ليتني أستطيع أن أكتب بخط جميل كهذا الخط»، فشعر اليزيوس بخيبة أمله. فماذا تراه فعل؟ ما خطبها؟ وأين أكسل؟ إنه ليس هنا. ولعله بدأ يسأم زيارات يوم الأحد الحمقاء هذه وفضل البقاء بعيداً، أو لعل لديه مهمة احتجزته حينما ذهب إلى القرية في اليوم السابق. إنه ليس هنا على كل حال. وسألها اليزيوس: «ما الذي يدعوك للجلوس في مساء جميل كهذا في مثل هذا المكان العميق المحبوس الهواء؟ اخرجي لنتمشى» فأجابته: «أنا في انتظار أكسل» فسألها: «أكسل؟ ألا تستطيعين الحياة دون أكسل إذاً؟» فقالت: «بلى أستطيع. ولكنه سيكون بحاجة إلى شيء يأكله عندما يعود».

وانقضى الوقت ببطء شديد. ولم يتقاربا. وظلت باربو متجهمة مقطبة كما كانت. وحاول أن يسرد على مسامعها مرة أخرى تفاصيل زيارته عبر التلال، ولم ينس موضوع الخُطبة التي ألقاها: «لم يكن ما

قلته بالشيء الكثير. ولكنه على كل حال استدر الدموع من عيون بعض السامعين». فقالت له: «هل استدرّتها حقاً؟» فقال: «وفي يوم أحد ذهبت إلى الكنيسة» فسألته: «وما الأخبار هناك؟» فقال: «أخبار؟ أوه. لا شيء. إنما ذهبت لألقي نظرة. ولم يكن القس ممن يعتد به فيما أعلم. فلا أسلوب له».

وانقضى الوقت. وفجأة قالت باربو: «ماذا تظن أكسل قائلاً إن وجدك هنا هذا المساء أيضاً؟».

ويا له من قول: فكأنما لطمته. أتراها نسيت كل ما يتعلق بالمرة الماضية؟ ألم يتفقا على أن يحضر هذا المساء؟ وتأذى اليزيوس تأذياً عميقاً وغمغم: «أستطيع أن أنصرف إن شئت. ماذا فعلت؟» وارتجفت شفتاه وهو يلقي عليها هذا السؤال، وكان واضحاً أنه في كرب ومحنة. وأجابته: «فعلت؟ أوه. إنك لم تفعل شيئاً» فسألها: «ماذا بك إذاً على كل حال هذا المساء؟» فأجابته: «ماذا بي؟ ها ها ها... ولكن فكر في الأمر ولن تعجب إذا غضب أكسل» فقال اليزيوس مرة أخرى: «سأنصرف إذاً» ولكنها ظلت على عدم اكتراثها ولم يبد عليها أدنى خوف ولم تبال جلوسه هناك يغالب مشاعره، يا لها من امرأة حمقاء.

وبدأ يغضب، وأشار تلميحاً إلى استيائه في كياسة أول الأمر، مشيراً إلى لطفها وأنها فخر لبنات جنسها، هه! ولكن هذا الكلام لم يحدث أثراً، وكان أفضل له أن يتحمل في صبر ولا يقول شيئاً، ولكن السكوت لم يجده فقال: «لو عرفت أنك ستكونين هكذا لما أتيت هذا المساء على الإطلاق» فقالت: «وماذا لو لم تأت؟ إذاً لضاعت عليك فرصة تهوية عصاك هذه التي أراك مشغوفاً بها!».

وباربو عاشت وقتاً ما في برجن وتعرف كيف تهزأ بالرجال، فقد رأت هناك العصيّ الحقيقية المعدة للمشي، فوسعها الآن أن تسأله عن هدفه من تطويح يد مظلة مرممة على هذا النحو الخرع. ولكنه تركها تسترسل ثم سألها: «أظنك تريدين الآن استرداد تلك الصورة التي أعطيتني؟» فإن لم تهتد لهذا فلا شيء يقيناً يمكن أن يحركها، فما من شيء في نظر أهل البرية أخس من استرجاع هدية. وأجابته مراوغة: «ربما» فقال لها بشجاعة: «سأعيدها إليك حتماً. سأرسلها على الفور. لا تخشيْ شيئاً. والآن لعلك تردين إلي خطابي». ونهض اليزيوس قائماً على قدميه.

حسن جداً. وردت إليه خطابه، بيد أن الدموع طفرت إلى عينيها وهي تعيده إليه، فقد تأثرت هذه الفتاة الخادمة لأن صديقها السبيل هجرها. فهو الوداع الأبدي.

وقالت له: «لا حاجة بك للانصراف. فلست أبالي ما يقول أكسل» بيد أن اليزيوس صارت إليه اليد العليا الآن، ولا بد له من استخدامها فشكرها وقال لها: «وداعاً!» فعندما تسلك سيدة هذا المسلك لا سبيل أمام المرء غير ذلك. وغادر البيت ومشى نحو داره يصفر ويطوح عصاه متظاهراً بجاه الرجولة. هه! وبعد برهة وجيزة أقبلت باربو تمشي خلفه ونادته مرة أو مرتين. حسن جداً. ووقف. ولكنها كانت وقفة الأسد الجريح وجلست بين أعواد الخلنج وقد بدا عليها الندم وراحت تعبث بعسلوج مما حولها، وبعد قليل رق قلبه كذلك وطلب منها قبلة، هي الأخيرة، قبلة الوداع كما قال. فأبت عليه. فتوسل إليها قائلاً: «كوني لطيفة عزيزة كما كنت في المرة الماضية» وجعل يدور حولها من كل جانب

بخطوات سريعة لعله يجد فرصة يغتنمها، ولكنها أبت أن تكون لطيفة عزيزة، ونهضت ووقفت أمامه وأومأ برأسه ببساطة عندئذ وانصرف. ولما غاب عن النظر برز أكسل فجأة من وراء بعض الشجيرات فأجفلت باربو مأخوذة وسألته: «ما هذا؟ أين كنت؟ في هذه الجهة؟» فأجابها: «لا. بل كنت في تلك الجهة الأخرى ولكني رأيتكما سائرين هنا»، فصاحت وقد حمي غضبها فجأة: «حقاً؟ وخيراً أجرى عليك ما رأيت!؟ لماذا تدس أنفك وما الذي ترمي إليه من كل هذا التشمم؟ ما شأنك أنت بهذا؟» ولم يكن أكسل نفسه في أبهج حال، فقال: «همم... إذاً فهو قد كان هناك اليوم أيضاً؟» فأجابته: «وماذا في ذلك؟ ماذا تريد منه؟» فقال: «أريد منه؟ بل أحب أن أسألك أنت ماذا تريدين منه: ينبغي أن تخجلي من نفسك» فقالت باربو: «أخجل؟ هه... السكوت أفضل إن أردت رأيي، أتحسبني هنا كي أجلس في البيت كالتمثال؟ وما الذي جنيته حتى أخجل على كل حال؟ إن شئت أن تذهب فتحضر شخصاً آخر يهتم بهذا المكان فأنا على استعداد للرحيل. وكل ما أطلبه منك أن تعقل لسانك، إن لم يكن في هذا الطلب إسراف عليك، وأنا عائدة الآن كي أعد عشاءك وأصنع القهوة. وبعدها أستطيع أن أفعل ما يحلو لي».

ووصلا إلى البيت ومشاجرتهما على أشدها.

كلا. لم يكونا على الدوام خير الأصدقاء، فكانت المتاعب تثور بين أكسل وباربو بين حين وحين. لقد لبثت لديه حتى الآن سنتين، وقد سلفت بينهما المنابذة بالألفاظ، ولا سيما عندما كانت باربو تتحدث عن البحث عن مكان آخر، فهو يريدها على البقاء هناك إلى الأبد فتستقر وتشاركه بيته وحياته، لأنه يعلم مدى المشقة عليه إن هي تركته فصار مرة أخرى بلا

عنوان. وقد وعدته عدة مرات -أجل في لحظات رقتها ومودتها- ألا تفكر في الرحيل أبداً. ولكن متى تشاجرا على شيء، لم يفتها أن تتوعده بالرحيل، ولو لعلاج أسنانها في المدينة، إن أعوزها سبب آخر. فحديثها دائم عن الرحيل. وشعر أكسل أنه لا بد من إيجاد وسيلة للاحتفاظ بها.

يحتفظ بها! ما أهون محاولاته للاحتفاظ بها على نفسها إن لم تشأ هي البقاء وقال لها: «هوَه. إذن أنت تريدين الرحيل مرة أخرى؟» فأجابته: «وماذا إن أردت ذلك؟» فسألها: «أتظنين أنك تستطيعين؟» فقالت: «ولم لا؟ إن كنت تظن أني أخشى الرحيل لأن الشتاء يوشك أن يحل فاعلم أني أستطيع الحصول على عمل في برجن في أي يوم أشاء» وعندئذ قال أكسل بثبات: «سيمضي وقت طويل قبل أن تتمكني من ذلك على كل حال، ما دمت حبلى» فصاحت: «حبلى؟ ما هذا الذي تتحدث عنه؟» فحملق أكسل في وجهها. أترى الفتاة جنت؟

الحقيقة أنه شخصياً كان ينبغي أن يكون أكثر صبراً مما هو، فإنه وقد شعر بأن زمام إبقائها معه بيده، أصبح أشد ثقة بنفسه مما ينبغي، وهذا خطؤه فلا لزوم للحدة معها وإثارة غضبها، ولا لزوم للأمر الذي أصدره إليها بكل تلك الألفاظ كي تساعده في حقل البطاطس ذلك الربيع، فقد كان في مقدوره أن يزرعها وحده وسيكون لديه متسع من الوقت لتأكيد سلطته بعد الزواج وحتى ذلك الحين ينبغي أن يكون من الفطنة بحيث يتخاضع لها.

ولكن الأمر غاية في السوء فيما يتعلق باليزيوس، هذا الموظف الكتابي الذي جاء يتبختر مختالاً بعصاه وبكلامه المنمق. وما أعجب أن تسلك الفتاة هذا المسلك وهي موعودة لرجل آخر -وفي مثل حالتها

أيضـاً! هذا شـيء يعـجـز العـقل عن إدراكـه. وحـتى الآن لم يـكن لأكـسـل منافس، أما الآن فالأمر مختلف.

وقال لهـا: «ها هي صحيفة جديدة لك. وهاك شيئاً صغيراً اشتريته لك ولست أدري هل يعجبك؟».

وأظهرت باربو البرود، وكانا جالسين معاً يشربان قهوة شديدة الحرارة من الوعاء، إلا أنها رغم تلك السخونة أجابته ببرودة الثلج: «أظنه ذلك الخاتم الذهبي الذي وعدتني به منذ أكثر من اثني عشر شهراً».

وكان ذلك ضغثاً على إبالة؛ لأن الهدية كانت خاتماً بالفعل ولكنه لم يكن خاتماً ذهبياً، ثم إنه لم يعدها قط بذلك وإنما هو من اختلاقها، بيد أن الخاتم كان من الفضة الحقيقية المدموغة وعليه كفان متصافحتان مذهبتان. ولكن آه من تلك الرحلة المنكودة التي رحلتها إلى برجن! فهناك رأت خواتم الخطبة حقيقية ولا جدوى من محادثتها في ذلك.

وصاحت به: «هذا الخاتم! هه! لك أن تحتفظ به لنفسك»، فسألها: «وما عيبه إذاً؟» فأجابته: «عيبه؟ لا عيب فيه على ما أعلم» ثم نهضت لتنظيف المائدة، فقال: «عليك أن تكتفي بهذا الخاتم الآن، وربما دبرت الحصول على خاتم آخر يوماً ما».

ولم ترد عليه باربو.

وكانت باربو مخلوقة جاحدة هذا المساء. إنه خاتم فضي جديد. وكانت حرية على الأقل أن تشكره بلطف عليه. فلا بد أن ذلك الموظف الكتابي قد أدار رأسها بأساليب أهل المدينة. ولم يستطع أكسل مغالبة نفسه فسألها: «أحب أن أعرف لماذا يواظب هذا المخلوق اليزيوس على الحضور إلى هنا. ماذا يريد منك؟» فقالت: «مني؟» فقال: «نعم، أهو

غِرٌ إلى حد أنه لا يعرف بالنظر إلى حالتك الراهنة؟ أليست في رأسه عينان؟» فانقضت عليه باربو عند سماع هذا القول انقضاضاً مباشراً بقولها: «أوه... إذاً أنت تظن أنك تهيمن عليّ بسبب ذلك؟ ستكتشف أنك مخطئ.. وهذا كل ما هناك» فقال أكسل: «هوه» فقالت: «نعم؛ وسوف لا أبقى هنا أيضاً».

واكتفى أكسل بالابتسام ابتسامة يسيرة عند سماع ذلك. فلم يبتسم ابتسامة عريضة أو يضحك في وجهها لأنه لم يشأ أن يغضبها، ثم شرع يكلمها متلطفاً مهدئاً كأنما يكلم طفلة: «كوني فتاة طيبة يا باربو. إنما هو أنا وأنت كما تعلمين». وبطبيعة الحال انقادت باربر في النهاية وأمست طيبة، بل ذهبت لتنام والخاتم الفضي في إصبعها.

سيكون كل شيء على ما يرام في حينه. ولا خوف.

هذا بالنسبة للاثنين اللذين في الكوخ، نعم. ولكن ماذا عن اليزيوس؟ لقد كانت حالته أسوأ فقد وجد مشقة في التغلب على الطريقة المخجلة التي عاملته بها باربو. وكان لا يعرف شيئاً عن الهستيريا. فحمل الأمر على محمل القسوة المحض من جانبها وعلى أن الفتاة باربو من بريدابليك شديدة الغرور بنفسها، مهما كان من أمر إقامتها زمناً في برجن...

وأعاد إليها الصورة الفوتوغرافية بطريقته الخاصة: حملها إلى هناك بنفسه ذات ليلة ودسها من باب سقيفة الدريس حيث تنام. ولم يفعل ذلك بطريقة فظة غير مهذبة على الإطلاق، فقد جعل يعبث بالباب وقتاً طويلاً ليوقظها، فلما نهضت على مرفقها وصاحت متسائلة: «ماذا جرى لك؟ ألا تستطيع أن تعرف طريقك هذه الليلة». فهم أن السؤال قصد به شخص آخر ونفذ قولها في حناياه كالإبرة، بل كالحسام وعاد

إلى البيت لا يطوح عصاه ولا يصفر ولم يعد يعنيه أن يتظاهر بعزة الرجولة. فليست الطعنة في الفؤاد شيئاً هيناً.

فهل كانت هذه خاتمة المطاف؟

ذات يوم أحد نزل إلى هناك ليرى ويختلس النظر ويتجسس؛ ويصبر مُرْضٍ غير طبيعي ربض مختبئاً بين الشجيرات. ونظراته مشبتة في الكوخ. وعندما دبت علائم الحياة والحركة أخيراً كان ذلك كافياً للإجهاز عليه تماماً، فقد خرج أكسل وباربو معاً من الكوخ واتجها نحو حظيرة البقر، وقد صارا الآن متحابين متوادين بعد أن نعما بساعة ميمونة، فهما يسيران وذراع كل منهما حول الآخر، وسوف يساعدها في العناية بالحيوانات. هوه . أجل.

وجعل اليزيوس يرقب الاثنين بنظرة من فقد كل شيء، نظرة رجل محطم، ولعل تفكيره كان على هذا النحو: «ها هي تمضي متأبطة ذراع أكسل شترم. لست أدري كيف يتسنى لها ذلك وقد كان ثمة وقت لفت فيه ذراعيها حولي؛ وها هما يختفيان داخل الحظيرة».

دعهما يدخلان؛ هه... أتراه مزمعاً أن يكمن بين الشجيرات وينسى نفسه؟ يا له من تصرف بديع أن يرقد هناك على بطنه وينسى نفسه. ومن هي بعد كل شيء؟ أما هو فهو من هو. هه! مرة أخرى.

ووثب قائماً على قدميه ونفض أجزاء النبات والتراب عن ثيابه وانتصب قائماً مرة أخرى. وأعلن غضبُه ويأسُه عن نفسيهما بطريقة غريبة؛ فقد ألقى بكل همومه أدراج الرياح وشرع يغني أنشودة ذات مضمون مسرف في المجون. وارتسم على محياه تعبير جاد غاية الجد وهو يحرص على غناء أسوأ المقاطع بأعلى الأصوات.

* * *

الفصل التاسع عشر

عاد إسحق من القرية بحصان، فقد انتهى الأمر إلى أنه اشترى الحصان من مساعد العمدة، وكان الحيوان معروضاً للبيع كما قال جايزلر، ولكنه كلفه مائتين وأربعين كرونرا، أي ستين دالراً. فأسعار الخيل قد ارتفعت وتجاوزت كل حد. فحينما كان إسحق فتى كان أفضل حصان يشترى بخمسين دالر.

ولكن لماذا لم يرب حصاناً بنفسه، لقد كان فكر في ذلك وتخيل مهراً صغيراً لطيفاً ظل ينتظر الحصول عليه هاتين السنتين الماضيتين وهذا أمر يليق بمن لديهم فراغ من الوقت من العمل في أرضهم؛ ويستطيعون ترك مساحات خالية من الزراعة إلى أن يحصلوا على حصان يحمل محصولهم إلى البيت. وكان مساعد العمدة قد قال له: «لا يهمني أن أتجشم نفقات الاحتفاظ بحصان لنفسي» فليس عندي من الدريس أكثر مما تستطيع نساء بيتي إدخاله بأنفسهنَّ وأنا قائم بواجبات عملي».

وكان الحصان الجديد فكرة من أفكار إسحق القديمة، ظل يديرها في ذهنه سنوات، ولم يكن جايزلر هو الذي نبهه إلى ذلك؛ وكان أيضاً قد أعد الترتيبات التي يستطيعها، من مزود جديد وحبل لربطه في الصيف

أما العربات فلديه بضعٌ منها ولا بد أن يصنع مزيداً منها للخريف. ولكن أهم شيء هو موضوع العلف وهو لم ينس ذلك بالطبع. وإلا فلماذا اهتم أشد الاهتمام بتمهيد قطعة الأرض الأخيرة في السنة الماضية لو لم يكن ذلك تجنباً للتخلص من إحدى البقرات وليكون لديه غذاء كاف للحصان الجديد؟ إن هذه القطعة تم بذرها الآن بالعلف الأخضر لطعام البقرات المرضعات.

أجل، لقد فكر في ذلك كله. وفي وسع أنجر أن تدهش مرة أخرى وتصفق بيديها كشأنها في الأيام الخوالي. وقد جاء إسحق بأنباء من القرية مفادها أن مزرعة بريدابليك معروضة للبيع، وثمة إعلان بذلك على باب الكنيسة بما فيها من محصول على حالته، من دريس وبطاطس، وربما الماشية أيضاً وهي بهيمات قلائل ليست شيئاً كثيراً. وصاحت أنجر: «أهو معتزم أن يبيع البيت أيضاً ولا يدع لنفسه شيئاً؟ وأين عساه يعيش؟ فأجابها «في القرية».

وكان ذلك صحيحاً. فقد اعتزم بريد العودة إلى القرية. وبين أنه حاول أولاً أن يجعل أكسل شترم يسمح له بالإقامة هناك مع باربو؟ فلم يفلح. وبريد لا يحلم مطلقاً بالتدخل في العلاقات بين ابنته وأكسل، ولذا حرص على ألا يجعل من نفسه مصدر إزعاج، وإن كان الموقف يعتبر كسرة له بالتأكيد بالإضافة إلى سائر الظروف. وأكسل يعتزم أن يبني بيته الجديد هذا الخريف. فلماذا إذاً لا يستطيع بريد وأسرته الإقامة في الكوخ عندما ينتقل أكسل وباربو إلى البيت الجديد؟ لا؛ وهكذا الحال مع بريد، فهو لا ينظر إلى الأمور نظرة فلاح ومتوطن في أرض جديدة، فلم يستطع أن يدرك أن أكسل إنما ينتقل من الكوخ لحاجته إليه

في إيواء ماشيته المتزايدة. فسيكون الكوخ حظيرة أبقار جديدة، وحتى بعد أن يبين له ذلك عجز عن إدراك ما في هذا التفكير من وجاهة، وقال إن الآدميين مقدمون بالتأكيد على الحيوانات ولكن لا. إن فهم المتوطن للأمور خلاف ذلك؛ فالحيوانات عنده مقدمة على الإنسان لأن في وسع الإنسان أن يجد دائماً لنفسه مأوى في الشتاء. ولكن باربو أدلت بدلوها في الموضوع قائلة: «هوه - إذاً أنت تقدم الحيوانات علينا؟ آن لي أن أعرف ذلك» وهكذا خلق أكسل لنفسه أعداء من أسرة بأسرها لأنه ليس لديه متسع لإيوائهم، بيد أنه لم يخضع. فأكسل ليس مغفلاً طيب القلب، بل هو على العكس. ازداد بمضي الأيام حرصاً فهو يعلم تماماً أن انتقال حشد كهذا إلى الكوخ سيلقي عليه تبعة إطعام كل ذلك العدد من الأفواه، وأمر بريد ابنته بالتزام الهدوء وحاول التظاهر بأنه شخصياً يفضل الانتقال إلى القرية مرة أخرى لأنه لا يطيق الحياة في البرية على حد قوله، ولهذا السبب دون سواه يشرع في بيع المكان.

ولكن إن أردنا الحقيقة ليس بريد هو الذي يبيع المكان؟ وإنما البنك وصاحب المتجر هما اللذان يبيعان بريدابليك. بيد أنهما حفظاً للمظاهر سمحا له أن يجعل البيع باسمه. وظن بهذه الطريقة أنه سينجو من العار، ولم يكن بريد مهموماً كل الهم عندما قابله إسحق، فقد عزّى نفسه بكونه لم يزل مفتش الخط التلغرافي. فهذا على كل حال دخل منتظم وسيتمكن بمرور الوقت من استرداد مكانته في الناحية باعتباره مرافق العمدة وكذا وكيت. وقد تأثر بالتغير الذي طرأ بطبيعة الحال، فليس من السهل أن يقول المرء وداعاً لمكان عاش فيه وعمل وكدح سنوات طويلة إلى أن أحبه. ولكن بريد الرجل الطيب لم يكن ليبقى مكروباً أمداً

طويلاً. وهذا أفضل ما فيه. وسر سحره الخاص. لقد خطر برأسه مرة في حياته أن يكون فلاح أرض. كان ذلك إلهاماً نزل عليه. أجل لم يفلح في ذلك، بيد أنه شرع في خطط أخرى بهذه الطريقة الهوائية عينها وأصاب نجاحاً أكبر. ومن يدري؟ لعل عينات ركازه تتمخض يوماً ما عن شيء رائع! ثم انظر إلى باربو، لقد استطاع أن يثبت أقدامها هناك في مانلاند ولن تترك أكسل شتروم الآن، وفي وسعه أن يقسم على ذلك فالأمر واضح حقاً لذي عينين.

كلا. لا داعي للخوف ما ظل محتفظاً بصحته قادراً على العمل لنفسه ولمن يلوذون به. هذا ما كان بريد أولسن يقوله. وها هم الأطفال يكبرون، وقد أصبحوا بحيث يستطيعون الآن شق طريقهم في الحياة كما يقول. فهذه «هيلجن» مضت فعلاً إلى مصايد الرنجة. وهذه كاترين ستذهب للمساعدة لدى طبيب فلا يبقى إلا الاثنان الصغيران. حسن حسن. ثمة صغير ثالث في الطريق هذا صحيح، ولكن على كل حال... »

وعرف إسحق أخباراً أخرى من القرية: إن عقيلة العمدة رزقت طفلاً وفجأة أبدت أنجر اهتماماً بهذا النبأ وسألته: «ولد أم بنت؟» فقال إسحق: «لم أستفسر عن هذا؟».

ولكن عقيلة العمدة رزقت طفلاً بعد كل شيء. بعد كل ما تحدثت به في المنتدى النسائي عن ازدياد معدل المواليد بين الفقراء وأنَّ من الأفضل منح المرأة حريتها والسماح للنساء بشيء من الرأي في شؤونهن الخاصة. وها هي قد وقعت. أجل إن زوجة القس قالت عنها: «لقد كان لها رأي في أمور كثيرة، ولكن شؤونها الخاصة ليست أحسن حالاً لهذا السبب ها ها ها» وكان ذلك قولاً بليغاً ذاع في أرجاء القرية، وما أكثر

الذين فهموا ما ترمي إليه. ومن بين هؤلاء أنجر بلا شك. فإسحق وحده هو الذي لم يفهم المغزى المقصود. فإسحق يفهم عمله وحرفته. وهو الآن رجل غني ذو مزرعة كبيرة. بيد أن المدفوعات النقدية الضخمة التي وصلت إلى يده بطريق الصدفة السعيدة لم يعرف كيف يحسن استخدامها، فكنز المال. ولكن الأرض أنقذته. فلو أنه عاش في القرية لكان من الجائز أن يؤثر فيه العالم الكبير بما فيه من مرح كثير وأساليب ووسائل متأنقة، ولكان عساه أن يشتري تفاهات لا نفع فيها، وأن يرتدي قميص يوم الأحد الأحمر في أيام الأسبوع الأخرى. أما هنا في البرية فهو في أمان من كل تطرف، يعيش في الهواء النقي ويغتسل صباح كل يوم أحد ويستحم كلما صعد إلى البحيرة وهذه الألف دولار إن هي إلا منحة من السماء يجب أن تحفظ ولا تمس. وماذا عساه يفعل غير ذلك؟ إن نفقاته العادية يغطيها ناتج حقوله ومواشيه وزيادة.

ولكن اليزيوس يعرف ما هو أفضل من هذا بطبيعة الحال، ولذا نصح أباه أن يضع النقود في البنك. ولعل هذا كان خيراً، إلا أن إسحق أجل تنفيذه في الوقت الحاضر. ولعله لن ينفذه على الإطلاق. وليس ذلك لأن إسحق فوق تقبل النصح من ابنه. فاليزيوس ليس أبله كما أثبت فيما بعد. ففي موسم جمع الدريس يجرب استخدام المنجل، ولكنه لم يكن أستاذاً في ذلك المجال فظل ملازماً لسيفرت وكان يحمله على استخدام حجر الشحذ في كل مرة. إلا أن لاليزيوس ذراعين طويلتين وفي استطاعته أن يحزم الدريس ببراعة فائقة وهو وسيفرت وليوبولدين والخادمة بنسين مشغولون جميعاً الآن في الحقول ببواكير دريس هذه السنة، ولم يبخل اليزيوس بنفسه في هذا العمل أيضاً بل كان يعمل إلى

أن تلتهب يداه ويضطر إلى لفهما بالخرق. وفقد شهيته أسبوعاً أو نحو ذلك إلا أن عمله لم يسؤ لذلك السبب ولا بد أن شيئاً ما قد اعترى الفتى، ولعله غرام خائب أو شيء من هذا القبيل، فلمسة من حزن لا -لا يمكن- أن - ينسى إصابته فأجدت عليه خيراً كثيراً. وانظر إليه وقد فرغ آخر ما كان قد جاء به معه من المدينة من طباق، وذلك كاف في العادة لدفع أي موظف كتابي إلى صفق الأبواب والإعراب عن رأيه بعنف شديد في أمور كثيرة ولكن لا. فاليزيوس قد ازداد رزانة بعد ذلك وحزماً واستقامة، وصار رجلاً حقاً. فحتى سيفرت المهزار عجز عن إخراجه عن طوره. فاليوم كان كلاهما راقدين فوق صخور تعترض النهر ليشربا، فعرض عليه سيفرت بتهور أن يجمع له شيئاً من الطحلب الناعم ويجففه له كي يتخذه طباقاً، ثم قال: «اللهم إلا إذا كنت تفضل أن تدخنه نيئاً؟» فقال اليزيوس: «سأقدم أنا لك شيئاً من الطباق». ثم مد يده وزرع سيفرت رأساً على عقب في الماء. هوه. هذه واحدة: وعاد سيفرت وشعره لم يزل يقطر ماء. وقال إسحق في نفسه وهو يرقب ابنه أثناء العمل: «يلوح لي أن اليزيوس يتحول إلى الأحسن» وقال لأنجر: «همم... إنني أتساءل هل يستقر اليزيوس الآن في البيت نهائياً؟» وآثرت أنجر خطة الحذر فقالت: «لا أستطيع أن أجزم. لا أشك في أنه سيبقى نهائياً» فسألها: «هل قلت له شيئاً في هذا الشأن؟» فأجابت: «لا... حسن. نعم قد أكون قد تحدثت معه قليلاً. ولكن هذا هو ظني» فقال: «ولكني أود أن أعرف الآن، فبفرض أنه حصل على قطعة أرض خاصة به....» فسألته: «ماذا تعني؟» فقال: «أيحب أن يعمل في

مكان خاص به؟» فأجابته: «لا» فقال: «حسن. هل قلت شيئاً؟» فأجابته: «قلت شيئاً؟ ألا تستطيع أن تتبين بنفسك؟ كلا. أنا لا أرى في اليزيوس ميلاً إلى ذلك» فقال إسحق بلا تحيز: «لا تتكلمي عنه بسوء. إن كل ما أستطيع أن أتبينه أنه يقوم هناك بعمل جيد» فقالت أنجر مذعنة: «نعم. ربما». فصاح إسحق وقد عَظُمَ استياؤه: «لست أرى ماذا يعيب الفتى في نظرك. فهو يعمل كل يوم أفضل من سابق. فماذا تطلبين منه أكثر من ذلك؟» فغمغمت أنجر: «نعم ولكنه ليس كالعهد به. جرب أن تحدثه عن الصدارات» فسألها: «عن الصدارات؟ ماذا تعنين؟» فأجابته: «إنه كما يقول كان متعوداً على لبس الصدارات البيضاء صيفاً حينما كان في المدينة» وفكر إسحق في ذلك برهة، فوجد هذه المسألة تتجاوز إدراكه فقال: «حسن ألا يستطيع الحصول على صدار أبيض؟» فإسحق في هذا الشأن لا حيلة له فالمسألة في نظره سخافة نساء بالطبع، ومن حق الفتى المطلق أن يحصل على صدار أبيض إن شاء ذلك. ثم هو لا يرى داعياً لكل هذه الضجة حول شيء كهذا، ولذا مال إلى طي هذا الموضوع والمضي في تفكيره، فسألها: «حسن. ما رأيك لو أنه حصل على أرض بريد ليزرعها؟» فقالت أنجر: «من تعني؟» فقال: «أعنيه هو، اليزيوس» فقالت: «بريدابليك لا. إن ذلك غير جدير بأن تجشم نفسك عناءه».

وحقيقة الأمر أنها كانت قد تحدثت بالفعل في هذا المشروع بالذات، مع اليزيوس وكانت قد سمعت به من سيفرت الذي لم يستطع أن يكتم السر؛ ثم لماذا ينبغي أن يكتم سيفرت هذا الموضوع في حين أن والده إنما أخبره به يقيناً بقصد تحسس طريقه؟ ولم تكن هذه أول مرة يستخدم فيها

سيفرت وسيطاً ولكن ماذا كان جواب اليزيوس؟ كان جوابه كذي قبل، في خطاباته التي كان يرسلها من المدينة، أنه لن يهدر كل ما تعلمه ليرتد شيئاً لا وزن له ولا قيمة مرة أخرى. كان هذا ما قاله. فأدلت أمه عندئذ بكل حججها القوية، إلا أن جواب اليزيوس عليها كلها كان بالرفض. فلديه خطط أخرى لحياته. وللقلوب الشابة أغوار لا تسبر. وهو قد لا يكون ميالاً بعد الذي حدث إلى عدم البقاء في مكان قريب من باربو، ومن يدري؟ لقد عرض الأمر في حديثه مع أمه في صورة شامخة، فقال إنه ربما حصل على وظيفة في المدينة أفضل من التي كان يشغلها، فيغدو كاتباً عند أحد كبار الموظفين فلا بد له من التقدم والصعود في الدنيا. وربما غدا بعد بضع سنوات عمدة أو حارس منارة، أو موظفاً في الجمارك. فما أكثر الطرق المفتوحة أمام رجل متعلم.

ومهما يكن من شيء فقد انقادت أمه واقتنعت بوجهة نظره. فهي لم تزل قليلة الثقة بنفسها والعالم لم يفقد سلطانه عليها تمام الفقدان. وفي الشتاء الماضي كانت قد ذهبت إلى حد قراءة كتاب ممتاز من كتب الدين في بعض الأحيان، وكانت قد أحضرته من مؤسسة ترونيم. أما الآن فهي ترجو أن يغدو اليزيوس عمدة يوماً ما! وقال اليزيوس: «ولم لا؟ وهل هيردال نفسه سوى موظف كتابي سابق في تلك الإدارة نفسها.

مشروعات فخمة. فنصحته أمه نفسها ألا يتخلف عن عمله فيضيع نفسه وماذا يصنع مثله في البرية؟

ولكن لماذا يجشم نفسه عناء العمل الشاق الدؤوب وما يصنع الآن في أرض أبيه؟ الله أعلم أن لديه لذلك سبباً ما. وقد يكون ذلك شيئاً من الكبرياء الفطرية لم يزل ناشطاً فيه، ولذا فهو لا يحب أن يتفوق

عليه الآخرون. يضاف إلى هذا أنه لن يضار إذا وجد نعمة لدى أبيه في يوم رحيله وكان -والحق يقال- أميناً بمبالغ عديدة صغيرة في المدينة، وخيراً يصنع إن هو استطاع الوفاء بها على الفور، فمن شأن ذلك أن يزيد الثقة به كثيراً. ولم يكن الأمر في هذه المرة أمر مائة كرونر فحسب، وإنما هو شيء ذو بال.

ولم يكن اليزيوس غبياً على الإطلاق، بل وعلى العكس من ذلك كان فتى ماكراً في بابه، لقد رأى أباه عائداً إلى البيت وكان يعلم تمام العلم أنه جالس هناك في النافذة في هذه اللحظة مطلاً منها. فلا ضير في بذل قصارى الجهد في العمل برهة، فزاد من اجتهاده، في هذا الوقت وليس من ذلك ضير على أحد، وقد يجني من ذلك لنفسه كثيراً من الخير.

لقد تغير اليزيوس بعض الشيء. ومهما يكن فشيء فيه قد التوى وفسد. وليس معنى ذلك أنه صار شيئاً، وإنما هو قد شابت طبيعته نقائص. فهل افتقر في السنوات الأخيرة القلائل إلى يد ترشده؟ وماذا تستطيع أمه الآن من مساعدته؟ ليس بيدها إلا أن تقف بجواره، وتوافق على خطته. إذ في استطاعتها أن تدع مشروعات ابنها البراقة عن المستقبل تبهر عينيها، وتقف بينه وبين أبيه، وتنحاز لجانبه. فذلك شيء تملك أن تنهض به. بيد أن إسحق نفد صبره في النهاية لمعارضتها. ففي رأيه أن موضوع بريدابليك ليس شيئاً على الإطلاق. ففي هذا اليوم بالذات أوقف الحصان من غير تفكير تقريباً وهو عائد، كي ينظر بعين فاحصة إلى الأرض السيئة الفلاحة، فأيقن أن من الممكن تحويلها إلى بقعة بديعة متى صارت بين أيد قديرة.

وسأل أنجر: «لماذا لا تستحق هذه الفكرة العناء؟ إنني أكنُّ من الأعزاز لاليزيوس على كل حال ما يدفعني إلى تقديمها إليه». فأجابته: «إن كنت تعزه حقاً فلا تثر موضوع بريد ابليك مرة أخرى». فقال: «هوه» فقالت: «نعم... لأن في رأسه أفكاراً أعظم مما يدور في رؤوس أمثالنا».

وكان إسحق أيضاً لا يكاد يثق بنفسه شخصياً، مما أضعف موقفه، ولكنه لم يكن مسروراً بأي حال من الأحوال لأنه كشف عما في ذهنه وتحدث عن مشروعه بطريقة مباشرة، ولذا فهو غير قادر وغير مستعد للتخلف عنه الآن. وأعلن فجأة: «بل سيفعل ما أقول أنا» ورفع صوته متوعداً، كأنما يخشى أن يكون بسمع أنجر وقر: «نعم. في وسعك أن تحملقي فلن أقول أكثر من هذا. إن المكان في منتصف الطريق إلى القرية، وبقرية المدرسة وكل شيء. فما هي أفكاره التي تتجاوز بعظمتها ذلك كله؟ هذا ما أريد أن أعرفه. إنني لولد مثله قد أتضور جوعاً حتى الموت. فهل هذا أفضل في رأيك؟ وهل تستطيعين أن تخبريني لماذا يتمرد على لحمي ودمي ويعصى... لحمي ودمي؟».

وتوقف إسحق وقد تبين أنه كلما استرسل في الكلام زاد موقفه سوءاً، وكان بسبيل تبديل ثيابه وخلع أفضل ملابسه التي كان قد ارتداها للنزول إلى القرية، بيد أنه غير رأيه وقرر البقاء كما هو، أياً كان ما يرمي إليه بذلك، ثم قال: «يستحسن أن تقولي لاليزيوس كلمة في هذا الشأن» فأجابته أنجر: «بل الأفضل أن تقولها له أنت، فهو لن يصنع كما أقول».

حسن جداً إذاً. إسحق رأس البيت، وسنرى إن كان اليزيوس يجسر على الغمغمة! ولكن لعله خشي الهزيمة، ولذا تراجع الآن وقال: «نعم، هذا صحيح. ينبغي أن أكلمه أنا في الموضوع. ولكن أمامي مهامٌ كثيرة، ويشغلني هذا الأمر وذلك، وعندي مسألة أخرى أفكر فيها» فقالت أنجر بدهشة: «إذاً...» فتركها إسحق وخرج، ولكنه لم يذهب إلى بعيد جداً بل إلى الحقول القصية عن البيت. إنه حافل بالوطاب وبالأسرار ولا بد له من التواري بعيداً عن الأنظار، وجلية الأمر أنه عاد من القرية بنبأ ثالث أهم من سائر الأنباء. لأنه شيء هائل، وهو قد أخفاه عند حافة الغابة. وها هو هذا الشيء ملفوفاً في الخيش والورق. وكشفها فإذا هو آلة ضخمة، انظر إنها حمراء وزرقاء بديعة المنظر لها أسنان كثيرة وسكاكين كثيرة ومفصلات وأذرع ولوالب وتروس. إنها آلة حصاد، كلا، ما كان إسحق لينزل اليوم إلى القرية لإحضار الحصان الجديد لولا هذه الآلة.

ووقف وعلى محياه سيماء الحرص البالغ، وأخذ يراجع في ذهنه من البداية إلى النهاية إرشادات استعمال الآلة التي تلاها عليه صاحب المتجر. فعليه أن يركب لولباً هنا وينقل مزلاجاً هناك، ثم يزيت كل ثقب وكل شق، وبعد ذلك يراجع العملية كلها مرة أخرى، ولم يعرف إسحق في حياته قط ساعة كهذه الساعة حين تناول قلماً وخط توقيعه على ورقة، وعلى وثيقة. أجل إنها لمسألة عظيمة خطرة ولا شك. وكذلك كان الحال في المسلفة الجديدة التي أحضرها ذات مرة، فقد كان فيها أجزاء كثيرة ملتوية بشكل غريب يجب عليه مراعاتها، هذا بصرف النظر عن المنشار الدائري الكبير الذي كان لا بد من تركيبه في موضعه بدقة الخط المرسوم بالقلم الرصاص بحيث لا ينشر مائلاً إلى الشرق أو إلى الغرب وإلا

انشطر نصفين. أما آلة الحصاد هذه فهي عش معقد من اللوالب الفولاذية والمشابك والأجهزة ومئات المسامير المحواة. إن آلة حياكة أنجر تبدو شيئاً ساذجاً جداً بالقياس إلى هذه الآلة.

وأكب إسحق على محاولة تشغيلها، بأن ربط نفسه فيها. فهذه اللحظة رائعة، ولذا أصر على التواري عن الأنظار وجعل من نفسه حصاناً، إذ ماذا لو كان تركيب الآلة به خطأ فلم تعمل، بل تحطمت شظايا، ولكن كارثة كهذه لم تقع. واستطاعت الآلة أن تقطع العشب، وهو ما كان لا بد أن تصنعه، بعد أن وقف إسحق هناك ساعات طويلة غارقاً في الدرس، وكانت الشمس قد جنحت للمغيب فربط نفسه إلى الآلة وجربها مرة أخرى فإذا بها تقطع العشب، وهكذا كان ينبغي.

ولما بدأ الندى يتساقط غزيراً بعد زوال حر النهار وخرج الولدان وكل منهما يحمل منجله للحصاد استعداداً لليوم التالي، برز إسحق عن كثب وصاح: «ضعا منجليكما من يديكما هذه الليلة. أحضرا الحصان الجديد واذهبا به إلى حافة الغابة». وبعد ذلك بدلاً من الدخول لتناول عشائه كالآخرين، دار من حيث وقف وعاد من حيث أتى. فصاح وراءه سيفرت: «ألا تريد العربة إذاً؟» فقال: «أيوه، لا» ومضى في طريقه منتفخ الأوداج بالأسرار والكبرياء، يرفع ركبته مع كل خطوة أكثر من مألوفه فقد كان يمشي بخيلاء شديدة، وهكذا ينبغي أن يمشي الرجل الشجاع إلى الموت والدمار غير حامل في يده سلاحاً.

وأقبل الولدان بالحصان ورأيا الآلة ووقفا مذهولين جامدين في مكانهما. فهذه أول آلة حصاد في البرية، بل أول آلة حصاد في القرية،

وهي حمراء وزرقاء تبهر عيني الإنسان بروائها، وصاح أبوهما ورأس لجماعتهم كلها -أوه- بلهجة غير مبالية كأنما هذا الأمر غير خارج عن المألوف إطلاقاً: «شدا إلى هذه الآلة هنا».

وبدأت القيادة التي تولاها الأب. ر ر ر! هكذا صوتت الآلة وألقت بالعشب على الأرض في عصائب، ومشى الولدان خلفها وليس في أيديهما شيء ولا يقومان بأي عمل، باسمين، ووقف الأب ونظر خلفه، همم... إن القطع ليس لصق الأرض كما ينبغي، وربط صمولة هنا وصمولة هناك كي يقرب السكاكين من الأرض، ثم جرب الآلة مرة أخرى، لا لم تضبط بعد فالقطع غير متساو. وإطار القواطع يبدو مقلقلاً بعض الشيء. وأخذ الأب والولدان يتناقشون فيما عسى أن يكون السبب. وتناول اليزيوس الإرشادات وشرع يتلوها، ثم قال: «إنهم يقولون هنا إن السائق يجب أن يجلس على المقعد لتكون الآلة أثبت» فقال الأب: «هوه! أعرف ذلك. فقد درست الإرشادات بتمامها». وصعد فجلس على المقعد وانطلق من جديد فصارت الآلة أثبت في عملها. وفجأة توقفت عن العمل تماماً، وكفت السكاكين عن القطع بالكلية: «تفو، ما العيب الآن؟» ونزل الأب من علياء مقعده ولم يعد منتفخ الأوداج كبراً، بل انحنى بوجه قلق متسائل فوق الآلة. وراح الأب والولدان جميعاً يحملقون فيه فلا بد أن هناك عيباً ما، ووقف اليزيوس ممسكاً بالإرشادات. وقال سيفرت وهو يلتقط شيئاً من بين الأعشاب: «ها هو مزلاج أو شيء من هذا القبيل» فقال أبوه: «هوه. كل شيء على ما يرام إذاً» وكأنما هذا كل ما ينبغي لإعادة كل شيء إلى نصابه «كنت أبحث بالضبط عن هذا المزلاج» ولكنهم عجزوا الآن عن العثور على الثقب الذي يركب فيه هذا المزلاج. فأين يا ترى يمكن أن يكون هذا الثقب؟

وعندئذ سنحت الفرصة لاليزيوس كي يشعر بأهميته. فهو الذي يستطيع هنا أن يفك طلاسم ورقة إرشادات مطبوعة. فماذا عساهما يصنعان دونه؟ وأشار إشارة أطول مما يلزم إلى الثقب وقال: «بحسب الرسم يجب أن يركب هذا المزلاج ها هنا». فقال الأب: «نعم هذا هو الموضع. وهنا كان المزلاج من قبل» وعلى استعادة الهيبة الضائعة أمر سيفرت بالانهماك في البحث عن مزاليج أخرى بين الأعشاب، وقال وهو يبدو في منتهى الأهمية كأنه يحمل التفاصيل كلها في رأسه: «لا بد أن هناك مزلاجاً آخر ألا تستطيع العثور على مزلاج آخر؟ حسن حسن. لا بد أن يكون في ثقبه إذاً».

وانطلق الأب يسوق الآلة مرة أخرى. فصاح اليزيوس: «انتظر دقيقة هذا خطأ». هوه: إن اليزيوس واقف هناك وفي يده الرسم، فهو صاحب الكلمة العليا ولا مفر من ذلك! وقال لأبيه: «هذا اللولب لا بد أن يتجه إلى الخارج». فسأله: «وماذا إذاً؟» فقال: «ولكنك جعلته إلى أسفل. وهذا خطأ». وهو لولب من الفولاذ لا بد أن يركب إلى الخارج وإلا اندفعت المزاليج وأوقفت السكاكين. وفي وسعك أن ترى ذلك في الصورة هنا». فقال الأب بشيء من الدماثة: «لقد نسيت إحضار نظارتي ولا أستطيع أن أراه بوضوح في وسعك أنت أن ترى، خيراً مني. والآن ركبه كما ينبغي فلست أريد أن أذهب إلى البيت الآن لإحضار نظارتي».

وتم إصلاح الخطأ. وصار كل شيء كما ينبغي، ونهض إسحق، وصاح اليزيوس من خلفه: «يجب أن تقودها بسرعة ففي هذه الحالة يكون القطع أفضل. هكذا تقول التعليمات».

وقـاد إسـحق وقـاد. ومـضى كـل شيء على مـا يرام، والآلـة لا تكف عن القرقـرة وقـد رسمت سكة عـريضـة من العـشب المقطوع حـيث مـضت، مـرتبـة في صف أنـيق مـهـيـئـة للحـمل. ورآه الآن من في البـيـت فـخـرجت النسـوة جـمـيـعـاً وأنجـر حاملة رفقـة الصغـيـرة على ذراعـهـا، مع أن رفـقـة الصـغـيـرة كـانت قـد تعلمت المشي منذ وقت طويل. ولكن ها هن النسـوة الأربع بين كبيرات وصغيرات يقبلن مسرعـات بعيون مـحملقـة صوب هذه المعجزة، متقـاطرات لينظرن إليهـا. وبذلك حـانت ساعة مـجد إسحق. فـهو مزهو زهواً حقيقياً. أليس الرجل الجبار الجالس في مقعده الشاهق مرتدياً ثيـاب الأعيـاد بكل أبهـتـه، وعليـه سترته وقبعتـه، مع أن العرق يتصبب منه؟ ويدور بالآلة دورة في زوايا أربع ويمضي مسافة طويلة ثم يدور مرة أخـرى وهو يقطع الخـشب مـاراً بالمكان الذي تقف فـيـه النسـوة وهن مذهولات. فـما يريـن يتـجاوز قدرتهن على التـصديق والآلة مـاضيـة في قرقرتها.

ثم وقف إسحق ونزل تواقاً ولا شكٍ إلى سماع ما عسى أن يقوله من تحته من أهل الأرض. وماذا يمكن أن يخطر ببالهن في هذا الصدد. وسمع صيحات مكتومة. فـهذه المخلوقات الأرضـية تخشى أن تزعجه وهو يقوم بعمله السامي، إلا أنهن يتبادلن الأسئلة في خوف فيسمع ما يقلنه. وآن له أن يتلطف فيكون أبوياً في سيادته وهيلمانه على الجميع، فقال لهن على سبيل التشجيع: «هاكن! سأفرغ من هذه القطعة، وعليكن أن تقمن بنشـرها غـداً» فـقـالت أنجـر وهي لم تزل مـذهـولة غـاية الذهول: «أليس لديك وقت للدخـول إلى البـيـت وتناول لقـمـة؟» فـأجـابهـا: «لا. أمـامي

أعمال أخرى أقوم بها» وقام بتزييت الآلة مرة ثانية، ليوقع في روعهن أنه مشغول في مهمة طيبة. ثم ساق الآلة مرة أخرى فقطع مزيداً من العشب. وبعد أمد طويل عادت النسوة إلى البيت.

ما أسعد إسحق وما أسعد أهل سيلانرا؟

وسرعان ما سيحضر الجيران، فأكسل شتروم شديد الاهتمام بكل طريف، ولذا قد يأتي غداً. أما بريد صاحب بريد ابليك فقد يأتي هذا المساء بالذات. ولن يضن عليهم إسحق بمشاهدة آلته وشرحها لهم وإفهامهم طريقة عملها وما إلى ذلك. وفي وسعه أن يبين لهم كيف أن الرجل لا يستطيع بمنجله أن يقطع العشب بهذه الدقة ولصق الأرض. ولكنها تتكلف مالاً طائلاً بالطبع. أوه. إن آلة حمراء وزرقاء كهذه فادحة الثمن.

ما أسعد إسحق...!

ولكنه يتوقف ليزيت الآلة مرةً ثالثةً. اضبط! هذه نظارته تقع من جيبه وأسوأ ما في الأمر أن الولدين أبصراها. فهل ثمة قوة علوية وراء هذه الحادث الصغير، أرادت أن توجه إليه تحذيراً من الإفراط في الزهو؟ لقد لبس هذه النظارة مراراً كثيرة في هذا اليوم كي يدرس التعليمات من غير أن يفك طلاسم كلمة واحدة. فكان لا بد أن يعاونه اليزيوس في ذلك. ياه. يا إلهي إنه لشيء بديع بلا شك أن يعرف الإنسان القراءة والكتابة. وعلى سبيل إذلال نفسه قرر إسحق أن يتخلى عن خطته في جعل اليزيوس حراث أرض في البرية، إنه لن يفتح فمه بكلمة بعد الآن في هذا الشأن.

ولم يكن ذلك لأن الولدين أحدثا ضجة كبيرة حول موضوع النظارة بل الأمر بالعكس. وإن كان سيفرت المهذار لم يستطع مغالبة نفسه فكان لا بد أن يقول شيئاً بالطبع. فجذب اليزيوس من كمه وقال له: «هيا بنا إلى البيت لنلقي هذين المنجلين في النار. فأبي سيقوم بالحصاد كله الآن بآلته هه؟» وكانت هذه الكلمة مرحة في الواقع.

* * *

الكتاب الثاني

الفصل الأول

لم تعد سيلانرا بقعة متوحدة موحشة في البرية. فها هنا تعيش سبعة أنفس آدمية ما بين كبير وصغير، ولكن في الفترة القصيرة التي استغرقها جمع الدريس جاء نفر من الغرباء بقصد مشاهدة آلة الحصاد. وكان بريد أولسن أولهم بطبيعة الحال، ولكن أكسل شتروم جاء أيضاً، وكذلك جاء جيران من مسافات أبعد، بل إن بعضهم جاؤوا من القرية نفسها. وعبر التلال جاءت أولين. تلك المرأة غير قابلة للفناء. وفي هذه المرة أيضاً جاءت بأنباء عن قريتها الخاصة، فليس من دأب أولين أن تأتي خالية الوفاض من القيل والقال فشؤون سيفرت الشيخ فحصت، وحساباته روجعت، وتمخضت الثروة الباقية من بعده عن لا شيء. لا شيء، وهنا زمت أولين شفتيها ونقلت بعدها من شخص إلى آخر - حسن. أما عن شهقة؟ ألن يخر السقف على من تحته؟ لقد كان اليزيوس أسبق الجميع إلى الابتسام ، فقال لأخيه بنعومة: «اسمع. إنك أنت الذي سميت باسم خالك سيفرت، أليس كذلك؟ فأجابه سيفرت الصغير بمثل نعومته: «هو ذاك فعلاً. ولكني أهديتك كل ما يمكن أن يؤول إلى من بعده». فسأله اليزيوس: «وكم كان مبلغ ذلك؟» فأجابه ما بين خمسة وعشرة آلاف»، فصاح اليزيوس فجأة مقلداً أخاه: «دالر؟».

ولا شك في أن أولين رأت ذلك الهزل في غير موضعه. فهي نفسها قد خدعت وغبنت في نصيبها، مع كل ما بذلته من جهد حتى اعتصرت ما يشبه الدموع الحقيقية فوق قبر الشيخ سيفرت. واليزيوس ينبغي أن يعلم أكثر من غيره ما كتبه بيده! وكذا وكيت من المال لأولين كي يكون عماداً ورفاهة لها في سن شيخوختها. فأين هذا العماد؟ إن هو إلا قصبة مرضوضة.

يا لأولين المسكينة! ما كان أجداهم أن يتركوا لها شيئاً يكون بارقة وحيدة ذهبية في حياتها! ولكن أولين لم ترزق حسن الطالع في طيبات هذه الحياة الدنيا. فهي تمارس الشر ومدربة على شق طريقها بالحيل والخساسات الصغيرة من يوم إلى يوم. فهي ليست ميسرة إلا لنقل الفضائح. فهي المرأة التي يخشى الناس لسانها، نعم. يخشونه جداً ولكن ما من شيء يمكن أن يجعلها أسوأ من ذي قبل، وأقل الدواعي لهذا ذلك النذر الذي تركه لها الميت. فهي قد أنفقت حياتها كلها في الكد وولادة الأطفال، ثم في تعليمهم فنونها القليلة الخاصة، ووصلت إلى حد الاستجداء لهم، بل ولعلها سرقت لهم أيضاً. ولكنها كانت على كل حال تتدبر ما يلزمهم على نحو ما، فهي أم علي طريقتها الهزيلة، وعناصر قوتها ليست أقل من عناصر قوة غيرها من الساسة، فهي تفعل كل شيء لمصلحتها ومصلحة من يلوذون بها، وتلون كلامها على حسب الأحوال والظروف كي تصل إلى هدفها، وإن كان هذا الهدف بالنسبة لها قرصاً من الجبن أو قبضة من الصوف في كل مرة. ففي استطاعتها أن تعيش وتموت بما تنتهجه من غش شائع مألوف بين الناس وبتوقد بديهتها. ولعل الشيخ سيفرت فكر في أولين لحظة من اللحظات

باعتبارها فتاة شابة مليحة موردة الخدين، ولكنها الآن عجوز مشوهة وصورة ناطقة بالتحلل والفساد. وكان ينبغي أن تكون في عداد الأموات. فأين عساها تدفن؟ ليس لأسرتها لحد خاص. وستدلى إلى التراب في فناء الجبانة لترقد بين عظام الغرباء والمجهولين. وهذا ما وصلت إليه في نهاية المطاف: أولين، ولدت وماتت. لقد كانت شابة يوماً ما. والنزر الذي ترك لها الآن في الساعة الحادية عشرة؟ إنه بصيص وحيد ذهبي، ويدا هذه الأمة كان من الممكن أن تطويا لحظة، والعدل كان من الممكن أن يباغتها بجائزته المتأخرة مكافأة لها على أنها استجدت لأطفالها، بل وربما سرقت لهم، بيد أنها كانت تتدبر دوماً ما يلزمهم على نحو ما. لحظة واحدة ويخيم عليها الظلام كذي قبل وتحملق عيناها وتمتد أصابعها تتحسس وتتقبض وتقول: كم؟ ثم تقول: ماذا؟ هذا ولا زيادة؟ وحق لها ذلك مرة أخرى، فقد كانت أمّاً مرات كثيرة أنتجت فيها الحياة. وذلك شيء يستحق جائزة أكبر. ولكن الأمور جرت على خلاف ذلك. فحسابات الشيخ سيفرت بدت منظمة على نحو ما من الأنحاء بعد أن راجعها اليزيوس، ولكن المزرعة والبقرة والمسمكة والشباك لم تكف إلا لتغطية العجز. والفضل راجع لأولين إلى حد ما، إن الأمور لم تتطور إلى ما هو أسوأ. فقد كان اهتمامها البالغ بمحاولة ضمان بقية ضئيلة من التركة لنفسها هو الذي جعلها تخرج إلى النور بنوداً منسية كانت لا تزال تذكرها بوصفها ناقلة قيل وقال ومذيعة أخبار عدة سنوات، وإلا لكانت بعض الحقوق لدى الآخرين قد همست عمداً تجنباً لإثارة المتاعب لبعض المواطنين المحترمين. فيالأولين! إنها لم تنطق حتى الآن بكلمة سوء ضد سيفرت العجوز. فهو قد حررت وصيته عن طيبة قلب، وكان من الممكن

أن يتبقى لها شيء كثير من بعده لولا أن الرجلين اللذين أرسلتهما الحكومة لتسوية الأمور خدعاها، وقالت أولين بلهجة الوعيد إن ذلك كله سيرفع يوماً ما إلى آذان العلي القدير.

ومن العجيب أنها لم تجد ما يدعو إلى الضحك في إيراد ذكرها في الوصية، فقد كان ذلك نوعاً من التشريف على كل حال. وما من أحد من أمثالها ذكر اسمه فيها معها.

أما أهل سيلانرا فتلقوا الصدمة بصبر. ولم يكن ذهنهم خالياً تماماً. وإن كانت أنجر في الحقيقة عاجزة عن فهم ما حدث: الخال سيفرت الذي كان على الدوام بالغ الشراء. وقالت أولين: «لقد كان حرياً أن يقف منتصب القامة رجلاً باراً وغنياً أما الحمل وأمام العرش لو لم يسرقوه؟ وكان إسحق واقفاً على أهبة الخروج إلى حقوله فقالت أولين له: «من الأسف أنك مضطر للمضي الآن يا إسحق. فأنا إذاً سوف لا أرى الآلة الجديدة بعد كل شيء. فهم يقولون إنك اشتريت آلة جديدة. أليس كذلك؟» فقال إسحق: «بلى» فقالت: «أجل بذلك يتناقل الناس الحديث، ويُطنبون في قطعها العشب أسرع من مائة منجل فما الذي لم تؤته يا إسحق بكل ما لديك من الموارد والثراء! إن بريست في ناحيتنا اشترى محراثاً جديداً بمقبضين. ولكن من عساه يكون بالقياس إليك؟ أقول له هذا في وجهه» فقال إسحق وهو يتأهب للخروج: «سيفرت هنا وسيريك الآلة. وهو أبرع في تشغيلها من أبيه».

خرج إسحق، فثمة بيع بالمزاد سيتم في بريدابليك هذا الظهر، وقد اعتزم أن يحضره، ولم يبق متسع من الوقت إلا ما يكفي لوصوله إلى هناك الآن. وليس ذلك لأن إسحق مازال يفكر في شراء المكان، بلى لأن

هذا المزاد أول مـزاد يعـقـد في البـرية، وسـيـكون عـدم ذهابه مـوضع استغراب.

وهبط إسحق حتى وصل إلى مانلاند ورأى باربو؛ ولكنه أراد أن يمر بها مكتـفيـاً بالتـحيـة لولا أن باربو نادته وسألته أهو هابط أم صاعد، فأجـابهـا إنه هابط، وهم باستـئناف مسيره، فبيـتهـا هو الذي يباع في المزاد، ولذا تعمد الإيجاز في الرد، فسألته: «أذاهب أنت إلى البيع؟» فأجابها: «إلى البيع؟ حسن كنت هابطاً في ذلك الاتجاه. وماذا صنعت مع أكسل؟» فقالت: «أكسل؟ لست أدري. لقد هبط لحضور البيع. وإخالُه يتربص فرصة يختطف فيها شيئاً بلا مقابل، كالآخرين».

إن باربو الآن تبدو في مرأى العين مثقلة، وحادة اللسان لاذعة.

وكان المزاد قد بدأ. فسمع إسحق العمدة يتولى المناداة ومن حوله زحام من الناس. ولما اقترب لم يجدهم جميعاً ممن يعرفهم، فقد كان ثمة فريق من أبناء القرى الأخرى، بيد أن بريد يغدو ويروح زائطاً في أبهى بزة، وهو يثرثر بطريقته المعروفة، طاب يومك يا إسحق. إذاً فأنت قد شرفتني بمشاهدة مزادي. شكراً شكراً. لقد لبثنا جيران وأصدقاء هذه السنوات الطوال. ولم تنشب بيننا كلمة سوء» وغدا بريد عاطفياً وتملكه الشجن: «أجل إنه لعجيب أن يفكر المرء في مغادرة مكان عاش فيه وكدّ حتى تعلّق به. ولكن ما حيلة الإنسان إذا كان هذا ما كُتب له؟» فقال إسحق ليسرِّي عنه: «لعل فيما يكون بعد ذلك خيراً لك» فتشبث بريد بهذا الخاطر قائلاً: «إن أردت الحقيقة هذا ما أظنه أيضاً. فأنا لست نادماً على الإطلاق. ولست أزعم أنني جنيت ثروة من هذا المكان، ولكن الثروة أتت فيما بعد. وها هم الصغار قد كبروا وغادروا العش. أجل إن

زوجتي في طريقها إلى إنجاب طفل آخر، ولكن مع هذا....» وفجأة أفضى بريد بنبئه دفعة واحدة: «لقد تخليت عن العمل في التلغراف» فعاد يسأله: «تخليت عن التلغراف!» فقال: «أجل ابتداء من العام الجديد. وما فائدتُهُ على كل حال؟ ثم هبْ أني كنت مشغولاً في عمل أو أقوم بقيادة العربة للعمدة أو الطبيب، والمفروض أن أرعى التلغراف قبل كل شيء. لا. هذا شيء لا معنى له ولا فائدة. إنه لا يصلح إلا لمن لديهم متسع من الفراغ. أما الجري عبر التلال والوهاد وراء سلك تلغرافي مقابل أجر لا يكاد يذكر، فهذه ليست وظيفة لائقة ببريد. ثم إنني تحدثت في هذا الموضوع مع رجال مكتب التلغراف فقد أثاروا الضجة مرة أخرى؟».

وظل العمدة يردد عروض المزايدة على المزرعة، وقد وصلت إلى بضع مئات من الكرونرات، وهو المبلغ الذي كان من المعتقد أن المكان يساويه، وأخذت المزايدات الآن في الإبطاء، فهي لا تتجاوز في كل مرة خمسة أو عشرة كرونرات. وفجأة صاح بريد: «عجباً يقيناً هذا أكسل يزايد» وأسرع نحوه بلهفة قائلاً: «ماذا؟ أتريد أن تأخذ بيتي أيضاً؟ أليس لديك ما يكفيك؟» فقال أكسل مراوغاً: «إني أزايد لحساب شخص آخر» فقال بريد: «حسن حسن. هذا لا يضيرني لم يكن هذا ما رميت إليه».

ورفع العمدة مطرقته فقد حدث نداء بالمزايدات بعلاوة مئة كرونر دفعة واحدة، ولم يتدخل أحد للزيادة عليه فكرر العمدة الرقم مرة أخرى وثالثة وانتظر لحظة رافعاً مطرقته ثم هوى بها.

من اشترى؟

أكسل شتروم- لحساب شخص آخر.

وسجل العمدة ذلك: أكسل شتروم بصفته وسيطاً. وسأله بريد: «ولمن اشتريت؟ هذا ليس من شأني طبعاً ولكن.... ».

وفي هذه اللحظة كان بضعة رجال جالسين إلى مائدة العمدة قد أدنوا رؤوس بعضهم من بعض وفيهم ممثل البنك ومساعد صاحب المتجر الذي أوفده نيابة عنه. لا بد أن ثمة شيئاً ما ليس على ما يرام. ولذا فالدائنون غير راضين. ودعي بريد، ولكن بريد بما فيه من عدم اكتراث وخلو بال لم يزد على أن أومأ برأسه موافقاً على البيع. ثم قال: «ولكن من الذي كان يظن أن الثمن لن يزيد على هذا؟» وفجأة رفع صوته وأعلن على ملأ الحاضرين: «بما أن المزاد قد تم على كل حال، وقد أتعبت العمدة بالحضور كل هذه المسافة فأنا مستعد لبيع كل ما أملكه هنا من عربة وماشية ومدراة وحجر طاحون فلا فائدة لهذه الأشياء عندي الآن، ولذا سنبيعها كلها».

وكانت مبالغ المزايدة صغيرة بعد ذلك- وكانت زوجة بريد مثله في عدم المبالاة وخلو البال، فراحت رغم امتلاء بطنها أمامها تبيع القهوة على مائدة هناك ووجدت تسلية في لعبة الحانوت هذه فجعلت تبتسم. وحينما توجه إليها بريد بنفسه يطلب شيئاً من القهوة أخبرته هازله أنه لا بد أن يدفع ثمنها كالآخرين، وفعلاً أخرج بريد كيسه الهزيل ودفع الثمن، وقال للآخرين: «ها هي الزوجة المثالية مدبرة. أليس كذلك؟».

ولم تكن للعربة قيمة كبيرة، لأنها لبثت وقتاً طويلاً جداً مكشوفة في العراء؛ بيد أن أكسل زاد الثمن في النهاية خمسة كرونرات كاملة وحصل على العربة أيضاً، وبعدها لم يشتر أكسل شيئاً. بيد أن الجميع دهشوا لرؤية رجل حريص مثله يشتري ذلك كله.

ثم حل دور الحيوانات، وقد أبقيت في سقيفتها هذا اليوم لتكون تحت الطلب، وما حاجة بريد إلى الماشية وليست لديه مزرعة يقيتها منها؟ ليس لديه بقرة فهو قد شرع في الزراعة بعنزتين ولديه الآن أربع عنزات، وفضلاً عنها لديه ستة رؤوس من الغنم، ولا حصان.

واشترى إسحق نعجة معينة ذات أذنين مسطحتين معاً وما إن اقتادها أطفال بريد خارج السقيفة حتى شرع يزايد في ثمنها على الفور والناس ينظرون إليه. إن إسحق صاحب سيلانرا رجل غني ذو مكانة طيبة ولا حاجة به من الأغنام إلى أكثر مما لديه. وتوقفت زوجة بريد عن بيع القهوة لحظة وقالت: «أجل لك أن تشتريها يا إسحق. فلئن كانت عجوزاً في الواقع إلا أنها تضع كل سنة حملين أو ثلاثة، وهذه هي الحقيقة» فقال إسحق وهو يثبت فيها نظره: «إني أعرف ذلك. فقد رأيت هذه النعجة من قبل» ومشى مع أكسل شتروم في طريق العودة يجر نعجته بقيد. وكان أكسل صموتاً فهو قلق فيما يبدو بخصوص شيء ما، كائناً ما كان هذا الشيء. وقال إسحق في نفسه أن لا شيء ينبغي أن يزعجه كما هو ظاهر، فمحصولاته تبدو طيبة، ومعظم علفه تم تخزينه وهو قد شرع في بناء الجزء الخشبي من بيته، فكل شيء على ما ينبغي بالنسبة لأكسل شتروم. فهو بطيء في تفكيره إلا أنه مكين فيما يحققه. ولديه الآن حصان. وقال إسحق له: «إذاً فأنت قد اشتريت مزرعة بريد» أتنوي أن تفلحها بنفسك؟» فأجابه: «لا. إني لم أشترها لنفسي بل لشخص آخر؟» فقال إسحق: «هوه»، وعندئذ قال أكسل شتروم: «ما رأيك؟ أتراني دفعت فيها أكثر مما ينبغي؟» فأجابه: «لا. إنها أرض جديدة لو وجدت الرجل الذي يفلحها كما ينبغي» فقال أكسل: «لقد

اشتريتها لأخ لي يعيش في هيلجلاند» فقال إسحق: «هوه» وردّ أكسل: «ثم خطر لي أني ربما راودت نفسي في الحلول محله أيضاً». فسأله إسحق: «أتريد أن تحل محله؟» فقال أكسل: «إذ ربما فضلت بار بو ذلك» فقال إسحق: «نعم. ربما. ثم سارا مسافة طيبة صامتين، وبعدئذ قال أكسل: «لقد ظلوا يلاحقونني كي أتولى عملية التلغراف» فقال إسحق: «التلغراف؟ همم. أجل لقد سمعت أن بريد تخلى عنه؟» فقال أكسل باسماً: «همم، ليس الأمر هكذا، بل إن بريد طُرد منه» فسأله إسحق محاولاً أن يجد بعض العذر لبريد: «آه همم. هكذا. همم. إنه يستغرق جانباً من الوقت للدعاية ولا شك» فقال أكسل: «لقد سلموه إخطاراً بالاستغناء عنه عند ابتداء العام الجديد إن لم يتحسن عمله» فقال إسحق: «همم» وأردف أكسل: «ألا تظن أن قبولي هذا العمل يستحق عناءه؟» ففكر إسحق برهة طويلة ثم أجاب: «أجل هناك النقود في الحقيقة، ولكن مع ذلك...» فقال أكسل: «لقد عرضوا عليّ زيادة في الأجر». فسأله إسحق: «كم؟» فقال: «الضعف» فقال إسحق: «الضعف؟ في هذه الحالة إذاً أنصحك أن تفكر في الأمر جدياً»، فقال أكسل: «ولكنهم أطالوا الخط الآن قليلاً. لا. لست أدري ما هو الأفضل. ولم يعد هناك خشب كثير للبيع الآن في هذه الناحية بعد أن قطعت كثيراً من خشبك. وأنا بحاجة إلى شراء مزيد من الأشياء للعمل الذي صار عندي الآن. وشراء الأشياء يحتاج إلى مال نقدي. وليس عندي منه كثير بعد أن اشتريت ما اشتريته من الأرض والماشية ويخيل إلي أني سأجرب العمل في التلغراف سنة بصفة مبدئية...» ولم يخطر لأحد منهما أن بريد سوف يتحسن عمله ويحتفظ بالمنصب لنفسه.

وعندما وصلا إلى مانلاند كانت أولين هناك بالفعل في طريقها هابطة. ويالأولين من مخلوقة غريبة تزحف في كل مكان ببدانتها واستدارتها كالدودة مع أنها تجاوزت السبعين، ومع ذلك فهي لم تزل قادرة على التجوال. وكانت جالسة تشرب القهوة في الكوخ، ولكن ما إن رأت الرجلين قادمين حتى تركت كل شيء وخرجت للقائهما قائلة: «طاب يومك يا أكسل، ومرحباً بك عائداً من المزاد، أيضايقك أن آتي لأرى كيف تتقدم أحوالكما أنت وباربو؟ إني أراكما تتقدمان تقدماً بديعاً، وها أنت تبني بيتاً جديداً وتزداد غنى باستمرار وأنت يا إسحق: هل اشتريت غنماً؟» فقال إسحق: «نعم؛ ولعلك تعرفين هذه النعجة؟» فأجابت: «أعرفها؟ لا...» فقال إسحق: «فأذناها المسطحتان هاتان. كما ترين». فقالت: «أذنان مسطحتان؟ ماذا تعني الآن؟ وماذا في ذلك؟ ماذا كنت أريد أن أقول؟ آه.. من الذي اشترى مزرعة بريد على كل حال؟ كنت أقول لباربو هنا ترى من سيكون جيرانكم الآن هذا الاتجاه. وكانت المسكينة باربو جالسة تبكي. وهذا أمر طبيعي بالتأكيد ولكن العلي القدير الذي رتب لها هنا بيتاً جديداً في مانلاند... أذنان مسطحتان؟ لقد رأيت في حياتي عدداً هائلاً من الأغنام من ذوات الآذان المسطحة وغيرها؛ وأحب أن أقول لك يا إسحق إن آلتك الجديدة شيء أعجب من كل ما رأته عيناي العتيقتان أو وعاه فهمي. ولن أسألك: «كم كلفتك هذه الآلة لأني لن أستطيع أن أصل في العد إلى هذا المدى، ولا بد أنك تعرف ماذا أعني يا أكسل لو رأيتها. فكأنها إيليا وعربته النارية. لتغفرْ لي السماء هذا القول...».

وبعد أن تم إدخال الدريس بأكمله بدأ اليزيوس يعد العدة لعودته إلى المدينة، فكتب إلى المهندس يخبره بقدومه، بيد أنه تلقى رداً غريباً فحواه أنَّ هذه الفترة في العمل سيئة ولا بد لهم من الاقتصاد في النفقات؛ ولذا استغنى المكتب عن خدمات اليزيوس التي سيقوم الرئيس بأعبائها شخصياً.

ويا للشيطان! ثم ما حاجة مفتش منطقة إلى هيئة مكتب؟ إنه لم يلحق اليزيوس وهو صبي يافع بالعمل إلا ليظهر أمام أهل البرية هؤلاء بمظهر الرجل العظيم الشأن ولا شك. ولئن قدم إليه الثياب والطعام والمأوى حتى يوم تثبيته فقد حصل مقابل ذلك على خدماته في الأعمال الكتابية. هذا حق، ولكن الفتى كبر الآن، فصار الوضع مختلفاً تمام الاختلاف. ولذا قال المهندس في خطابه: «ولكن إن عدت فسأبذل كل ما في وسعي لإيجاد عمل لك في مكان آخر، وإن كان هذا أمراً شاقاً، إذ يوجد من الشبان عدد كبير يبحثون عما تبحث أنت عنه. ومع أطيب تحياتي...».

وبطبيعة الحال سيعود اليزيوس إلى المدينة فهذا لا جدال فيه. أم تراه سيهدر نفسه؟ إنه يريد أن يتقدم في الدنيا. ولذا لم يقل شيئاً لأهل البيت عن تغير الأحوال. فليست في ذلك فائدة. ثم إنه في الحقيقة شعر بضيق صدر شديد بصدد المسألة برمتها. إنه على كل حال لم يقل شيئاً. وكانت الحياة في سيلانرا قد تركت أثرها فيه مرة أخرى، فهي حياة عادية خالية من المجد إلا أنها هادئة تبلد الإحساس وتساعد على الاسترسال في الأحلام. فلم يعد لديه شيء يلفت به الأنظار أو يتأنق له. حتى المرأة صارت شيئاً لا فائدة فيه؛ فحياة المدينة أحدثت صدعاً في نفسه وجعلته أرهف من الآخرين وأضعف فبدأ يشعر أنه سيكون شريداً

لا بيت له في أي مكان. لقد عاد إليه إحساس الاستطابة برائحة حشيشة الدود مرة أخرى. ولكن لندع ذلك جانباً فأي معنى لوقوف فتى ريفي يصغي في الصباح للفتيات وهن يحلبن الأبقار ويفكر على هذه الوتيرة: إنهن يحلبن. اسمع الآن. هذا صوت بديع الوقع كأنه أغنية صغيرة الأنغام تختلف تمام الاختلاف عن موسيقى الفرق النحاسية في المدينة وجيش الخلاص وفرق البواخر. إنها موسيقى تنساب في داخل دلو...

ولم يكن مما يتفق مع أسلوب الحياة في سيلانرا أن يبالغ المرء في إظهار عواطفه مما جعل اليزيوس يخشى اللحظة التي يقول فيها وداعاً. وقد تمت استعداداته الآن. وقد أعطته أمه مرة أخرى قدراً كبيراً من القماش المنسوج لصنع الملابس الداخلية. وكلف أبوه أحد الأشخاص أن يعطيه نقوداً عند خروجه من الباب. نقوداً؟ وهل يستطيع إسحق أن يستغني عن شيء اسمه النقود؟ ولكن الأمر كان كذلك. ولم يكن على خلاف ذلك، ولمحت له أنجر أن هذه بلا شك آخر مرة. أليس اليزيوس ذاهباً إلى حيث يتقدم في الحياة ويرتفع بنفسه في مدارجها؟ وقال إسحق: «همم». وساد البيت جو من الجد والسكون. وكان كل منهم قد حظي ببيضة مسلوقة في الوجبة الأخيرة ووقف سيفرت في الخارج على استعداد للمضي مع أخيه وحمل أمتعته. وكان على اليزيوس أن يبدأ الخطوة الأولى، فبدأ بليوبولدين التي ردت عليه قائلة: «وداعاً» وانتهى الأمر بالنسبة لها على خير ما يرام. أما بنسين الخادمة فجلست تنذف الصوف وأجابته قائلة: «وداعاً». ولكن البنتين كلتيهما جعلتا تحملقان فيه، عليهما اللعنة: وما ذلك إلا لأنه قد يكون محمر العينين قليلاً.

وهز يد أمه فبكت بطبيعة الحال صراحة ولم تبال بتذكر مبلغ كراهته للبكاء. وجعلت تقول وهي تنتحي: «ودا...عاً وبا....ركك الله» ولكن الأمر كان أسوأ ما يمكن حين ودع أباه. أسوأ ما يمكن من جميع الوجوه. لقد كان منهكاً من العمل ومخلصاً كل الإخلاص. ولِمَ حمل الأطفال بين ذراعيه وحدثهم عن النوارس البحرية والطيور الأخرى والوحوش وجميع أعاجيب الحقل وكان ذلك من مدة غير طويلة. منذ بضع سنين فقط. وأبوه واقف الآن أمام النافذة الزجاجية ثم ها هو يستدير فجأة ويقبض على يد ابنه ويقول بسرعة واكتئاب: «حسن. وداعاً؛ ها هو الحصان الجديد قد فك قيده» ويمرق من الباب ويسرع مبتعداً. وكان قد عني عمداً بترك الحصان الجديد بلا قيد منذ برهة وجيزة، وكان سيفرت، ذلك الوغد، يعرف ذلك لأنه كان واقفاً في الخارج يرقب أباه ويبتسم لنفسه. وكان الحصان على كل حال غير بعيد في حقل الربة.

وانتهى اليزيوس من محنة التوديع أخيراً. وعندئذ كان لا بد لأمه أن تخرج على عتبة الباب وتنشج مرة أخرى وتقول: «باركك الله»، ثم تعطيه شيئاً قائلة: «خذ هذا. وليس لك أن تشكره. إنه يطلب منك ذلك. ولا تنس أن تكتب إلينا. اكتب إلينا كثيراً».

مائتا كرونر.

ونظر اليزيوس صوب الحقل فرأى أباه منهمكاً بحرارة فائقة في دق وتد في باطن الأرض لربط الخيل. وبدا عليه وكأنه يجد صعوبة في ذلك مع أن الأرض رخوة.

ومضى الأخوان يهبطان الطريق فلما وصلا إلى مانلاند كانت باربو واقفة بالباب فنادتهما ليدخلا قائلة: «أراحل أنت مرة أخرى يا

اليـزيوس؟ إذاً يجب أن تدخل وتشرب فنجاناً من القـهـوة على الأقل».
ودخلا الكوخ، ولم يعد اليزيوس فريسة لأوجاع الحب ولم تساوره الرغبة في القـفـز من النوافذ وشرب السم. بل هو يبسط معطف الربيع على ركبتيه حريصاً على أن يجعل اللافتة الفضية تبدو للأنظار، ثم يمسح شعره بمنديله ويقول برقة: «يوم جميل. أليس كذلك؟ كلاسيكي» وكانت باربو مسيطرة على نفسها أيضاً سيطرة كافية، فهي تعبث بخاتم فضي في إحدى يديها وخاتم ذهبي في اليد الأخرى فهي أيضاً قد حصلت بالتأكيد على خاتم ذهبي- وترتدي ميدعة تصل من عنقها إلى قدميها وكأنها تريد أن تقول إن قوامها لم يفسد، مثل من يكون في حالتها.
ولما تم إعداد القهوة وشرع الضيفان يحسوانها، بدأت تحيك قماشاً أبيض ثم عدلت عن ذلك إلى بعض أشغال الكروشيه تصنع منها بنيقة من نوع ما. ثم انتقلت إلى سائر أنواع الأشغال النسوية، فلم تكن باربو مرتبكة لزيارتهما، وكان ذلك أفضل، فاستطاعوا أن يتحدثوا بصورة طبيعية، وتسنى لاليزيوس أن ينطلق على سجيته مرة أخرى مظهراً شبابه وحضور بديهته كما يحلو له؛ وسألها سيفرت: «ماذا صنعت مع أكسل؟» فأجابت وهي تستجمع شتاتها: «أوه. إنه في مكان ما من المزرعة أنحن إذاً لن نراك في هذه الناحية بعد الآن؟» وكان السؤال موجهاً إلى اليزيوس، فقال: «هذا شيء بعيد الاحتمال» فقالت: «نعم. فهنا مكان لا يصلح لمن تعوّد حياة المدينة. وكم أتمنى لو استطعت الذهاب معك» فقال لها: «أنت لا تعنين هذا فيما أعلم» فأجابته: «لا أعنيه! لقد جربت الحياة في المدينة وعرفت الحياة هنا. وكنت أعيش في مدينة أكبر من التي عشت فيها أنت. فكيف لا أفتقدها!» فقال

اليزيوس بسرعة: «لم يكن هذا ما أعنيه بكلامي بعد أن عشت في برجن ذاتها» وما أعجب ما صارت إليه من نفاد الصبر بعد كل شيء فقالت: «لولا حصولي على الصوف لمطالعتها هنا لما بقيت يوماً آخر» فسألها: «وماذا عن أكسل إذاً وبقية المسائل! هذا ما كنت أفكر فيه» فأجابته: «أما عن أكسل فهو ليس من شأني. ولكن ماذا عنك أنت يخيل إلي أن هناك شخصاً ما بانتظارك في المدينة؟».

وعندئذ لم يتمالك اليزيوس نفسه من التظاهر بعض الشيء فيقفل عينيه. ويتلكأ في الكلام قليلاً ثم يقول ما يدل على أنه ربما كان بعضهم بانتظاره في المدينة، وكان في وسعه أن يسوس الأمر على خلاف ذلك جداً فيهتبل الفرصة السانحة لولا وجود سيفرت الجالس هناك، أما والأمر كذلك فلم يسعه إلا أن يقول: «لا تقولي مثل هذا الهراء» فقالت: «هوه، هراء حقاً، وماذا تنتظر من أهل مانلاند؟ إننا لسنا في مثل عظمتكم ورقتكم.. لا؟» والحقيقة أنها كانت معتلة المزاج اليوم بصورة مخجلة. ولكن في وسعها أن تذهب إلى الشيطان. فلا يهتم اليزيوس بذلك. إن وجهها قذر بصورة واضحة وحالتها مفضوحة حتى لعينيه البريئتين».

وسألها: «ألا تستطيعين العزف على القيثارة قليلاً؟» فأجابته باربو بإيجاز: «لا. وكنت أريد أن أقول لك يا سيفرت: ألا تستطيع أن تأتي وتساعد أكسل قليلاً في بناء البيت الجديد يوماً ما أو نحو ذلك؟ أتستطيع أن تبدأ غداً مثلاً عند عودتك من القرية؟» ففكر سيفرت لحظة ثم قال: «نعم، ربما ولكن ليست معي ثياب» فقالت: «أستطيع أن أذهب بسرعة وأحضر ثياب عملٍ لك هذا المساء فتجدها عند عودتك» فقال سيفرت: «وهو كذلك، إن استطعت هذا» فإذا بباربو تبدو الآن

متلهفة لهفة لا ضرورة لها: «بل إن تفضلت أنت بالقدوم. لقد كاد الصيف ينقضي تقريباً، وينبغي إقامة البيت وتسقيفه قبل أمطار الخريف. وكان أكسل عازماً على التوجه لدعوتك مراراً كثيرة من قبل بيد أنه لم يستطع ذلك لسبب ما. آه. ستكون مساعدتك لنا لا تقدر». فقال سيفرت: «سأساعد قدر استطاعتي». وهكذا تم الاتفاق. وحل دور اليزيوس كي يستاء. فهو يتبين الآن بوضوح مدى براعة باربو في تدبير الأمور لمصلحتها ومصلحة أكسل أيضاً، والحصول على عون لإتمام البناء وإنقاذ البيت، المسألة برمتها فاضحة أكثر مما يطاق، فهي بعد كل شيء ليست ربة هذا المكان بعد. ولم ينقض وقت طويل منذ حظي شخصياً بتقبيل هذه المخلوقة، ألم تبق لديها ذرة واحدة من الحياء والخجل؟.

وفجأة قال اليزيوس: «نعم سأعود مرة أخرى في الوقت المناسب كي أكون شبيناً حينما تتم أيامك» فرشقته بنظرة وأجابته باستياء بالغ: «شبين حقاً، من الذي ينطق هراء الآن؟ أحب أن أعرف: سيكون أمامك متسع من الوقت كي أرسل إليك قائلة إنني أبحث عن شبائن» وماذا كان بوسع اليزيوس أن يصنع الآن سوى أن يضحك ببلاهة ويتمنى ألا يكون هنا.

وقال سيفرت وهو ينهض من مقعده لينصرف: «أشكرك» وقال اليزيوس أيضاً: «أشكرك» بيد أنه لم ينهض ولم ينحن كما ينبغي أن يصنع الرجال وهو يقول شكراً على فنجان من القهوة. فحاشاه أن يفعل ذلك أو أن يرضى عن سلاطة لسانها القبيح. فقالت باربو: «دعني أراه نعم، إن الشبان الذين كنت أقيم معهم في المدينة كانت لهم لافتات فضية أيضاً مثبتة في معاطفهم، أكبر من هذه بكثير. ستعود إذاً يا سيفرت وتعرِّج علينا وتقضي الليلة هنا، سأحضر ملابسك كما اتفقنا!».

وهكذا تم توديع باربو.

وانطلق الأخوان مرة أخرى. ولم يساور اليزيوس الهم من أي وجه بشأن باربو. فلها أن تذهب إلى الشيطان ثم إن في جيبه ورقتين كبيرتين من أوراق النقد، وحرص الأخوان على عدم الخوض في الموضوعات المحزنة، من قبيل أسلوب الأب الغريب في التوديع، أو بكاء الأم. وقاما بدورة كبيرة كي يتجنبا إيقافهما عند بريدابليك. وراحا يهزلان حول هذه الحيلة وعندما صارا على مرمى البصر من القرية حان لسيفرت أن يولي وجهه عائداً، فإذا بهما كلاهما يسلكان مسلكاً لا يتفق والرجولة، فسيفرت مثلاً بلغ به الضعف أن قال: «أحسب أني سأشعر بالوحشة بعد رحيلك» وعندئذ اضطر اليزيوس أن يعمد الصغير والنظر إلى حذائه، والبحث عن شظية في إصبعه، ثم التنقيب عن شيء ما في جيوبه، عن أوراق فيما قال عجز عن إخراجها... وكانت الأمور حرية أن تزداد سوءاً لولا أن سيفرت أنقذ الموقف في النهاية صائحاً فجأة: «المس» ثم لمس أخاه على كتفه ووثب منطلقاً. وصار الأمر أهون عليهما بعد ذلك، فتصايحا بكلمة وداع عن بعد ثم مضى كل منهما في طريقه.

وأياً كان الباعث: القدر والصدفة، فها هو اليزيوس قد عاد بعد كل شيء إلى المدينة، حيث لم تعد وظيفته مفتوحة لاستقباله ولكن هذه المناسبة نفسها ساقت إلى أكسل شتروم رجلاً يساعده فشرعا يعملان في البيت يوم ٢١ أغسطس وبعد عشرة أيام كان قد تم وضع السقف. ولم يكن بيتاً يروع العين ببهائه، ولا بضخامته وارتفاعه، فأقصى ما يقال فيه إنه بيت خشبي وليس كوخاً من الطين ولكن هذا يعني على الأقل أن الحيوانات ستحظى بملاذ فخم في الشتاء، حيث كانت تقيم أنفس بشرية من قبل.

الفصل الثاني

في الثالث من شهر ديسمبر لم يمكن العثور على باربو، ولم يكن ذلك لأنها فُقدت تماماً، بل لأنها لم تكن موجودة في البيت. وكان أكسل يقوم بأعمال النجارة على أحسن وجه يستطيعه، محاولاً أن يصنع بكل جهة نافذة زجاجية ويركب باباً في البيت الجديد، وكان ذلك يستنفد كل وقته، ولما كان الوقت قد تجاوز الظهر ولم يطلب منه أحد الدخول إلى البيت لتناول الغداء، دخل نفسه إلى الكوخ فلم يجد أحداً هناك، فأعد لنفسه شيئاً من الطعام، وجعل ينظر حوله وهو يأكل، ووجد ملابس باربو معلقة هناك، فأدرك أنها خرجت إلى موضع ما، وهذا كل شيء، وعاد إلى عمله في البيت الجديد وظل مكباً عليه برهة، ثم ذهب فنظر داخل الكوخ مرة أخرى فلم يجد أحداً هناك فلا بد أنها راقدة في مكان ما، وشرع في البحث عنها وجعل بنادي: «باربو» ولكن لا مجيب، وانطلق ينظر حول البيت واخترق بضع شجيرات على حافة أرضه واستمر في بحثه فترة طويلة، ربما ظلَّ يناديها ساعة فلا يسمع جواباً. وأخيراً عثر عليها على مسافة بعيدة راقدة على الأرض متوارية في بعض الشجيرات وجدول الماء يتدفق عند قدميها وهي حافية القدمين عارية الرأس وظهرها كله مبلل، فقال لها: «أراقدة أنت هنا؟ ولماذا لم تردي علي؟» فأجابته

وكان صوتها مبحوحاً حتى إنه لم يكد يسمعها: «لم أستطع» فسألها: «ماذا؟ هل كنت في الماء؟» فأجابت: «نعم، انزلقت، أوه» فسألها: «أتتألمين الآن منه؟» فأجابته: «نعم... لقد انتهى الآن» فسألها: «انتهى؟» فقالت له: «نعم، ساعدني على الوصول إلى البيت» فسألها: «وأين...؟» فقالت: «ماذا؟» فقال لها: «ألم يكن هناك طفل؟» فقالت: «لا. كان ميتاً» فقال: «هل كان ميتاً؟» فأجابت: «نعم».

وكان أكسل بطيء الفهم، بطيء العمل، فوقف هناك جامداً، ثم سألها: «وأين هو إذاً؟» فقالت: «ليس من حقك أن تعرف. ساعدني في العودة إلى البيت. كان ميتاً، وفي استطاعتي أن أمشي إذا أمسكت ذراعي قليلاً».

وحملها أكسل إلى البيت وأجلسها على مقعد والماء يقطر منها وسألها: «أكان ميتاً؟» فأجابته: «لقد أخبرتك أنه كان كذلك» فسألها: «وماذا صنعت به إذاً؟» فقالت: «أتريد أن تشمه؟ هل أكلت شيئاً وأنا في الخارج؟» فسألها: «ولكن ماذا كنت تصنعين عند الماء؟» فأجابته: «عند الماء؟ كنت أبحث عن العرعر» فسألها: «نبات العرعر، ولماذا؟» فأجابته: «لتنظيف الدلاء» فقال لها: «لا يوجد شيء منه في هذا الاتجاه» فقالت بصوت أبح وقد نفد صبرها: «اذهب واستأنف عملك، ماذا كنت أصنع عند الماء، كنت أريد أغصاناً صغيرة لأصنع مقشة. هل أكلت شيئاً؟ أتسمعني؟» فقال: «أكلت، بماذا تشعرين الآن؟» فأجابته: «لا بأس» فقال: «أحسب أنه ينبغي علي أن آتي بالطبيب» فصاحت وهي تنهض وتبحث عن ثياب جافة ترتديها: «جرب هكذا، كأنما ليس لديك وجه أفضل من هذا لإنفاق جهودك» وعاد أكسل إلى عمله ولم

ينجز بعد ذلك إلا القليل، إلا أنه ظل يحدث ضجة كبيرة وهو يقوم بالتلويح والطرق كي تسمعه. وأخيراً استطاع أن يحشر النافذة في مكانها، وبعد أن ثبت الإطار من جميع أقطاره بالطحلب.

وفي ذلك المساء بدا على باربو أنها لا تكترث بطعامها، بل راحت تذهب وتجيء مع ذلك متشاغلة بهذا وذاك. فذهبت إلى سقيفة البقر في موعد الحلب وكل ما هناك أنها صارت تحاذر في خطوها فوق عتبة الباب. وذهبت إلى فراشها في سقيفة الدريس كالمعتاد. وذهب أكسل مرة أو مرتين إليها هناك لينظر إليها فوجدها نائمة نوماً عميقاً، وقضت ليلة طيبة، وفي الصباح كانت كالمعتاد تقريباً، إلا أنها كانت مبحوحة الصوت جداً حتى لم تكد تستطيع الكلام، ولفت حول حلقها جورباً طويلاً فلم يستطيعا التحدث معاً. ومرت الأيام وفقد الموضوع جدته، وبرزت أمور أخرى فطمست معالمه. وكان من الواجب ترك البيت الجديد فترة من الزمن كي تتماسك أخشابه وتصبح محكمة متينة، ولكن لم يكن هناك متسع لذلك الآن فلا بد لهما من استخدامه على الفور وإعداد سقيفة البقر الجديدة. فلما تم ذلك انتقلا إليه وأخذا معهما البطاطس. ثم بعد ذلك كان عليهما إدخال محصول القمح. وعادت الحياة إلى مأثورها المعتاد، ولكن كانت ثمة دلائل كافية، بين كبيرة وصغيرة، على أن الأمور أمست الآن مختلفة في مانلاند -فباربو تشعر أنها لم تعد هناك في بيتها الآن أكثر من أي خادمة أخرى. لم تعد مرتبطة بالمكان. واستطاع أكسل أن يتبين خفة سيطرته عليها بعد موت الطفل. وكان طالما قال لنفسه في ثقة: انتظر حتى يأتي الطفل، ولكن الطفل أتى وذهب، وأخيراً أقدمت باربو على خلع الخاتمين من يديها ولم تعد تلبس

أياً منهما. فسألها: «ما معنى هذا»، فقالت وهي تهز رأسها: «معنى هذا؟» ولكن المعنى ما كان ممكناً أن يكون سوى الهجر وعدم الوفاء من جانبها.

وعثر على الجسد الصغير قرب الجدول. ولم يكن قد قام بأي بحث عنه يستحق الذكر، فهو يعلم تماماً أنه لا بد أن يوجد، بيد أنه ترك الأمر على عواهنه، ثم شاءت المصادفة ألا ينساه تماماً، لأن الطيور بدأت تحوم حول البقعة، ما بين قطا وغربان تصيح صياحاً ثاقباً، ثم برز بعد ذلك نسران على ارتفاع يسبب الدوار. فلا بد أن طائراً واحداً رأى شيئاً في البداية مدفوناً هناك، وعجز عن كتمان السر كالآدميين، فمضى يصيح ويذيعه. وعندئذ أيقظ أكسل نفسه من جموده وانتظر فرصة يتسلل فيها إلى تلك البقعة، فوجد الشيء تحت كومة من الطحلب والأغصان الصغيرة مثقلة بحجارة مسطحة، وقد لف في ثوب، أو بالأحرى في خرقة. وبدافع الفضول والفزع أزاح الثوب جانباً فإذا عينان مقفلتان وشعر داكن لغلام معقود الساقين، وهذا كل ما رآه. وكان الثوب مبللاً فيما مضى، ثم أخذ يجف الآن، فبدا الشيء في مجموعه كأنه حزمة من الغسيل نصف معصورة.

ولم يستطع أن يتركه هناك في ضوء النهار، ولعله في أعماقه خشي السوء على نفسه أو على المكان فجرى إلى البيت وأحضر رفشاً وحفر القبر أعمق مما كان ولكن لشدة قربه من الجدول ظهر فيه الماء، مما اضطره لنقله إلى موضع أبعد عن الضفة. وفيما هو يعمل زايله الشعور بالخوف من قدوم باربو واكتشاف ما يصنع. وغدا طافحاً بالتحدي والمرارة. فلتقبل إذاً وسيرغمها على لف الجسد بعناية سواء كان ولداً

ميتاً أم لا: وتبين له كل ما فقده بموت الطفل، وكيف أنه يواجه الآن احتمال تركه بغير معين في هذا المكان، مع أنه قد أصبح لديه ثلاثة أضعاف ما كان عنده في البداية من الماشية. فلتحضر إذاً، فهو لا يبالي، بيد أن باربو لعلها استشعرت ما كان بسبيله فلم تحضر، واضطر أكسل للف الجسد بنفسه على خير ما يستطيع ونقله إلى اللحد الجديد. وأعاد وضع العشب فوقه متشبعاً بالطين كذي قبل حتى غطاه كله. ولما فرغ من ذلك لم يعد ظاهراً للعيان منه إلا ربوة صغيرة خضراء بين الشجيرات.

ووجد باربو خارج البيت عندما عاد إلى هناك فسألته: «وأين كنت؟» ولا بد أن المرارة كانت قد غادرته لأنه اكتفى بأن قال: «ليس في مكان معين. أين كنت أنت؟» ولا بد أن سحنته ألزمتها الحذر فلم تقل شيئاً بعد ذلك ودخلت البيت، فتبعها وقال لها: «اسمعي» ثم سألها مباشرة: «ماذا تعنين بخلع هذين الخاتمين؟» ويبدو أن باربو وجدت من الأفضل أن تنقاد له قليلاً فضحكت وأجابت: «أراك جاداً اليوم، فلا يسعني إلا أن أضحك. ولكن إن كنت تريدني أن ألبس الخاتمين وأبليهما في أيام الأسبوع المعتادة، فسأفعل»، وأخرجت الخاتمين ولبستهما. فلما رأته بادي البلاهة والرضا بذلك زادت جرأتها وقالت: «أهناك شيء آخر بدر مني؟ أحب أن أعرف» فأجابها: «لست أشكو منك وليس عليك إلا أن تكوني كما كنت من قبل عندما جئت هنا أول مرة. هذا كل ما أعنيه». ولم يكن من السهل أن يكون الاثنان معاً دائماً وأن يكونا دائماً على وفاق. واستطرد أكسل: «عندما اشتريت ذاك المكان بعد أن تركه أبوك كنت أفكر في أنك ربما فضلتِ الإقامة هناك فننتقل إليه. فما رأيك؟».

آه ها هو قد كشف عن دخيلته. إنه خائف من فقدها فيترك بلا عون ولا يجد من يُعنى بالمكان والحيوانات مرة أخرى. لقد أدركت هذا فأجابته ببرود: «لقد قلت هذا الكلام من قبل» فقال: «نعم قلته من قبل ولكني لم أتلق جواباً» فقالت: «جواباً؟ الجواب أنني سئمت سماع هذا».

وحق لأكسل أن يرى نفسه وقد أظهر كثيراً من الترفق. فهو قد ترك بريدا وأسرته يمكثون في بريد ابليك، ومع أنه اشترى المحصول الجيد الذي بها مع المكان نفسه، فهو لم يحمل إلى بيته أكثر من بضعة أحمال من الدريس وترك لهم البطاطس. فمن غير المعقول أن تبدي باربو هذا السخط الآن. إلا أنها لم تقم وزناً لذلك وسألته باستنكار: «إذاً أنت تريدنا أن ننتقل الآن إلى بريد ابليك ونخرج منها أسرة بأكملها لتبيت بلا مأوى؟».

أتراه أصاب السمع؟ وجلس برهة يحملق فاغر الفم، ثم تنحنح كأنما يتأهب لرد مستفيض بيد أن الأمر لم يتمخض عن شيء وسألها فحسب: «أليسوا يعتزمون الانتقال إلى القرية إذاً؟» فقالت باربو: «لا تسألني؛ أم لعلك وجدت لهم مكاناً يقيمون به هناك؟».

ولم يزل أكسل عازفاً عن الشجار معها. بيد أنه لم يسعه إلا أن يدعها تتبين دهشته من أمرها بعض الشيء، فقال: «أراك تزدادين عبوساً وصلابة، مع أنك لا تقصدين السوء على الأرجح» فأجابته: «بلى؛ أقصد كل كلمة أقولها. ثم لماذا لا تدع أهلي يأتون للإقامة هنا؟ أجبني عن هذا. إذاً كنت حريةً أن أجد أمي معي تساعدني قليلاً. ولكن لعلك تظن أن عملي هنا قليل فلا حاجة بي إلى مساعدة؟».

وكان بعض كلامها هذا معقولاً طبعاً، ولكنْ فيه أيضاً كثيرٌ من غير المعقول إطلاقاً، فلو جاء بريد لأقام وأسرته في الكوخ. ولما بقي لدى أكسل

مكان لحيواناته ولظل موقفه سيئاً كما كان من قبل. فما الذي ترمي إليه المرأة؟ أليس في رأسها عقل ولا قريحة؟ وقال لها: «اسمعي: الأفضل أن تأتي بخادمة تساعدك» فأجابته: «الآن؟ والشتاء على الأبواب والعمل فيه أقل ما يكون. لا. كان الأجدر بك أن تفكر في هذا عندما كنت بحاجة إليه». فقال يائساً: «حسن لست أجد مخرجاً على كل حال».

وساد صمت.

ثم سألته باربو: «وما هذا الكلام عن توليك أعمال التلغراف بعد أبي؟» فقال: «ماذا؟ من قال كلمة واحدة عن هذا؟» فقالت: «حسن، إنهم يقولون إن هذا سيتم» فقال أكسل: «قد يتمخض الأمر عن شيء. لست أقول لا» فقالت: «هوه» فسألها: «ولكن لماذا تسألين؟» فقالت باربو: «لا شيء سوى أنك طردت أبي من بيته ومستقره، وها أنت ذا الآن تنتزع اللقمة من فمه».

وساد صمت.

ولكن صبر أكسل كان قد فرغ فصاح: «سأقول لك ما في ذهني: إنك لست جديرة بكل ما صنعته لك ولذويك» فقالت باربو: «هيه...!» فقال وهو يضرب المائدة بيده: «لا». ثم نهض قائماً، فنشجت باربو قائلة: «لا تحسب أنك تستطيع أن تفزعني» ودنت من الحائط فقال وهو يتشمم الهواء بزراية: «أفزعك؟ سأتكلم الآن بجد. ماذا عن ذلك الطفل؟ هل أغرقته؟» فقالت: «أغرقته؟» فقال: «نعم، فقد كان في الماء» فقالت: «هوه. إذاً رأيته. أكنت أكنت...» وهمت أن تقول «تتشممه» ولكنها لم تجسر، فليس من المأمون الاستهانة بأكسل الآن وهو بهذه السحنة، فقالت: «إذاً كنت تُنقِّب عنه وعثرت عليه؟» فقال: «تبينت أنه كان في الماء»، فقالت:

«نعم، وهذا طبيعي، فقد ولد في الماء؛ انزلقتُ، ولم أستطع النهوض» فقال: «هل انزلقت حقاً؟» فقالت: «نعم. وولد الطفل قبل أن أتمكن من الخروج من الماء». فقال: «همم. ولكنك أخذت اللفافة معك قبل أن تخرجي من البيت. فهل كان ذلك احتياطاً منك لمصادفة انزلاقك؟» فسألته مترددة: «خرقة؟!» فقال: «قطعة بيضاء من القماش. نصف قميص من قمصاني مزقته قطعتين». فقالت باربو: «نعم كانت خرقة أخذتها لأجمع فيها العرعر» فقال: «العرعر؟» فقالت: «نعم ألم أقل لك إن هذا ما كنت ذهبت أنشده». فقال: «نعم هذا ما قلته. أو أغصاناً لتصنعي مقشة». فقالت: «ليس مهماً أي شيء ذاك...».

لقد كانت المشاجرة بينهما صريحة هذه المرة. بيد أنها لم تلبث أن هدأت بعد قليل وعاد كل شيء على ما يرام. أو بالأحرى ليس على ما يرام تماماً، ولكن بصورة مقبولة، فقد غدت باربو حريصة وأكثر خضوعاً، لأنها علمت أن ثمة خطراً. ولكن الحياة على هذا النهج في مانلاند غدت أكثر تكلفاً حتى لم تعد تطاق، فلا صراحة بينهما ولا سرور. فكل منهما على حذر دائماً ولم يكن في الوسع أن يستمر ذلك طويلاً. بيد أن أكسل كان مضطراً ما استمر الحال على هذا النحو أن يكون راضياً قائماً، فلديه هذه الفتاة التي حصل عليها وكان يريدها لنفسه فنالها وربط حياته بها، وليس من اليسير أن يغير ذلك كلّه، إذ أن باربو تعرف كل شيء عن المكان: تعرف مواضع الآنية والأوعية وتعرف متى تلد البقر والماعز، وهل يكون طعام الشتاء شحيحاً أم وفيراً وكم يلزم من اللبن للجبن وكم يلزم منه للطعام، وأية فتاة غريبة لن تكونَ تعرف شيئاً عن ذلك كله؛ ثم إن الفتاة الغريبة ربما لا يتسنّى الحصول عليها.

ومع ذلك فكر أكسل مراراً في التخلص من باربو واتخاذ فتاة أخرى للمساعدة فهي تجنح للشر أحياناً حتى إنه يكاد يخشاها. وحتى عندما مني بسوء حظه بالتوافق معها كان يتراجع أحياناً خوفاً من قسوتها الغريبة وأساليبها الغاشمة؛ ولكنها كانت مليحة المنظر، ويسعها أن تكون عذبة في بعض الأحيان فتدفنه بين ذراعيها، أجل هكذا كانت، أما الآن فقد انقضى ذلك. لا وشكراً لك إن باربو لن تعيد هذه المسألة التعسة مرة أخرى. ولكن ليس من اليسير على المرء أن يغير حياته. ولذا قال أكسل يستحثها: «هيا بنا نتزوج إذاً على الفور». فقالت: «على الفور؟ لا بل يجب أولاً أن أذهب إلى المدينة لعلاج أسناني فقد كاد يقضى عليها بحالتها هذه».

إذاً لم يكن أمامه إلا الاستمرار على المنوال السالف ولم تكن باربو تتقاضى أجراً حقيقياً الآن، ولكنها تحصل على ما هو أكثر من أجرها بمراحل، ففي كل مرة تطلب منه نقوداً يعطيها إياها فكانت تشكره كما لو كانت تلقت هدية. ولكن أكسل لم يستطع رغم هذا كله أن يتبين أين تذهب هذه النقود، ولا فيم تلزمها هذه النقود هنا في البرية. أتراها تكنز المال لحسابها؟ ولكنها ماذا تدخر ولأي شيء تدخر على مدار السنة؟

كان ثمة كثيرٌ مما يستعصي على فهم أكسل. ألم يعطها خاتماً. أجل خاتماً ذهبياً حقيقياً؟ وقد انسجما معاً على ما يرام بعد هذه الهدية الأخيرة. ولكن هذا الانسجام ما كان ليدوم إلى الأبد. هيهات. وهو لا يستطيع أن يواصل شراء الخواتم ليهديها إليها. فهل ترمي بالاختصار إلى نبذه؟ إن النساء مخلوقات غريبة. هل ثمة رجل صاحب مزرعة طيبة ومكان موفور اللوازم في انتظارها في مكان آخر؟ إن أكسل يستطيع في

بعض الأحيان أن يصل إلى حد ضرب المائدة بقبضة يده وهو في سورة نفاد صبره من النساء وأمزجتهن الخرقاء.

والغريب أن باربو لم يكن لديها فيما يبدو في دماغها سوى التفكير في برجن وحياة المدينة. وهذا حسن وجميل. ولكن إن كان الأمر كذلك، فلماذا عادت على الإطلاق من هناك، عليها اللعنة: إن برقية من والدها ما كانت في حد ذاتها لتحركها خطوة واحدة، فلا بد أن لديها سبباً آخر. والآن ها هي هنا ساخطة سخطاً أبدياً من الصباح إلى المساء عاماً بعد عام، يا لتلك الدلاء الخشبية بدلاً من الجرادل الحديدية، ويا لتلك القدور بدلاً من المقالي، ويا لهذا الحلب الذي لا ينتهي بدلاً من التوجه إلى محل الألبان القريب. ويا لهذه الأحذية الثقال وهذا الصابون الأصفر. وهذه الوسادة المحشوة بالدريس وما من جوقات موسيقية عسكرية أو ائتناس بالناس. إن الحياة هكذا.

لقد وقعت بينهما احتكاكات صغيرة كثيرة بعد المشاجرة الكبرى. وما أكثر ما عادا إلى موضوع الخلاف: فتقول باربو: «لا تقل أكثر من هذا إن كنت عاقلاً. ودع جانباً ما فعلت بأبي وما إلى ذلك» فيقول أكسل: «حسن. ماذا فعلت» فتقول: «أوه. أنت تعرف ذلك جيداً، ولكن مع هذا كله لن تغدو مفتشاً على كل حال»، فيقول: «هوه» فتقول: «لا. لن يكون هذا، ولن أصدقه إلا عندما أراه يتحقق» فيقول: «أتعنين أنني لست جديراً بهذا المنصب» فتقول: «أوه. بل جدير وجدير... أنت على كل حال لا تعرف القراءة والكتابة، ولا تستطيع أن تتناول صحيفة لتنظر فيها» فيقول: «أما عن هذا، فأنا أعرف كيف أقرأ وأكتب كل ما أحتاج إليه. أما أنت، بكل ما فيك من ثرثرة ولفظ... فقد سئمتك» فتقول:

«حسن. إذاً إليك هذا على سبيل الابتداء» وتلقي على المائدة بالخاتم الفضي. فيقول بعد برهة: «هوه، وماذا عن الآخر؟» فتقول محاولة أن تخلع الخاتم الآخر: «إن كنت تريد استرداد خاتميك اللذين أعطيتني إياهما، ففي وسعك أن تنالهما»، فيقول: «تستطيعين أن تكوني من الخساسة حيث تريدين، وإن كنت تخالين أنه يعنيني...» ويمضي على هذه الوتيرة. وطبيعة الحال لا يمضي إلا وقت قصير جداً حتى تكون باربو قد لبست خاتميها مرة أخرى.

ويمضي الوقت أيضاً كفت عن الاكتراث بتاتاً بما يقوله عن موت الطفل فتكتفي عندئذ بشم الهواء وهز رأسها، لم يكن ذلك اعترافاً منها بشيء، وإنما هي تقول له فحسب: «حسن. وهبني أغرقته؟ إنك تعيش هنا في البرية فماذا تعرف عما يجري في أماكن أخرى؟». وذات مرة وهما يتكلمان في هذا الموضوع حاولت أن تحمله على الاعتقاد بأنه يأخذ الأمور كلها مأخذاً جدياً أكثر مما يجب. وأنها شخصياً لا تعير مسألة التخلص من طفل أهمية أكثر مما تستحق، فهي تعرف فتاتين في برجن فعلتا ذلك وعوقبت إحداهما بالسجن شهرين لأنهما لحماقتهما لم تقتلا الطفل بل تركته إحداهما في العراء متجمداً ومات، أما الأخرى فبرئت ساحتها. وقالت باربو: «لا؛ إن القانون ليس من القسوة الآن كما كان فيما مضى، ثم إن هذه الحوادث ليس حتماً لزاماً أن تكتشف على الدوام». وكانت ثمة فتاة في الفندق ببرجن قتلت طفلين. وهي من كريستيانيا، وترتدي قبعة- مزينة بالريش- وعاقبوها بالسجن ثلاثة أشهر على الطفل الثاني، أما الطفل الأول فقالت باربو إنه لم يُكشف أمره.

وكان أكسل يصغي لذلك كله ويزداد خوفه منها. وحاول أن يفهم ويتبين ما يدور في الظلام، ولكنها كانت على حق في النهاية، فهو ينظر

إلى الأمور على طريقته نظرة جدية أكثر مما يجب؛ فباربو بفجورها السوقي لا تستحق فكرة جدية واحدة، فقتل الأبناء ليس شيئاً في نظرها، فلا شيء خارق للعادة في قتل طفل، بل هي لا تفكر في ذلك إلا بالتحلل والخساسة الخلقية اللذين يُنتظران من فتاة خادم. وكان ذلك واضحاً أيضاً في الأيام التالية، فلم تستسلم لتفكير ساعة واحدة، بل هي منطلقة على سجيتها في يسر كالمعتاد، سادرة في ضحالتها وخرقها، فهي فتاة خادم لا صلاح لأمرها. وجعلت تقول: «لا بد أن أذهب لفحص أسناني. وأريد ثوباً من الطراز الجديد». وكان قد شاع طراز جديد من المعاطف القصيرة في السنوات الأخيرة، وباربو مصرة على الحصول على واحد منها.

أما وهي تأخذ الأمر كله مأخذاً هيناً، فماذا يسع أكسل سوى الإذعان. ولم يكن يخالجه على الدوام ريب فيها، فهي شخصياً لم تعترف؛ وكانت تنكر التهمة بين حين وحين، ولكن دون استنكار ودون إلحاح، كان الأمر تافهاً، على نحو ما تنكر فتاة خادم أنها كسرت صحيفة، سواء كانت قد فعلت ذلك أو لم تفعله؛ ولكن بعد أسبوعين لم يعد أكسل يطيق صبراً أكثر من هذا، فوقف فجأة وسط الحجرة وتبدى له كل شيء وقد تكشف لبصيرته كأنما بفعل وحي من السماء. لا بد أن كل إنسان لاحظ بوضوح حالتها، وكيف كانت مثقلة بجنينها الذي تحمله في أحشائها، ثم إذا قامتها كما كانت من قبل، ولكن أين الطفل؟ وهب آخرون جاؤوا يبحثون عنه؟ لا بد أنهم سيتساءلون عنه إن عاجلاً أو آجلاً. فلو لم يكن ثمة ما يعاب لكان من الأفضل دفن الطفل دفناً لائقاً في جبانة الكنيسة. لا هناك بين الشجيرات، فوق أرضه... فقالت باربو:

«لا. كان ذلك حرياً أن يثير ضجة إذ أنهم لا بد أن يشقوا الجثة ويفتحوا تحقيقاً وما إلى ذلك. ولن أكون بذلك أبعد إزعاجاً». فقال: «بشرط ألا يحدث ما هو أسوأ فيما بعد» فسألته باربو في استهانة: «وماذا يمكن أن يقلقك في ذلك؟ دعه راقداً حيث هو»، ثم ابتسمت وقالت: «تخاف أن يخرج من الحفرة ويطاردك؟ دع هذا الهراء كله ولا تعد للكلام فيه» فقال: «حسن...» فقالت: «أأنا أغرقت الطفل؟ لقد قلت لك إنه أغرق نفسه في الماء عندما انزلقت. أنا لم أسمع مثل هذا الذي يقوم برأسك، ثم إنه لم يكشف أمره» فقال أكسل: «ولكن أمر أنجر في سيلانرا كُشف مع هذا» فـفكرت باربو لحظة ثم قالت: «حسن لست أبالي أن القانون مختلف جداً في الوقت الحاضر. ولو كنت تطالع الصحف لعرفت ذلك. كثيرات جداً فعلن مثل هذا، ولم توقع عليهن عقوبات تستحق الذكر» وشرعت باربو تشرح له وتعلمه كي يتسع أفق نظره إلى الأمور فلم يكن بلا طائل خروجها إلى الدنيا الواسعة فتعلمت وسمعت كثيراً، فها هي جالسة قبالته الآن متفوقة عليه في كل شيء، وكانت لديه ثلاث حجج رئيسية تدلي بها إليه باستمرار، فهي أولاً لم تقترف ذلك الجرم. ثم إنه ثانياً ليس شيئاً فظيعاً على كل حال حتى لو كانت اقترفته. وهو ثالثاً لن يُكتشف. فاعترض على ذلك قائلاً: «كل شيء فيما يخيل إلي يُكتشف يوماً ما» فأجابته: «ليس هذا صحيحاً على طول الخط». وسواء أرادت أن تدهشه أو تشجعه ولعلها أرادت التباهي وإرضاء غرورها، فألقت على حين غرة قنبلة بقولها: «لقد فعلت شخصياً شيئاً لم يُكتشف قط» فقال غير مصدق: «أنت؟ ماذا فعلت؟» فقالت: «ماذا فعلت؟ قتلت طفلاً».

ولعلهـا لم تكن تنوي أن تمعن في الكلام إلى هذا الحـد، ولكنهـا تورطت الآن، وها هو يحملق فيها. ولم تكن هذه منها جرأة هائلة لا تقهر بل هي شجاعة مظهرية ورغبة سوقية في التظاهر. كانت راغبة في أن تبدو هائلة في نظره كي تخرسه، فصاحت: «ألا تصدقني؟ ألا تذكر ما روته الصحف عن جثة طفل عثر عليها في الميناء؟ كنت أنا الفاعلة» فقال: «ماذا؟» فأجابته: «جثة طفل أنت لا تتذكر شيئاً مطلقاً. لقد قرأنا عن ذلك في الصحيفة التي جئتني بها» وبعد لحظة انفجر صائحاً: «لا بد أنك جننت».

ولكن يبدو أن حيرته زادت في استثارتها وأمدتها بنوع من القوة الصناعية فإذا به تدلي له بالتفاصيل: «لقد كان معي داخل صندوقي، وكان ميتاً بالطبع فقد أجهزت عليه بمجرد ولادته، ولما صرنا في مياه الميناء ألقيت به في اليم».

وجلس أكسل مهموماً صامتاً ولكنها استطردت في روايتها: «لقد حدث ذلك منذ سنوات طويلة، حينما حضرت إلى مانلاند لأول مرة»، وها هو يرى أنه ليس كل شيء يفتضح دائماً، وعلى طول الخط: «وماذا كان يجري في الدنيا لو أن كل ما يفعله الناس افتضح؟ ماذا عن المتزوجين في المدن وما يفعلونه، إنهم يقتلون أطفالهم قبل أن يولدوا، فثمة أطباء يقولون هذا، إما لأنهم لا يريدون إلا طفلاً واحداً، أو طفلين على الأكثر، ولذا يكلفون طبيباً بالتخلص منه قبل أن يولد. هو لا حاجة بأكسل إلى الظن بأن هذا الشيء يعتبر من الكبائر في الدنيا العريضة. فقال أكسل: «هوه، إذاً فأنت فيما أحسب قد تخلصت من هذا الطفل الأخير أيضاً بنفس الطريقة» فأجابته بأقصى لهجات عدم المبالاة: «لا.

لم أقتله، لأني وقعت فأجهضت» ولكنها عادت فذكرت له كيف أنها حتى لو قتلته لما كان شيئاً فظيعاً، فواضح أنها تعودت التفكير في الموضوع على اعتباره أنه هين وطبيعي، فلم يعد يؤثر فيها الآن. ولعله أثّر فيها المرة الأولى بعض الشيء وقد يكون داخلها شعور محرج بأنها قتلت طفلاً. أما في المرة الثانية؟إنها تفكر في ذلك الآن في شيء من الحاسة التاريخية، باعتباره شيئاً حدث ويمكن أن يتكرر حدوثه.

وغادر أكسل البيت مثقل الخاطر. ولم يكن يشغل باله كثيراً أن باربو قتلت طفله الأول، فليس له بهذا شأن؛ وأنها قتلت طفلاً على الإطلاق قبل حضورها إليه ليس شيئاً ذا بال أيضاً، فهي ليست طفلة بريئة. ولم تدّع ذلك قط، بل الأمر بالعكس. وهي لم تحاول كتمان خبراتها، وكم من أمور علمته إياها في الظلام. وهذا حسن وجميل. أما هذا الطفل الأخير فلم يكن ليسلم بفقده طواعية، وهو ولد صغير، مخلوق صغير أبيض ملفوف في خرقة. فإن كانت قد اقترفت مقتل هذا الطفل فهي إذاً قد آذته -وهو أكسل- وحطمت رباطاً كان يعتز به ولا يمكن تعويضه. ولكن لعله يظلمها بعد كل شيء، فقد تكون انزلقت في الماء صدفة. ولكن ترك الخرقة؟ قطعة القميص التي أخذتها معها؟..

وفي غضون ذلك مرت الساعات وحل وقت الغداء، ثم المساء ولما أوى أكسل إلى فراشه ورقد محملقاً في الظلام فترة طويلة واتاه النعاس أخيراً ونام حتى الصباح، وعندئذ طلع نهار جديد، وتلت ذلك اليوم أيام أخرى..

وكانت باربو كالعهد بها تعرف أكثر مما يجب عن أمور الدنيا، ويسعها أن تأخذ باستخفاف أموراً كثيرة تافهة تعتبر في نظر أهل البرية من كبائر الأمور وفظائعها. وكان ذلك حسناً على نحو ما، فهي بارعة بما

يكفي لكليهما، عديمة المبالاة بما يكفي لكليهما أيضاً. ثم إنها لا تبدو مخلوقاً فظيعاً في حد ذاتها. باربو وحش؟ إطلاقاً، فهي فتاة مليحة ذات عينين زرقاوين وأنف مرفوع الطرف بعض الشيء، خفيفة اليد في عملها. وهي شديدة الضجر والسأم من حياة المزرعة والآنية الخشبية التي تحتاج إلى جهد كبير في التنظيف. ولعلها أيضاً ضجرة سئمة من أكسل ومن حياة الوحشة التي تحياها. ولكنها لم تقتل قط حيواناً من الماشية، ولم يضبطها أكسل قط واقفة فوق رأسه وفي يدها سكين في منتصف الليل.

ولم يعد للحديث في موضوع الجثة المدفونة في الغابة إلا مرة واحدة، فألح أكسل في أنه كان ينبغي دفنها في جبانة الكنيسة لأنها أرض مقدسة، ولكنها ثبتت على قولها إن أسلوبها أفضل، ثم قالت شيئاً دل على أنها تفكر على طريقتها الخاصة، وأنها ماكرة وترى إلى أبعد من طرف أنفها، وقادرة على التفكير بعقل المتوحش الصغير الحقير: «إن حدث أنه اكتُشف أمره، فسأذهب عندئذ وأتحدث إلى العمدة، فقد خدمت في بيته، وأنا واثقة أن عقيلته فراوهيردال ستحسن الشهادة في حقي. ليس كل إنسان يتيسر له أشخاص كهؤلاء يساعدونه، ومع ذلك يفلتون من العقاب. ثم هناك أيضاً أبي وهو على صلة بجميع الكبراء، وكان مساعد عمدة شخصياً، وما إلى ذلك» فهز أكسل رأسه، فسألته: «ما عيب هذا الكلام؟» فقال: «أتظنين أباك قادراً على عمل شيء!» فصاحت بغضب: «أنت أدرى بذلك بعد أن دمرته وأخذت مزرعته ونزعت اللقمة من فمه».

وبدا عليها أنه خامرها إحساس بأن سمعة أبيها قد تأثرت في الفترة الأخيرة، وأنها ربما منيت من وراء ذلك بخسارة، وماذا يمكن أن يقول أكسل في ذلك؟ لا شيء. فهو رجل مسالم. رجل عمل.

الفصل الثالث

تُرك أكسل ذاك الشتاء وحده مرة أخرى في مانلاند. فقد رحلت باربو من أجل تلك كانت النهاية.

قالت إن رحلتها إلى المدينة سوف لا تستغرق طويلاً، وليس الذهاب إليها مثل الذهاب إلى برجن، ولكنها لن تبقى هنا إلى أن تفقد سناً وراء سن حتى يصير فمها كفم العجل، فسألها أكسل: «وكم سيتكلف ذلك؟» فقالت: وكيف لي أن أعلم؟ إن الأمر على كل حال لن يكلف شيئاً لأني سأكسب النقود بنفسي» وشرحت له أيضاً لماذا يستحسن بالنسبة لها أن تذهب في ذلك الحين بالذات؛ فليس ثمة عندئذ سوى بقرتين للحلب. أما في الربيع فستكون ثمة بقرتان أخريان فضلاً عن جميع العنزات اللاتي سيكن قد وضعن جداءهن؛ والموسم يومئذ موسم العمل الكثير وسيظل الحال كذلك حتى شهر يونيو. فقال أكسل: «افعلي ما يحلو لك». ولن يكلفه الأمر شيئاً على الإطلاق. بيد أنه ينبغي أن يكون معها بعض المال في البداية. نقود قليلة لنفقات الرحلة وأجر طبيب الأسنان ثم يجب أن تحصل على ثوب من تلك الأثواب الجديدة، وعلى بضعة أشياء صغيرة أخرى. ولكن طبعاً، إن لم يكن يعنيه... فقال: «لقد حصلت على ما يكفي من النقود حتى الآن»

فقالت: «همم. لقد ذهبت كلها على أية حال» فسألها: «ألم تدخري منها شيئاً؟» فأجابت: «أدخر منها شيئاً؟ في وسعك أن تفتش في صندوقي إن شئت. إني لم أستطع أن أدخر شيئاً في برجن وكنت أحصل على أجر أعلى يومئذ». فقال: «ليست عندي نقود أعطيها لك»، فقد كان إيمانه ضئيلاً بإمكان عودتها على الإطلاق. وكانت قد سمحت حياته بأكثر مما ينبغي لسوء مزاجها لهذا السبب أو ذاك؛ حتى غدا عديم الاكتراث بها في النهاية. ومع أنه أعطاها نقوداً آخر الأمر، فالمبلغ لم يكن يستحق الذكر. إلا أنه لم يلق باله عندما وجدها تحتقب معها كمية هائلة من الطعام. وحملها في العربة بنفسه ومعها صندوقها إلى القرية لتستقل الباخرة. وانتهى الأمر.

وكان في وسعه أن يدبر شؤونه وحده في المزرعة، لأنه تعلم أن يصنع ذلك من قبل، ولكن الأمر كان مربكاً فيما يتعلق بالماشية، لأنه إن اضطر لمبارحة البيت فلن يبقى هناك من يُعنى بأمرها. واستحثه صاحب المتجر في القرية أن يستدعي أولين فترة الشتاء. فقد أقامت بسيلانرا سنوات من قبل. وهي الآن عجوز بالطبع، بيد أنها صالحة للعمل وقادرة عليه. وأرسل أكسل يستدعي أولين، بيد أنها لم تحضر ولم ترد عليه.

وفي هذه الأثناء عمل في الغابة ودرس محصول قمحه الصغير وعني بماشيته. وكانت حياته متوحدة هادئة. وبين حين وحين كان يمر به سيفرت في عربته من سيلانرا في طريقه إلى القرية ثم عائداً منها، حاملاً إلى القرية أحمالاً من الخشب أو الجلود أو منتجات المزرعة، ولكن قلما عاد من القرية إلى البيت بشيء فما أقل ما تحتاج سيلانرا الآن إلى شرائه. وبين حين وحين أيضاً كان يقبل بريد أولسن في دبيبه المألوف،

وقد أكثر من تردده في الأيام الأخيرة، ولا يدري هدفه من وراء ذلك. ويبدو أنه كان يحاول أن يجعل نفسه لا غنى عنه لرجال التلغراف في المدة القليلة الباقية، كي يحتفظ بمنصبه. ولم يعد يدخل لزيارة أكسل الآن إطلاقاً بعد رحيل باربو، بل يمضي في طريقه مباشرة في كثير من التعالي والتكبر لا يليقان بوضعه من حيث إنه لم يزل مقيماً في بريد ابليك ولم يغادرها. وذات يوم وهو بسبيل المرور قدم من غير أن يلقي ولو كلمة تحية، استوقفه أكسل وسأله متى ينوي أن يغادر المكان. فسأله بريد رداً على سؤاله: «وماذا عن باربو وقد غادرتك على تلك الحال؟» وأفضت الكلمات بعضها إلى بعض، حين قال بريد: «لقد طردتها دون مساعد أو موارد. حتى كادت ألا تصل إطلاقاً إلى برجن» فقال أكسل: «هوه. فهي إذاً في برجن؟» فأجابه: «نعم وصلت إلى هناك أخيراً، كتبت لي بذلك ولكن الفضل في هذا ليس لك» فقال أكسل: «سأخرجك من بريد ابليك، وبأسرع وقت» فقال الآخر باستهزاء: «نعم. إن تكرمت بذلك، ولكننا سنغادر المكان من تلقاء أنفسنا عند ابتداء العام الجديد» ثم مضى في سبيله.

إذاً فباربو ذهبت إلى برجن، وهذا ما خطر لأكسل. ولكنه لم يحزن؟ لا. بل إنه استراح للخلاص منها. وإن كان مع ذلك قد ساوره بعض الأمل حتى الآن في أنها ربما عادت. وذلك إحساس غير معقول، لأنه كان قد انتهى على نحو ما إلى التعلق بالفتاة أكثر مما ينبغي وهو شيطانه في صورة فتاة. فقد كانت لها لحظاتها العذبة التي لا تنسى. وهو قد تعمد تعويقها عن الهرب إلى برجن عندما أعطاها ذلك المبلغ الضئيل لنفقات الرحلة بيد أنها توجهت إلى هناك رغم كل شيء. وكانت

خائفة. إن ثيابها لم تزل معلقة في البيت. وثمة أيضاً قبعة من القش محلاة بأجنحة الطيور ملفوفة في الورق في السقيفة، ولكنها لم تحضر لأخذها. ياه. لعله حزن بعض الشيء فحسب. ووصلت الصحيفة التي رتبها لها أسبوعياً كأنما تعمدت بوصولها أن تسخر منه وتغيظه وهو في كربه. ولن تكف الصحيفة عن الوصول حتى بداية العام الجديد. ولكن لا بد له من التفكير في أموره الأخرى. وينبغي عليه أن يكون رجلاً.

عليه في الربيع القادم أن يقيم سقيفة ملاصقة لجدار البيت الشمالي. ولا بد من إسقاط الخشب ذاك الشتاء وقطع الكتل والألواح. ولم تكن لدى أكسل أشجار أخشاب تستحق الذكر، فهي لا تنمو متقاربة، ولكن ثمة بعض أشجار شربين ثقيلة متناثرة هنا وهناك. على مشارف أرضه. وقد وضع العلامات على تلك الأشجار في الجانب المتاخم لسيلانرا كي تكون أقرب ما يمكن حين يحمل أشجاره إلى المنشر. وهكذا قدم لسائمته علفاً استثنائياً يقيمها حتى المساء وأغلق الأبواب وراءه وخرج لإسقاط الأشجار حاملاً معه فضلاً عن البلطة وسلة الطعام كباشو لإخلاء الأرض من الجليد. وكان الجو لطيفاً. فبعد أن ثارت عاصفة ثلجية ثقيلة في اليوم السابق سكنت الآن وتوقفت. وتتبع الخط التلغرافي على طول الطريق إلى الموضع ثم خلع سترته وأكب على العمل. وما إن تسقط شجرة حتى ينزع فروعها فلا يُبقي إلا الجذع نظيفاً، ويكوم الأخشاب الصغيرة أكواماً.

ومر به بريد أولسن في طريقه مصعداً، ولا بد أن تكون ثمة متاعب في الخط بعد عاصفة الأمس. أو لعل بريد لم يخرج في مهمة محددة، بل بدافع من مجرد الحمية للعمل، فهو شديد الحرص على واجبه في المدة

الأخيرة. ولم يتبادل الرجلان كلاماً، بل لم يرفع أحدهما يداً للآخر بالتحية. وكان الجو قد أخذ في التغير مرة أخرى. وبدأت الريح تثور. وفطن أكسل لذلك بيد أنه مضى في عمله، وكان الوقت قد تجاوز الظهر بأمد طويل وهو لم يأكل بعد. وإذ هو يسقط شجرة شربين كبيرة بعد ذلك، حدث أن كان موضعه في طريق سقوطها فألقته على الأرض. ولم يكد يدري كيف حدث ذلك. بيد أنه هكذا كان. شجرة شربين كبيرة تتأرجح من جذورها، ويريدها المرء أن تسقط في اتجاه ما بيد أن العاصفة ترسم لها اتجاهاً آخر. وللعاصفة الكلمة العليا في ذلك. وكان حرياً أن ينجو لولا أن سطح الأرض كان مطموراً تحت الثلج، فلما خطا أكسل جاءت خطوته على خلاء فاختل توازنه وسقط في شق صخري متاخم لصفاة وسمَّره هناك ثقل الشجرة.

حسن. وماذا بعد ذلك؟ إنه كان لم يزل حرياً أن ينجو ولكن تصادف أنه سقط سقطة مربكة فلئن لم يكسر من عظامه شيء على حد ما يعلم، إلا أنه التوى بطريقة ما فلم يستطع أن يجر نفسه. وبعد برهة استطاع تحرير إحدى يديه، واعتمد على اليد الأخرى، بيد أن البلطة كانت بعيدة عن متناوله. ونظر حوله، وأخذ فكرة عن الموقف كما كان لأي حيوان وقع في فخ أن يصنع، ثم حاول أن يجد لنفسه مخرجاً من تحت الشجرة. ولا بد أن بريد سيأتي في طريقه هابطاً إلى بيته قبل مضي وقت طويل، وبهذا جرى تفكيره ومنح نفسه مهلة يهدأ فيها.

ولم يدع الأمر يكربه كثيراً في البداية. فلم يزعجه إلا أن يضيع وقت العمل. ولم يخطر بباله أنه في خطر، ودع عنك أن حياته مهددة. أجل إنه يشعر بيده التي يتكئ عليها يسري فيها الخدر وتموت، وبقدمه

التي في الشق الصخري تبرد وتصبح لا حيلة لها. ولكن لا بأس، فلا بد أن يمر بريد سريعاً.

ولم يحضر بريد.

واشتدت العاصفة، وشعر أكسل بالجليد يرتطم بوجهه بشدة. وقال لنفسه إنه يتساقط الآن بعنف، ومع ذلك لم ينزعج كثيراً. وأخذ يطوف بعينيه خلال الثلج لينظر حوله. فقد بدأت الأمور تتحرج الآن وبعد برهة طويلة أطلق صرخة واحدة. ولم يستطع الصوت أن يمضي بعيداً في النوء إلا أنه قد يسري على طول الخط صوب بريد. وظل أكسل ملقى هناك تدور في رأسه ألوان من الأفكار الباطلة لا نفع فيها: ليته يستطيع أن يصل بيده إلى البلطة فيتسنى له أن يشق لنفسه مخرجاً: لو استطاع فقط أن يخرج يده، فهي مغروسة في شيء حاد في حافة الصخرة، والصخرة تشق في ظاهر يده طريقها بهدوء وسكينة. فلو لم تكن هذه الصخرة الجهنمية هناك.. ولكن ما من إنسان سمع حتى الآن بعمل من أعمال الرحمة تقوم به صخرة.

إن الوقت قد بات متأخراً الآن. وهو يزداد تأخراً، والجليد يتراكم سميكاً. وأوشك أكسل نفسه أن يطمر تحت الثلج. والثلج يتراكم عليها فيأكل لقماً ضخمة كبيرة ثم يطلب المزيد. وليته كان مرتدياً سترته فالجو يزداد برودة. ويطلق صرخة أخرى متناوحة.

وها هو بريد. يقف في طريقه جامداً وينظر إلى الرجل الذي ينادي. ولكن وقفته لا تطول إلا لحظة وكأنه يريد فقط أن يرى ما المسألة. ويناديه أكسل بصوت ضعيف بعض الشيء: «ناولني هذه البلطة من فضلك» ويشيح بريد بنظره بسرعة وقد أدرك تمام الإدراك الآن ما

المسألة، ويرفع نظره إلى أسلاك التلغراف ويبدو عليه أنه أخذ يصفر. فماذا يعني بذلك؟ ويصيح أكسل بصوت أعلى: «ناولني البلطة. ألا تستطيع ذلك؟ إني مسمر هنا تحت الشجرة». ولكن بريد صار الآن مملوءاً بالحماسة لواجبه بصورة غريبة، فهو مستمر في التطلع إلى أسلاك التلغراف والصفير طوال الوقت. وألق بالك أيضاً إلى أنه يصفر فيما يلوِّح بابتهاج وكأنه يتشفّى. وصاح أكسل: «هوه. إذاً أنت تريد أن تقتلني. ولا تريد أن تناولني البلطة؟» وما إن قال ذلك حتى بدا وكأن عطباً حدث أسفل الخط اضطر بريد أن يسرع لتلافيه في موضعه بغير إهمال، فانطلق ولم يلبث أن اختفى عن الأنظار وسط الجليد المتساقط.

هوه - هذا حسن وجميل، ولكن قد يكون من الأفضل على وجه العموم أن يتمكن أكسل دون مساعدة من أحد من الوصول إلى البلطة. وها هو يشد جميع عضلات صدره كي يرفع العبء الهائل الذي يثقله وتتحرك الشجرة، ويشعر باهتزازها ولكن كل ما يجنيه من وراء ذلك وابل من الجليد. وبعد عدة محاولات أخرى يكف.

إن الظلام يزداد الآن تكاثفاً. لقد ابتعد بريد، ولكن إلى أين عساه وصل الآن؟ ويصرخ أكسل مرة أخرى ويتفوه ببضع كلمات صريحة (فوق البيعة) قائلاً: «أتتركني هنا أموت وكأنك قاتل؟ أليست لك روح أو تفكير في العالم الآخر؟ لك مني ما يعادل ثمن بقرة على الأقل إن أنت مددت لي يد العون، ولكنك كلب، وهكذا كنت دائماً يا بريد إذ تترك رجلاً يموت. ولكن الناس سيعرفون الحقيقة لا محالة، سيعرفون أني كنت ملقى هناك وأنك لم تشأ أن تتقدم وتناولني تلك البلطة...

وساد الصمت. واستجمع أكسل قوته لرفع الشجرة مرة أخرى.

فرفعها قليلاً وانهال عليه وابل من الجليد، فكف عن معاودة الكرة وزفر. إنه الآن في حالة إعياء وبه ميل للنعاس. إن الماشية في البيت وستظل قائمة في الكوخ تخور طالبة الطعام لأنها لم تحصل على مضغة أو قطرة منذ الصباح. وباربو غير موجودة لتعنى بها الآن. لا. إن باربو ذهبت. ولت هاربة وأخذت معها خاتمها الذهبي والفضي. إن الظلام الآن مخيم. إنه المساء. إنه الليل. حسن. حسن ولكن ثمة أيضاً البرد، يجب أن يحسب حسابه. إن لحيته تتجمد وعمّا قريب ستتجمد عيناه أيضاً. آه لو كان عليه سترته المعلقة فوق الشجرة هناك... وها هي الآن ساقه - إنها لا يمكن أن تكون كذلك بالتأكيد- ولكن إحدى الساقين على كل حال يشعر بها وكأنها ميتة حتى الفخذ. وقال في نفسه: «إن كل شيء بيد الله» ويبدو أنه ليستطيع الكلام بتقوى وتدين حينما يشاء. إن الظلام يشتد أجل، ولكن الإنسان يمكن أن يموت من غير ضياء مصباح. إنه يشعر في كل جسمه برخاوة وارتياح، وباتضاع خالص يبتسم في بلاهة ورقة للعاصفة الجليدية من حوله، إنه جليد الرب. شيء بريء، أجل، في وسعه أيضاً أن يغفر حتى لبريد ولا يقول عن فعلته كلمة واحدة...

إنه هادئ جداً الآن، وميله للنعاس يزداد، كأنما يسري فيه سم ويخدره، وثمة بياض أكثر مما ينبغي أمام نظره في كل اتجاه. في الغابة والأراضي المنبسطة. كأنه أجنحة عظيمة وأوشحة بيضاء، وأشرعة بيضاء. بيضاء بيضاء... ماذا يمكن أن يكون ذلك؟ هراء يا رجل، إنه يعلم تمام العلم أن هذا ليس سوى جليد. فهو منطرح وسط الجليد. فهو ليس واهماً في انطراحه هناك مسمراً تحت شجرة.

ويصيح مرة أخرى عباطاً، ويطلق زئيراً. ها هو الجليد ينفخه صدر رجل عريض مشعر في زئير وهو يجأر كي يسمعه من في الكوخ مراراً وتكراراً، ويصيح في أثر بريد مرة أخرى: «أنت خنزير ووحش. أنت لا تفكر في مغزى تركك إياي ملقى إلى أن أهلك. ولا تمد يدكَ لتناولني البلطة. وهذا كل ما طلبته منك. وتسمي نفسك رجلاً. أم أنت بهيمة من بهائم الحقل؟ حسن. اذهب في سبيلك. وحظاً سعيداً لك إن كنت تريد حقاً أن تمضي...»

ولا بد أنه أغفى. فقد أمسى كله متصلباً وبلا حياة. بيد أن عينيه مفتوحتان، إنهما غارقتان في الثلج ولكنهما مفتوحتان. ولا يستطيع أن يحركهما أو يطرف بهما. أتراه كان نائماً وهو مفتوح العينين؟ لعله أغفى ثانية واحدة. أو ساعة، الله أعلم، ولكن ها هي أولين واقفة أمامه وفي وسعه أن يسمعها تسأله: «باسم يسوع تكلم وقل هل بك من حياة؟» ثم تسأله أهو حقاً الراقد هناك، وهل فقد عقله؟ وفي أولين دائماً شيء من ابن آوى، فهي تتشمم وتقتفي الأثر بحاسة الشم فإذا بها في الموضع الذي يقع فيه المحذور. فهي دائماً تتعرفه بأنفها؛ وكيف كانت عسية أن تشق طريقها في الحياة إطلاقاً لو لم تكن على هذه الشاكلة؟ إن رسالة أكسل وصلتها، رغم سنوات حياتها السبعين عبرت السهل الجليدي لتأتي إليه. لقد عوقها الجليد في عاصفة اليوم السابق وهي في سيلانرا، ثم استأنفت طريقها إلى مانلاند فلم تجد أحداً هناك «فأطعمت الماشية ووقفت أمام الباب تصيخ السمع، ثم حلبت الأبقار في ميعاد الحلب، وأرهفت السمع مرة أخرى. ماذا سمعت؟... وقد تناهت إليها صرخة فهزت رأسها، قد يكون هذا الصائح أكسل، وقد تكون صيحة «عمار التل» من الشياطين - ومهما يكن من شيء فلا بد من التشمم

والتقصي والوصول إلى المصدر الحقيقي. وتعرف حكمة العلي القدير الذي بيده الظلام والغابة وكل شيء، والذي لن يسمح بإيذاء أولين التي ليست أهلاً لحل رباط نعله...

وها هي واقفة هناك.

البلطة؟ وجعلت أولين تحفر وتحفر في الجليد ولم تجد البلطة. يجب العمل بدونها إذاً. وتحاول أن تستجمع قوتها لترفع الشجرة من مكانها، ولكن قوتها لا تزيد على قوة طفل صغير فكل ما تستطيعه هو أن تهز الأغصان هنا وهناك. وتحاول العثور على البلطة مرة أخرى، والظلام مخيم بيد أنها تحفر بيديها ورجليها وأكسل لا يستطيع أن يحرك يده ليشير إلى موضع البلطة، وقصاراه أن يخبرها أنها كانت ملقاة من قبل، ولكنها لم تعد موجودة هناك. فقال أكسل: «لو لم تكن سيلانرا بعيدة هكذا» وتشرع أولين في البحث كما يتراءى لها وأكسل يناديها قائلاً: «إنه لا بلطة في هذا الموضع» فتقول: «حسن. كنت أفتش عنها قليلاً. وما هذا؟» فيسألها: «أين وجدتها؟» فتجيب أولين بكلمات رنانة: «نعم. بفضل المولى سبحانه».

لقد زايلت أكسل كبرياؤه الآن. فهو يعترف بخطئه، وأنه ربما كان مختلط التفكير. فماذا عساه يصنع بالبلطة الآن بعد العثور عليها؟ إنه عاجز عن الحركة. فوجب على أولين أن تقوم بتحريره بنفسها. وكانت أولين في زمانها تحسن استعمال البلطة. وكم من أحمال الحطب احتطبتها من الغابة بالبلطة في أيامها الخوالي.

ولم يستطع أكسل أن يمشي، فإحدى رجليه ميتة حتى الفخذ. وثمة خلل في ظهره، والآلام تجعله يئن. فهو لم يعد يشعر إلا بجزء من نفسه

وكأنه غادر بضعة منه وراءه تحت الشجرة. فقال: «لست أدري لست أدري ماذا أصابني» ولكن أولين كانت تدري، وراحت تخبره بذلك في كلمات جادة. أجل إنها قد أنقذت من الموت مخلوقاً بشرياً، وهي تعلم هذا، وقد شاءت حكمة العلي القدير أن تلقي على كاهلها هذه المهمة التي كان في مقدوره تعالى أن يبعث للقيام بها سرية من الملائكة؟ فليتدبر أكسل نعمة العلي القدير عليه وحكمته التي لا حد لها، حتى في هذا الجانب، فقد شاءت إرادته أن يرسل بدلاً منهم دودة حقيرة من ديدان الأرض. فكل شيء ممكن لديه تعالى فقال أكسل: «أجل. أعرف هذا. ولكني لا أستطيع أن أتبين ماذا أصابني، إني أشعر بشعور غريب....».

تشعر بشعور غريب؟ انتظر إذاً برهة يسيرة. فما عليك إلا أن تتحرك وتمد أعضاءك أهون امتداد في كل مرة إلى أن ترتد إليك الحياة وليلبس سترته ليشعر بالدفء. ولكنها لن تنسى ما عاشت كيف ناداها ملاك الرب كي تقف بالباب تلك المرة الأخيرة؛ كي تسمع صوتاً صارخاً في الغابة. أجل ما أشبه هذا بما كان في الفردوس عندما نفخ في الأبواق وطوقت أسوار أريحا...

هذا عجيب، أجل. ولكن فيما هي تتحدث، كان أكسل يمضي على مهل شديد، ويتعلم من جديد كيف يستخدم أعضاءه، وكيف يمشي. وهكذا سارا ببطء نحو البيت، وأولين مستمرة في القيام بدور المنقذة وهي تسنده، وبعد قليل التقيا ببريد فقال: «ماذا جرى؟ هل أعطبت نفسك؟ دعني أساعدك قليلاً. ولم يلق إليه أكسل باله، فقد تعهد للرب ألا ينتقم وألا يبوح بما صنعه به بريد. ولكنه فيما عدا ذلك وفيما يصنع

وفـيـمَ مـضى بريد في هذا الاتجـاه مـرة أخـرى؟ هل رأى أن أولين في مانلاند، فاستنتج أنها ستسمع الاستغاثة؟

واستطرد بريد في يسر: «وهل أنت ذي هنا يا أولين؟ أين وجدته؟ تحت شجرة؟ هذا أمر عجيب، فقد كنت منذ قليل جداً في تلك الجـهة لأداء واجبي على طول الخط، وخـيل إلي أني سـمعت أحـداً يصـرخ، ونظرت حولي وأصغيت بسرعة البرق، فبريد الشخص الذي يقدم العون للمحتاج. إذاً فأكسل كان صاحب الاستغاثة؟ أتقولين إنه كان ملقى تحت شجرة؟» فقال أكسل: «نعم. وأنت تعلم هذا جيداً، لأنك رأيت وسمعت أيضـاً، بيـد أنك لم تمد يدك بالعون...» فصاحت أولين مشـدوهة: «يا إلهي: خلصنا يا رب، ويحي أنا الخاطئة...» وقال بريد موضحاً: «أنا رأيت؟ طبـعـاً رأيتك بكل وضوح، ولكن لماذا لم تناديني، كـان يجب أن تناديني لو كان بك سوء. لقد رأيتك تماماً، ولكن لم يخطر لي سوى أنك مستلق لتستريح قليلاً». فقال له أكسل محذراً: «يحسن ألا تقول أكثر من هذا فـأنت تدري تمامـاً أنك تركـتني هناك على أمل ألا أنهض مـرة أخرى».

وتبينت أولين طريقها عندئذ: إن بريد ينبغي ألا يسمح له بالتدخل في هذا الموضوع. يجب ألا يكون بها غنى، ولا يصح أن يعترض شيء ما بينهما وبين أكسل بحيث يقلل من دينه لها. إنها هي التي أنقذته. وبمفردها، ولذا دفعت بريد جانباً ولم تسمح له حتى أن يحمل البلطة أو سلة الطعام. إنهـا في هذه اللحظة في صف أكسل كليـة - ولكن المرة القادمة عندما تذهب لدى بريد وتجلس لتحدثه وهما يحتسيان القهوة، ستكون في جانبه هو.

وقال بريد: «دعيني أحمل البلطة والأشياء الأخرى على كل حال». فقالت أولين وهي تُعنى بأكسل: «كلا. سيحطمها بنفسه» واستطرد بريد: «كان عليك أن تناديني على كل حال، فلسنا عدوين لدودين إلى درجة ألا توجّه إلي كلمة؟ هل ناديت؟ إذاً كان يجب أن تصيح حتى أسمعك. فقد كان النوء على أشده وما إلى ذلك. وكان يجب - على الأقل- أن تلوح بيدك..» فأجابه أكسل: «لم أكن أملك التلويح بيدي. وكنت ترى جيداً حالتي وكيف كنت مقيد الحركة من جيمع الوجوه فقال بريد: لا. أقسم إني لم أتبين ذلك. ولم أسمعك. هيا دعني أحمل هذه الأشياء» فتدخلت أولين قائلة: «دعه وشأنه فهو معطوب واهن».

ولكن ذهن أكسل عاد إلى نشاطه الآن مرة أخرى. لقد سمع بأولين من قبل، ويدرك أنه سيتجشم الكثير فوق ما تسمم به حياته إن تركها تدعي أنها أنقذت حياته بمفردها، فمن الخير أن يتقاسما ذلك الفضل إلى أبعد مدى ممكن؛ ولذا ترك بريد يحمل السلة والأدوات، على أساس أن ذلك يريحه ويخفف عنه، بيد أن أولين ما كانت لتقر هذا، فجذبت السلة منه، فهي دون سواها التي ستحمل كل ما يحتاج إلى حمل. وهكذا نشبت الحرب بين أطراف من السذاجة الماكرة. وترك أكسل بلا سند لحظة، فاضطر بريد أن يسقط السلة من يده ليمسك به، مع أنه كان في مقدور أكسل أن يقف بمفرده الآن فيما يلوح.

وسار ثلاثتهم قليلاً على هذا المنوال: بريد ممسكاً بذراع أكسل، وأولين تحمل الأشياء. وتأججت في صدرها مراجل الغضب لأنها تحمل هذه الأشياء وتقوم بذلك الدور الحقير حقاً، إذ تحمل سلة بدلاً من مساندة رجل لا حيلة له. وماذا يريد بريد بالقدوم في هذا الاتجاه إطلاقاً، يا له

من رجل شيطان. وقالت: «ما هذا الذي يقوله الناس يا بريد! هل بعت مزرعتك وكل شيء فيها!» فقال بريد بجرأة: «ومن الذي يريد أن يعرف هذه الأمور!» فقالت: «لم يخطر ببالي أنها أمور سرية لا يجوز معرفتها» فقال: «لماذا لم تحضري المزاد وتزايدي مع الآخرين!» فقال: «أنا! نعم، مثلك يهزأ بالمساكين أمثالي» فقال: «حسن لقد ظننتك أثريت وعظم شأنك. أليس الشيخ سيفرت قد ترك لك صندوقه وكل ما فيه من الأموال. هي هي هي...».

ولم تَسُرَّ أولين من قلبها تذكيرُه إياها بتلك الوصية فقالت: «أجل إن الشيخ سيفرت فكر فيّ بعطف ولن أقول غير هذا. ولكن ما إن مات وانقضى أمره حتى لم يتركوا لي مما خلفه من عروض الدنيا إلا القليل. وأنت تعرف شخصياً ما معنى أن يجرد الإنسان من كل شيء ويضطر للعيش تحت سقف إنسان آخر؛ ولكن الشيخ سيفرت في جنات النعيم ومنازل الأبرار الآن. أما أمثالك وأمثالي فما زالوا على الأرض يوطؤون بالأقدام». فقال بريد باستخفاف: «هوه يا لك ولكلامك» ثم التفت قائلاً: «إني سعيد بقدومي في الوقت المناسب لمساعدتك على العودة إلى البيت؛ ألست أسرع الخطى أكثر مما ينبغي!» فأجابه أكسل: «لا».

أما أن يتحدث الإنسان إلى أولين ويقف أمامها ليجادلها، فذلك أمر لم يقدم عليه رجل إلا وخرج بصفة الغبون. فمحال أن تذعن، ولم يعرف بعد من هو ندٌّ لها في طي الأرض والسماء، لتصنع منهما خليطاً من الرحمة الظاهرية والخبث، ومن السم المدسوس في ألفاظ لا معنى لها. وها هو بريد الآن يتجاسر على أن يقول في مواجهتها كلاماً يزعم به أنه هو الذي يعود بأكسل إلى البيت. وانبرت تقول: «كنت أريد أن

أقول إن أولئك السادة الذين حضروا تلك المرة إلى سيلانرا، هل استطعت أن تريهم شيئاً من كل زكائب الحجارة التي جمعتها يا بريد!» فقال بريد: «دعني يا أكسل أحملك على كتفي بقية الطريق» فقال أكسل: لا. وإن كان كرماً منك أن تعرض عليّ هذا».

وهكذا ساروا، ولم تعد المسافة الآن طويلة، فيجب أن تبذل أولين غاية جهدها فيما بقي من الوقت، فقالت: «كان الأفضل أن تنقذه عندما كان على شفا الموت. ولكن كيف أمكنك يا بريد وقد قررت به ورأيته بين أنياب الهلاك وسمعت صراخه ولم تقف لتمد له العون؟» فقال بريد: «اعقلي لسانك». وكان الموقف حرياً أن يكون أسهل بالنسبة لها لو أنها عقلت لسانها وهي تخوض خوضاً عميقاً في الجليد، مقطعة الأنفاس ثقيلة الحمل. ولكن أنّى لأولين أن تعقل لسانها. وكان قد بقي لديها رصيد احتياطي مما لذ وطاب. وكانت المسألة من النوع الذي يكتنف الكلام فيه خطر، ولكنها جاسرت قائلة: «وباربو؟ كيف أحوالها الآن؟ لعلها لم تلذ بأذيال الفرار؟» فقال بريد بغير مبالاة: «بلى فرت. وتركت لك مكاناً شاغراً بفرارها هذا لتشغليه هذا الشتاء». وهكذا أتيحت لأولين فرصة من الطراز الأول وفي وسعها الآن أن تريه أي شخصية هي، وكيف أنه لا يستطيع إنسان أن يسوس أموره طويلاً دون أولين، أولين التي لا بد من الإرسال في طلبها طال المدى أو قصر، ولو لبّت كل دعوة لكان عليها أن توجد في مكانين، بل وفي ثلاثة أمكنة في وقت واحد، فثمة بيت القس، وهم يتمنون الفوز بها هناك أيضاً. وهناك موضوع آخر من الخير أن يسمعه أكسل بأذنيه أيضاً، وهو أنهم عرضوا عليها مبلغ كذا وكيت عن مدة الشتاء، بخلاف حذاء جديد وفروة غنم (فوق البيعة)

ولكنها كانت تدري ما هي صانعة حين جاءت إلى مانلاند، لدى رجل يعطي عطاء السادة ويضاعف لها ما يعطيه الآخرون. ولذا جاءت. كلا؛ لا حاجة ببريد إلى تجشيم نفسه المشقة في هذا المجال، فأبوها الذي في السماء ظل يرعاها طوال هذه السنين وفتح أمامها هذا الباب وذاك وأمرها أن تدخل. وكأنما كان الرب نفسه يرمي إلى حكمة يعرفها سبحانه حين وجه خطاها في ذلك اليوم في مانلاند كي تنقذ حياة أحد مخلوقاته على الأرض.

وكان الإعياء قد نال من أكسل مرة أخرى حينئذ فلم تكد رجلاه تقويان على حمله ولاح عليه أنه يوشك أن يتداعى، ومن الغريب أن حالته كانت قد تحسنت تدريجياً فصار قادراً على المشي حتى كأن الحياة والدفءَ قد ارتدا إلى بدنه. أما الآن فلا بد له من الاتكاء على بريد ليستند إليه؟ وبدأ ذلك فيما يلوح عندما شرعت أولين تتكلم عن أجرها. ثم ساءت الحالة فوق سوئها عندما عادت للكلام عن إنقاذها حياته. فهل تراه يحاول التقليل من انتصارها مرة أخرى؟ الله أعلم. ولكن يبدو أن ذهنه استعاد نشاطه. واقتربوا من البيت فوقف وقال: «يظهر أني لن أقوى على الوصول إلى هناك بعد هذا كله» فرفعه بريد على كتفيه دون كلام وحمله حملاً، وكذلك مضوا، وأولين تغلي مراجل غلها، وأكسل محمولٌ بطوله فوق ظهر بريد. وقالت أولين: «كنت أريد أن أقول، ألم تكن باربو حاملاً شهوراً طويلة؟» فقال بريد وهو يئن تحت حمله: «حامل؟» ويا له من موكب غريب ولكن أكسل تركه يحمله المسافة كلها إلى أن وضعه على عتبة بيته، وراح يشهق ويزفر بقوة لانقطاع أنفاسه. وسألته أولين: «ولكن... هل وضعت جنينها بعد كل

شيء؟» فقاطعها أكسل بسرعة قائلاً لبريد: «لست أدري كيف كان يسعني أن أصل إلى البيت دونك» ولم ينسَ أولين فقال: «وبدونك أنت أيضاً يا أولين وقد كنت أول من عثر عليّ. إنني أشكركما على صنيعكما كله».

وهكذا تم إنقاذ أكسل.

ولم يكن لأولين حديث في الأيام القليلة التالية سوى الحدث العظيم. ولاقى أكسل عناء شديداً في الحد من جموحها. فكانت أولين تشير إلى البقعة التي كانت واقفة فيها بالحجرة عندما ناداها ملاك الرب كي تخرج إلى الباب وتسمع صيحة استغاثة. وعاد أكسل إلى عمله في الغابة، فلما أسقط من الشجر كفايته بدأ ينقله بالعربة إلى المنشر في سيلانرا.

وكان العمل في ذلك الشتاء طيباً منتظماً طوال مدته، فهو يحمل الخشب الغفل إلى هناك ويعود بألواح وكتل منشورة. وكان المهم أن يسرع ويفرغ من ذلك قبل العام الجديد، فعندئذ يخيم الصقيع بصورة جدية ويعجز المنشار عن العمل. وها هي الأمور تمضي على ما يرام وكل شيء وفق الغرض المنشود. وإذا اتفق قدوم سيفرت من القرية بزحافته خالية وقف وحمل معه شجرة على سبيل المساعدة لجاره. ويتبادل الاثنان الأحاديث في أمور شتى، وكل منهما فرح بحديث صاحبه. فيسأله أكسل: «ما الأخبار في القرية؟» ويقول سيفرت: «لا شيء ذا بال. فهناك رجل قادم لحيازة أرض فيما يقولون».

رجل جديد. لا شيء في ذلك. وإنما هو أسلوب سيفرت في إلقاء الخبر. فأناس جدد يأتون الآن كل سنة أو نحوها لحيازة أرض فثمة خمسة مُلأّك أدنى بريد ابليك في الوقت الحاضر؛ أما في المنطقة العليا فالأمور

تمضي بمزيد من البطء مع أن التربة أخصب في ذلك الاتجاه؛ وكان أبعد من غامروا إسحق، عندما استقر في سيلانرا، فكان الأجرأ والأحكم من بينهم جميعاً. وبعد ذلك جاء أكسل شتروم والآن جاء رجل جديد أيضاً. وسيحصل هذا الرجل الجديد على بقعة كبيرة من الأرض الصالحة للزراعة ومن الغابة أدنى مانلاند. فثمة أرض كافية.

وسأله أكسل: «أسمعت أي صنف من الرجال هو؟» فقال سيفرت: «لا. ولكنه سيأتي معه ببيوت تامة الصنع كي يركبها في وقت لا يذكر» فقال أكسل: هوه. أهو رجل غني إذاً؟» فأجابه سيفرت: «نعم يبدو هذا. ومعه زوجة وثلاثة أطفال وحصان وماشية». فسأله أكسل: «إنه إذاً رجل ثري ثراءً كافياً. وهل عرفت عنه المزيد؟» فأجابه سيفرت: «لا. وهو في الثالثة والثلاثين» فسأله أكسل: «وما اسمه؟» فأجابه: «يقولون إن اسمه هارون، وسيسمي مزرعته ستوربورج*» فقال أكسل: «ستوربورج؟ همم. إنه ليس بالمكان الصغير إذاً» فقال سيفرت: «وهو قادم من الساحل. وكانت لديه مسمكة هناك فيما يقولون». فقال أكسل: «همم. مسمكة. أتراه يعرف شيئاً كثيراً عن الزراعة؟ أهذا كل ما سمعته؟ ألم تسمع أكثر من هذا؟». فقال سيفرت: «لا. وقد أدى الثمن كله نقداً مقابل مستندات الملكية. هذا كل ما سمعته. ويقولون إنه قد جمع ولا شك من مسمكته مالاً طائلاً. وسيشرع الآن هنا في افتتاح متجر» فقال أكسل: «هوه. متجر؟» فقال سيفرت: «نعم. هكذا يقولون» فقال أكسل: «همم إذاً سيفتتح متجراً؟».

وكان هذا هو الخبر الوحيد المهم حقيقة. وأخذ الجاران يتبادلان الحديث في هذا الموضوع عن جيمع نواحيه وهما يقودان العربة. وإنه لنبأ

عظيم فلعله أعظم حدث في تاريخ المنطقة كلها. وما أكثر ما يمكن أن يقال في هذا الصدد. فمع من عسى هذا الرجل الجديد أن يتاجر؟ أمع الثمانية الذين استقروا في الأراضي العامة؟ أم عساه يقدر الحصول على عملاء من القرية أيضاً؟ إن المتجر يعني على كل حال شيئاً كثيراً بالنسبة لهم؛ إذ من المحتمل أن يجتذب مزيداً من المتوطنين، فتزيد قيمة الأراضي. من يدري.

وظلا يتحدثان في الموضوع وكأنهما لن يكلا من ذلك الحديث. أجل فها هنا رجلان لهما مصالحهما وأهدافهما الخاصة، وهي في نظرهما تعدل في جسامتها مصالح وأهداف غيرهما من الرجال. فالتوطن في البرية عالمهما. والعمل ومواسمه وفصوله والحاصلات هي مغامرات حياتهما. أفليس هذا الاهتمام وذلك التوفز كافيين؟ أجل هما كافيان جداً؛ فكم من مرة لم يناما إلا القليل، وكم من مرة ظلا يعملان وقتاً طويلاً بعد حلول ساعات الطعام. بيد أنهما كانا يواظبان ويتجلدان، ولم يحق بهما من ذلك ضير. إن الاستلقاء على الأرض سبع ساعات مسمراً تحت شجرة ضخمة لم يكن ليفسد حياتهما مادامت الأعضاء صحاحاً. عالم ضيق وحياة لا مطامع كبرى فيها! نعم حقاً وماذا عن هذا المتوطن الجديد في ستوربورج، الذي سيقيم حانوتاً ومخزناً هنا في البرية، أليس ذلك مطمحاً كافياً! وظلا يتحدثان في ذلك الموضوع إلى أن حل عيد الميلاد....

وكان أكسل قد تلقى خطاباً في مظروف كبير عليه رسم أسد. إنه خطاب من الدولة. وبمقتضاه عليه أن يحصل على رصيد الأسلاك وجهاز التلغراف والآلات والأدوات من بريد أولسن كي يتولى أعمال مفتش الخط ابتداء من يوم رأس السنة الجديدة.

الفصل الرابع

أزواج من الخيل تمر عبر أراضي المستنقعات جارةً عرباتٍ تحمل بيوتاً للرجل الجديد القادم للتوطن في البرية، أحمالاً وراء أحمال؛ أياماً بلا انقضاء والأشياء تكوم عند تفريغها فوق البقعة التي سيطلق عليها اسم ستوربورج (أي المكان العظيم) وهي لا محالة ستكون اسماً على حين يأتي الأوان. وثمة بالفعل أربعة رجال يعملون في التلال لاستخراج الحجارة لبناء جدار ومخزن مؤونة.

أحمال عربات تتلوها أحمال عربات أخرى جديدة، وجوانب البيت قد بنيت من قبل وأعدت، فلم يبق إلا تثبيتها عندما يحل الربيع، فكل شيء قد قدر ودبر سلفاً بدقة وإحكام، وعلى كل قطعة رقمها، بحيث لا ينقص باب ولا نافذة. حتى الزجاج الملون للشرفة. وذات يوم أقبلت عربة مصعدة وعليها حمل كامل من الأوتاد الصغيرة. ولماذا هذا؟ فقال أحد المتوطنين في المواضع الدنيا وهو من أهالي الجنوب وقد شهد الحياة من قبل، إنها معدة لإقامة سور الحديقة «فالرجل الجديد إذاً يتأهب لإقامة حديقة مترامية في البرية».

وبدا كل شيء حسناً، فلم يحدث من قبل مثل هذا النقل بالعربات ومثل حركة المرور هذه فوق أراضي المستنقعات. وكان كثيرون ربحوا

نقوداً طيبة من تأجير خيلهم لهذا العمل. وهذا أيضاً كان موضع نقاش. فهناك مطمح في كسب النقود مستقبلاً لأن هذا التاجر سيحتاج إلى إحضار سلعة من جهات مختلفة داخل البلاد أو عبر البحر، ولا بد من نقلها بالعربات من الساحل بأزواج من الخيل.

أجل بدا كأن الأمور ستكون على نطاق أعظم من كل جانب؛ وها هو مقدم العمال الشاب أو المدير المشرف على عمليات النقل بالعربات، وهو فتى متأنق متعال يزمجر دائماً بالشكوى من عدم حصوله على خيول كافية، مع أن الأحمال المنتظرة بهذه الكثرة الآن وقد وصلت البيوت كلها، فيجيبهم: «هوه. وماذا عن السلع؟».

وأقبل سيفرت ابن صاحب سيلانرا يقعقع في سيره مصعداً نحو البيت بلا حمولة كالعادة، فناداه مقدم العمال: «فيم قدومك خالياً؟ لماذا لم تجلب لنا حملاً ها هنا» فقال سيفرت: «كنت حرياً أن أفعل ولكن لا علم لي بذلك» وهمس أحدهم: «إنه من سيلانرا ولديهم هناك حصانان». فقال مقدم العمال: «ما هذا. ألديك حصانان؟ هاتهما هنا إذاً حصاناك هذان للمساعدة في أعمال النقل، وسنجزل لك الأجر» فقال سيفرت: «هذا كلام لا بأس به فيما أحسب ولكن ضغط العمل عندنا الآن شديد ولا متسع من الوقت لدينا لهذا الغرض» فصاح مقدم العمال: «ماذا؟ لا متسع من الوقت لكسب المال».

ولكن ليس لديهم دائماً متسع من الوقت في سيلانرا، لكثرة الأعمال هناك وقد استأجروا رجالاً للمساعدة -وهي أول مرة يحدث فيها شيء من هذا القبيل في سيلانرا- استأجروا حمارين من الضفة السويدية لاستخراج الأحجار لسقيفة البقر الجديدة. وكانت هذه السقيفة الجديدة

الجيدة لإيواء البقر شغل إسحق الشاغل منذ سنين. فكوخ الطين المعشب الذي تأوي السائمة إليه في الوقت الحاضر أصغر مما ينبغي وبحاجة ماسة إلى الترميم. فهو يصبو إلى سقيفة مبنية بالحجارة ذات جدران مزدوجة ومستودع جيد للروث من تحتها. وينبغي أن تقام الآن ولكنْ ثمة أمور أخرى كثيرة لا بد من عملها أيضاً، وهكذا تفضي الأمور بعضها إلى بعض. وأعمال البناء على كل حال يبدو أنها لا يمكن أن تنتهي. إن لديه منشراً وطاحوناً وسقيفة صيفية للسائمة. فمن المعقول أن يكون لديه ورشة حدادة. وهي لا تزيد على مكان صغير للأعمال المتناثرة التي تطرأ فجأة؛ والمسافة طويلة إلى القرية وليس من المناسب عملياً إرسال المزربة إلى هناك كلما التوت حافاتها أو حدوة الحصان كلما احتاجت إلى إصلاح. فورشة الحدادة ستكفيه مؤونة ذلك. ولم لا؟ إن في سيلانرا الآن أبنية كثيرة بين صغيرة وكبيرة. والمكان آخذ في النمو والكبر حتى غدا مكاناً ضخماً في النهاية، وبات من المستحيل تسيير الأمور دون فتاة تقوم بالمساعدة في العمل. وهكذا تحتم إبقاء ينسين. وأبوها الحداد يسأل عنها بين حين وحين ليعرف هل تعود إلى البيت قريباً، ولكنه لا يصر على ذلك لأنه رجل متساهل. ولعل لديه أسبابه الخاصة لتركها مقيمة هناك. وها هي سيلانرا التي كانت أبعد المواطن المستصلحة قد نمت وكبرت على مدى الزمن دوراً وأرضاً. أما أهلها فبقوا كما هم. وانقضت الأيام التي كان اللابيون الرحل يستطيعون فيها القدوم إلى البيت والحصول على كل ما يريدون بمجرد طلبه. فهم لا يأتون الآن إلا نادراً حتى كأنهم يتعمدون القيام بدورة التفاف طويلة ليظلوا بعيداً عن الأنظار. وإن جاء منهم أحد، لم يدخل البيت بل يبقى في الخارج.

واللابيـون دائمـاً يلزمـون المواقع المتطرفـة والأمـاكن المظلمـة، فـالضـوء والهواء يثقلان عليهم ويحولان دون ازدهارهم؛ شأنهم في هذا شأن الدود والهوام. وبين حين وحين يختفي عـجل أو حمل من أرباض سيـلانرا فلا يبدو له أثر. يختفي من الأطراف القصوى للأرض، ولا حـيلة في ذلك. بيد أن سيـلانرا تستطيع تحمل الخسـارة. وحتى لو كان سيفرت يحسن الرماية فلا بندقية لديه. بيد أنه لا يعرف الرماية، فهو فتى دمث الطبع لا شكاسة فيه، ومهذار ومطبوع، فكان يقول: «أعتقد على كل حال أنه لا بد أن يكون ثمة قانون يحرم إطلاق النار على اللابيين».

أجل إن سيلانرا تستطيع أن تتحمل خسارة رأس ما أو ما إلى ذلك من السـائمة هنا وهناك، فـهي تقـوم شامـخة قـوية، ولكنها لا تـخلو مع ذلك من المتـاعب، فأنجر ليست راضـية كل الرضـا عن نفسها وعن الحياة على مدار السنة. كلا. فقد قـامت ذات مرة برحلة إلى مـكان بعيـد جداً، ويبـدو أن هذه الرحلة تركت في نفسـهـا أثراً قـبيـحـاً من السـخط، وقـد يختفي ذلك السخط القبيح فترة من الزمن. بيد أنه يعود للظهور دائماً. وهي بارعـة وعـاملة جادة كمـا كـانت في أحسن أيامـهـا، وزوجة وسـيـمـة صـحـيـحـة البـدن لرجل هيكل في الرجـال، ولكن ألا تسـاورها ذكـريات ترونيـم، فـتـعـاودها الأحـلام؟ بلى، وفي الشـتـاء على الخـصـوص. فـهي أحياناً حافلة بالحياة والمرح تصبو إلى أشيـاء لا نهـاية لها، بيـد أن المرأة لا تستطيع أن ترقص وحدها، ولذا لم يكن في سيـلانرا رقص. والأفكار الثقيلة وكتب العبادة؟ حسن... ولكنَّ ثمة شيئاً مـا علم الله في ذلك النمط الآخر من الحياة، شيئاً فخماً لا نظير له. وقد تعلمت أن تكتفي بالقليل، والحجاريون السويديون شيء ما على كل حال، فهم وجوه غريبة

وأصوات جديدة في هذا المكان إلا أنهم رجال مسنون هادئون، ميلهم إلى العمل أرجح من ميلهم إلى اللعب. ومع هذا فشيء أفضل من لا شيء. وأحدهم يغني وهو يعمل غناء جميلاً، فتقف أنجر بين حين وحين لتصغي وكان اسمه «يلمار».

وليس هذا كل ما في سيلانرا من المتاعب، فثمة اليزيوس مثلاً. وهو مصدر خيبة أمل هناك، فقد كتب يقول إن مكانه في مكتب المهندس لم يعد شاغراً، إلا أنه سيحصل على عمل آخر لا محالة. وكل ما عليهم الانتظار قليلاً، ثم جاء خطاب آخر منه يقول فيه إنه يتوقع ظهور فرصة قريبة جداً لمنصب من الطراز الأول. ولكنه في انتظار ذلك لا يستطيع أن يعيش على لا شيء مطلقاً، فلما أرسلوا إليه من البيت ورقة نقدية بمائة كرونر ردَّ عليهم أن هذا المبلغ لم يكف بالضبط إلا لأداء بعض ديونه الصغيرة.... فقال إسحق: «همم... ولكن لدينا الآن هؤلاء الحجارون ممن ينبغي أداءُ أجورهم، فضلاً عن أشياء أخرى كثيرة. فاكتبي إليه وسليه ألا يفضل العودة لمساعدتنا هنا». وكتبت أنجر. ولكن اليزيوس لم يكن مهتماً بالعودة إلى البيت مرة أخرى، فلا معنى للقيام برحلة بلا هدف، وهو يفضل على ذلك التضور جوعاً.

وقد لا تكون ثمة وظيفة من الطراز الأول خالية في هذا الوقت بالذات في المدينة، وقد لا يكون اليزيوس ماضياً كشفرة الموسى في شق طريقه. الله أعلم. فلعله مفرط البراعة في عمله كذلك. الكتابة؟ أجل إنه يستطيع الكتابة على ما يرام، وقد يكون سريعاً مجداً فيها. ولكن ربما كان ثمة نقص ما رغم ذلك كله. فإن كان الأمر كذلك فماذا سيكون مصيره؟

إنه عندما وصل من موطنه ومعه المائتا كرونر، ألفى المدينة في انتظاره بحسابات قديمة قائمة، فلما أداها كان عليه أن يشتري عصا للسير لائقة، لا تكون من بقايا مظلة. وكانت هناك أشياء صغيرة أخرى معقولة كذلك، كقلنسوة من الفراء للشتاء،كتلك التي يرتديها جميع رفاقه، وزوج من الزلاقات يمشي بهما على الثلج كالآخرين، ومنخس أسنان من الفضة، وهو شيء ينظف به المرء أسنانه ويتلهى به في أناقة وهو يتسامر مع خلانه على قدح من هذا الشراب أو ذاك، ولبث ما بقيت معه النقود يقدم أسباب الضيافة على مدى استطاعته لأصحابه. ففي وليمة ساهرة أقيمت احتفالاً لعودته إلى المدينة أمر بست زجاجات من البيرة فتحت عن سعة - الواحدة تلو الأخرى، وقال أصحابه: «ما هذا؟ عشرون أو راهبة للساقية؟ إن عشرة جد كافية». فقال اليزيوس: «لا خير في أن يكون المرء شحيحاً».

والحق أنه لم يكن في اليزيوس شح ولا تقتير. فهو من بيت طيب، ومكان كبير حيث يمتلك والده صاحب الضيعة كميات لا حصر لها من الأخشاب وأربعة جياد وثلاثين بقرة وثلاث آلات حصاد. ولم يكن اليزيوس كذاباً، فليس هو الذي أذاع كل تلك الحكايات الخرافية عن ضيعة سيلانرا، وإنما هو مفتش المنطقة الذي طاب له أن يتحدث عنها هذا الحديث الفضفاض منذ وقت طويل. ولم يستأ اليزيوس عندما وجد هذه الحكايات تلقى تصديقاً كثيراً أو قليلاً، أما وهو ليس شيئاً في حد ذاته، فحسبه أن يكون ابن شخص موضع اعتباره، فهذا من شأنه أن يضفي عليه ثقة مجدية -إلا أن هذه الثقة ما كان من الممكن أن تستمر إلى الأبد، وحان اليوم الذي عجز فيه عن الأداء. فماذا يسعه أن يعمل

إذاً؟ لقد خف أحد أصحابه إلى نجدته فألحقه بعمل عند أبيه في متجر عام يبتاع منه الفلاحون سلعهم، وهو شيء خير من لا شيء. وكان عسيراً على فتى كبير أن يبدأ بأجر غلام مبتدئ في حانوت صغير. فليس هذا أقصر السبل إلى منصب العمدة. بيد أن ذلك العمل أمده بمصدر للمعاش وأعانه على عبور أسوأ مراحل أزمته الحاضرة. فليس الأمر غاية في السوء بعد كل شيء. وقد أبدى اليزيوس حسن استعداد ودماثة في هذا المكان أيضاً، فأحبه الناس. وكتب إلى أهله يقول إنه دخل ميدان التجارة.

وكانت هذه أضخم خيبة لآمال آمه. اليزيوس مستخدم في دكان؟ هذا ليس أفضل مثقال ذرة من العمل مساعداً في متجر القرية. وهو الذي كان من قبل إنساناً متميزاً على حدة؛ مختلفاً عن الآخرين، فما من أحد من جيرانهم رحل ليعيش في المدينة موظفاً في مكتب. أتراه عمي عن هدفه العظيم وغايته الكبرى؟ وما كانت آنجر مغفلة، فهي تعرف تمام المعرفة أن ثمة فرقاً بين العادي وغير العادي، وإن كانت ربما لم تعمد دائماً إلى ذلك التمييز. وإسحق كان أبسط منها وأبطأ تفكيراً، ولذا لم يدخل في حسابه اليزيوس في الوقت الحاضر إلا قليلاً؛ هذا إن أدخله في حسابه إطلاقاً. فابنه البكر يتسرب تدريجاً من أفق تقديره. ولم يعد إسحق يفكر في قسمة سيلانرا بين ولديه عندما يوافيه الأجل.

وفي غضون الربيع حضر مهندسون وعمال من السويد لإنشاء طرق، وإقامة مجموعاتِ أكواخ، وراحوا يعملون بوسائل متباينة في النسف والتمهيد واستحضار إمدادات من الطعام واستئجار الخيل وعمل الترتيبات مع ملاك الأراضي عند شاطئ الماء. ففيم كان هذا كله؟ إنهم

هنا في البـرية حيث لا يأتي أحد إلا المقـيـمـون هناك. ولكنهم بصـدد الشروع في تشغيل منجم النحاس. وهذا كل ما في الأمر.

إذاً تمخض الموضوع عن شيء ما في النهاية، ولم يكن جايزلر نفاجاً فحسب ولم يكن بين القادمين هذه المرة الرجلان الضخمان اللذان كانا معه في المرة الماضيـة. كلا لقد بقي كلاهما هناك، فلديهمـا لا محالة أعمـال في أمـاكن أخرى. أمـا المهندس فقد حضر وكذلك خبير المناجم الذي جاء في المرة الأولى. وقـد اشتـروا كل كـتل الخشب المنشـورة التي اسـتطاع إسحق أن يستغني عنها، واشتروا طعاماً وشراباً ودفعوا ثمن كل شيء بسخاء، وتجاذبوا أطراف الحديث بأسلوب رقيق مبدين سرورهم بسيلانرا قـائلين: «سننشئ طريقـاً حـديدياً هوائيـاً بإقـامـة كـابلات لنقل عـربات الشـحن من قـمـة التـلال إلى الشـاطئ». فـسـألهم إسـحق وهو بطيء التفكير: «ماذا؟ عبر أراضي المستنقعات هنا من فوق؟» فضحكوا عند سماع ذلك وقالوا: «لا يا رجل. بل من الجهة الأخرى، لا من هذه الجهة، فالمسافة هنا تمتد أميالاً طويلة. كلا، بل من الجهة الأخرى من التلال إلى البحر مباشرة، والانحدار هنا جيد، والمسافة لا تذكر. وسيتم نقل الركاز في صهاريج من الحديد. وسيتم ذلك على ما يرام. انتظر وسترى. بيد أننا لا بد أن نستخدم النقل بالعربات في البداية، فننشئ طريقاً وننقل الركـاز على العـربات. وسنكون بحـاجـة لذلك إلى خـمـسين حـصـانـاً. وسنتقدم في العمل كما ترى بصورة بديعة، ولدينا في المنجم نفسه رجال أكـثـر عـدداً مـن هؤلاء القلة الذين تراهم هنا. إن هؤلاء ليـسـوا شـيـئـاً. وسيأتي من الجانب الآخر عدد أكبر؛ سيأتي جماعات من الرجال ومعهم أكواخ جاهزة معدة للتركيب ومخازنُ للمؤونة وللمواد وللأدوات وسائر

الأشياء. وعندئذ سنلتقي بهم ونقيم حلقة اتصال في منتصف المسافة فوق القمة. أفهمت؟ ستسير الأمور على ما يرام، لا تخف، ونشحن الركاز في السفن إلى أمريكا الجنوبية. وسنجني من ذلك الملايين. فسألهم إسحق: «وماذا عن السيدين الآخرين اللذين حضرا إلى هنا من قبل؟» فأجابوه: «ماذا؟ أوه. لقد باعا كل شيء. إذاً أنت تذكرهما؟ لا. لقد باعا، والذين اشتروا منهما باعوا مرة أخرى. إن التي تملك المنجم الآن هي شركة كبيرة وراءها أموال طائلة». فسألهم إسحق: «وجايزلر أين هو الآن؟» فقالوا: «جايزلر لم نسمع به قط. من هو؟» فقال: «العمدة جايزلر الذي كان أول من باعكم هذا المكان» فقالوا: «أوه، ذاك، أكان اسمه جايزلر؟ الله أعلم أين هو الآن. أنت إذاً تتذكره أيضاً».

وبدأ النسف والعمل أعلى التلال، واستمرت مجموعات الرجال تعمل طوال الصيف. وكان ثمة عمل كثير في أرجاء المكان، وأنشأت أنجر تجارة ناشطة من اللبن ومنتجات المزرعة. وطاب لها هذا التعامل التجاري وما يتيحه لها في مشاهدة كل هؤلاء الناس غادين ورائحين. أما إسحق فقد كان ينتقل بحركته الثقيلة ويعمل في أرضه ولا يزعجه شيء. وتولى سيفرت مع الحجارين إقامة سقيفة البقر الجديدة. وهي بناء بديع، بيد أنه استغرق جانباً كبيراً من الوقت إلى أن تم على يد ثلاثة رجال فقط، وفضلاً عن هذا كان سيفرت كثيراً ما يُدعى للمساعدة في الحقل. وقد غدت آلة الحصاد مفيدة في هذا الوقت. ثم إنه من المفيد أيضاً أن يكون تحت يدك ثلاث نساء نشيطات يستطعن المشاركة في جمع الدريس.

إن كل شيء يمضي على ما يرام. ففي البرية الآن حياة، والمال يزداد ويزدهر في كل مكان.

وانظر إلى ستوربورج، مكان ذلك التاجر الجديد، فثمة عمل تجاري على نطاق محترم: هارون هذا لا بد أن يكون ساحراً وعفريتاً، فقد علم بطريقة ما مقدماً قرب قيام عمليات التعدين هنا، فسبقهم إلى هذا الموضع بدكانه ومخزنه ليجني أكبر فائدة ممكنة. عمل تجاري؟ إنه يقوم من ذلك بما يكفي دولة بأسرها. أجل، بما يكفي ملكاً: فهو أولاً يبيع سائر أصناف الأوعية المنزلية، وملابس العمال؛ ولكن المُعَدِّنين يكسبون مالاً كثيراً ولا يخشون إنفاقه، ولا يكتفون بشراء الضروريات وحدها، بل هم مستعدون لشراء أي شيء وكل شيء، وفي أمسيات السبت على الخصوص تجدُ المركز التجاري في ستوربورج مزدحماً بالخلق، وهارون يجمع الإيراد بالمجرفة ويدعى كاتبه وزوجته كلاهما للمساعدة وراء الحاجز، ويقوم هارون نفسه بالخدمة والبيع بأقصى ما يستطيع من جهد، ومع ذلك لا يخلو المكان قبل وقت متأخر من الليل وأصحابُ الخيول في القرية كانوا على حق، لأن عمليات النقل والشحن الخاصة بالسلع الواردة إلى ستوربورج هائلة، وكم من مرة اضطروا إلى قطع زوايا الطريق القديمة لشق دروب مختصرة. فانتهى الأمر إلى أن صارت الطريق الجديدة مختلفة تماماً عن الدرب الضيق الذي اجتازه إسحق عند قدومه إلى البرية أول مرة: فهارون نعمة وبركة ومحسن كبير - لا أقل من هذا- بمخزنه وطريقته الجديدة. ولم يكن اسمه هارون حقيقة بل هذا اسمه الصغير فقط، أما اسمه الرسمي فهو هارنسن، كان يدعو نفسه «ز» وهكذا كانت تدعوه زوجته. وما كانوا قوماً يستخف بهم، ولديهم فتاتان خادمتان وغلام.

أما الأرض في ستوربورج فقد بقيت حتى الآن من غير أن تمس فهارونسن ليس لديه وقت للعمل في الأرض. وما جدوى فلاحة أرض

مستنقعات جرداء؟ ولكن لدى هارونسن حديقة من حولها سياج وشجيرات زبيب نباتي وعشب مزهر وشجر كمثرى وأشجار مغروسة، فهي حديقة حقيقية وفيها ممر عريض يتمشى فيه هارونسن في أيام الآحاد وهو يدخن غليونه. وفي الجهة الخلفية شرفة البيت وعليها ألواح زجاج ملون بين برتقالي وأحمر وأزرق... وفي ستوربورج ثلاثة أطفال صغار حسان يملؤون المكان. والفتاة تتعلم كيف تؤدي دور ابنة التاجر الثري، والغلامان سيتعلمان حرفة التجارة، فالثلاثة أمامهم مستقبل زاهر.

وهارونسن رجل يحسن التفكير في المستقبل وإلا لما جاء إلى هنا إطلاقاً، ولظل مقيماً في مسمكته. ومن الجائز جداً أن يواتيه الحظ فيجني منها مالاً طيباً. ولكن ذلك ليس كدخول ميدان التجارة. فصيد الأسماك ليس عملاً راقياً. وإنما هو عمل للعامة على أحسن الفروض. فالناس لا يرفعون قبعاتهم لصياد سمك، ولئن كان هارونسن فيما مضى يجدف في قاربه بالمجاديف بنفسه، فهو الآن يستطيع أن يستقل سفينة ذات شراع. والمتواتر عنه أنه دائماً يستخدم كلمة «عداً ونقداً» يستخدمها في كل شيء، فحين تمضي الأمور على ما يرام فإنها تمضي «عداً ونقداً»؛ وأطفاله سيتقدمون في الدنيا ويعيشون «عداً ونقداً» أكثر منه هو شخصياً. وكان هذا هو تعبيره، ويعني به أنهم سينعمون بحياة أيسر مما نعم به هو. ثم إن الأمور سارت على ما يرام. فالجيران يلقون بالهم إليه، وإلى زوجته. أجل، وحتى إلى أطفاله. ولم يكن أقل ما يلفت النظر أن يلقي الناس بالهم إلى الأطفال. فالمعدمون عندما يهبطون من عملهم بين التلال تكون قد مضت أيام كثيرة لم يروا فيها وجه طفل. فما إن يلمحوا أطفال هارونسن يلعبون في الفناء حتى يقبلوا

على التحدث إليهم برقة كأنما التقوا بثلاثة جراء لاهية. وكانوا حريين أن يقدموا إليهم نقوداً، ولكن بما أنهم أطفال التاجر، فهذا ليس عملاً لائقاً. ويكتفون بالعزف لهم على آلات موسيقاهم الفموية. وكان أشد أولئك المعدنين ضراوة هو الشاب جوستاف الذي يهبط وقبعته مائلة على إحدى أذنيه، وشفتاه تتأهبان دائماً بكلمة مرحة، فيكون هو أول من يلاعبهم ويظل يلاعبهم وقتاً طويلاً. ويعرفه الأطفال في كل مرة ويجرون نحوه فيرفعهم ويحملهم على ظهره، ثلاثتهم في وقت واحد، ويرقص بهم وهو يقول: «هوه» ثم يخرج من جيبه موسيقى الفم ويعزف لهم أنغاماً إلى أن تأتي الخادمتان من داخل البيت فتنظران إليه وتصغيان والدموع في مآقيهما. أجل إن جوستاف فتى طائش ماجن، ولكنه يعرف ما هو صانع، وبعد قليل يدخل الحانوت ويبعثر نقوده في شراء جعبة حافلة بالأشياء. وحينما يعود مصعداً يحمل معه مجموعة كاملة من البضائع السائرة ويقف بسيلانرا في طريقه ويفتح جعبته ويريهم ما معه: أوراق كتابة في ركنها زهرة، وغليون جديد، وقميص جديد، ورباط عنق ذو أهداب وحلوى للنساء، وأشياء لامعة كسلسلة ساعة ذات بوصلة أو مطواة للجيب، ومقدار هائل من الأشياء، ثمة أيضاً صواريخ ابتاعها ليطلقها يوم الأحد كي يراها الجميع. وتقدم إليه أنجر اللبن ويمازح ليوبولدين ويرفع «رفقة» الصغيرة ويطوحها في الهواء «هوى هويت»، ويسأل السويديين -وجوستاف نفسه سويدي- «وكيف حال البناء؟» ويعقد معهما صداقة، ويجيبان أن البناء يمضي على خير ما يمكن بالنسبة لقيامهما بالعمل وحدهما، فيتطوع جوستاف لعرض حضوره ومساعدتهما بنفسه، وإن كان ذلك إنما يقال على سبيل المزاح فقط.

وتقول أنجر: «نعم ليتك تستطيع» ذلك أن سقيفة البقر ينبغي أن تعد قبل حلول الخريف وهو موعد إدخال السائمة ويطلق جوستاف صاروخاً. ثم ما دام قد أطلق صاروخاً فلا معنى للاحتفاظ ببقية الصواريخ. ويمضي في إطلاق ستة منها، وتقف حوله النساء والأطفال مبهورين بسحر هذا الساحر. ولم تكن أنجر قد رأت صاروخاً من قبل. ولكن هذه النيران المشبوبة تذكرها على نحو ما بالعالم العظيم الذي رأته يوماً ما. وما آلة الحياكة بالقياس إلى هذا؟ وحينما يفرغ جوستاف من العزف على آلته بفمه، تخرج معه أنجر وتسير معه مسافة كبيرة من الطريق مدفوعة بعواطفها الجائشة.

إن العمل قائم في المنجم الآن. والركاز ينقل على العربات التي تجرها أزواج الخيل هابطة إلى البحر، وقد شحنت باخرة بحمولة منه وأبحرت بها إلى أمريكا الجنوبية. وثمة باخرة أخرى في الانتظار فعلاً لتحمل الشحنة التالية. أجل إنها عملية ضخمة. وقد صعد جميع المتوطنين لينظروا إلى ذلك المكان العجيب وإلى كل من استطاع منهم إلى السير سبيلا. صعد بريد أولسن بعيِّناته من الصخور ولم يظفر من تعبه بطائل لأن خبير المناجم كان قد عاد إلى السويد. وفي أيام الآحاد تكتظ الطريق بحشود الصاعدين من القرية. بل إن أكسل شتروم الذي لا وقت لديه يهدده تحول عن طريقه الحقيقي على طول خط التلغراف ليشاهد المكان. فلا تكاد توجد الآن نفس بشرية لم تر المنجم وأعاجيبه. وفي النهاة أقدمت أنجر نفسها، ربة سيلانرا، على ارتداء أفضل ما لديها، وتحلت بالخاتم الذهبي وكل شيء، وصعدت إلى التلال.

فماذا عساها تنشد هناك؟

لا شيء. فهي لم تعن حتى بالنظر إلى كيفية القيام بالعمل. أنجر جاءت لاستعراض نفسها ليس إلا. فعندما رأت النساء الأخريات صاعدات شعرت أن من واجبها الذهاب كما ذهبن. إن فوق شفتيها العليا ندبة تشوهها، ولها أولاد كبار، بيد أنها كان لا بد أن تصعد كما صعدت الأخريات، فقد عز عليها أن تفكر في الأخريات من الشابات. وقررت أن تحاول منافستهن على كل حال. وهي لم تأخذ في البدانة بعد، بيد أنها لم تزل مليحة المنظر، طويلة القامة ذات تأنق، ولم يزل في وسعها أن تبدو وسيمة. أجل إن لونها لم يعد كما كان من قبل وبشرتها لا تضاهي الخوخة الذهبية، إلا أنها لا بد أن ترى المنجم مع ذلك كله، إذ ينبغي أن يقولوا بعد كل شيء إنها تصلح.

وحياها العمال بالرقة التي ترجوها، فهم يعرفونها، وكم قدمت لهم جرعات اللبن، وراحوا يطلعونها طائفين بها أرجاء المنجم والأكواخ والحظائر والمطابخ ومخازن المؤونة وسقائف التخزين. وذوو الجرأة من الرجال كانوا يتاخمونها ويتناولونها من ذراعها بخفة، لكن أنجر لم تكن لتتأذى من ذلك إطلاقاً، بل تجد فيه خيراً لها. وحيثما وجدت درجات للصعود أو للهبوط كانت ترفع أذيالها عالياً كاشفة عن ساقيها بعض الشيء. ولكنها كانت تقوم بذلك كله في هوادة كأنما لم تفكر فيه أدنى تفكير، وقال الرجال في أنفسهم: أجل إنها تصلح.

ولكنَّ في هذه المرأة الآخذة في السن شيئاً مؤثراً من نوع ما، فقد كان واضحاً لذي عينين أن نظرة من أولئك الرجال ذوي الدماء الحارة تصل إليها على غير انتظار كانت كافية لإثارة الحمد والشكر لديها، فهي امرأة كسائر النساء، ويهزها أن تشعر بذلك. لقد كانت امرأة شريفة، ولكن لعل السبب أن الفرصة أعوزتها.

آخذة في السن..

وأقبل جوستاف. ترك فتاتين من القرية وزميلاً ليقبل إليها. وكان جوستاف يعرفُ ما يرمي إليه ولا ريب، فتناول يد أنجر بمزيد من الحرارة، وضغط عليها أكثر مما تدعو إليه الحاجة، وشكرها على آخر أمسية لطيفة في سيلانرا. بيد أنه كان حريصاً على ألا يثقل عليها بالاهتمام، فقالت أنجر وقد تضرجت بالاحمرار: «حسن يا جوستاف، متى إذاً تأتي لتعاوننا في البناء؟» فقال جوستاف إنه سيأتي قبل انقضاء وقت طويل، وسمع رفاقه ذلك فقالوا إنهم جميعاً قادمون قبل انقضاء وقت طويل. فقالت أنجر: «هوه، ألستم باقين إذاً في المنجم في الشتاء القادم؟» فأجاب الرجال بحذر: «إن ذلك لا يبدو منتظراً، ولكن الأمر غير مؤكد بعد». إلا أن جوستاف كان أجرأ منهم فضحك وقال: «إن ما كان هناك من نحاس فإنهم فيما يبدو قد كشطوه». فقالت أنجر: «لا أحسبك تقول ذلك جاداً بالتأكيد؟» فقال الرجال الآخرون: «إن جوستاف من الأفضل له أن يحذر من التفوه بمثل هذا الكلام». إلا أن جوستاف لم يكن في نيته التزام الحذر، فقال ما هو أكثر من ذلك بقليل. وأما بخصوص أنجر فكان عجيباً كيف عرف أنه يكسبها لنفسه، مع أنه لم يبد عليه قط أنه تجشم شيئاً في ذلك السبيل، وقام أحد الفتيان بالعزف على الكونشرتينا، لكن ذلك لم يكن مثل الآلة التي يعزفها جوستاف بفمه. وحاول فتى آخر - وكان بارعاً أيضاً- أن يجذب الانتباه إلى نفسه فغنى على ذلك العزف أغنية عن ظهر قلب، ولكن ذلك لم يكن شيئاً أيضاً، مع أن صوته كان لطيفاً قوياً. وبعد فترة وجيزة انبرى جوستاف، وإذا بخاتم أنجر الذهبي وقد انتقل إلى إصبعه الصغير: وكيف حدث ذلك وهو لم يثقل عليها ولم

يعمد إلى إقحام نفسه؟ أوه. بل إنه يقحم نفسه بما فيه الكفاية على طريقته، ولكن في هوادة، كهوادة أنجر نفسها. لم يتحدثا في شيء، وتركته يلهو بيدها وكأنها غير ملتفتة لما يصنع. وبعد ذلك، حينما جلست داخل أحد الأكواخ لاحتساء القهوة قامت ضجة بالخارج، وتبادل الرجال كلمات ضخمة، فعرفت أن ذلك بسببها، وشعرت لذلك بالدفء يسري فيها فذلك شيء يستحب سماعه بالنسبة لامرأة لم تعد صغيرة السن، وإنما هي آخذة في الستين.

وكيف عادت إلى البيت من التلال مساء ذلك الأحد؟ لقد عادت بمثل العفاف الذي راحت به، بلا زيادة ولا نقصان. فقد تكفل حشد من الرجال باصطحابها إلى البيت، وأبى ذلك الحشد من الرجال أن يعود ما بقي معها جوستاف، فهم لن يتركوها وحدها معه ما وجدوا إلى ذلك سبيلا. ولم تظفر أنجر قط بمثل ذلك الوقت المرح، حتى ولا في الأيام التي خرجت فيها أنجر إلى الدنيا العريضة، وسألوها في النهاية: «ألم تفقد أنجر شيئاً؟» فقالت: «فقدت شيئاً؟ لا». فقالوا: «خاتم ذهبي مثلاً؟» وعندئذ اضطر جوستاف أن يبرزه، فقد كان واحداً وحيداً ضدهم جميعاً وهم جيش بأسره. فقالت أنجر: «هوه. جميل منك أن تعثر عليه» وأسرعت بإلقاء تحية الوداع على حاشيتها ولما اقتربت من سيلانرا رأت سقوف المباني الكثيرة فيها. إن هذا الماثل هناك بيتها، فأفاقت مرة أخرى وثابت لنفسها وارتدت الزوجة البارعة التي كانتها. واتخذت طريقاً مختصراً إلى السقيفة الصيفية لتلقي نظرة على الماشية. وفي طريقها مرت بموضع سوت ترابه ذات يوم بيديها وأقامت فوقه صليباً صغيراً.. ولكن ذلك كان منذ عهد بعيد، أما الآن فكل ما جال بخاطرها

هو التساؤل هل فرغت أولئك الفتيات من حلبهن في الأوان المناسب.

واستمر العمل في المنجم، ولكن كان ثمة تهامس كثير، بأن شيئاً ما على غير ما يرام، فالمحصول ليس في المستوى المنشود. وخبير التعدين الذي عاد إلى بلده قَدِمَ مرة أخرى ومعه خبير آخر لمعاونته، وراحا ينسقان وينقبان ويفحصان الأرض كلها. ما العيب؟ إن النحاس نقي نقاوة كافية، ولا عيب من هذه الجهة، ولكنه هزيل الكمية وليس بالعمق المفروض. فهو يزداد سمكاً إلى جهة الجنوب ويغدو عميقاً نقياً حيث تصل ملكية الشركة إلى آخر حدودها بالضبط. وما وراء ذلك هو الأرض الفضاء المملوكة للدولة. فالمشترون الأولون لعلهم لم يفكروا كثيراً في هذا الأمر على كل حال، لأن الصفقة كانت عائلية، إذ قام بضعة أقارب بشراء المكان على سبيل المضاربة أو المجازفة التجارية، فلم يعنوا أنفسهم بضمان الحصول على المجال كله وهو يمتد أميالاً كثيرة حتى الوادي التالي، وإنما كان قصاراهم أنهم حصلوا قطعة أرض مملوكة لإسحق سيلانرا وجايزلر ثم باعوها كرة أخرى.

وما العمل الآن؟ إن القادة والخبراء ورؤساء العمال يعرفون جيداً أنه لا بد لهم من الدخول في مفاوضات مع الدولة فوراً. فبعثوا رسولاً بأقصى سرعة إلى السويد مزوداً برسائل وخطط وخرائط، ثم توجهوا بأنفسهم هابطين إلى العمدة ليحصلوا على حقوق الهضبة جنوبي خط الماء. وهنا بدأت متاعبهم، لأن القانون يقف في وجههم، فهم أجانب ولا يسعهم أن يشتروا هذه الأرض لحسابهم الخاص. وكانوا يعرفون ذلك كله وأعدوا للأمر عدتهم؛ ولكن الجانب الجنوبي من الهضبة كان قد بيع بالفعل. وذلك ما لم يكن لهم به علم، فتساءلوا: «بيع؟» فقال لهم

العـمـدة: «أجل، منذ زمن طويل، منذ سنين» فسـألوه: «ومـن اشتـراه إذاً؟» فـأجـابهم: «جـايزلر» فـقـالوا: «أي جـايزلر؟ أوه ذلك المخلوق... همم» فقـال العـمدة: «وعقـود التـمليك تم إقرارها وتسـجيلها ولما كانت هذه المنطقـة صخوراً جرداء ليس إلا، فـقـد حصل عليـهـا مـقابل لا شيء تقـريباً فـسـألوه: «ومن هذا المخلوق جـايزلر الذي لا ينفك يبـرز لنا؟ أين يقيم؟» فقال: «الله أعلم أين هو الآن».

وبعثوا برسول آخر إلى السـويد. فلا بد لهم من معـرفة كل شيء عن جايزلر هذا. وفي هذه الأثناء لا يسعهم أن يحتفظوا بكل الرجال، فلا بد لهم أن ينتظروا ليروا ما يكون بعد ذلك.

وهكذا هبط جوسـتـاف إلى سيـلانرا وعلى ظهـره كل مـا يمتلكه من متـاع الدنيـا وقال ها أنذا. فجوستاف قد تخلى عن عمله في المنجم. أو بعبارة أخرى كـان لسانه ذلقاً في يوم الأحد السابق أكثر مما ينبغي قليلاً في صـدد المنجم ومـا فـيــه من نحـاس. وتناهى الأمـر إلى سـمع رئيس العمال والمهندس، وهكذا سرح جوستاف. ليكن. وداعاً إذاً. فلعل هذا ما كان يرمي إليه، فبهذه الطريقة لا يكون في قدومه إلى سيلانرا ما يريب. وأقاموه بالعمل على الفور في سقيفة البقر.

ظلوا يعـملون في الجدران الحجرية، وعندما جاء رجل آخر هابطاً من المنجم بعد أيام قلائل ألحقوه بالعمل، وهكذا صارت هناك نوبتا عمل في البناء، ومـضى العـمل بسـرعـة. أجل سيـتم البناء عند مقـدم الخريف ولا خوف.

ولكن الآن أخذ عمـال المنجم يتوافدون مفصولين من العمل وحداً إثر آخر، ميـمـمين شطر السـويد، فـقد توقفت الأعـمال التـمهـيدية في الوقت

الحاضر. وصَعَّد أهل القرية ما يشبه الزفرة عند سماع هذه الأنباء. وما أحمقهم من قوم. فهم لا يفقهون ما الأعمال التمهيدية، وأنها مجرد أعمال للفحص والتجربة، وانتشرت بين أهل القرية سحب سوداء من التشاؤم وثبوط الهمة، لأن إنفاق المال قل، والأجور نقصت، وساد الركود الشديد في المركز التجاري بستوربورج. فما معنى هذا كله؟ لقد كان كل شيء سائراً على أبدع وجه، وهارونسن اقتنى علماً وسارية للعلم، وابتاع فراء دب أبيض فاخر ليبسطه في زحافته متى جاء الشتاء، وابتاع ثياباً فاخرة لأفراد أسرته جميعاً... وهذه كلها صغائر، ولكن ثمة أمور أجل منها تحدث أيضاً. فها هما رجلان جديدان قد ابتاعا أرضاً لإخلائها من الشجر في البرية في مستوى أشد ارتفاعاً فيما بين مانلاند وسيلانرا، وليس ذلك بالشيء الهين بالنسبة لهذه الجالية الصغيرة التي تعمر الأطراف. وقد شيد المتوطنان الجديدان أكواخاً من الطين المعشب وشرعا يخليان الأرض ويحفرانها وهما من العاملين المجدين فاستطاعا أن يصنعا شيئاً كثيراً في زمن وجيز. وكانا طيلة ذلك الصيف يشتريان مؤونتهما من ستوربورج. ولكن عندما هبطا في آخر مرة لم يجدا شيئاً تقريباً يحصلان عليه. فليس هناك رصيد من البضاعة. وما حاجة هارون برصيد ضخم من هذه السلعة وتلك وقد توقف العمل في المنجم الآن؟ ليس لديه تقريباً أي شيء من أي نوع في الوقت الحاضر. لديه نقود فحسب. ولعل هارونسن كان أشد الجميع اكتئاباً من بين سائر أهل المنطقة المجاورة، فكل تقديراته تزعزعت. ولما استحثه بعضهم على أن يزرع أرضه ويعيش على زراعتها إلى أن تتحسن الأحوال، أجاب: «أزرع الأرض؟ ما لهذا أتيت وأقمت بيتي هنا».

وفي النهاية لم يطق هارونسن صبراً أكثر من ذلك، فكان لا بد له من الصعود إلى المنجم ليرى بنفسه حقيقة الأحوال. وكان اليوم يوم أحد، فلما وصل إلى سيلانرا راود إسحقَ على الذهاب معه، ولكن إسحق لم يكن قد وطئ بقدمه المنجم منذ بداية العمل فيه، فهو أقرب إلى الطمأنينة أسفل سفح التل. فاضطرت أنجر أن تقول شيئاً، فتدخلت قائلة: «وفي وسعك على كل حال أن تذهب مع هارونسن ما دام قد طلب إليك ذلك» ولعل أنجر لم تكن آسفة لذهابه، واليوم يوم أحد، ولعلها بحاجة إلى التخلص منه ساعة أو نحوها. وهكذا مضى إسحق قدماً.

وفي التلال كانت ثمة أشياء غريبة ترى، فإسحق لم يستطع أن يتعرف الآن على المكان إطلاقاً بما استحدث فيه من الأكواخ والسقائف؛ فقد كانت هناك مدينة بأسرها من ذلك كله، فضلاً عن العربات ومركبات النقل والحفر الكبيرة فاغرة الفم في الأرض. وتولى المهندس بنفسه الطواف بهما. ولعله لم يكن في هذه اللحظة بالذات في أصفى حالات مزاجه إلا أن ذلك المهندس نفسه حاول جهده كله كي يظل بعيداً عن الإحساس بالوجوم الذي استولى على أهل القرية والمتوطنين من حوله. وها هي فرصته السانحة وليس في صحبته أقل من مالك ضيعة سيلانرا والتاجر العظيم صاحب ستروبورج. فأخذ يشرح لهما طبيعة الركاز والصخور التي يوجد فيها. فالنحاس والحديد والكبريت توجد كلها معاً. وهم يعرفون بالضبط ما يوجد في تلك الصخور الماثلة هناك، بل إن فيها أيضاً ذهباً وفضة ولكن بكميات غير كبيرة. فمهندس المناجم يعرف شيئاً كثيراً.

وسأله هارونسن: «وهل سيغلق الآن ذلك العمل كله؟» فقال المهندس بدهشة: «يغلق؟ لو أغلقناه لكان ذلك شيئاً لطيفاً جداً بالنسبة لأمريكا

الجنوبية؟ كلا. إنهم أوقفوا العمليات الأولية برهة، إلى أمد قصير فقط بعد أن تبينوا أحوال المكان وخصائصه وما يمكن أن يغله، وبعد ذلك سيكون في وسعهم أن ينشئوا سكة حديدهم الهوائية ويشرعوا في العمل إلى الجانب الجنوبي من الهضبة. والتفت إلى إسحق قائلاً: «ألست تعرف أين ذهب جايزلر هذا؟» فقال: «لا» «حسن. لا بأس سيعثرون عليه حتماً. وعندئذ سيسرعون في العمل كرة أخرى. يغلقون؟ يا لها من فكرة».

واستغرق إسحق فجأة في العجب والسرور بآلة صغيرة تعمل بدواسة فما عليك إلا أن تحرك قدمك فتدور. لقد فهم سرها على الفور: إنه كور حداد صغير يمكن نقله على عربة بحيث تستطيع تحريكه وإقامته أينما شئت. وسأل المهندس: «كم يبلغ ثمن شيء كهذا الآن؟» فأجابه: «هذا؟ الكور المتنقل؟ لا يساوي كثيراً، إن لديهم عدداً من هذا الصنف فيما يبدو» ولكنه ليس شيئاً بالقياس إلى ما لديهم على ساحل البحر. فعندهم هناك جميع أنواع الآلات والأجهزة، وكلها هائلة ضخمة. وأفهم إسحق أن التعدين وإيجاد الأودية وإحداث الشقوق الهائلة في الصخور ليست أموراً يمكن القيام بها بظاهر اليد... ها ها ها.

وراحوا يتجولون في أرجاء المكان، وأشار المهندس إلى أنه سيذهب بنفسه إلى السويد بعد بضعة أيام، فقال هارونسن: «ولكنك ستعود مرة أخرى؟» طبعاً، فهو لا يدري سبباً واحداً يحمل الحكومة أو الشرطة على محاولة منعه من القدوم.

وتوصل إسحق إلى توجيه السير صوب الكور المتنقل مرة أخرى ثم وقف يعيد النظر إليه وسأل المهندس: «وكم يمكن أن يبلغ ثمن آلة صغيرة من هذا النوع؟».

ثمنها؟ إنه لا يستطيب أن يحدد ذلك على البديهة. إنه مبلغ كبير من المال بلا شك ولكنه ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لعمليات التعدين. إن المهندس شخص عظيم، وهو قد لا يكون في هذه الآونة بالذات في أصفى حالات مزاجه إلا أنه أنقذ المظاهر وظل محافظاً على التظاهر بالثراء والأبهة. أيريد إسحق كوراً؟ حسن. فليأخذ هذا الكور فالشركة لن تُعنى بنفسها بشأن شيء ضئيل كهذا، إن الشركة تمنحه كوراً متنقلاً على سبيل الهدية.

وبعد ساعة كان هارونسن وإسحق في طريقهما هابطين كرة أخرى، وقد غدا هارونسن أهدأ بالاً بعض الشيء فقد كان ثمة أمل بعد هذا كله. أما إسحق فكان يتدحرج هابطاً جانب التل وكوره الثمين على ظهره ثقلاً باهظاً: وقد عرض المهندس عليه أن يبعث بالكور رجلين إلى سيلانرا في صباح غد، ولكن إسحق شكره قائلاً إن الأمر لا يستحق هذا العناء، وكان يفكر في ذويه، وكيف ستكون المفاجأة عظيمة لهم عندما يرونه هابطاً عليهم وعلى ظهره كور حداد.

ولكن المفاجأة الحقة كانت من نصيب إسحق في النهاية.

فقد دخلت الفناء في لحظة وصوله البيت عربة يجرها حصان مقلة حملاً مرموقاً جداً، وكان السائق رجلاً من القرية، ولكن بجواره كان يمشي سيد حملق فيه إسحق بدهشة، فقد كان جايزلر.

الفصل الخامس

كانت ثمة آمور أخرى من الممكن أن تبعث دهشة، إسحق بيد أنه لم يكن شديد البراعة في التفكير في أكثر من أمر واحد في وقت واحد. فكان كل ما قاله حين مر بباب المطبخ «أين أنجر؟» فلم يكن متلهفاً إلا إلى توفير حُسْنِ الاستقبال لجايزلر.

أنجر؟ أنجر في الخارج تجمع التوت. بل كانت في الخارج تجمع التوت منذ اللحظة التي انطلق فيها إسحق من البيت؛ تجمع التوت مع جوستاف السويدي. أجل إنها آخذة في السن، وغارقة مرة أخرى في الغرام مستطارة اللب به. إن الخريف والشتاء يدنوان، بيد أنها شعرت بالدفء يسري فيها من جديد، فيبعث في عودها الأزاهير والبراعم. وقال جوستاف: «تعالي لتريني أين يوجد التوت السحابي ،التوت الجبلي؟» وكيف كان يسع امرأة أن تقول لا؟ وجرت أنجر إلى داخل حجرتها الصغيرة ولبثت بضع دقائق جادة متدينة، إلا أن جوستاف كان واقفاً ينتظرها في الخارج، وكانت الدنيا جادة في أثرها. فلم تفعل شيئاً سوى أنها رجلت شعرها ونظرت إلى نفسها بإمعان في المرآة ثم خرجت مرة أخرى. وماذا لو أنها فعلت؟ من التي لم تكن تفعل فعلها؟ إن المرأة لا تستطيع تمييز رجل من رجل آخر. ليس دائماً، وليس في كثير من الأحيان.

وخرج الاثنان يقطفان التوت ويجمعان التوت السحابي من أرض المستنقعات متنقلين من عنقود إلى عنقود وهي ترفع أذيالها كاشفة عن ساقيها الأنيقتين والهدوء يسود كل مكان. وبيض القطا كبرت أفراخها ولم تعد تقطقط مطلقة هسيسها. والمواضع التي تنمو فيها الأشجار في أرض المستنقعات مواضع مستورة عن الأنظار، ولم تكن قد انقضت ساعة منذ انطلاقهما حينما جلسا على الأرض يستريحان. وقالت أنجر: «أوه لم أكن أظنك هكذا؟» أوه إنها شديدة الضعف، حياتها تبتسم في أسى، فهي غارقة في الغرام، أجل ما أعذب الغرام وما أقساه في آن واحد: وكان صواباً منها وحكمة أن تكون على حذر، أجل، ولكنها لا تلبث أن تستسلم في النهاية فأنجر غارقة في الغرام بعنف وبأس وبلا رحمة. وقلبها مفعم بالحنين إليه، وكل ما يعنيها أن تكون ملتصقة به عزيزة عليه، أجل، امرأة آخذة في السن.

وتقول له: «عندما يتم العمل سترحل عنا». لا. سوف لا يرحل. أجل سيرحل بالطبع يوماً ما، ولكن ليس الآن، بعد أسبوع أو نحوه. وتقول: «أليس الأفضل أن نعود إلى البيت؟» فيقول: «لا». ويجمعان مزيداً من التوت، وبعد برهة قصيرة يجدان مكاناً مستوراً بين الأشجار، وتقول أنجر: «إنك لمجنون يا غوستاف أن تفعل هذا» وتمر الساعات. ولا بد أنهما نائمان الآن بين الأشجار، نائمان، ما أروع هذا - في أعماق البرية في فردوس عدن، وفجأة تنتصب أنجر جالسة وتصغي ثم تقول: «يخيل إلي أني سمعت أحداً عن بعد على الطريق من تحتنا؟» وكانت الشمس قد جنحت للغروب ومجموعات بنات الخلنج قد أخذ ظلها يسود وهما سائران إلى البيت. ويمران بمواضع كثيرة مستورة، ويرى جوستاف

هذه المواضع، وتراها أنجر بلا شك، بيد أنها تشعر طول الوقت وكأن شخصاً ما يَجِدُّ في طريقها أمامها. ولكن من التي تستطيع أن تسير الطريق كلها إلى البيت مع فتى سليم ومندفع وتظل طول الوقت ملتزمة جانب الحذر؟ أنجر ضعيفة أشد الضعف، فلا يسعها إلا أن تبتسم وتقول: «لم أعرف في حياتي قط رجلاً هكذا» وتصل إلى البيت وحدها. وكان خيراً أنها وصلت عندئذ بالضبط، لحسن طالعها فلو تأخرت دقيقة لما كان الأمر على ما يرام إطلاقاً، لأن إسحق كان قد وصل لتوه إلى الفناء بكوره ومعه هارونسن وكانت قد وقفت في الفناء من فورها عربة يجرها حصان، وقال جايزلر: «طاب يومك» محيياً أنجر أيضاً، ووقفوا هناك ينظرون جميعاً كل واحد منهم إلى الآخر، وليس في الإمكان أبدع مما كان.

لقد عاد جايزلر، وكانت قد انقضت سنوات منذ كان هنا آخر مرة، ولكنه عاد وقد أسن قليلاً وازداد شيبه بعض شيءٍ إلا أنه مشرق مرح كالعهد به، وهو في هذه المرة أنيق الملبس عليه صدار أبيض تعترضه سلسلة ذهبية. فيا له من رجل مستعص على الفهم: لعله أتاه النذير أنَّ شيئاً ما قد حدث في المنجم فأراد أن يرى الحقيقة بنفسه؟ ها هو على كل حال شديد اليقظة في تطلعه ونظره إلى كل ما حوله في البيت والأرض، يدير رأسه ويستخدم عينيه في كل اتجاه وثمة تغيرات كبيرة لا تفوته ملاحظتها، فصاحب الضيعة وسع أملاكه. ويهز جايزلر رأسه ويسأله إسحق: «ما هذا الذي تحمله؟ إنه حمل حصان في حد ذاته» فيشرح له إسحق المسألة: «إنه كور حداد، وهو شيء عظيم النفع في المزرعة الصغيرة». وهكذا نعت سيلانرا بأنها مزرعة صغيرة ولا زيادة. وسأله

جايزلر: «وأين عثرت عليه؟» فأجابه: «هناك في المنجم، وقال لي المهندس إنه يعطيني إياه هدية». فسأله جايزلر وكأنه لم يفهم: «مهندس الشركة؟».

وهل كان جايزلر يقبل أن يتفوق عليه مهندس في منجم نحاس. لقد قال: «سمعت أنك جئت بآلة حصاد. وقد جئتك معي بكباشة حديثة الطراز سهلة الاستعمال» وأشار إلى حمل على العربة. فإذا مشط ضخم أحمر وأزرق عبارة عن كباشة دريس تجر بالخيل. ورفعاها فأنزلاها عن العربة، ونظر إليها. وشد إسحق نفسه إليها في موضع الخيل وجربها على الأرض. فلا غرو يفتح فمه على سعته: ها هي الأعاجيب تتوالى على سيلانرا.

وتحدثا عن المنجم والأعمال الجارية في التلال ثم قال إسحق: «لقد كانوا يسألون عنك كثيراً» فسأله جايزلر: «من؟» فقال: «المهندس. والسادة الآخرون جميعاً، وقالوا إنهم يجب أن يعثروا عليك بطريقة ما». ولكن يبدو أن إسحق تجاوز الحد في كلامه، لأن جايزلر استاء بلا شك وانقلب إلى الحدة والاقتضاب: «حسن. إنني هنا إن كانوا يريدونني».

وفي اليوم التالي عاد الرسولان من السويد ومعهما اثنان من ملاك المنجم وكانا سيدين وجيهين على صهوة جوادين. يبدو من النظر إليهما أنهما من كبار الأثرياء. ولم يكادا يتوقفان عند سيلانرا إطلاقاً، بل ألقيا سؤالاً أو سؤالين عن الطريق من غير أن يترجلا ثم صعدا جانب التل. وتظاهرا بأنهما لم يريا جايزلر مع أنه كان واقفاً عن كثب. أما الرسولان ومعهما الخيل المحملة بالمتاع فاستراحا ساعة، وتحدثا إلى الرجال العاملين في البناء فعرفا منهم أن السيد المسن ذا الصدار الأبيض

والسلسلة الذهبية هو جايزلر، وعندئذ استأنفا طريقهما. ولكن في ذلك المساء نفسه عاد أحدهما برسالة شفوية إلى جايزلر أن يصعد إلى حيث السيدان في المنجم. فبعث جايزلر برد فحواه: «إنني هنا إن كانا يريداني».

ويبدو أن جايزلر أمسى شخصية هامة، فهو يظن نفسه رجلاً ذا حول وله طَوْلٌ عظيم. ولعله رأى من غير اللائق بكرامته أن يبعث إليه برسالة شفوية. ولكن كيف حدث أنه حضر إلى سيلانرا إطلاقاً في الوقت الذي كانت الحاجة إليه على أشدها بالضبط؟ ما أبرعه ولا شك في معرفة الأمور بكافة أنواعها. ومهما يكن من شيء فإن السيدين اللذين في أعلى المنجم جاءهما رد جايزلر، فلم يكن أمامهما سوى أن يهزا نفسيهما وينزلا كل تلك المسافة إلى سيلانرا مرة أخرى، وهبط معهما المهندس وخبيرا المنجم.

وجرى كثير من اللف والدوران قبل أن يتسنى هذا اللقاء. وبدا في أول الأمر أن الأمل ضعيف، لأن جايزلر كان مسرفاً في تعاليه ولكن السيدين كانا مهذبين هذه المرة تهذيباً كافياً، فاستسماحاه العذر لأنهما بعثا إليه في اليوم السابق برسالة شفوية، ذلك أنهما كانا مجهدين بعد رحلتهما وأبدى جايزلر تهذيباً في الرد فقال إنه كان مجهداً أيضاً بعد رحلته، وإلا لصعد إليهما. وبعد ذلك بدأ الكلام في العمل: أيحب جايزلر أن يبيع الأرض التي تقع جنوب الماء؟ فقال جايزلر: «أتريدان الشراء لحسابكما -أحب أن أعرف- أم أنتما وسيطان؟» وما كان هذا السؤال من جانب جايزلر إلا محض مناوأة فقد كان في استطاعته ولا شك أن يتبين بنفسه أن سيدين ثريين مهيبين من طرازهما لا يمكن أن

يكونا وسيطين واستطردوا إلى مناقشة الشروط فقالا: «وماذا عن الثمن؟» فقال جايزلر: «الثمن. نعم؟» ثم فكر وقال: «مليونان» فقال السيدان: «حقاً؟» وابتسما. ولكن لم يبتسم.

وكان المهندس والخبيران قد قاموا بفحص إجمالي للأرض وأحدثوا بعض الثقوب والتفجيرات، وهذا هو تقريرهم. إن وجود الركاز جاء نتيجة طفح. ولذا فهو غير منتظم ويبدو من الفحص الأول أنه أشد ما يكون عمقاً في منطقة الحدود بين أرض الشركة وأرض جايزلر ثم يأخذ في التناقص كلما أوغلا؛ وفي الميل الأخير أو نحوه لم يوجد ركاز يستحق عناء التشغيل. وأصغى جايزلر لذلك كله بمنتهى عدم المبالاة، وأخرج أوراقاً من جيبه وأخذ يتفحصها بعناية، ولكن الأوراق لم تكن رسوماً ولا خرائط، ومن الجائز أنها لم تكن تمت بأدنى صلة للمنجم. ثم قال وكأنه قرأ ذلك في أوراقه: «إنكم لم تتعمقوا تعمقاً كافياً» واعترف السيدان بذلك على الفور، بيد أن المهندس سأله كيف عرف ذلك؟ «ولا أظنك شخصياً أحدثت ثقوباً؟» فابتسم جايزلر كأنه أحدث ثقوباً تمتد مئات الأميال في باطن الكرة الأرضية ثم غطى الثقوب بعد ذلك. واستمروا في المناقشة حتى الظهر، والحديث يتجه هذه الناحية أو تلك. وأخيراً شرعوا ينظرون إلى ساعتهم وكان السيدان قد هبطا بجايزلر إلى نصف مليون ولكنه لم يقبل النزول عنه قيد شعرة بعد ذلك. لا. لا بد أنهما اشتدا عليه على نحو ما فكدراه، فهما فيما يلوح حسباه متلهفاً على البيع مضطراً إليه، ولكنه لم يكن متلهفاً ولا مضطراً على الإطلاق، فهو جالس هناك على سجيته وبلا اكتراث مثلهما، بصورة لا تخطئها العين. وقالا: «خمسة عشر أو لنقل عشرين ألفاً قد تكون ثمناً مناسباً»

على كل حال وافق جايزلر على أن ذلك من الممكن أن يكون ثمناً مناسباً لشخص في حاجة ماسة إلى النقود، ولكن خمسة وعشرين ألفاً قد تكون أفضل. وعندئذ قال أحد السيدين، ولعله قال ذلك بقصد منع جايزلر من الإفراط في الشموخ: «بهذه المناسبة، لقد قابلت أهل زوجتك في السويد، وهم يبعثون إليك بتحيتهم الدقيقة» فقال جايزلر: «أشكرك» فقال السيد الآخر وقد لاحظ أن جايزلر لا يمكن أن يغلب من هذه الناحية: «حسن ربع مليون إذاً. إن ما نشتريه ليس ذهباً. بل ركاز نحاس» فقال جايزلر: «بالضبط إنه ركاز نحاس» وعندئذ نفد صبرهم جميعاً وأخرجت خمس ساعات ففتحت ثم أغلقت بصوت مسموع ولم يعد هناك متسع من الوقت الآن للمراوغة: فقد حان موعد الغداء ولم يطلبوا طعاماً من سيلانرا بل ركبوا عائدين إلى المنجم لتناول طعامهم الخاص وهكذا انتهى الاجتماع وغودر جايزلر وحده.

ما الذي كان يدور في رأسه طيلة هذا الوقت كله؟ وماذا كان يفكر ويدبر؟ أيكون ذلك لا شيء اللهم إلا التراخي وعدم الاكتراث، لا حقاً بل كان يفكر في شيء ما، بيد أنه كان هادئاً تماماً مع ذلك وبعد الغداء التفت إلى إسحق وقال: «إني ذاهب في جولة طويلة في أنحاء أرض هناك. وكنت أحب أن يكون سيفرت معي كما كان في المرة الأخيرة» فقال إسحق على الفور: «سيذهب معك» فقال جايزلر: «لا؛ إن لديه عملاً آخر الآن» فقال إسحق: «بل سيذهب معك على الفور» ونادى إسحق سيفرت ليترك عمله، ولكن جايزلر أمسك بيده وقال باقتضاب: «لا» ودار حول الفناء عدة مرات ثم عاد وتحدث إلى الرجال وهم يعملون حديثاً يسيراً سهلاً ثم غادرهم وعاد إليهم كرة أخرى وكان الموضوع الذي

يشقل ذهنه يدور في رأسه طوال الوقت، ومع ذلك فهو يتكلم وكأنه لا يفكر في شيء إطلاقاً، فجايزلر قد ألف منذ زمن بعيد تغيرات الحظ فلعله تجاوز الآن الإحساس بأن شيئاً ما في كفة القدر، أياً كان ذلك الشيء فها هو قد أصبح ما هو عليه الآن بمحض المصادفة، لقد باع أول قطعة أرض إلى أقارب زوجته، فماذا حدث بعد ذلك؟ لقد ذهب واشترى المساحة كلها جنوبي الماء. لماذا؟ ألكي يضايقهم بأن يجعل من نفسه جاراً لهم؟ لعله في البداية ولا شك فكر في اقتناء قطعة أرض صغيرة هناك حيث ينبغي أن تقام القرية الجديدة إن أسفرت الأعمال في المنجم عن شيء؛ بيد أنه في النهاية صار مالك الهضبة كلها، فقد وجد ثمن الأرض أقرب ما يكون إلى لا شيء وهو لا يريد كثرة المشكلات بخصوص الحدود. فبدافع من الكسل المحض أصبح ملكاً من ملوك المناجم وسيداً من سادات الجبال، وكان قد فكر في موقع للأكواخ وسقيفات الآلات فأصبح الموقع مملكة تمتد هابطة حتى البحر.

وفي السويد انتقلت قطعة الأرض الصغيرة الأولى من يد إلى يد وحرص جايزلر على معرفة أنباء مصيرها. فالمشترون الأولون بالطبع اشتروها في غفلة من غير تفكير أو بعد نظر. فمجلس العائلة لم يكن من خبراء المناجم فلم، يضمنوا لأنفسهم رقعة كافية من الأرض في البداية، لأنهم لم يفكروا إلا في شراء كل ما يملكه المدعو جايزلر، والتخلص منه. ولكن الملاك الجدد لم يكونوا أقل غفلة منهم. وهم رجال أقوياء بلا شك يستطيعون الانغماس في الهزل واقتناء الأرض لمجرد التسلية، استجابة لرهان في سكر، أو ما لا يعلم إلا الله. ولكن عندما وصل الأمر إلى الأعمال التمهيدية واستغلال الأرض استغلالاً جدياً وجدوا أنفسهم فجأة يرتطمون بجدار اسمه جايزلر.

أطفال: هكذا لعل جايزلر ظنهم في ذهنه المتعالي. فهو يشعر الآن برأسه فهو يملك أن يكون موجزاً مقتضباً مع الناس. وقد بذل الآخرون جهدهم ولا شك في التشدد معه والتضييق عليه. لأنهم تخيلوا أنفسهم يتعاملون مع رجل في حاجة إلى المال، فأطلقوا التلميحات عن خمسة عشر أو عشرين ألفاً يا لهم من أطفال، لا يعرفون من هو جايزلر. وها هو واقف هنا الآن.

ولم يهبطوا مرة أخرى ذلك اليوم من الهضبة، مفضلين لا محالة ألا يبدوا تلهفاً مفرطاً، وفي اليوم التالي هبط السيدان ومعهما خيول المتاع وكل شيء في طريقهما إلى ديارهما. ولكن عجباً: إن جايزلر ليس هناك.

ليس هناك.

وهكذا قُضيَ على ما كانا دبراه من استطاعتهما تسويةً للموضوع بطريقة متعالية من فوق صهوتي جواديهما. إذ كان لا بد لهما من الرحيل والانتظار وأين جايزلر من فضلك؟ لا أحد يدري. فهو يتجول في كل مكان لاهتمامه الشديد بسيلانرا وكل ما يتعلق بها، وآخر ما رأوه منه حينما كان عند المنشر وبعثت الرسل للبحث عنه، ولكن لا بد أن جايزلر كان قد ابتعد على ما يظهر لأنه لم يرد جواباً عندما صاحوا ينادونه. ونظر السيدان إلى ساعتيهما وبدأ عليهما الضيق في البداية، وقالا: «لسنا متسعدين لإضاعة الوقت في الانتظار هنا على هذا النحو. فلو كان جايزلر يريد البيع لظل حتماً في موضعه في الموقف» إلا أنهما غيرا لهجتهما بعد برهة وجيزة، ولم يبديا الضيق بل شرعا يجدان في الموقف تسلية يتبادلان حولها النكات. فها هما في لحظة، وقد يضطران للرقاد هنا طول الليل في هذه التلال الموحشة وقد يضلان الطريق ويتضوران حتى الموت في البرية وتبيض

عظامهما فلا يكتشفها أقاربهما المحزونون. أجل لقد جعلا من المسألة كلها موضوعاً هائلاً للهزل.

وأخيراً جاء جايزلر. لقد كان يتجوّل قليلاً. فقد أقبل من الموضع الذي حبست فيه السائمة وقال لإسحق: «يبدو لي أن ذلك الموضع سيكون أصغر مما ينبغي لك قريباً. كم رأساً لديك الآن هناك في مجموعها؟» أجل استطاع أن يمضي في مثل ذلك الحديث وهذان السيدان الوجيهان واقفان هناك وساعتهما في يديهما. وكان وجه جايزلر أحمر اللون بصورة ملفتة للنظر كأنما كان عاكفاً على الشراب، وقال: يوه، لقد رفع المشي حرارتي رفعاً شديداً؟» فقال أحد السيدين: «لقد كنا نتوقع تقريباً أن نجدك هنا عندما حضرنا»، فأجاب جايزلر: «لم يصلني ما يدل على رغبتكما في مقابلتي إطلاقاً، وإلا لكنت هنا حاضراً».

وماذا الآن عن موضوع البحث؟ هل جايزلر مستعد لقبول عرض معقول اليوم؟ فما في كل يوم تسنح له الفرصة للحصول على خمسة عشر أو عشرين ألفاً. ماذا؟ اللهم إلا إذا كان طبعاً لا يعتمد بالمال، وفي هذه الحالة.

وكان هذا الغرض الأخير على غير ما يرام إطلاقاً، فاستاء. ويا لها من طريقة لطيفة في الكلام: لعلهما ما كان ينبغي أن يقولا ذلك لو لم يضايقهما في البداية. ولا محالة أن جايزلر ما كان ليكفهر لونه فجأة عند سماع كلماتهما لو لم يكن مختلياً بنفسه في مكان ما إلى أن احمر وجهه هكذا. لقد حدث إذاً أن وجهه اكفهر وأجابهما ببرود قائلاً: «لا أريد أن أتعرض لما قد يكون في وسعكما أيها السيدان أن تدفعاه. ولكنني أعرف ما أريد أن أقبله وما لا أريد أن أقبله ولا حاجة بي إلى

ثرثرة أطفـال في شـأن هذا المنجم. إن ثمني اليـوم هو بعـينه مـا كـان بالأمس». فقال أحدهما: «ربع مليون كرونر؟» فأجاب: «نعم؟» فركب السيدان جواديهما وقال أحدهما: «اسمع سنمضي إلى أبعد مدى، ونقول خمسة وعشرين ألفاً». فقال جايزلر: «أراكما ما زلتما ميالين للمزاح، ولكني سأقدم إليكما عرضاً وبكل جد لا مزاح فيه: هل تريدان بيع قطعة منجميكما هنا؟» فقالا وقد أخذا قليلاً قد نقدم على ذلك، فقال جايزلر: «وأنا على استعداد لشرائها».

يا لجايزلر من رجل: لقد قال ذلك والفناء حافل الآن بالناس يصغون لكل كلمة، فثمة أهل سيلانرا والحجارون والرسل. ومن الجائز أنه ما كان مستطيعاً على الإطلاق أن يعد المال الكافي أو شبه الكافي لمثل هذه الصفقة ولكن من يدري؟ إن جايزلر رجل مستعص على الفهم. ومهما يكن من شيء فكلماته الأخيرة حيرت عقل السيدين راكبي الجوادين. أهي خدعة؟ أم هو يرمي إلى رفع قيمة أرضه بهذه المناورة؟

وفكر السيدان في الموضوع. بل وشرعا يتبادلان المشاورة بصوت منخفض فيما بينهما، ثم ترجلا مرة أخرى عن جواديهما. وعندئذ تدخل المهندس بكلمة وقد ظن لا محالة أن الأمر تجاوز حدود الطاقة. ويلوح أنه كان يتمتع بسلطان من نوع ما في هذا المقام. وكان الفناء حافلاً بأناس يصغون لكل ما يدور فقد قال: «سوف لا نبيع» فسأله صاحباه: «لا نبيع؟» فقال: «لا». وتشاوروا فيما بينهم مرة أخرى ثم ركبوا جيادهم، جادين هذه المرة وصاح أحد السيدين: «خمسة وعشرون ألفاً» ولم يرد جايزلر بل أشاح عنهما ومضى يتحدث إلى الحجارين كرة أخرى.

وكان هذا ختام اللقاء الأخير.

وبدا على جايزلر أنه لا يكترث فتيلاً بما يمكن أن يترتب على ذلك فراح يتجول متحدثاً في هذا الأمر أو ذاك، وقضى برهة يظهر الاهتمام الشديد بموقع بعض عروق الخشب الثقيلة بعرض هيكل سقيفة البقر الجديدة وكان المفروض أن يفرغوا من العمل ذلك الأسبوع بعد إقامة سقف مؤقت، لأن سقيفة جديدة للعلف ستبنى فوقها فيما بعد.

وأبقى إسحق سيفرت بعيداً عن أعمال البناء وتركه متعطلاً، وقد فعل ذلك عن عمد، كي يجد جايزلر الفتى مستعداً في أي وقت إن هو شاء الذهاب معه مستكشفين بين التلال. ولكن إسحق كان حرياً أن يجنب نفسه هذا العناء لأن جايزلر كان قد تخلف عن تلك الفكرة، أو لعله نسي كل شيء عنها، فقد طلب من أنجر أن تحزم له شيئاً من الطعام، ثم انطلق هابطاً الطريق. وظل بعيداً حتى المساء.

واجتاز قطعتي الأرض الجديدتين اللتين تم تنفيذهما أدنى سيلانرا وتحدث إلى من بهما من الرجال، ثم مضى هابطاً إلى مانلاند ليرى ماذا أنجز أكسل شتروم تلك السنة. ويبدو أن ذلك لم يكن شيئاً كثيراً جداً، لا يقارب ما كان يود أن يصنعه، بيد أنه بذل شيئاً من المجهود الطيب في الأرض. وكان جايزلر مهتماً بذلك المكان أيضاً، فسأله: «ألديك حصان؟» فقال: «نعم» فقال جايزلر: «حسن. عندي آلة حصاد ومسلفة في الجنوب وكلتاهما جديدة، وسأرسلهما إليك هنا إن أردت» فسأله أكسل غير مستطيع أن يتصور مثل ذلك السخاء وخطر بباله في صورة غامضة موضوع أداء الثمن على أقساط: «كيف؟» فقال جايزلر: «أعني أن أقدمهما إليك هدية». فقال أكسل: «هذا صعب التصديق» فقال جايزلر: «ولكن يجب عليك نظير ذلك أن تساعد جاريك هذين من

فوقك على تمهيد أرض جديدة» فقال أكسل وهو لم يزل يجد عناء في إدراك ما يرمي إليه جايزلر من وراء ذلك كله: «نعم لا تخش شيئاً من هذه الجهة. إذاً فلديك آلات وما إلى ذلك في الجنوب؟» فقال جايزلر: «لدي أشياء كثيرة جداً علي أن أهتم بها». والواقع أن جايزلر لم تكن لديه أشياء كثيرة يهتم بها، ولكنه يجب أن يوقع ذلك في روع الناس. وأما عن آلة الحصاد والمسلفة ففي وسعه أن يشتريهما من أية مدينة ويبعث بهما إلى هناك.

ولبث يتحدث برهة طويلة مع أكسل شتروم عن المتوطنين الجدد القريبين منه، وعن ستوربورج والمركز التجاري، وعن شقيق أكسل الذي تزوج حديثاً وجاء إلى بريد ابليك وبدأ يصرف الماء من المستنقعات ويخليها منه، وشكا أكسل من استحالة الحصول على امرأة تساعده من أي مكان، فليست لديه إلا مخلوقة عجوز تدعى أولين لا تقدر على شيء كثير في أحسن أوقاتها، ولكنه يحمد الله على وجودها ما لبثت عنده. وكان أكسل قد قضى جانباً من ذلك الصيف يعمل ليل نهار. كان في مقدوره أن يستحضر امرأة متوطنة في هليجلاند، لولا أن معنى ذلك أن يتكفل بنفقات رحلتها فضلاً عن أجورها، مما يجعلها صفقة باهظة. وأخبره أكسل بعد ذلك كيف تولى منصب التفتيش على خط التلغراف، ولكنه يتمنى لو أنه لم يقبله. فقال جايزلر: «هذا عمل لا يصلح إلا لبريد ومن على شاكلته» فأقره أكسل قائلاً: «نعم هذه كلمة صدق، ولكن كان لا بد من التفكير في النقود» فسأله جايزلر: «كم بقرة عندك؟» فأجابه: «أربع. وثور صغير. فالمسافة بعيدة جداً كلما أردت الذهاب إلى سيلانرا ببقراتي، حيث ثورهم».

وكان ثمة مسألة أرجح من هذا كله عند أكسل، يرغب أشد الرغبة في بحثها مع جايزلر. فمسألة باربو قد افتضحت على نحو ما وبدأ التحقيق يأخذ مجراه. افتضحت؟ طبعاً افتضحت فباربو كانت تروح وتغدو وواضح غاية الوضوح لذي عينين أنها حبلى، وقد غادرت المكان خفيفة ولا طفل معها على الإطلاق فكيف حدث هذا؟

ولما فهم جايزلر كنه المسألة قال باقتضاب: «تعال معي» وقاد أكسل بعيداً عن البيت، واكتسى وجهه سيما الأهمية كمن يملك مقاليد السلطة وجلسا عند حافة الغابة ثم قال جايزلر: «الآن أخبرني بكل شيء في هذا الشأن».

افتضحت؟ طبعاً افتضحت، وكيف كان من الممكن الحيلولة دون ذلك؟ فهذه الناحية لم تعد صحراء ليس فيها ديَّار على مدى أميال. ثم إن أولين كانت هناك. وما علاقة أولين بذلك؟ هوه: ومما زاد الطين بلة أن بريد أولسن شخصياً ناصبها العداء. ولا سبيل الآن إلى الاحتيال على أولين. فهي هنا مقيمة وقد استطاعت أن تستخرج الأسرار من أكسل قليلاً قليلاً في كل مرة، فهي تعيش لمثل هذه الخفايا بل وتعيش عليها إلى حد ما. وها هو مطلوبها بالضبط، وثق بأن أولين ستهتدي إلى رائحته: وإن أردنا الحق لقلنا أن أولين تجاوزت السن التي تسمح لها بتدبير المنزل والعناية بالماشية في مانلاند. وكان ينبغي أن تتخلى عن ذلك. ولكن أنى لها هذا؟ كيف تستطيع أن تغادر مكاناً فيه لغز بديع بعيد القرار ينتظر منها ببساطة أن تميط عنه اللثام؟ لقد قامت على نحو ما بأعمال الشتاء، بل وفي خلال الصيف أيضاً، لأنها استمدت قوة أشبه بالإعجاز من مجرد تفكيرها في أنها ستتمكن يوماً ما من التشهير

بابنة بريد نفسه. ولم يكن الجليد قد انجاب عن الحقول ذلك الربيع قبل أن تسترع أولين في التنقيب هنا وهناك، فوجدت ربوة صغيرة خضراء قرب جدول الماء واكشتفت على الفور أن الطين في هذه الربوة إنما كدس هناك في كتل، وشاء لها طالعها أن تهبط ذات يوم صدفة على أكسل وقد وقف عند اللحد الصغير يحاول أن يوطئه. إذاً فأكسل يعرف عنه كل شيء. وهزت أولين رأسها الأشيب. أجل، لقد حل دورها الآن.

لقد كان أكسل رجلاً لطيف المعشر، بيد أنه شحيح، يحصي جبنه ويلقي باله جيداً إلى كل خصلة صوف. فلم تستطع أن تصنع بأشيائه ما تشاء، هيهات. ثم لا ننسى موضوع حادث العام الماضي عندما أنقذته. فلو كان أكسل كما ينبغي لنسب لها الفضل كله في ذلك أو اعترف لها وحدها بدينه، ولكن أكسل لم يصنع شيئاً من هذا، ولم يزل مصراً على القسمة التي أجراها في ذلك الحين. أجل إنه قد يقول لو لم تقبل أولين لكان حرياً أن يظل ملقى هناك في البرد طول الليل. إلا أن بريد كان عوناً له أيضاً في طريق العودة إلى البيت، وكان ذلك كل ما حصلت عليه على سبيل الشكر. فأفعمت أولين بالاستنكار. إن المولى سبحانه لا بد قطعاً أن يشيح بوجهه عن مخلوقاته: فلم يكن أسهل على أكسل من أن يقتاد بقرة من مزودها فيأتي بها إليها قائلاً: «هذه البقرة لك يا أولين» ولكن لا. لا شيء من هذا القبيل. فلينتظر إذاً. لينتظر وسوف يرى أن ذلك سيكلفه أكثر من قيمة البقرة في النهاية.

وظلت أولين طوال ذلك الصيف تتسقط النظر بحثاً عن كل عابر سبيل فتهمس إليه وتهز رأسها وتفضي بأمور في السر، وتقول لمن تسارهم «لا تقولوا كلمة من هذا الذي أخبرتكم به» وبهذا توصيهم في كل مرة. وهبطت أولين إلى القرية أيضاً أكثر من مرة واحدة. فانتشرت

الإشاعات والأقاويل في المنطقة ولبثت مخيمة في الجو كالضباب حين يستقر على الوجوه ويتسرب إلى داخل الآذان، فحتى الأطفال الذين يذهبون إلى المدرسة في بريد ابليك بدأوا يتناجون بالأسرار فيما بينهم. وفي النهاية اضطر العمدة إلى الاهتمام بالموضوع وكتب تقريراً بصدده وطلب التعليمات ثم حضر ومعه دفتر يكتب فيه ومساعد ليعاونه. حضر إلى مانلاند ذات يوم وتحرى الأمور ودوّن في دفتره سطوراً ثم عاد من حيث أتى. ولكن بعد ثلاثة أسابيع حضر مرة أخرى وعاود التحري والتدوين، وفي هذه المرة نبش ربوة صغيرة خضراء قرب الجدول واستخرج جثة الطفل. وكانت أولين عوناً له لا يقدر بثمن، ثم كان عليه أن يجيب على أسئلة كثيرة جداً وجهتها إليه. ومن بين هذه الأسئلة ما أجاب عنه بأن الأمر قد يؤدي إلى القبض على أكسل أيضاً. وعندئذ ضربت أولين يداً بيد في غم وأسى على كل الشر الذي خالطته ها هنا. وتمنت لو كانت بعيداً جداً عن ذلك كله. ثم همست: «والفتاة؟ ماذا عن باربو نفسها؟» فقال العمدة: «إن الفتاة باربو مقبوض عليها الآن في برجن فلا بد أن يأخذ القانون مجراه». وأخذ معه الجثة الصغيرة وعاد إلى القرية.

فلا غرو إذاً أن يستولي القلق على أكسل شتروم. لقد اعترف للعمدة ولم ينكر شيئاً. فهو مسؤول جزئياً عن وجود ذلك الطفل أساساً. يضاف إلى هذا أنه حفر له اللحد. وهو الآن يسأل جايزلر عن أفضل خطة يتبعها بعد ذلك. فهل لا بد له أن يذهب إلى المدينة حيث يتعرض لتحقيق جديد أسوأ من هذا وحيث يعذبونه هناك؟

وجايزلر لم يعد الرجل الذي كان فيما مضى «لا» فقد أرهقته هذه القصة الطويلة وبدا عليه أنه صار أشد خمولاً، كائناً ما كان السبب،

فهو ليس ذلك العقل المشرق الواثق بنفسه كما كان في الصباح ونظر إلى ساعته ثم نهض قائلاً: «هذا موضوع يحتاج إلى إمعان التفكير. سأفكر فيه جدياً وأخبرك بالنتيجة قبل رحيلي» ثم انصرف جايزلر.

وعاد إلى سيلانرا ذلك المساء فتناول عشاء يسيراً وأوى إلى فراشه فنام إلى ساعة متأخرة من الصباح، واستجم تمام الاستجمام. فقد كان مجهداً لا محالة بعد ذلك اللقاء مع صاحبي المنجم السويديين. ولم يتأهب للرحيل إلا بعد مضي يومين. وعندئذ استعاد شخصيته الشامخة، ورفع تكاليف إقامته عن سعة، وأعطى رفقة الصغيرة كروناً لامعاً. وتحدث إلى إسحق قائلاً: «لا ضير إطلاقاً إن لم تنجح الصفقة هذه المرة، فلسوف تنجح فيما بعد. أما في الوقت الحاضر فسأوقف الأعمال هناك وأتركها هكذا فترة. وأما بخصوص هؤلاء الأشخاص فهم أطفال: هل خالوا أنهم يلقون عليّ درساً؟ هل سمعت ما عرضوه علي؟ خمسة وعشرين ألفاً؟» فقال إسحق: «نعم» فقال جايزلر: «حسن» ولوح بيده كمن ينبذ سائر العروض الوقحة بمبالغها التافهة من ذهنه واستطرد: «حسن. لن يضير المنطقة إن أوقفت الأعمال هناك برهة. بل إن ذلك على العكس حريٌّ أن يعلّم الناس كيف يلتصقون بأرضهم، ولكنهم سيشعرون بوطأة ذلك التوقف في القرية لأنهم جنوا مالاً طائلاً هناك في الصيف الماضي ونعم الكل بالثياب الوجيهة والمعيشة الأنيقة. ولكن هذا كله قد انتهى الآن، أجل كان خيراً لهم، أولئك الناس هناك، لو أنهم استمسكوا بي. فالأمور عندئذ كانت حرية أن تكون بخلاف هذا. أما الآن فستجري الأمور على ما أهوى أنا.

ومع هذا كله لم يبد عليه كثيراً أنه الرجل الذي يسيطر على أقدار

القرى وهو مرتحل، فقد حمل لفافة الطعام في يده، وصداره الأبيض لم يعد تام النظافة. وكان الأولى بزوجته الطيبة أن تجهز للرحلة هذه المرة بشيء: مما تبقى من الأربعين ألفاً التي حصلت عليها يوماً ما... ومن يدري؟ فلعلها فعلت. ولكنه على كل حال ها هو ذا يعود في أفقر حال.
ولم ينس أن يمر على أكسل شتروم وهو هابط في طريقه وأفضى إليه بنتائج تفكيره قائلاً: «لقد قلبت الأمر على جميع وجوهه. إن الموضوع معلق في الوقت الحاضر، فلا يمكن عمل شيء فيه في هذه الحالة، وستدعى إلى هناك لإجراء تحقيق آخر، وعليك أن تقول ما حدث»...

كلمات، لا أكثر، ولعل جايزلر لم يفكر في الموضوع إطلاقاً، ووافق أكسل بإذعان على كل ما قاله. ولكن جايزلر انتفض في النهاية فبدا الرجل القدير مرة أخرى، وقطب حاجبيه وقال بإمعان: «هذا ما لم أتمكن من تدبير أموري للذهاب إلى المدينة بنفسي وتتبع الإجراءات» فقال أكسل: «إن تكرمت وتفضلت» وعندئذ استقر رأي جايزلر على الفور فقال: «سأرى إن كان في إمكاني تدبير ذلك. بحيث أجد متسعاً من الوقت. ولكنَّ لدي أشغالاً كثيرة جداً علي أن أرعاها هناك في الجنوب. سأحضر إن استطعت. وداعاً الآن. وسأبعث إليك بهاتين الآلتين حتماً».

ومضى جايزلر.

فهل تراه سيعود إطلاقاً؟

الفصل السادس

هبط من المنجم بقية العمال، وقد توقف العمل. وساد الموات الهضبة مرة أخرى، وكان البناء الجديد في سيلانرا قد تم أيضاً، وقد جعل له سقف مؤقت من الطين المعشب لمدة الشتاء. وقد قسمت المسافة الكبيرة من تحته إلى حجرات وغرف مشرقة في وسطها صالون كبير وعن جانبيه الحجرات الواسعة، كأنما أعد كل ذلك لمخلوقات آدمية. وفي هذا الموضع عاش يوماً ما إسحق في كوخ من الطين المعشب مع عنزاته القلائل. أما الآن فلا أثر يرى لكوخ من الطين المعشب. وقد ركبت في البناء الجديد مزاود وخواب وفيه صناديق مستقلة. ولم يزل الحجاران مشغولين في إنجاز العمل بأكمله في أسرع وقت ممكن. أما جوستاف فليس كما يقول بارعاً في النجارة المعمارية، ولذا فهو راحل. أما في أعمال الحجارة فكان جوستاف فتى رائعاً يرفع الحجارة أو يلقيها كالدب. وفي الأمسيات كان مصدر سرور وحبور للكافة، يعزف على آلته الفموية (الهارمونيكا) فضلاً عن مساعدته للنساء حاملاً الدلاء الثقيلة من البيت إلى النهر ومن النهر إلى البيت. ولكنه الآن أزمع الرحيل. كلا. إن جوستاف ليس كما يقول بارعاً في نجارة العمائر. ويبدو وكأنه يتعجل الرحيل. وتقول له أنجر: «ألا يمكن تأجيل ذلك إلى الغد؟» ولكن لا. لا يمكن تأجيل ذلك، فلا عمل لديه بعد يقوم به

هنا، ثم إنه بذهابه الآن سيظفر بصحبة آخر جماعة تغادر المنجم عبر التلال، فقالت أنجر باسمة في أسى: «ومن الذي سيساعدني الآن في دلائي؟» بيد أن جوستاف لا يعرف الحيرة أبداً، فجوابه حاضر. قال: «يلمار» ويلمار هو أصغر الحجارين. ولكن ما من أحد منهما في حداثة سن جوستاف نفسه. أو يشبهه من أي وجه. فقالت أنجر بازدراء: «يلمار هه» ثم فجأة غيرت لهجتها والتفتت إلى جوستاف ظناً منها أنها ستثير غيرته: «ولكنه بعد كل شيء رجل لطيف يستحب وجوده. ثم إن يلمار يغني غناء جميلاً وكل شيء...» فقال جوستاف: «لا أحسبه يساوي كثيراً على كل حال». ولم تبد عليه الغيرة إطلاقاً. فقالت: «ولكن في وسعك أن تمكث ليلة أخرى على الأقل» ولكن لا. لم يكن في وسع جوستاف أن يمكث ليلة أخرى، فهو ذاهب عبر التلال مع الآخرين.

ولعل جوستاف كان قد سئم الآن تلك اللعبة. فقد كان بديعاً أن يختطفها أمام أنظار البقية، ويتخذها لنفسه تلك الأسابيع القلائل التي مكثها هناك، ولكنه راحل الآن إلى مكان آخر. ولعله ذاهب إلى حبيبة له في بلده، فلديه أمور أخرى يفكر فيها. أفيبقى متسكعاً هنا وهناك في هذا المكان إكراماً لها؟ إن لديه أسباباً كافية لوضع ختام لهذه المسألة، وهو ما لا بد أنها تعلمه. إلا أنها كانت قد غدت شديدة الجرأة مسرفة في عدم تفكيرها في العواقب. وكأنها لا تبالي شيئاً. كلا. إن الأمور لم تستمر فيما بينهما فترة طويلة جداً، ولكنها استمرت مدة كافية لاستغراق فترة عمله هناك.

وأنجر حزينة موجعة القلب. فهي في إخلاصها المضلل له تبكي فراقه. فما أشق ذلك عليها وهي التي أحبته بصدق ودون تفكير في زهو

أو غزو. ولا يداخلها خجل. كلا. فهي امرأة قوية ملآنة ضعفاً، وإنما هي خاضعة لقانون الطبيعة كلها من حولها. فما بها هو توهج الخريف الذي يتبدى في كل شيء آخر. وصدرها يجيش بالمشاعر وهي تحزم الطعام لجوستاف كي يحمله معه. ولا تخطر ببالها خاطرة واحدة من التفكير: هل ذلك من حقها، وهل يجوز لها أن تخاطر بهذا الشيء أو ذاك، ولكنها تسلم نفسها لشعورها كل الاستسلام، منهومة إلى التذوق والاستمتاع، وقد يرفعها إسحق حتى السقف ثم يضرب بها الأرض مرة أخرى، وماذا في ذلك، إنه لن يقلل مما تشعر به.

وخرجت باللفافة إلى جوستاف. وكانت قد وضعت الدلو بجوار درجات السلم عمداً، احتياطاً لاحتمال قبوله المضي معها إلى النهر مرة واحدة أخرى. ولعلها كانت تحب أن تقول له شيئاً، أو تعطيه شيئاً صغيراً، مثل خاتمها الذهبي، فالله يعلم أنها كانت في حالة تجعلها مستعدة للإقدام على أي شيء. ولكن لا بد من نهاية للمسألة في وقت ما ويشكرها جوستاف، ويقول لها وداعاً، وينطلق.

وها هي واقفة هناك. ونادت بصوت مرتفع «يلمار» وكان صوتها أشد ارتفاعاً بالنداء مما يلزم، فكأنها مصممة على المرح رغم كل شيء، أو كأنها تفرج بالصياح عن كربها.

ويمضي جوستاف في طريقه..

وطوال ذلك الخريف كان العمل المعتاد جارياً في الحقول كلها حتى القرية: بطاطس تجمع، وقمح يدخل البيادر، وسائمة ذوات قرون طليقة السراح في الأرض. لقد بلغ عدد المزارع ثمانية؛ كلها يدور فيها العمل بنشاط، ولكن المركز التجاري في ستوربورج ليست به ماشية، ولا أرض

خضراء، بل حريقة فحسب. وليست هناك تجارة الآن، ولا أي شيء مما يشغل الناس.

وفي سيلانرا محصول جذري جديد اسمه اللفت يبتعث من الأرض كمية هائلة من الأوراق الخضراء المتناوحة، ولا سبيل لمنع البقر من النزول إليه، فالبهائم تحطم كل سياج يقام وتقتحمه وهي تخور. فلا مفر من تكليف ليوبولدين ورفقة الصغيرة حراسة حقول اللفت، وهكذا صارت رفقة الصغيرة تروح وتغدو بعصا كبيرة في يدها، وأصبحت بارعة في ذود البقر. وأبوها يعمل عن كثب منها، وبين حين وحين يأتي إليه ليتحسس يديها وقدميها ويسألها هل تشعر بالبرد. أما ليوبولدين فقد نمت الآن وكبرت، وتستطيع أن تحبك الجوارب والقفازات للشتاء وهي ترقب القطعان. وكانت ولادة ليوبولدين في ترونيم، وجاءت سيلانرا وعمرها خمس سنين، بيد أن ذكرى المدينة الكبيرة الغاصة بالناس وذكرى الرحلة الطويلة على ظهر الباخرة تزدادان بمرور الأيام بعداً وتتسربان من ذهنها، فهي ابنة البرية ولا تعرف شيئاً الآن عن العالم الكبير فيما وراء القرية التي هبطت إليها لتتردد على الكنيسة مرة أو مرتين، وحيث تم تثبيتها في العام السابق.

والعمل الصغير الذي يعرض كل يوم يمضي في سبيله، إلى جوار الأمور الكبيرة التي ينبغي عملها. فهناك مثلاً تلك الطريق السفلى التي ساءت حالتها في موضع أو موضعين. وكانت الأرض لم تزل صالحة للعمل فهبط إسحق ذات يوم مع سيفرت فحفر الخنادق وقاما بتصريف الماء من الطريق إذ كان لا بد من تجفيف مستنقعين هناك. وكان أكسل شتروم قد وعد بالاشتراك في ذلك العمل، فلديه حصان وهو شخصياً

يستخدم تلك الطريق، بيد أن أكسل كان لديه عمل ملح في المدينة ذلك الحين. والله أعلم ما هو هذا العمل، ولكنه قال إنه عمل ملح جداً. إلا أنه طلب من شقيقه في بريد ابليك أن يعمل معهما بدلاً منه وكان اسم شقيقه فريدريك، وهو شاب حديث عهد بالزواج خلي البال يحب الهزل، وإن كان ذلك لا يُزري به، وبينه وبين سيفرت أوجه شبه، وكان فريدريك قد مر بستوربورج أقرب جار إليه. وحضر ملآن الذهن بكل ما حدثه به التاجر، وقد بدأ الحديث على هذا النحو: كان فريدريك في حاجة إلى ورقة طباق، فقال له هارونسن «سأعطيك ورقة طباق عندما يوجد عندي هذا الصنف» فسأله فريدريك: «أليس عندك طباق؟» فأجابه: «لا. ولن أطلب شيئاً منه. فلا أحد هنا يشتريه. وماذا تظنني رابحاً من ورقة الطباق؟».

أجل إن هارونسن كان في شر مزاج هذا الصباح يقيناً. فهو يشعر أنه خدع على نحو ما في هذا المشروع السويدي للتعدين. فها هو قد أقام مخزناً تجارياً بعيداً عن العمران في البرية، وإذا بهم يغلقون المنجم إغلاقاً تاماً، ويبتسم فريدريك لهارونسن بخبث، ويعمد الآن إلى السخرية منه فيقول: «إنه لم يمس أرضه وليس لديه شيء لطعام دوابه، فلا بد له من شرائه. وقد سألني هل عندي دريس للبيع فقال أتعني أنك لا تريد أن تربح نقوداً؟ فهو يظن النقود كل شيء في الدنيا على ما يظهر، وقد وضع ورقة من ذات المائة كرونر على الحاجز وقال هاك نقوداً. فقلت له النقود شيء لا بأس به، فقال عداً ونقداً. فهو به مس بعض الشيء من هذه الناحية. وزوجته تروح وتغدو في أيام الأسبوع بساعة وسلسلة وما إلى ذلك. والله أعلم ما الذي تصر على تذكره بالدقيقة. فقال سيفرت: «هل قال هارونسن شيئاً عن رجل اسمه جايزلر؟» فقال

فريدريك: «نعم، قال شيئاً عن رغبته في بيع أرض يملكها. وكان هارونسن ثائراً جداً بسبب هذا، فقد قال إسحق إنه شخص كان عمدة ثم طرد، وربما لم تكن في حوزته خمسة كرونات، وينبغي أن يرمى بالرصاص. فقلت له انتظر قليلاً فلعله يرضى أن يبيع في النهاية. فقال هارونسن: لا. لا تصدق هذا أنا رجل أعمال وأعرف هذه الأمور. فعندما يطلب أحد الطرفين ثمناً مائتين وخمسين ألفاً ويعرض عليه الطرف الآخر خمسة وعشرين ألفاً، فالفرق أضخم مما ينبغي ولن يتمخض الموقف عن إتمام صفقة. فليذهبوا في طريقهم وليروا ماذا سيكون. وإني أتمنى لو لم أضع قدمي في هذا الجحر. فقد لحقني الضرر من جراء ذلك أنا وأهل بيتي. ولما سألته ألا يفكر شخصياً في البيع قال إن ذلك ما أفكر فيه فهذه الأرض مستنقع. جحر. قفر فلست أربح الآن كروناً واحداً في اليوم كله».

وضحكا من هارونسن، ولم يشعرا بالرثاء له إطلاقاً. وسأل إسحق: «أتظنه سيبيع؟» فقال فريدريك: «حسن. لقد تحدث في هذا الأمر، وهو قد تخلص بالفعل من الغلام الذي كان عنده، إن هارونسن هذا رجل عجيب غريب الأطوار يقيناً، إذ يطرد غلامه الذي كان يمكن أن يعمل في إدخال وقود الشتاء ونقل الدريس بالعربة والحصان الذي عنده في حين يحتفظ بأمين مخزنه أو كاتبه الأول كما يدعوه. وما قاله صحيح من أنه لا يبيع في اليوم كله بما قيمته كرون واحد. فليس لديه سلع في متجره إطلاقاً. ففيم إذاً حاجته إلى كاتب أول؟ أحسبه إنما يريد الاحتفاظ بمظهر العظمة والأبهة، فلا بد له من رجل يجلس إلى المكتب ويدون في الدفاتر ها ها ها... أجل يبدو أن به مساً من هذه الناحية، ذلك الرجل هارونسن».

وعمل الرجال الثلاثة حتى الظهر ثم تناولوا الطعام من سلالهم وتحدثوا برهة وكان ثمة أمور تعنيهم يتحدثون فيها، وهي أمور تتعلق بما يصيب العاملين في الأرض من خير وشر، فهي ليست صغائر، وإنما هي أمور تناقض بيقظة. فهم ذوو صفاء عقلي، وأعصابهم غير مجهدة، ولا يندفعون في القول حيث لا ينبغي الاندفاع، إنهم الآن في فصل الربيع، والسكون يسود الغابات من حولهم وثمة التلال والشمس. وفي المساء يظهر القمر والنجوم، فكل شيء منتظم ثابت يفيض لطافة ورقة. ولدى الناس متسع من الوقت للراحة هنا، مستقلين بين نبات الخلنج، متوسدين أذرعهم.

ويتحدث فريدريك عن بريد ابليك وكيف أنه لم ينجز منها حتى الآن إلا القليل فيقول إسحق: «لا ليس ما تم بالقليل فقد أبصرته بنفسي عندما كنت هابطاً في ذلك الاتجاه» وكان ذلك ثناء طيباً من أكبرهم سناً من العملاق نفسه، وحري بفريدريك أن يقرَّ به عيناً ويسأله بصراحة: «أهذا رأيك الآن؟ حسن، سيكون الحال أفضل قبل مضي فترة طويلة. فقد عوقتني أمور كثيرة هذا العام، إذ كان لا بد من إصلاح البيت الذي كان يتسرب إليه الماء ويكاد يتهاوى أطلالاً. وكان لا بد من هدم سقيفة الدريس وإعادة بنائها. ولم يكن ثمة مكان في كوخ الطين المعشب للبهائم. وأنا عندي بقرة وعجل أكثر مما لدى بريد في أي وقت».

وكان فريدريك يقول ذلك بفخر. فسأله إسحق: «وهل طابت لك الأحوال هنا؟» فأجابه: «نعم لست أقول لا وكذلك زوجتي مزدهرة الأحوال ولم لا؟ فهناك متسع والمنظر طيب من كل جانب وبوسعنا أن نكشف الطريق الصاعد والهابط من ناحيته. وهناك أجمة صغيرة أنيقة

قرب البيت يطيب النظر إليها بما فيها من أشجار البتولا والصفصاف. وسأزرع مزيداً منها على الجانب الآخر من البيت عندما يتسع وقتي. وما أبدع أن يرى المرء كيف جف المستنقع ونحن لم نحفر له المصارف إلا في العام الماضي. فالأمر الآن لا يتعلق إلا بماذا نزرعه هذا العام. أحوالنا مزدهرة؟ مادامت لدينا الأرض والجار وكل شيء، فهذا حَسْبُ كلينا على وجه التأكيد» فقال سيفرت بدهاء: «هوه: كلاكما؟ ألن يزيد العدد عن اثنين؟» فقال فريدريك بشجاعة: «أما عن هذا فمن المرجح أن العدد سيزيد. وأما عن ازدهار الحال فزوجتي لا يبدو من النظر إليها أنها تتروى».

وعملوا حتى المساء، متلبثين بين حين وحين ليقيموا أظهرهم ويتبادلوا كلمة أو كلمتين، وقال سيفرت: «إذاً أنت لم تحصل على الطباق؟» فقال فريدريك: «لا. هذا صحيح. ولكن لا ضير من هذا، فلا نفع له عندي على كل حال» فسأله سيفرت: «لا نفع للطباق؟» فأجابه: «لا. إنما كان تعلة أدخل بها متجر هارونسن وأسمع ما لديه» فضحك الهازلان معاً عندئذ. وفي الطريق إلى الدار تحدث الأب وابنه قليلاً كما هي عادتهما. ولكن لا بد أن إسحق كان يقلب في ذهنه فكرة ما، فقال: «يا سيفرت؟» فأجابه سيفرت: «نعم؟» فقل: «لا، لا شيء» وسارا مسافة طويلة ثم أنشأ إسحق يقول مرة أخرى: «وكيف يمكن لهارونسن هذا أن يمضي في تجارته وليس لديه شيء يتاجر فيه؟» فقال سيفرت: «لا، ولكن لا يوجد هنا أناس يكفون في الوقت الحاضر ليبيع لهم السلع» فقال إسحق: «هوه أتظن هذا؟ لا بد أن الأمر كذلك. نعم حسن...». وعجب سيفرت بعض الشيء من كلامه. وبعد برهة استأنف

أبوه الكلام كرة أخرى: «لا توجد هنا إلا ثماني مزارع في الوقت الحاضر. ولكن عددها سيزداد قبل مضي وقت طويل. سيزداد. حسن. لست أدري».

وزاد عجب سيفرت مما يمكن أن يرمي إليه أبوه بهذا الكلام. وسار كلاهما مسافة طويلة صامتين حتى باتا الآن قرب الدار. فقال إسحق: «همم. ماذا تظن أنّ هارونسن سيطلب في مقابل مكانه هذا الآن؟» فقال سيفرت: «هوه الأمر كذلك» ثم سأله هازلاً: «أتريد أن تشتريه إذاً؟» بيد أنه أدرك فجأة ما وراء ذلك كله: إن الرجل العجوز يفكر في اليزيوس. فهو لم ينسه بعد كل شيء بل ظل مثابراً على التفكير فيه، مثل أمه تماماً، ولكن على طريقته الخاصة، فهو أقرب إلى الأرض وأقرب إلى سيلانرا. وقال سيفرت: «أحسبه سيبيع بثمن معقول» وإذ يقول سيفرت شيئاً كهذا يدرك أبوه أنه قرأ أفكاره. وكأنما خشي أن يكون قد أفصح عما في ذهنه بأوضح مما ينبغي فانثنى إلى الحديث عن عملهما في إصلاح الطريق، وكيف أنهما خيراً صنعا إذ قاما بذلك في النهاية.

ولمدة يومين بعد ذلك لبث سيفرت وأمه متقاربيْن رأساهما يتشاوران ويتهامسان؛ بل إنهما حررا خطاباً. ولما حل يوم السبت أبدى سيفرت رغبته فجأة في الهبوط إلى القرية. فقال له أبوه باستياء: «وما حاجتك للنزول إلى القرية مرة أخرى الآن؟ إنك بذلك تبلي حذاءك».

فكان إسحق أشد مرارة مما ينبغي، لأنه كان يعرف تمام المعرفة أن سيفرت متوجه إلى مكتب البريد فقال سيفرت: «إنني ذاهب إلى الكنيسة» وكان هذا هو العذر الوحيد الذي خطر له وغمغم أبوه: «حسن ولماذا تريد الذهاب إلى...؟» ولكن ما دام سيفرت ذاهباً إلى الكنيسة

ففي استطاعته أن يشد الحصان إلى العربة ويأخذ رفقة الصغيرة معه. أجل إن رفقة حقيقة أن تنال هذه النزهة مرة في حياتها بعد أن أظهرت كل تلك البراعة في حراسة اللفت، ثم إنها من جميع الوجوه لؤلؤتهم جميعاً ونعمتهم وبركتهم. وشد الحصان ثم ركبت رفقة ومعها الخادمة بنسين لتعنى بها في الطريق. ولم يتفوه سيفرت بكلمة معارضة في هذا الشأن أيضاً.

وأثناء غيابهم حدث أن تابع هارونسن أو كاتبه الأول في ستوربورج أقل مصعداً في الطريق. فما معنى هذا؟ لا شيء ذا بال فأندرسن الكاتب الأول في ستوربورج أقبل يسير قليلاً في هذا الاتجاه. كلفه بذلك سيده ولا زيادة. وليس ذلك بالأمر المثير جداً لدى أهل سيلانرا، فالحالة الآن ليست كما كانت في الماضي حينما كان قدوم شخص غريب أمراً نادراً لهذه الأرض الجديدة تقوم له أنجر وتقعد. كلا لقد غدت أنجر الآن أكثر هدوءاً. وهي كثيرة الاعتكاف في هذه الأيام.

ما أعجب كتاب الصلوات. فهو مرشد في الطريق وذراع تحيط بعنق المرء، لا أقل من هذا. فعندما فقدت أنجر سيطرتها على نفسها بعض الشيء وضلت طريقها قليلاً وهي تقطف التوت، وجدت طريقها إلى البيت مرة أخرى بالتفكير في حجرتها الصغيرة وكتابها المقدس. أجل إنها الآن متضعة تملؤها خشية الرب. وإنها لتذكر سنين طويلة مضت كانت تتفوه فيها باللفظ القبيح إن وخزت إصبعها وهي تحيك الثياب. فهكذا تعلمت من زميلاتها حول المائدة الكبيرة في المؤسسة. أما الآن فهي تخز إصبعها فتدميها وتمص الدم بفمها وهي صامتة وليس تغيير طبيعة المرء على هذا النحو انتصاراً هيناً؛ وقد حققت أنجر ما هو

أكثر من هذا، فعندما رحل جميع العمال وانتهى البناء بالحجارة وأمست سيلانرا مهجورة ساكنة مرت بأنجر فترة عصيبة. فبكت كثيراً وتعذبت عذاباً شديداً. ولم تلم إلا نفسها على ذلك كله، وخالجها إحساس عميق بالمذلة ولو وسعها أن تصارح إسحق فتريح بالها لفعلت، إلا أن ذلك الأسلوب لم يكن متبعاً في سيلانرا، وما من أحد منهم يفضي بمشاعره ويعترف بما في سريرته فكل ما استطاعته أنها غدت مفرطة العناية بطريقة دعوة زوجها للدخول إلى البيت كي يأكل، فصارت تمضي كل المسافة إليه لتقول له ذلك في لطف ولا تصيح به من عتبة الباب. وفي المساء تنظر في ثيابه وتخيط أزرارها. بل أقدمت على ما يفوق ذلك. اتكأت ذات ليلة على مرفقها وقالت: «إسحق؟» فقال إسحق: «ماذا تريدين؟» فسألته: «يقظان أنت؟» فقال: «إي» فقالت أنجر: «لا. لا شيء ولكني لم أكن كما ينبغي في المدة الأخيرة» فقال إسحق: «ماذا؟» وما إن قال ذلك حتى نهض هو الآخر متكئاً على مرفقه وظلا كذلك وأخذا في الكلام وأنجر امرأة لا تبارى بعد كل شيء ولها قلب حافل وقالت: «لم أكن في المدة الأخيرة كما ينبغي بالنسبة لك. وأنا جد آسفة لذلك» فتأثر بهذه الكلمات البسيطة. أجل إن ذلك الرجل الهيكل تأثر وأراد أن يسرِّيَ عنها غير عالم شيئاً عن حقيقة المسألة سوى شعوره بأنها امرأة لا نظير لها، فقال: «لا تبكي على شيء يا عزيزتي، فما من أحد منا يسعه أن يكون كما ينبغي». فأجابته وقد أفعمت بالشكر له: «لا. هذا صحيح». ولإسحق طريقة سليمة فعالة في أخذ الأمور، فهو يقوِّم منها ما اعوج: «ما من أحد منا يسعه أن يكون كما ينبغي؟ أجل إن هذا صحيح. إن سلطان القلب على شموخه يمضي في طرق كثيرة

الانطواء ويقدم بما فيه من اندفاع المغامرة. فنرى ذلك في سيماه. فهو يوماً يتقلب في فراش من الورد، ويلعق شفتيه ويستعيد الذكريات، وفي يوم آخر تؤلمه شوكة في قدمه ويبذل جهد اليائس في استخراجها. أتراه يموت من جراء ذلك؟ إطلاقاً فهو على حاله بخير، فيا له من مأزق لطيف لو أنه مات.

ومرت محنة أنجر أيضاً. تغلبت عليها. إلا أنها واظبت على ساعات تعبدها ووجدت فيها ملاذاً رحيماً. إنها الآن تعمل بجد وصبر وصلاح كل يوم، مدركة أن إسحق مختلف عن سائر الرجال، ولا أرب لها في أحد سواه. أجل إنه ليس فتى يافعاً يحسن الغناء فاتناً بمظهره ولفتاته، ولكنه رجل طيب، أجل طيب حقاً ومرة أخرى تبين لها أن خشية الرب والقناعة الراضية بما في اليد مغنم ثمين.

وقد حدث الآن أن جاء الكاتب الأول الصغير أندرسن من ستوربورج صاعداً إلى سيلانرا ذات يوم أحد، ولم تتأثر أنجر بقدومه أقل تأثر. بل على العكس لم تجشم نفسها الدخول لتقدم إليه جرعة لبن بل أرسلت بها ليوبولدين، لأن ينسين الخادمة كانت في الخارج. وليوبولدين تحسن أن تحمل وعاء اللبن كما يجب وقد قدمته إليه قائلة: «هاك» واحمر وجهها مع أنها كانت مرتدية ملابس الأحد ولم يكن بها ما تخجل منه على كل حال. فقال لها أندرسن: «شكراً. وإنه لتلطف زائد منك. وهل والدك في البيت؟» فأجابته: «نعم إنه في موضع ما من المكان» وشرب أندرسن اللبن ومسح فمه بمنديل ثم نظر إلى الساعة وسألها: «هل المسافة بعيدة من هنا حتى المنجم؟» فأجابته: «لا. مشي ساعة. أو ربما أقل من ذلك» فقال: «إنني ذاهب إلى هناك لأنظر إلى حال المناجم، موفداً من قبل

هارونسن. فأنا كاتبه الأول» فقالت: «هوه». فاستطرد: قائلاً: «أتذكرك؟ طبعاً ينبغي أن أتذكرك؟» ثم قال أكثر من هذا: «أفلا تحبين أن تسيري معي حتى المنجم؟» وبعد هنيهة اختل شيء ما في عيني ليوبولدين فانقلب كل شيء إلى اللون الأحمر وبدا لها غريباً، وحتى الأرض أخذت تنسل بعيداً من تحتها، والكاتب الأول أندرسن صار يتكلم فيأتي صوته من مكان قصي جداً قائلاً: «أفلا تستطيعين تدبير الوقت لذلك؟» فقالت: «لا». والله أعلم كيف استطاعت أن تغادر المطبخ مرة أخرى. ونظرت إليها أمها وسألتها ما المسألة، فقالت ليوبولدين: «لا شيء».

لا شيء طبعاً، ولكن ألق بالك إلى هذا الآن. فقد حل دور ليوبولدين في التأثر بالغرباء، وتبدأ الدورة الأبدية بعينها. وهي مهيأة تمام التهيؤ لذلك بفرط نموها وجمالها، وبحداثة تثبيتها، فهي تصلح أن تكون ضحية ممتازة ففي صدرها اليافع طائر خفاق، ويداها الطويلتان أشبه بيدي أمها، تفيضان حناناً، وتفيضان جنساً. أتستطيع الرقص؟ أجل تستطيعه حقاً. وعجيب أين استطاعت أن تتعلمه. بيد أنهم يتعلمونه في سيلانرا مثلما يتعلمه الناس في كل مكان آخر. فسيفرت يستطيع الرقص. وليوبولدين كذلك. وإنه لضرب من الرقص خاص بهذه البقعة، كأنه من بنات تلك الأرض الحديثة الاجتثاث. رقص فيه حيوية وتمايل خليط من الرقصة الاسكتلندية ومن المازوركا والفالس والبولكا. أولا تستطيع ليوبولدين أن تتبرج وتغرق في الحب وتحلم في النهار أحلام اليقظة؟ بلى كأي إنسان آخر. فيوم وقفت في الكنيسة سمح لها باستعارة خاتم أمها الذهبي لتلبسه: فلا إثم في ذلك. وإنما هو التأنق والتجمل. وفي اليوم التالي عندما ذهبت لتناول أسرارها المقدسة لم

تخلع الخاتم إلا بعد أن فرغت من ذلك. أجل إنها تظهر في الكنيسة وفي إصبعها خاتم ذهبي، فهي ابنة رجل في المنطقة عظيم. ابنة صاحب الضيعة.

ولما هبط أندرسن من المنجم وجد إسحق في سيلانرا، ودعي للدخول وقدموا إليه الغداء وفنجاناً من القهوة وكان جميع من في المكان حاضرين كلهم الآن واشتركوا في الحديث. وقال أندرسن إن سيده هارونسن أرسله ليتعرف إلى الأحوال في المنجم وهل ثمة ما يدل على قرب استئناف العمل فيه. الله أعلم... إن أندرسن ربما كان كاذباً في كل ما قال بخصوص إرسال سيده إياه. فقد يكون مقدماً على شيء لحسابه الخاص. ثم إنه على كل حال لا يمكن أن يكون قد وصل إلى المنجم وعاد منه في المدة القصيرة التي غابها، وقال إسحق: «ليس من السهل أن يتبين الإنسان من الخارج هل يستأنفون العمل أم لا» واعترف أندرسن بأن الأمر كذلك فعلاً، ولكن هارونسن أرسله. ثم إن زوجين من العيون أقدر على النظر من زوج واحد إلا أن أنجر لم تستطع فيما يبدو أن تغالب نفسها أكثر من ذلك فسألته: «أصحيح ما يقال من أن هارونسن يزمع أن يبيع مكانه» فأجابها أندرسن: «إنه يفكر في ذلك. ورجل مثله يستطيع يقيناً أن يصنع ما يشاء، بالنسبة لما لديه من الموارد والأموال» فسألته: «هوه. أهو غني جداً إذاً؟» فقال أندرسن وهو يهز رأسه: «نعم. غني غنى كاف وهذا كلام موثوق به». ومرة أخرى لم تطق أنجر السكوت بل سألته صراحة: «إني لأتساءل الآن ماذا سيطلب في مقابل مكانه؟» وعندئذ تدخل إسحق وكأنه ليس أشد تشوقاً إلى معرفة الجواب من أنجر نفسها، ولكن لا ينبغي أن تبدو فكرة شراء ستوربورج

وكأنها صادرة منه، فهو يتظاهر بأنه لا علاقة له بالموضوع قائلاً: «ولماذا تريدين أن تعرفي أنجر؟» فتقول: «إنما هو سؤال فحسب» وينظر كلاهما إلى أندرسن منتظرين رده، فيجيب بحذر وحيطة كافيين فيما يتعلق بالثمن، فهو لا يستطيع أن يقول شيئاً في هذا الصدد، بيد أنه يعرف ما يقول هارونسن من أن المكان قد كلفه مبلغاً إياه.... فسألته أنجر ولم تعد قادرة على الإخلاد للصمت والهدوء: «وكم يبلغ هذا؟» فقال أندرسن: «ألفاً وستمائة كرونر».

وصفقت أنجر بيديها بمجرد أن سمعت هذا الرقم. فلئن كان ثمة أمر لا تعرف النساء عنه شيئاً، فهو ثمن الأرض والعقارات. ولكن الألف وستمائة كرونر على كل حال ليست مبلغاً هيناً بالنسبة لأهل البرية، وأنجر لا تخشى إلا شيئاً واحداً، ألا وهو إجفال إسحق وإحجامه عن هذه الصفقة. ولكن إسحق ظل جالساً هناك كالهضبة تماماً وقال: «فقط. إي. إنها البيوت الكبيرة التي أقامها» فقال أندرسن مرة أخرى: «نعم. هو ذاك. إنها البيوت الكبيرة الفخمة وما إلى ذلك».

ولما تهيأ أندرسن للانصراف تسللت ليوبولدين إلى الخارج بجوار الباب، وقد يكون ذلك غريباً ولكنها على نحو ما لم تستطع أن تحمل نفسها على التفكير في مصافحته؛ ولذا فقد عثرت لنفسها على مكان جيد ووقفت في سقيفة البقر الجديدة تطل من النافذة وقد ربطت حول عنقها شريطاً من الحرير الأزرق لم تكن ترتديه من قبل، ومن العجيب أنها وجدت الوقت الكافي لارتدائه الآن. وها هو منطلق، قصيراً بعض الشيء متين البنية خفيف الخطو بلحية كاملة خفيفة، فهو أسن منها بثماني سنوات أو عشر، وهو ليس قبيح المنظر في رأيها.

وعادت الجماعة من رحلة الكنيسة في ساعة متأخرة من ليلة الأحد، وكان كل شيء قد مضى على ما يرام. ورفقة الصغيرة نامت في الساعات القلائل الأخيرة من الطريق فحُملت من العربة إلى داخل الدار من غير أن تستيقظ. وكان سيفرت قد سمع جانباً كبيراً من الأنباء، ولكن عندما سألته أمه: «ماذا وراءك مما تريد أن تخبرني به؟» قال: «فقط ليس شيئاً كثيراً. لقد حصل أكسل على آلة حصاد وسلفة» فقال أبوه وقد ثار اهتمامه: «ما هذا؟ أرأيتهما؟» فقال: «نعم، رأيتهما بنفسي على الرصيف». فقال الأب: «هوه، إذاً لهذا كان ذهابه إلى المدينة لا مراء». وظل سيفرت جالساً وقد انتفخت أوداجه لما لديه من النبأ اليقين إلا أنه لم يفه بكلمة واحدة، فلأبيه أن يعتقد ما شاء أن مهمة أكسل العاجلة في المدينة تتعلق بشراء الآلات، ولأمه أيضاً أن تعتقد ذلك. ولكن ما من أحد منهما كان يعتقد هذا في قرارة نفسه. فقد سمعا كثيراً من الهمس عن الموضوع. فثمة قضية قتل طفل جديد في البرية.

وقال أبوه أخيراً: «حان وقت الفراش».

ومضى سيفرت إلى فراشه منتفخ الأوداج بما لديه من معلومات. فأكسل قد استدعي للتحقيق: والقضية كبيرة. فقد ذهب العمدة معه. وبلغ من جسامتها أن عقيلة العمدة التي وضعت أخيراً طفلاً جديداً تركت الطفل ومضت إلى المدينة مع زوجها. وقد وعدت بأن تقول للمحلفين كلمة بنفسها. واللغط وحديث الفضيحة تموج بهما القرية الآن. وتبين سيفرت بوضوح أن هذه القضية أعادت إلى الأذهان جريمة سابقة من نفس النوع. فالجماعات كانت تقف خارج الكنيسة وتتحدث في ذلك

الموضوع عندما وصل. ولولا أنه من هو لكان من الجائز أن يجرؤ بعضهم على الإعراض عنه. ولكن من الخير أن يكون المرء كسيفرت في تلك الأيام، رجلاً من مكان كبير أولاً، وابن مالك أرض ثري، ثم إنه إلى جانب ذلك معروف بالبراعة وإجادة العمل لمقامه المقدم على مقام غيره، وهو مرموق باعتبار ذاته. وقد كان سيفرت محبوباً دائماً من الناس. وآه لو لم تعرف ينسين أكثر مما ينبغي قبل أن يصلوا إلى البيت اليوم، وكانت لدى سيفرت أيضاً شؤونه الخاصة ليفكر فيها. فأهل البرية يستطيعون أن تحمر وجوههم وتصفر كسواهم من الناس. وقد رأى ينسين وهي تغادر الكنيسة مع رفقة الصغيرة ورأته أيضاً ولكنها مرت مرور الكرام، فانتظر برهة ثم قاد العربة إلى بيت الحداد ليأتي بهما. ووجد الأسرة كلها جالسة إلى المائدة للغداء فدُعي سيفرت للانضمام إليهم ولكنه كان قد تناول غداءه فشكرهم. وكانوا يعلمون أنه قادم، فكان في وسعهم أن ينتظروا مقدمه برهة، فهكذا كانوا حريين أن يصنعوا في سيلانرا، ولكن ليس هنا فيما يبدو، وقالت زوجة الحداد: «لا. لم تجر عادتنا بهذا كما هي الحال عندكم». وقال الحداد: «وما الأنباء في الكنيسة؟» مع أنه تبين أنه كان في الكنيسة شخصياً.

ولما استقرت ينسين ورفقة الصغيرة فوق مقعدهما في العربة مرة أخرى، قالت زوجة الحداد لابنتها: «وداعاً ياينسين، وسوف نحتاج إليك في البيت مرة أخرى قريباً». وهو كلام يمكن أن يفهم على وجهين فيما رأى سيفرت. بيد أنه لم يقل شيئاً. ولو كان الكلام أوضح وأصرح، لكان من الجائز... وانتظر متغضن الجبين، ولكن لم يقل أكثر من ذلك. واستقلوا العربة صوب البيت، فكانت رفقة الصغيرة هي الوحيدة التي

تكلمت، فقد كانت لا يفرغ لها عجب مما رأته في الكنيسة، فالقس في ثيابه ذات الصليب الفضي، والأضواء وموسيقى الأرغن، وبعد برهة طويلة قالت ينسين: «إنه لشيء مخز ذلك الذي حدث بخصوص باربو وما إلى ذلك» فسألها سيفرت: «ماذا كانت ترمي إليه أمك بقولها إنك ستعودين إلى البيت قريباً؟» فقالت: «ما الذي رمت إليه؟» فأجابها: «نعم. أتفكرين إذاً في تركنا؟» فقالت: «أحسبهم على كل حال سيكونون بحاجة إلي في البيت يوماً ما» فصاح سيفرت بحصانه يوقفه: «بتر» ثم قال لها: «ألعلك تحبين أن أعود بك الآن فوراً؟» فنظرت إليه ينسين وألفته شاحباً شحوب الموتى، فقالت: «لا» وبعد قليل أنشأت تبكي.

ونظرت رفقة من أحدهما إلى الآخر، ولكن رفقة فتاة حسنة الصحبة في رحلة كهذه، فقد انحازت لجانب ينسين وربتت عليها وحملتها على الابتسام مرة أخرى. ولما نظرت رفقة الصغيرة نظرة وعيد إلى أخيها قائلة إنها ستقفز من العربة وتبحث عن عصا كبيرة تضربه بها، اضطر سيفرت للابتسام أيضاً، وقالت ينسين: «ولكن ماذا كنت تعني أنت بكلامك هذا؟ هذا ما أحب أن أعرف؟» فأجابها سيفرت بصراحة على الفور: «إنما عنيت أنك إن كنت لا تكترثين بالبقاء معنا، فلا بد لنا من تدبر أمرنا بدونك». وبعد برهة طويلة قالت ينسين: «حسن. ها هي ليوبولدين قد كبرت الآن وصارت كفؤاً للقيام بعمل فيما يبدو».

أجل، كانت رحلة أسيفة.

الفصل السابع

رجل مصعد في الطريق التي تخترق التلال وسط الريح والمطر، فوابل الخريف قد بدأ، بيد أن الرجل لا يعبأ بهذا إلا قليلاً، فهو يبدو سعيد الفؤاد، وإنه لسعيد. فهذا الرجل أكسل شتروم عائداً من المدينة ومن المحكمة، فقد تركوه يمضي طليق السراح. أجل إنه لسعيد، فهناك أولاً آلة حصاد ومسلفة باسمه على الرصيف، ثم إنه فوق هذا كله طليق غير مذنب، لأنه لم يشترك في قتل الطفل. وهكذا تطورت الأمور لمصلحته. ولكن ما أشق الكرب الذي مر به. فقد وقف ذلك الفلاح موقف الشاهد، فعرف أشق أيام حياته. ولم يكن مغنماً له أن يجعل جرم باربو يبدو أعظم مما هو، ولذا كان حريصاً على ألا يقول أكثر مما ينبغي. بل إنه لم يقل كل ما يعرفه، فكل كلمة قالها كان لا بد من انتزاعها منه، وكان يجيب في الغالب بكلمتي «نعم» و«لا». أو ليس هذا كافياً؟ أينبغي أن يزيد الأمرَ سوءاً على سوئه الفعلي؟ ولكن كانت ثمة فترات بدا فيها الموقف خطيراً حقاً، فهناك رجال القانون بأرديتهم السوداء وما أخطرهم. فمن اليسير عليهم -فيما يبدو- أن يوجهوا المسألة كلها بكلمة واحدة منهم وفق هواهم فيحكم عليه. إلا أنهم كانوا قوماً رقيقي القلوب بعد كل شيء، فلم يحاولوا جلب الدمار عليه.

وكانت ثمة أيضاً قوى ذات نفوذ تعمل على إنقاذ باربو، فكان ذلك كله في مصلحته أيضاً.

فما الذي كان يقلق باله إذاً؟

إن باربو نفسها ليس من المحتمل أن تجعل الأمور تبدو أسوأ مما يقتضيه الحال بالنسبة لسيدها وعشيقها السابق، فهو يعرف أشياء فظيعة عن هذه القضية وعن قضية سابقة عليها من هذا القبيل بعينه. فليس من الممكن أن تكون مغفلة إلى هذا الحد. كلا: إن لدى باربو ما يكفي من الحذق، ولذا قالت كلاماً طيباً في حق أكسل، وقالت إنه لم يكن يدري شيئاً عن ولادتها للطفل إلا بعد أن انتهى كل شيء. ولعله مختلف عن غيره من الرجال من بعض الوجوه، ولذا لم يتوافقا في جميع الأحيان، إلا أنه رجل هادئ وطيب من جميع الوجوه، وصحيح أنه حفر لحداً جديداً وارى فيه الجثة هناك، ولكن ذلك كان بعد الحادث بزمن طويل ولأنه رأى المكان الأول غير جاف جفافاً كافياً، مع أنه كان جافاً، وإنما هو نمط أكسل الغريب في التفكير.

فماذا يخشى أكسل إذاً على الإطلاق وقد أخذت باربو على عاتقها الملام كله على هذا النحو؟ وأما عن باربو نفسها، فقد عملت لمصلحتها قوى ذات نفوذ عظيم، إذ تولت عقيلة العمدة هيردال القضية برعايتها، فطرقت كافة الأبواب في سائر المستويات غير مدخرة جهداً، وطلبت دعوتها للشهادة، وألقت خطبة في المحكمة؛ فلما حل دورها للشهادة مثلت أمامهم جميعاً فكانت سيدة عظيمة حقاً، فتناولت موضوع قتل الأبناء الأطفال الصغار من جميع نواحيه، وأدلت للمحكمة بمرافعة طويلة في هذا الشأن، حتى كاد يبدو للناس أنها حصلت سلفاً على الإذن بأن

تقول ما تشاء. أجل، للناس أن يقولوا ما يشاؤون عن عقيلة العمدة هيردال، ولكن مما لا شك فيه أنها قديرة على الخطابة، وأنها عليمة بالسياسة والمسائل الاجتماعية لا مراء. ومن العجيب حقاً من أين واتتها كل هذه الألفاظ. وبين حين وحين كان رئيس الهيئة يبدو راغباً في إلزامها حدود الموضوع الأصلي للشهادة، ولكن لعل قلبه لم يطاوعه على مقاطعتها، فكان يتركها تسترسل. وفي النهاية تطوعت بالإدلاء بمعلومة أو معلومتين نافعتين، وعرضت على المحكمة عرضاً مذهلاً.

وإذا تركنا المصطلحات القضائية جانباً، كان ما حدث كالآتي: قالت السيدة هيردال: «إننا نحن النساء شطر من البشرية عاثر الحظ. فالرجال هم الذين يسنون القوانين، وليست لنا نحن النساءَ كلمة في هذا الشأن. ولكن هل يسع أي رجل أن يضع نفسه في موضع امرأة يأتيها المخاض. هل خالجه قط ما يقترن بذلك من الرهبة والفزع؟ هل عرف قط ما في ذلك من غمرات شداد؟ هل أطلق قط صرخة مدوية من كرب تلك الساعة؟ وفي قضيتنا هذه نجد فتاة خادمة هي التي ولدت الطفل. فتاة غير متزوجة، وبالتالي تحاول طوال ذلك الوقت العصيب أن تخفي حالتها. ولماذا ينبغي أن تخفيها؟ بسبب المجتمع. فالمجتمع يزدري المرأة غير المتزوجة التي تنجب طفلاً. فالمجتمع لا يكتفي بعدم منحها أية حماية بل يتجاوز ذلك إلى تعذيبها وتعقبها بالزراية والعار: إلا أن هذا لشنيع؛ ما من إنسان أوتي حظاً من الرحمة مهما كان ضئيلاً يملك ألا يشعر بالاستنكار إزاء هذه الأوضاع. فالفتاة ليست مقدمة على إخراج طفل إلى النور فحسب -وهي مسألة شاقة في حد ذاتها- بل تعامل أيضاً معاملة المجرمين لهذا السبب نفسه. وإني لأجرأ على التصريح بأنه

كان من الخير لهذه الفتاة المنكودة المتهمة أمام هذه المحكمة الآن بأن ولد طفلها مصادفة عند سقوطها في الماء فغرق. وما دام المجتمع متمسكاً بمسلكه الراهن، فلا بد أن تعتبر الأم غير المتزوجة غير مذنبة إن هي قتلت طفلها».

وعندئذ سمعت همهمة يسيرة من جانب رئيس الهيئة. فقالت السيدة هيردال: «أو على الأقل ينبغي أن تكون عقوبتها اسمية فحسب فنحن جميعاً متفقون طبعاً على وجوب صيانة حياة الأطفال الصغار، ولكن هل معنى هذا أن قانون الإنسانية المجردة لا ينطبق على الأم المنكودة؟ فكروا وقدورا ما عانته طيلة فترة الحمل. وأي عذاب تعرضت له وهي تجاهد لإخفاء حالتها. ثم إنها طيلة الوقت لا تدري أين تتجه بنفسها وطفلها تلتمس الحماية والرعاية عندما يولد. ما من رجل يستطيع أن يتخيل ذلك. إن الطفل على الأقل قد قتل بدافع الرحمة. فالأم تحاول أن تنقذ نفسها والطفل الذي تحبه من تعاسة حياته. والخزي أشد من طاقة احتمالها، وهكذا تتكون الخطة تدريجاً من تلقاء نفسها داخل ذهنها، خطة ترمي إلى إبعاد الطفل عن الطريق. ويتم الوضع في الخفاء. وتقضي الأم أربعاً وعشرين ساعة في حالة هذيان ونزع بحيث أنها في لحظة إقدامها على قتل الطفل لا تكون مسؤولة عن أفعالها. فهي من الوجهة العملية ليست التي اقترفت الجرم بنفسها على الإطلاق، لأنها في ذلك الحين خارجة عن طورها، فلا بد لها، وكل عظمة من عظام جسدها لم تزل تؤلمها بعد الوضع، من انتزاع حياة المخلوق الصغير وإخفاء جسده. ففكروا أي مجهود تبذله الإرادة في هذا المقام: إننا جميعاً بطبيعة الحال راغبون في أن يعيش جميع الأطفال، ونشعر بالغم

والأسى حينما نفكر في أن طائفة منهم استأصلوا شأفتها على هذا النحو. ولكن الخطأ في هذا خطأ المجتمع، خطأ المجتمع الذي لا يعرف الرحمة ولا أمل فيه. فهو مولع بتناقل الفضائح، شرير، سيء التفكير، متربص على الدوام لسحق أي أم غير متزوجة بكل ما في مقدوره من الوسائل، ولكن حتى بعد هذه المعاملة على يد المجتمع، قد تستطيع الأم المضطهدة أن تنهض على قدميها، فكثيراً ما يحدث لأولئك الفتيات بعد أول زلة من هذا القبيل أن يبتعث خير ما فيهن وأنبل ما لديهن من الخصائص. فلتسأل المحكمة المشرفين والمشرفات على الملاجئ التي تستقبل أولئك الأمهات غير المتزوجات وأطفالهن، هل هذا صحيح. وقد دلت التجربة على أن أولئك الفتيات بالذات اللواتي أكرههن المجتمع على قتل أطفالهن يصبحن أفضل المربيات؛ أليس في هذا موضع لإنعام التفكير لنا جميعاً؟ ثم هناك جانب آخر للمسألة. لماذا يترك الرجل طليقاً؟ إن المرأة التي يثبت اقترافها لقتل طفلها يزج بها في السجن وتعذب، أما الأب، أما المغوي فلا يمس على الإطلاق مع أنه علة وجود الطفل وشريك في الجريمة. بل إن نصيبه منها في الحقيقة أعظم من نصيب الأم. فلولاه لما كانت ثمة جريمة. فلماذا يبرأ إذاً؟ لأن القوانين يسنها الرجال. هذا هو الجواب. إن وبال مثل هذه القوانين التي يسنها الرجال يستصرخ السماء أن تمد يدها كي تضع لها حداً، ولا خلاص لنا نحن النساءَ ما لم يسمح بأن يكون لنا رأي في الانتخابات وفي سن القوانين. ولئن كان هذا هو المصير البشع الذي يهال على الأم غير المتزوجة التي ثبت اقترافها لقتل طفلها؛ فماذا عن الأم غير المتزوجة البريئة التي يشتبه في جرمها فحسب من غير أن تقترفه؟ أي تعويض

يقدمه لها المجتمع؟ لا شيء على الإطلاق، وأستطيع أن أشهد بأنني أعرف الفتاة المتهمة هنا، فقد عرفتها منذ كانت طفلة، حينما كانت تعمل في خدمتي وكان أبوها مساعداً لزوجي. ونحن النساء نجازف بالتفكير والشعور المستقلين المناهضين لاتهامات الرجال واضطهاداتهم. ونجسر على أن يكون لنا رأينا الخاص. وهذه الفتاة الماثلة هناك قبض عليها وحرمت من حريتها للاشتباه في أنها أولاً أخفت ولادة الطفل ثم بعد ذلك قتلت الطفل الذي ولد في الخفاء. وليس عندي أدنى ريب في أنها غير مذنبة في أي من هاتين التهمتين. وستصل المحكمة نفسها إلى هذه النتيجة البينة. فإخفاء الولادة مردود عليه لأن الطفل ولد في منتصف النهار. وإنه لصحيح أن الأم كانت بمفردها في ذلك الحين. ولكن من كان عساه يوجد معها عندئذ على كل حال؟ فالموضع بعيد عن العمران في البرية، والإنسان الوحيد القريب من متناولها رجل. فكيف يمكن أن ترسل في طلب رجل في تلك اللحظة؟ إن أية امرأة قمينة أن تقول لكم إن هذا مستحيل ولا يمكن أن يخطر بالبال. ويقال بعد هذا إنها لا بد قتلت الطفل. ولكن الطفل ولد في الماء، لأن الأم حين سقطت في جدول ماء في برودة الثلج ولد الطفل. أتقولون ماذا كانت تصنع عند الماء؟ إنها فتاة خادمة، وهي أمه. وعليها أن تقوم بعلمها اليومي. وقد ذهبت إلى هناك بحثاً عن عساليج العرعر لتستخدمها في التنظيف. وإذ كانت تعبر الجدول فقد زلت قدمها وسقطت فيه، فإذا بها مطروحة هناك، ولقد ولد الطفل وغرق في الماء.

وتوقفت السيدة هيردال. واستطاعت أن تتبين من سيما المحكمة والنظارة أنها أحسنت الكلام إلى حد الروعة. وساد صمت هائل جو

المكان. وجعلت باربو تطرف بعينيها وهي جالسة بين فينة وفينة من فرط التأثر. واختتمت السيدة هيردال كلمتها بالعبارات التالية: «إنَّ لنا نحن النساء شيئاً من الرحمة وشيئاً من العاطفة. وقد تركت أطفالي شخصياً في رعاية بعض الغرباء لأقطع كل هذه المسافة وأمثل هنا لأداء الشهادة في جانب هذه الفتاة المنكودة الجالسة هناك. فقوانين الرجال لا يمكن أن تمنع النساء من التفكير. وفي اعتقادي أن هذه الفتاة الجالسة هناك قد تلقت عقوبة كافية لغير ذنب جنته. برئوا ساحتها، أطلقوا سراحها، وسأتولى أمرها، ولسوف تكون أفضل مربية ظفرت بها».

وترجلت السيدة هيردال من منصة الشهود، وعندئذ قال القاضي: «أظنك قلت منذ برهة إن أفضل المربيات هن أولئك اللائي قتلن أطفالهن؟» بيد أن القاضي لم يكن في نيته الوقوف من السيدة هيردال موقف المناهض على الإطلاق فقد كان شخصياً ذا نزعة إنسانية إلى أقصى حد، ورجلاً في دماثة القسيس. وعندما وجه محامي التاج بضعة أسئلة إلى الشاهدة بعد ذلك، انصرف القاضي معظم الوقت إلى تدوين طائفة من الملاحظات في بعض الأوراق.

واستمر نظر القضية برهة وجيزة فحسب بعد الظهر، فقد كان الشهود قليلين والقضية شديدة الوضوح. وجلس أكسل شتروم تساوره الآمال في خير النتائج وإذا بالموقف يبدو فجأة وكأن محامي التاج والسيدة هيردال يوحدان جهودهما لجعل موقفه حرجاً، لأنه دفن الجثة بدلاً من الإبلاغ بالوفاة، وتم استجوابه عن هذه النقطة بشيء من الحدة. وكان حرياً أن ينقلب شر منقلب لو لم يلمح جايزلر جالساً في قاعة المحكمة. أجل كان صحيحاً تماماً أن جايزلر حاضر، فبث حضوره الشجاعة في

أكسل، لأنه لم يعد يشعر بوجوده وحيداً في مواجهة القانون الذي عقد العزم على الإيقاع به وأومأ له جايزلر برأسه.

أجل إن جايزلر حضر إلى المدينة. ولئن لم يطلب عودته للشهادة فهو موجود على كل حال. وقد قضى كذلك يومين قبل نظر القضية في مراجعتها بنفسه وتدوين ما تذكره من رواية أكسل التي سردها عليه بشأن الحادث في مانلاند. وكانت معظم الوثائق تبدو غير مرضية على نحو ما في نظر جايزلر. فهذا العمدة هيردال رجل ضيق العقل بلا شك، حاول جهده أن يثبت الاشتراك في الجريمة على أكسل، وماذا يعرف هذا المغفل الأبله عن الحياة في البرية وهو لا يدرك أن ذلك الطفل كان معقد أمل أكسل للاحتفاظ بالمرأة التي تعاونه على الحياة في ذلك المكان؟

وتحدث جايزلر إلى محامي التاج، ولكن يبدو أنه لم يكن ثمة حاجة شديدة إلى التدخل في هذا الصدد، فهو يريد أن يساعد أكسل في العودة إلى مزرعته وأرضه. ولكن أكسل لم يكن على ما هو ظاهر من ظروف الحال بحاجة إلى مساعدة. لأن القضية كانت سائرة على خير وجه فيما يتعلق بباربو نفسها. ومتى برئت ساحتها فلن يكون ثمة موضع لبحث مسألة الاشتراك الجنائي إطلاقاً. فالمسألة تتوقف على شهادة الشهود.

وانتهى سماع الشهود القلائل. ولم تسمع شهادة أولين، وسمعت شهادة العمدة فحسب، وشهادة أكسل نفسه والخبراء وفتاتين من القرية. وبعد الفراغ من سماعهم حان وقت رفع الجلسة للاستراحة ساعة الظهر، وتوجه جايزلر إلى محامي التاج مرة أخرى، فكان رأيه أن كل شيء يمضي على ما يرام بالنسبة للفتاة باربو، وهذا أفضل. فقد كان لعبارات

عقيلة العمدة هيردال وزنها الكبير، وكل شيء يتوقف الآن على قرار المحكمة. وسأله المحامي «أأنت مهتم أدنى اهتمام بالفتاة؟» فأجابه جايزلر: «إلى حد ما. ولكن أكثر اهتمامي قد يكون بالرجل» فسأله: «وهل عملت الفتاة في خدمتك أيضاً؟» فأجابه: «لا. لم يكن قط في خدمتي». فقال المحامي: «إنما أتكلم عن الفتاة. فالفتاة هي التي تتمتع بعطف المحكمة» فقال جايزلر: «لا. إنها لم تكن في خدمتي في أي وقت من الأوقات» فقال محامي التاج: «الرجل... همم. لا يبدو أنه سيفلت من الإدانة تمام الإفلات. فقد دفن الجثة مستقلاً بنفسه في الغابة. وهذا يبدو سيئاً غاية السوء». فقال جايزلر: «أحسبه كان يريد أن يدفنها كما ينبغي لأنها لم تكن مدفونة دفناً حقيقياً على الإطلاق في مبدأ الأمر» فقال المحامي: «إن المرأة طبعاً ليست لديها قدرة الرجل على الحفر. ثم إنها في حالتها عندئذ لا بد أن تكون واهنة القوى أشد الوهن. ونحن بصفة إجمالية قد أمسينا فيما أعتقد ننظر إلى قضايا قتل الأطفال حديثي الولادة نظرة أكثر تمشياً مع الإنسانية في المدة الأخيرة بوجه عام. فلو كنت القاضي لما خاطرت بإدانة الفتاة إطلاقاً. ومما ظهر لي في هذه القضية سوف لا أتقدم بطلب توقيع عقوبة عليها» فقال جايزلر وهو ينحني: «يسعدني جداً أن أسمع هذا» واستطرد المحامي: «وبصفتي رجلاً وفرداً عادياً قد أذهب إلى أبعد من هذا المدى، فأقول إني لن أدين امرأة واحدة غير متزوجة لقتلها طفلها»، فقال جايزلر: «إنه لمن الجدير بالاهتمام حقاً أن نجد محامي التاج متفقاً تمام الاتفاق مع رأي السيدة هيردال الذي أدلت به أمام المحكمة» فقال المحامي: «أوه. السيدة هيردال، في اعتقادي أن ما قالته يتضمن كثيراً من جوانب

الصواب. فما جدوى كل هذه العقوبات بعد كل شيء؟ إن الأمهات غير المتزوجات يقاسين عذاباً كافياً سلفاً، وينظر إليهن العالم الوحشي القاسي القلب نظرة شديدة الإسفاف. وهذا عقاب ينبغي أن يكون كافياً». فنهض جايزلر وقال أخيراً: «بلا شك. ولكن ماذا عن الأطفال؟» فقال المحامي: «أجل إن الأمر مؤسف جداً فيما يتعلق بالأطفال. ولكن إذا راعينا جميع الاعتبارات فقد نجد أن الأمر سيان. فالأطفال غير الشرعيين يلاقون وقتاً عصيباً ويسوء في الغالب منقلبهم».

ولعل جايزلر شعر بشيء من الخبث يساوره إزاء هذا التساؤل الوقور من جانب رجل القانون فقال: «إن أرازموس ولد خارج فراش الزوجية» فسأله المحامي: «أرازموس...» فقال: «أرازموس الروتردامي». فقال المحامي: «هم...» فقال جايزلر: «وليوناردو كذلك». فقال المحامي: «ليوناردو دافنشي؟ حقاً؟ حسن. هناك بالطبع شواذ، وإلا لم تكن هناك قاعدة. ولكن بوجه الإجمال» فقال جايزلر: «إننا نسن وسائل الحماية للحيوانات والطيور أليس من الغريب حقاً ألا نعنى بأنفسنا بحماية صغار جنسنا؟».

ومد محامي التاج يده ببطء ووقار وراح يقلّب طائفة من أوراقه على المكتب، تلميحاً إلى أنه لا وقت لديه لمواصلة النقاش، وقال بشرود: «نعم نعم. بلا شك». فأعرب له جايزلر عن شكره له على حديثه المفيد جداً، واستأذن بالانصراف، ثم جلس في قاعة المحكمة مرة أخرى، ليكون هناك في الوقت المناسب. ولعله لم يكن من بواعث استيائه أن يشعر بقوته، فهو على علم بقطعة قماش مزقت من قميص رجل لتحمل

فيها العساليج المزعومة لصنع مكنسة، وعلى علم بجثة طفل وجدت طافية في ميناء برجن. أجل إن في استطاعته أن يعقد الأمور بالنسبة للمحكمة إن شاء، فكلمة واحدة منه قد تكون أفعل من ألف سيف. ولكن جايزلر لا ينوي التفوه بهذه الكلمة قطعاً ما لم تدع الحاجة لذلك. والأمور سائرة على خير وجه بدون هذا، فمحامي التاج نفسه أعلن وقوفه جانب المتهمة.

وغصت القاعة، وانعقدت الجلسة مرة أخرى.

وإنها لملهاة طريفة يرقبها المرء في مدينة صغيرة بين وقار محامي التاج المتجهم وبلاغة محامي الدفاع العاطفية، والمحكمة معقودة لسماع ما يبدو أنه واجبها بإزاء قضية فتاة تسمى باربو وموت طفلها، ومع ذلك لم يكن من السهل البت في الموضوع. وكان محامي التاج رجلاً وجيه المنظر، وهو بلا مراء رجل رحيم، ولكن يبدو أن شيئاً ما قد كدره أخيراً، أو لعله تذكر فجأة أنه يشغل منصباً معيناً في الدولة، وهو مطالب بالتصرف على ذلك الأساس. وقد لا يكون ذلك التغيير في روحه مفهوماً، ولكن كان واضحاً أنه بات أقل ميلاً في الوقت الحاضر للين مما كان في جلسة الصباح، وقال إنه إذا ثبت ارتكاب الجريمة لكان الأمر خطيراً، وهو حقيق أن يبدو حالكاً جداً إن أمكن على وجه اليقين تقرير ذلك على ضوء شهادة الشهود الذين سمعتهم المحكمة بالفعل، وهذه مسألة متروك الفصل فيها للمحكمة، إلا أنه يود توجيه الانتباه إلى ثلاث نقاط: أولاً هل هم بإزاء جريمة إخفاء ولادة طفل؟ وهل تبدو هذه النقطة جلية للمحكمة؟ وأدلى بملاحظات شخصية في هذا الخصوص. وثانياً مسألة اللفافة أو تلك القطعة من القميص ولماذا أخذتها المتهمة

معها؟ أبقصد استخدامها لغرض معين سبق إصرارها عليه؟ وزاد هذا الغرض وضوحاً. وثالثاً موضوع الدفن المتسرع المريب من غير إخطار بالوفاة لدى الكاهن أو العمدة. ومن هذه الناحية يعتبر الرجل المسؤول الأساسي، وإنه لعلى جانب عظيم من الأهمية أن تصل المحكمة إلى النتيجة الصائبة في هذا الخصوص، لأنه إن ثبت أن الرجل مشترك في الجرم وتولى الدفن بنفسه، فعندئذ تكون الخادمة قد اقترفت الجريمة حتماً قبل أن يتسنى اعتباره شريكاً فيها. فقال بعض من في القاعة: «همم». وشعر أكسل شتروم أنه بات مرة أخرى في خطر، وتطلع بعينيه فلم تلتقيا نظرة واحدة لأن العيون جميعاً كانت مثبتة في المحامي وهو يتكلم.

ولكن عن بعد في قاعة المحكمة كان جايزلر جالساً ينظر في شموخ أنف بالغ وكأنه يكاد ينفجر بإحساسه بالتفوق، وقد دفع بشفته السفلى إلى الأمام واتجه بوجهه إلى السقف، وقد أحدثت جسامة عدم اكتراثه هذا بوقار المحكمة، وتفوهه بكلمة: «همم» هذه بصوت مرتفع وبلا مواربة، أثرها في رفع روح أكسل المعنوية شديداً. فلم يعد يشعر أنه بمفرده في مواجهة العالم أجمع.

وبدأت الأمور الآن تجنح مرة أخرى إلى التحسن، فمحامي التاج بدا عليه في النهاية أنه فعل كل ما في وسعه لتوجيه الشك وسوء الظن إلى الرجل، فتوقف بل وفعل ما هو أكثر من هذا، فأوشك أن ينكص على عقبيه، ولم يطلب توقيع العقوبة، بل ختم كلامه بقوله صراحة إنه بعد شهادة الشهود في القضية لا يناشد المحكمة من جانبه معاقبة المتهمة، ورأى أكسل أن ذلك لا بأس به، وأن المسألة انتهت عملياً.

وعندئذ حل دور محامي الدفاع، وهو شاب درس القانون، وكانت هذه القضية أبعث القضايا التي كلف بها على رضاه، وكانت لهجته نفسها تدل على رأيه فيها، حتى كأنما لم يسبق قط لرجل أن دافع عن شخص بريء وهو أشد منه إيماناً ببراءته. وكانت السيدة هيردال والحق يقال، قد سبقته سلفاً في عين مضماره، واستخدمت كثيراً من الحجج التي كان قد أعدها عندما تحدثت هذا الصباح. وضايقه أنها استغلت بالفعل مسألة «المجتمع» وكان حرياً أن يقول شيئاً كثيراً لم يُسبق إليه بصدد المجتمع، وأحنقه تساهل رئيس المحكمة ذلك التساهل الضال بعدم كفها عن الاسترسال في الكلام، فكانت شهادتها في حد ذاتها دفاعاً ومذكرة معدة من قبل. فماذا بقي له بعد ذلك؟

وبدأ بقصة حياة الفتاة باربو من بدايتها، فأهلها لم يكونوا ميسورين، وإن كانوا من المجدين المحترمين. وعملت خادمة منذ سن مبكرة، وكان ذلك أولاً لدى العمدة، وقد سمعت المحكمة هذا الصباح رأي السيدة هيردال فيها، وما من أحد يطمع في تزكية خيرٍ من هذه. وبعد ذلك رحلت باربو إلى برجن. وهنا ركز المحامي همته كثيراً على إبراز مضمون شهادة كتابية شديدة العطف حررها شابان من رجال الأعمال كانت باربو عاملة أثناء وجودها ببرجن لديهما في عمل من أعمال الثقة. وقد عادت باربو لتعمل مدبرة بيت لدى هذا الرجل غير المتزوج في منطقة نائية. وهنا بدأت متاعبها. فقد وجدت نفسها حبلى من ذلك الرجل. وقد أشار الجهبذ ممثل الاتهام -في أرق وأكرم أسلوب والحق يقال- إلى موضوع إخفاء الولادة. فهل حاولت باربو إخفاء حالتها؟ هل أنكرت أنها حبلى؟ إن شاهدتين من فتيات قريتها كان من

رأيهما أنها حبلى، ولما سألتاها لم تنكر ذلك إطلاقاً، واكتفت بتجاهل المسألة. وماذا عسى أن تفعل فتاة في مثل حالتها سوى أن تتجاهل المسألة؟ ولم يسألها أحد سواهما عن ذلك، فهل تذهب إلى سيدتها وتعترف لها؟ ليست لها سيدة في ذلك المكان، بل كانت هي سيدته شخصياً وكان لها سيد قطعاً، ولكن لا ينتظر من فتاة أن تضع ثقتها في رجل في أمر كهذا، ولذا حملت صليبها بنفسها، فلم تنشر، ولم تهمس، بل لزمت صمت راهب متزمت. أهذا هو الإخفاء؟ لا. وإنما هي قد انطوت على نفسها.

وولد الطفل، وجاء غلاماً صحيحاً سليماً وعاش وتنفس بعد مولده، بيد أنه خنق. وقد أحيطت المحكمة بظروف الولادة، فقد حدثت في الماء. سقطت الأم في الجدول، فولد الطفل، ولكنها عجزت عن إنقاذه، وظلت منطرحة هناك غير قادرة حتى على النهوض إلى وقت طويل بعد ذلك، ولم توجد في الجثة آثار مقاومة أو أية علامة تدل على أنه قتل عمداً، فهو قد غرق نتيجة صدفة سيئة اقترنت بمولده، وهذا كل ما هنالك. وهو تفسير طبيعي للغاية.

والزميل الجهبذ وردت في كلامه إشارة إلى قطعة قماش استخدمت في اللف، واعتبره لغزاً أو من قبيل اللغز أن تحمل معها في ذلك اليوم نصف قميص. واللغز لا خفاء فيه، فهي قد حملت قطعة القميص لتحمل فيها أغصان العرعر وكان من الممكن أن تأخذ معها كيس وسادة مثلاً. ولكن الذي حدث أنها أخذت قطعة القميص هذه. فقد كان لا بد لها أن تأخذ معها شيئاً على أية حال، لأنها لا تستطيع أن تعود حاملة ذلك الشيء في يديها المجردتين. كلا. لا أساس مطلقاً للقول بأن هذه النقطة

لغز. وثمة نقطة أخرى يعوزها الوضوح: هل عوملت المتهمة بالعناية والرعاية اللتين تتطلبهما حالتها وقتئذ؟ هل عاملها سيدها برفق؟ إن الأمر كان يؤول لمصلحته لو ثبت ذلك. وقد قالت الفتاة أثناء الاستجواب كلاماً مرضياً عن الرجل. وهذا في حد ذاته دليل على نبل طبعها. والرجل أكسل شتروم من جانبه أحجم في أقواله عن كل محاولة لإضافة عبء جديد إلى متاعب الفتاة، أو محاولة لومها من أي وجه، وقد أصاب في ذلك -إن لم نقل إنه تصرف بحكمة- لأن قضيته شخصياً تتوقف إلى حد كبير على مصير قضيتها. فإن هو أنحى عليها باللائمة، وصدر ضدها حكم لجر على نفسه الوبال.

وكان من المستحيل النظر في الوثائق والأقوال الواردة في هذه القضية من غير أن يشعر المرء بأعمق العطف على هذه الفتاة الشابة في موقفها المنبوذ. ومع هذا فليست ثمة حاجة لمناشدة الرأفة بها، وإنما المطلوب كله هو العدل والفهم الإنساني. فقد كانت مخطوبة لسيدها على نحو ما، إلا أن تباين الأمزجة والمصالح حال دون زواجهما، فالفتاة لم تستطع أن تعهد بمستقبلها إلى رجل كهذا. وليس الموضوع مستحباً، ولكن يحسن أن نعود لحظة إلى موضوع اللفافة التي سبق الحديث عنها. فيجب أن نلاحظ في هذا المقام أن الفتاة لم تحمل معها قطعة من ملابسها الداخلية بل من قميص سيدها. وعلى الفور يثور سؤال: هل قدم إليها الرجل بنفسه ذلك القماش لهذا الغرض؟ إن المرء في البداية ميال إلى القول بأنه من الجائز على كل حال أن يكون لأكسل ضلع في المسألة.

وانبعثت من أحد الحاضرين في القاعة كلمة «همم» عالية صلبة، حتى إن المتكلم توقف عن الكلام وتلفت الجميع ليروا من الذي يمكن أن يكون مسؤولاً عن هذه المقاطعة. وعبس رئيس الهيئة، ثم استأنف محامي الدفاع

كلامه بعد أن استجمع شتاته قائلاً: إننا نجر الطمأنينة في هذا الخصوص أيضاً بفضل المتهمة نفسها، فقد يكون من مصلحتها أن تقسم اللوم هنا، ولكنها لم تحاول ذلك. بل إنها أعفت أكسل شتروم نهائياً وبلا تحفظ من أي اشتراك أياً كان نوعه في موضوع أخذها قميصه بدلاً من إحدى قطع ثيابها وهي في طريقها إلى الماء، أي في طريقها إلى الغابة لجمع العرعر، وليس هناك أوهى سبب للارتياب في صدق أقوال المتهمة في هذا الخصوص. وقد وجدت أقوالها متفقة على طول الخط مع الوقائع. وهذا ما ثبت أيضاً في هذا الخصوص. فلو أن الرجل هو الذي أعطاها القميص لكان معنى ذلك الإيحاء بافتراض الاتفاق السابق على قتل الطفل. ولكن المتهمة بما جبلت عليه من صدق لم تحاول أن تتهم هذا الرجل بجريمة لم ترتكب قط. لقد كان سلوكها على طول الخط صريحاً مستقيماً يستحق الثناء فلم تحاول إلقاء الملام على الآخرين. وقد بدت للمحكمة أمثلة كثيرة عن رقة شعور المتهمة، ومن ذلك أنها على سبيل المثال قد لفت جثة الطفل على أحسن وجه استطاعته ووضعته في لحده بصورة لائقة على الوجه الذي وجده العمدة به.

وهنا تدخل رئيس الهيئة مراعاة للشكل فنبهه إلى أن اللحد رقم ٢ هو الذي وجده العمدة به، أي أنه اللحد الذي دفن فيه أكسل الجثة بعد نقلها من اللحد الأول. فقال المحامي: «هذا صحيح، إني أقر هذا التصحيح» مبدياً بذلك الاحترام لرئيس المحكمة. هذا صحيح تماماً ولكن أكسل نفسه قرر أنه اكتفى بنقل الجثة من لحد لمواراتها في اللحد الآخر، وما من شك في أن المرأة أقدر على لف الطفل من الرجال، ومن أقدر الجميع على هذا، إنها الأم بيدها الحانية ولا ريب؟

وهز رئيس الهيئة رأسه.

ألم يكن في وسع هذه الفتاة على كل حال -لو أنها كانت من الطراز الآخر- أن تدفن الطفل عارياً؟ إن المرء قد يذهب إلى مدى القول بأنها كانت عسية أن تلقي به في صندوق قمامة. وكان من الجائز أن تتركه تحت شجرة في العراء حتى يتجمد ويموت، هذا طبعاً إن لم يكن قد مات فعلاً، وكان من الجائز أن تدسه في الأتون حينما تكون وحدها فتأتي عليه حرقاً، وكان من الممكن أن تحمله إلى النهر في سيلانرا وتلقي به فيه، ولكن هذه الأم لم تفعل شيئاً من هذه الأشياء، بل لفت الطفل الميت لفاً أنيقاً في قطعة من القماش ودفنته، ولئن وجدت الجثة ملفوفة لفاً أنيقاً عند فتح اللحد، فلا معنى لهذا سوى أن امرأة لا رجلاً هي التي لفته على هذه الصورة.

واستطرد محامي الدفاع بعد ذلك مؤكداً أن بيد المحكمة تحديد مدى الجرم الذي يمكن نسبته بحق في هذا الموضوع إلى الفتاة باربو. ولا يبقى بعد ذلك إلا القليل مما يمكن أن تلام عليه إطلاقاً، بل وفي رأيه أنه لا لوم عليها البتة. هذا ما لم تجد المحكمة ما يدعو لإدانتها على تخلفها عن الإخطار بالوفاة. ولكننا في هذ المقام أيضاً نجد الطفل قد مات، وما من شيء يمكن أن يغير من ذلك، والمكان ناء وسط البرية وعلى مسافة أميال كثيرة من الكاهن والعمدة كليهما، فمن الطبيعي إذاً بالتأكيد أن تترك الطفل يرقد رقدته الأبدية في لحد أنيق في الغابة. ولئن كان جرماً أنها دفنته بتلك الصورة، فالمتهمة ليست أشد جرماً في ذلك من والد الطفل. والواقع أن المخالفة في هذا الخصوص من التفاهة بمكان بحيث يتغاضى عنها، والاتجاه الحديث يميل إلى مزيد من الاهتمام

بإصلاح المجرم أكثر من الاهتمام بعقاب الجريمة. وإنه لنظام عتيق ذلك الذي يتحرى توقيع العقاب على كل خطأ يقع، فهي شريعة الثأر في العهد القديم، شريعة العين بالعين والسن بالسن، وليس هذا روح القانون في الأزمنة الحديثة. فقانون العصر الحاضر أكثر إنسانية، لأنه يعمل على الملاءمة بينه وبين درجة القصد الجنائي والإصرار عليه في كل قضية.

كلا: إن المحكمة لا يمكن أن تجرم هذه الفتاة، فليس الغرض من المحاكمة ضمان إضافة جديدة إلى عدد المجرمين، بل إعادة عضو صالح نافع إلى حظيرة المجتمع. وينبغي أن نأخذ في الاعتبار أن المتهمة لديها الآن عرض بعمل جديد ستكون فيه تحت أفضل إشراف ممكن، فعقلية العمدة هيردال -عرفاناً منها بهذه الفتاة أوثق معرفة وعلى ضوء تجربتها الثمينة بوصفها أماً- قد فتحت أبواب بيتها على سعتها أمام هذه الفتاة، وعلى المحكمة أن تضع نصب نظرها ثقل المسؤولية المترتبة على قرارها في هذا الخصوص، وعلى ضوء ذلك لها أن تجرم المتهمة أو تبرئ ساحتها.

وفي الختام رغب في الإعراب عن شكره لممثل الاتهام الجهبذ الذي أحجم بسماحة عن طلب التجريم، وهو موقف باعث على السرور ودليل على عمق إدراكه وإنسانيته.

وجلس محامي الدفاع.

ولم تستغرق بقية الإجراءات وقتاً طويلاً. فلم يكن التلخيص إلا تكراراً للنقاط نفسها من وجهتي النظر المتقابلتين، وهي خلاصة قصيرة لكل أوجه النزاع، فيها كثير من الجفاف والخمول والوقار. وقد أديرت

القضية على صورة مرضية من جميع الوجوه، وكان المحاميان كلاهما موفقين في إبراز ما ينبغي أن تحله المحكمة محل الاعتبار، فوجد رئيس الهيئة مهمته سهلة هينة.

وأضيئت الأنوار من مصباحين مدليين من السقف، وكان الضوء خافتاً حتى إن القاضي وجد صعوبة في قراءة ملاحظاته. وقد أشار بشيء من الصرامة إلى أن وفاة الطفل لم تبلغ كما يجب للسلطات المختصة، ولكن ذلك يجب أن ينظر إليه في ضوء الظروف الملابسة على أنه من واجب الأب أكثر مما هو من واجب الأم، بسبب وهنها في ذلك الحين. وعلى المحكمة بعد ذلك أن تقرر مدى ثبوت أي من تهمتي إخفاء الولادة وقتل الوليد. وهنا أيضاً أعيد سرد القرائن من البداية إلى النهاية. ثم أعقب ذلك التذكير المعتاد بأن يكونوا واعين كما يجب لمسؤوليتهم. وكان الحاضرون في المحكمة قد سمعوا ذلك من قبل، وأخيراً تكرر التذكير المألوف أيضاً بأنه في حالة الشك يجب أن يؤول كل شك لصالح المتهمة.

وبذلك صار كل شيء واضحاً ومهيئاً.

وغادر القضاة القاعة ودخلوا حجرة أخرى للنظر في ورقة دونت بها أسئلة محددة كان أحدهم يحملها معه، وغابوا خمس دقائق ثم عادوا فكان قرارهم «لا» على جميع الأسئلة.

لا. إن الفتاة باربو لم تقتل الطفل.

وعندئذ قال رئيس الهيئة بضع كلمات أخرى ثم أعلن أن الفتاة باربو صارت الآن طليقة السراح.

وأخليت قاعة المحكمة، وانتهت الملهاة...

وتناول بعضهم أكسل شتروم من ذراعه، وكان هذا البعض هو جايزلر الذي قال: «همم. إذاً أنت قد فرغت من هذا الآن». فقال أكسل: «إي». فقال جايزلر: «ولكنهم أضاعوا جانباً كبيراً من وقتك بلا طائل» فقال أكسل مرة أخرى: «إي» إلا أنه أخذ يثوب إلى نفسه تدريجاً، وبعد لحظة قال: «ومع ذلك فأنا مسرور لأن الأمر لم ينته إلى ما هو أسوأ» فقال جايزلر: «أسوأ؟ كنت أتمنى أن أراهم يحاولون ذلك» وكان يتكلم بحرارة، وتصور أكسل أن جايزلر كان له دخل في القضية شخصياً، وأنه تدخل فيها فعلاً. والله أعلم، فلعل جايزلر نفسه هو الذي وجه الإجراءات كلها بعد كل شيء وفاز بالنتيجة التي يريدها. إنه للغز على كل حال.

وقد فهم أكسل على الأقل أن جايزلر كان في صفه على طول الخط، فقال وهو يمد إليه يده: «إني أشكرك شكراً جزيلاً». فسأله جايزلر: «علام؟» فقال: «على... على هذا كله» فصرف جايزلر المسألة باقتضاب قائلاً: «أنا لم أصنع شيئاً. ولم أجشم نفسي صنع شيء لأن المسألة لم تكن تستدعي ذلك». بيد أن جايزلر لم يكن مستاء مع هذا لتوجيه الشكر إليه، وكأنما كان ينتظر ذلك، وها هو قد تم. واستطرد: «لا وقت عندي للوقوف والحديث معك الآن. أعائد أنت غداً؟ حسن. وداعاً إذاً وأتمنى لك حظاً سعيداً». ثم خطا جايزلر واجتاز الشارع.

وعلى ظهر السفينة العائدة بأكسل التقى العمدة وزوجته وباربو والفتاتان اللتان دعيتا للشهادة. وقالت له السيدة هيردال: «ألست مسروراً الآن لأن الأمور انتهت على هذا الوجه الحسن؟» فقال أكسل: «نعم» فهو مسرور لأن القضية انتهت على خير. والعمدة نفسه تدخل

في الكلام قائلاً: «هذه ثاني قضية من هذا النوع توليتها أنا هنا. والقضية الأولى قضية أنجر في سيلانرا. ثم هذه القضية. كلا. ليس من الخير أن تعمل على تشجيع هذا النمط من الأعمال. ويجب أن تأخذ العدالة مجراها».

ولكن السيدة هيردال حدست ولا ريب أن أكسل لم يكن مسروراً غاية السرور بخطبتها في اليوم السابق فحاولت أن تخفف من أثرها وتصلح ما أصابته به على نحو ما الآن، فقالت: «لقد فهمت طبعاً لماذا كان يجب أن أقول كل ما قلته عنك بالأمس؟» فقال أكسل: «همم... ذ... نعم» فقالت: «أعلم أنك فهمت بالطبع، ولا أحسبك تظنني أردت أن أزيد وطأة الأمر عليك من أي وجه. فقد كان رأيي فيك حسناً على الدوام. ولا أتردد في التصريح بذلك» فلم يزد أكسل على أن قال: «إي». بيد أنه كان مسروراً ومتأثراً بكلماتها هذه فقالت السيدة هيردال: «أجل إني أعني ذلك ولكني كنت مضطرة إلى محاولة نقل عبء اللوم قليلاً إلى ناحيتك، وإلا لكانت باربو قد جرمت. وكذلك أنت، فكل شيء قد عمل للخير في الحقيقة» فقال أكسل: «أشكرك أجزل الشكر» فقالت: «وكنت أنا التي ذهبت لا سواي من هذا إلى ذاك في طول المكان وعرضه محاولة أن أبذل أقصى ما في وسعي لمصلحتكما كليكما، وها أنت قد رأيت بالطبع أننا جميعاً كنا مضطرين إلى القيام بنفس الشيء، وهو الزعم بأنك تستحق جانباً من اللوم، كي يتسنى تخليصكما معاً في النهاية» فقال أكسل: «إي» واستطردت السيدة هيردال: «لا أظنك قطعاً تخيلت لحظة واحدة أني قصدت إلى الإضرار بك؟ لقد كان رأيي فيك دائماً من أحسن ما يكون».

أجل ما أطيب أن يسمع ذلك بعد الذي صب عليه من الخزي، وقد بلغ من تأثر أكسل على كل حال أنه رأى من واجبه أن يصنع شيئاً، فيعطي السيدة هيردال هذا الشيء أو ذاك، أي شيء يتيسر له، ربما كان ذلك قطعة من اللحم، وها هو الخريف قد أقبل ولديه ثور حديث السن...

وقد برت عقيلة العمدة هيردال بوعدها فأخذت باربو لتعيش معها وكانت وهي على ظهر الباخرة ترعى الفتاة كذلك، وتتأكد من أنها لا تشكو برداً ولا جوعاً. وحرصت أيضاً على ألا تقدم الفتاة على شيء من العبث مع وكيل الربان وهو من أهل برجن. وعندما حدث ذلك أول مرة لم تقل شيئاً واكتفت باستدعاء باربو إليها. ولكن بعد برهة قصيرة إذا بباربو وقد عادت إلى صحبته ومالت برأسها إلى أحد جانبيها وراحت تحدثه بلهجة أهل برجن وتبتسم له وعندئذ نادتها سيدتها وقالت لها: «الحقيقة يا باربو أنك ينبغي ألا تسلكي هذا المسلك بين الرجال الآن. تذكري ما مررت به؛ ومن أين خرجت» فقالت باربو: «إنما كنت أتحدث إليه دقيقة، فقد عرفت مما سمعته من كلامه أنه من برجن».

أما أكسل فلم يكلمها. وقد لاحظ أنها الآن شاحبة الوجة نقية البشرة من الشوائب، وأن أسنانها أحسن حالاً، ولم تكن تتزين بأي من خاتميها...

والآن ها هو أكسل يدب مصعداً إلى مكانه مرة أخرى تحت الريح والمطر إلا أنه قرير العين، وهناك على الرصيف آلة حصاد ومسلفة باسمه، وقد رآهما بعينه. أوه. يا لجايزلر من رجل! فما كلمة واحدة تفوه بها وهو في المدينة عما أرسله إليه، أجل، إن جايزلر رجل لا يسبر له غور.

الفصل الثامن

وحدث أن أكسل لم يظفر بوقت طول من الراحة في البيت. فقد أدت أنواء الخريف إلى متاعب جديدة وأعمال مزعجة كان قد جلبها على نفسه، فجهاز التلغراف المثبت بجداره أنذره أن بالخط خللاً. فهو قد غالى في التفكير في النقود قطعاً عندما تولى هذا العمل، فقد كان مصدر إزعاج منذا البداية. وكان بريد أولسن قد توعده توعداً صريحاً عندما هبط ليأتي بالجهاز والأدوات، وقال له بصريح العبارة تقريباً: «يبدو أنك لا تتذكر كيف أنقذت حياتك في الشتاء الماضي» فأجابه أكسل: «أولين هي التي أنقذت حياتي» فقال بريد: «هوه حقاً...! ولم أحملك بنفسي على كتفيَّ الضعيفتين؟ إنك على كل حال كنت من الحذق بحيث اشتريت مكاني في وقت الصيف وتركتني بلا مأوى في الشتاء» أجل كان بريد شديد الاستياء فاستطرد يقول: «ولكن في وسعك أن تأخذ مني التلغراف بكل ما فيه من نفاية. فأنا وأهلي سنهبط إلى القرية ونشرع في شيء جديد. وأنت لا تعرف ما هو، ولكن انتظر تر. وماذا عن فندق يتناول الناس فيه القهوة؟ سترى أننا سندبر أمرنا على ما يرام، وفي وسع زوجتي أن تبيع المأكولات والمشروبات كأي امرأة سواها. وأنا أستطيع أن أمارس أعمالاً تدر علي أكثر مما حصلت عليه بمراحل. ولكن

لا أبالي أن أقول لك يا أكسل إني أستطيع أن أسبب لك الحرج بطرق كثيرة بما أعرفه عن التلغراف وما إلى ذلك؛ فمن السهل إسقاط الأعمدة وقطع الخط ونحو ذلك. وهكذا تضطر للجري هنا وهناك في وسط الموسم المزدحم بالعمل، هذا كل ما أريد أن أقوله لك يا أكسل فاجعله نصب عينيك...».

وها هو الآن أكسل لا بد له من النزول لإحضار الآلتين من رصيف المرفأ، الآلتين المذهبتين الملونتين في كل جزء منهما فكأنهما الصور التي تبهج العين، وكان حرياً أن يظفر بالنظر إليهما طيلة ذلك اليوم وأن يتعلم طريقة استخدامها. ولكن لا بد لهما من الانتظار. ولم يكن مستحباً على الإطلاق أن يضطر إلى إرجاء سائر أنواع العمل الضرورية ليجري متفقداً مواضع الخلل في خط التلغراف. ولكنها النقود أغرته في البداية.

وعلى قمة التل قابل هارونسن، أجل هارونسن التاجر، وكان واقفاً هناك ينظر محملقاً في العاصفة وكأنه نفسه شبح، فماذا يفعل هناك؟ إن باله الآن غير مستريح فيما يبدو، فلا بد له من الصعود إلى الهضبة بنفسه لينظر إلى المنجم بعينيه. والتاجر هارونسن إنما فعل ذلك مدفوعاً بالتفكير المثقل بالهم بمستقبله ومستقبل أسرته. وها هو وجهاً لوجه أمام التلال المهجورة الجرداء الموحشة، والآلات ملقاة هناك للصدأ، والعربات والمواد على اختلاف أنواعها متروكة في العراء. لقد كان منظراً كئيباً. وهنا وهناك على جدران الأكواخ لافتة كبيرة عليها تحذيرات مكتوبة بخط اليد تحرم على أي شخص إتلاف أو نقل ممتلكات الشركة من أدوات وعربات ومبان.

ووقف أكسل يتبادل بضع كلمات مع التاجر الثائر، وسأله هل خرج للصيد، فقال: «للصيد؟ نعم، لو استطعت أن أكون على مرمى الطلقة منه» فسأله أكسل: «منه؟ من إذاً؟» فأجابه: «من الذي حطمني وحطم سائر من في المنطقة؟ من الذي يرفض أن يبيع قطعة هضبته كي تسير الأمور مرة أخرى؟ وتدور عجلة التجارة والنقود كما كانت تدور من قبل». فسأله أكسل: «أتعني به جايزلر إذاً؟» فأجابه: «نعم. هو الذي أعنيه. ينبغي أن يضرب بالنار» فضحك عندئذ أكسل وقال: «لقد كان جايزلر في المدينة منذ بضعة أيام فحسب وكان في وسعك أن تتحدث إليه هناك. ولكن إن جاز لي أن أقول شيئاً فإني أحسب من الخير لك أن تتركه وشأنه بعد كل شيء» فسأله هارون بغضب: «ولماذا؟» فأجابه: «لماذا؟ أعتقد أنه سيكون أحصف وأعوص من أن تقف له في النهاية». وتناقشا في ذلك برهة فزاد ثوران هارونسن. وأخيراً سأله أكسل مازحاً: «إنك على كل حال لن تقسو علينا جميعاً فترحل من هنا وتتركنا وحدنا في البرية؟» فصاح هارونسن مستنكراً: «هه، أتظنني سأبقى هنا متسكعاً بين مستنقعاتكم لا أربح حتى ثمن غليون؟ هات لي مشترياً وأنا مستعد للبيع». فقال أكسل: «تبيع كل شيء؟ إن الأرض أرض عادية جيدة إن وجدت من يحسن استغلالها كما يجب، وما لديك منها كاف لمعيشة أي إنسان» فصاح هارونسن مرة أخرى كالإعصار: «ألم أقل لك الآن إني لن ألمسها؟ إني أستطيع ما هو خير من ذلك»، وكان هذا رأي أكسل أيضاً، ومن السهل أن يجد مشترياً، ولكن هارونسن ضحك باستهزاء من هذه الفكرة، فلا أحد في البرية لديه نقود يشتري بها عقاره. فقال أكسل: «قد لا يوجد هذا المشتري هنا في البرية، ولكنه

موجود في مكان آخر» فقال هارون بمرارة: «لا يوجد هنا شيء سوى القذارة والفقر». فقال أكسل بشيء من الاستياء: «قد يكون هذا صحيحاً، ولكن إسحق هناك في سيلانرا وفي مقدوره أن يشتري عقارك في أي يوم». فقال هارونسن: «لا أصدق هذا» فقال أكسل: «سيان عندي أن تصدق أو لا تصدق» وتحول عنه ليمضي في سبيله، فناداه هارونسن قائلاً: «هه. انتظر لحظة. ما هذا الذي تقول؟ إسحق يستطيع أن يشتري المكان؟ أهذا ما قلت؟» فقال أكسل: «نعم. إن كان الأمر أمر نقود فحسب. فلديه ما يكفي لشراء خمسة من طراز ستروبورجك بما فيها».

وكان هارونسن حين صعوده إلى التل حريصاً على الابتعاد عن سيلانرا بمسافة كبيرة، حتى لا تقع عليه العين هناك. أما وهو عائد فقد تعمد الزيارة وتحدث إلى إسحق. ولكن إسحق هز رأسه وقال لا. هذه مسألة لم يفكر فيها قط ولا يعنيه أن يفكر فيها. ولكن عندما عاد اليزيوس إلى البيت في عيد الميلاد صار التفاهم مع إسحق أسهل. أجل إنه متمسك بأن التفكير في شراء ستوربورج تفكير جنوني، وإن ذلك لم يخطرْ بباله قط. ولكن إن كان اليزيوس يرى إنه يستطيع أن يصنع أي شيء بذلك المكان، فقد يفكرون في ذلك. أما اليزيوس نفسه فكان موقفه بين بين. فهو ليس متلفهاً بالضبط على الشراء، وفي الوقت نفسه ليس عديم الاكتراث بالكلية، لأنه استقر هنا في البيت فحياته العملية تكون قد انتهت من ناحية معينة. فليست الإقامة هنا كالإقامة في المدينة. ففي ذلك الخريف عندما حضر عدد من الناس من موطنه بسبب التحقيق إلى مكان معين حرص على عدم إظهار نفسه لهم، لعدم رغبته

في مقابلة أي شخص يعرفه من هذه الجهة، لأنهم ينتمون إلى عالم آخر. فهل يعود الآن بنفسه إلى ذلك العالم بالذات؟

أما أمه فكانت متحمسة لشراء المكان وسيفرت أيضاً قال إن ذلك خير ما يمكن ومازال كلاهما بإليزيوس حتى ركب ثلاثتهم ذات يوم هابطين إلى ستوربورج ليروا الأعجوبة بأعينهم. ولكن ما إن وجد هارونسن أملاً في البيع حتى صار رجلاً آخر. فهو غير متعجل للتخلص من المكان على الإطلاق. وحتى لو غادره، فسيظل المكان على ما هو عليه، لأنه عقار من الدرجة الأولى، ومكان «عداً ونقداً» فليس ثمة أية صعوبة في بيعه في أي وقت. وقال هارونسن: «وأنتم لن تدفعوا الثمن الذي أريده».

وطافوا بأرجاء البيت والمتجر والمخازن والسقائف. وتفقدوا البقية الحقيرة من السلع، وهي عبارة عن بضعة آلات من موسيقى الفم «الهارمونيكا» وسلاسل الساعات، وصناديق من الورق الملون، ومصابيح ذات زخارف مدلاة، وكلها أشياء لا يمكن بيعها للعقلاء الذين يعيشون على استغلال أرضهم. وكانت ثمة صناديق من المسامير والقماش القطني المطبوع، وهذا كل شيء.

واضطر اليزيوس للتظاهر بعض الشيء، فأجال في هذه الأشياء نظرة خبير وقال: «لا فائدة عندي لكل هذا الضرب من البضاعة» فقال هارونسن: «إذاً لست مطالباً بشرائها» فقال اليزيوس: «إني على كل حال أعرض عليك ألفاً وخمسمائة كرونر للمكان على حالته هذه بما فيها من بضائع ومواش وما إلى ذلك» وكان يتكلم في عدم مبالاة فلم يكن ذلك العرض إلا وسيلة للتظاهر، ولكي يقول شيئاً ما.

وركبوا عائدين إلى البيت. فلم تتم الصفقة لأن اليزيوس قدم عرضاً مضحكاً سخيفاً اعتبره هارونسن إهانة. فقال: «أنا لا أحسن الظن بك أيها الشاب» فهو قد نعته بالشاب واعتبره غلاماً لا شأن له ملأته المدينة غروراً، حتى خطر له أن يعلم هارونسن قيمة السلع. فقال اليزيوس وقد استاء بدوره: «أنا لا أقبل أن تناديني بالشاب من فضلك» ولا بد أن يغدوا عدوين لدودين بعد ذلك. ولكن كيف حدث فجأة أن انقلب هارونسن مستغنياً وواثقاً من عدم اضطراره للبيع؟ لقد كان ثمة سبب لذلك: فهارونسن كان يختلج في مؤخرة رأسه شيء من الأمل بعد كل شيء. فقد عقد في القرية اجتماع لبحث الحالة التي ترتبت على رفض جايزلر بيع ما لديه من أرض المناجم. وليس المتوطنون في الجهات النائية هم الذين سيخسرون نتيجة ذلك، وإنما سيكون هذا الموقف قاضياً على المنطقة كلها. فلماذا يعجز الناس عن المضي في الحياة على نحو رغد أو ضنك مثلما كانوا يعيشون قبل وجود المناجم هناك؟ إنهم عاجزون عن ذلك وكفى. فقد تعودوا على طعام أفضل وخبز أفضل، وثياب مشتراه من المتاجر وأجور أعلى وإسراف أعم. أجل إن الناس قد تعلموا أن يدخلوا في حسابهم أشياء كثيرة تزيد عما كانوا يعولون عليه من قبل. وهذا هو السر. فلما انقطع المال مرة أخرى، وأفلت منهم مورده كما تفلت سمكة الرنجة غائصة في البحر، سادهم الكرب جميعاً. وتساءلوا ما العمل؟

ولم يكن في الأمر شك، فالعمدة السابق جايزلر يصب انتقامه على القرية لأنها ساعدت رئيسه في فصله. وكان واضحاً أيضاً أنهم بخسوه قدره عندئذ. وهو لم يكتف بالاختفاء والهجرة بل بأبسط الوسائل،

وبمجرد طلب ثمن غير معقول للمنجم قد نجح في إيقاف كل نمو للمنطقة. أجل رجل قوي: وأكسل شتروم من مانلاند يستطيع أن يؤيد رأيهم ذاك فهو آخر من قابل جايزلر. وباربو ابنة بريد قدمت للمحاكمة في المدينة ولكنها عادت بريئة الساحة، وكان جايزلر في المحكمة طول الوقت. وإن قال أحد إن جايزلر مكروب ومحطم، فما عليه إلا أن ينظر إلى الآلتين غاليتي الثمن اللتين أرسلهما جايزلر نفسه هدية خالصة لأكسل شتروم. فهذا الرجل إذاً هو الذي يملك مصير المنطقة بين يديه، فعليهم أن يصلوا إلى اتفاق معه. فما هو الثمن الذي يرضى جايزلر بصفة نهائية أن يقبله نظير منجمه؟ يجب أن يتأكدوا من ذلك على كل حال. فقد عرض عليه السويديون خمسة وعشرين ألفاً رفضها جايزلر. ولكن ماذا لو اجتمع رأي القرية والجماعة كلها على تدبير بقية المبلغ، كي تمضي الأمور في طريقها مرة أخرى؟ ولو لم يكن المبلغ باهظاً بصورة لم تسمع من قبل لكان ذلك ممكناً. فالتاجر صاحب المركز التجاري على الشاطئ وهارونسن صاحب ستوربورج مستعدان للاكتتاب سراً وبصفة خصوصية، والمبالغ المخصصة لهذا الغرض سيتم استردادها على المدى الطويل.

وانتهى الأمر بتفويض رجلين لزيارة جايزلر ومباحثته في الموضوع، وكانت عودتهما منتظرة في وقت قريب، وهذا هو السبب في اختلاج تلك البارقة من الأمل لدى هارونسن، فصار يرى بوسعه المحافظة على كرامته إزاء أي شخص يعرض عليه شراء ستوربورج. بيد أن ذلك الموقف لم يستمر طويلاً؛ فبعد أسبوع عاد الوفد بالرفض البات. والحقيقة أنهم أساؤوا استغلال مهمتهم غاية الإساءة، حين وقع اختيارهم على بريد أولسن ليكون أحد المبعوثين، أنه من أكثر الناس فراغ وقت. وقد عثروا

على جايزلر. بيد أنه هز رأسه وضحك قائلاً: «عودا من حيث أتيتما». إلا أن جايزلر أعطاهما نفقات رحلة العودة.

أتترك المنطقة لمصيرها؟

وبعد أن أرغى هارونسن وأزبد قليلاً، اشتدت عليه وطأة اليأس، وصعد ذات يوم إلى سيلانرا وعقد الصفقة، أجل عقد هارونسن الصفقة وحصل اليزيوس عليها بالثمن الذي عرضه، بما في ذلك الأرض والبيت والسقائف والماشية والبضائع وهو ألف وخمسمائة كرونر. أجل اتضح عند القيام بعملية الجرد أن زوجة هارونسن حولت معظم القماش القطني المطبوع إلى استعمالها الخاص. ولكن التفاهات من هذا القبيل لا يقيم له رجل مثل اليزيوس وزناً. وقال إنه لا يجدي أن يكون المرء دنيئاً. ومع هذا لم يكن اليزيوس مسروراً تماماً بما انتهت إليه الأمور. فمستقبله قد تقرر الآن وعليه أن يدفن نفسه في البرية متخلياً عن خططه العظيمة. فلن يغدو بعد الآن سيداً مهذباً شاباً في مكتب، ولن يصبح عمدة، ولن يعيش في مدينة إطلاقاً. أمّا أمام أبيه وأهل بيته فقد تظاهر بالزهو لأنه ظفر بستوربورج بالثمن الذي حدده. فذلك من شأنه أن يدلهم على أي رجل هو. وأنه يعرف كيف يشق طريقه. ولكن هذا الانتصار الصغير لم يدم طويلاً. وقد أرضاه أيضاً أن يستولي على أندرسن الكاتب الأول الذي دخل تقريباً ضمن الصفقة. فهارونسن لم يعد به حاجة، إلى أن ينشئ عملاً جديداً. وكان شعور اليزيوس مستطاباً عندما تقدم إليه أندرسن متوسلاً أن يبقي عليه، فها هو اليزيوس قد صار سيداً ورئيس عمل لأول مرة في حياته. وقال له: «نعم في وسعك أن تبقى فسأكون بحاجة إلى مساعد يرعى المكان عندما أكون مسافراً في أعمالي لإقامة علاقات مع برجن وترونيم».

ولم يكن أندرسن رجلاً سيئاً، كما ثبت بعد ذلك بوقت طويل. فهو مجد في عمله ويحسن رعاية الأمور عندما يكون اليزيوس بعيداً. بيد أنه سيد راق وكانت هذه غلطة هارونسن. فالحال الآن مختلف، وفي الربيع عندما ذابت ثلوج المستنقعات بعض الشيء هبط سيفرت من سيلانرا إلى ستوربورج ليشرع في شيء من حفر المصارف لأخيه، وإذا بأندرسن نفسه يخرج معه إلى الأرض ويقوم بالحفر كذلك. والله أعلم ماذا استولى عليه حتى أقدم على ذلك، فلم يكن من عمله ولكن هكذا كان طرازه. ولم يكن الذوبان قد وصل بعد إلى عمق كاف، ولم يستطيعا الوصول إلى العمق الذي ينشدان، أو ما يقرب منه. ولكنهما فعلا شيئاً على كل حال. وكانت هذه فكرة إسحق القديمة: أن ينزح الماء من ستوربورج ويفلح الأرض كما ينبغي، فالمتجر ليس سوى شيء إضافي ووسيلة لإراحة الناس حتى لا يضطروا للنزول إلى القرية لشراء كل بكرة خيط.

وهكذا راح سيفرت وأندرسن يحفران ويتحدثان بين فينة وفينة كلما توقفا عن الحفر ليلتمسا شيئاً من الراحة. وكان أندرسن قد استطاع بطريقة ما الحصول على قطعة ذهبية من ذات العشرين كروناص، وتمنى سيفرت أن يحصل على القطعة البراقة لنفسه، ولكن أندرسن أبى أن يتخلى عنها واحتفظ بها ملفوفة في ورقة رقيقة جداً على صدره. واقترح سيفرت عليه أن يتصارعا في مباراة جائزتها هذه القطعة الذهبية ليريا من منهما يستطيع إلقاء الآخر أرضاً، ولكن أندرسن رفض المجازفة. وكان سيفرت قد عرض عليه المراهنة بعشرين كرونرا من العملة الورقية مقابل قطعته الذهبية، وأن يقوم ببقية الحفر وحده (فوق البيعة) إن هو

ربحها. بيد أن أندرسن استاء لذلك وقال: «هوه. ثم تعود إلى البيت بلا شك لتقول إني لا أصلح للعمل في الأرض»، وأخيراً اتفقا على المراهنة بخمسة وعشرين كروناً من العملة الورقية مقابل قطعة العشرين كرونر، وتسلل سيفرت عائداً إلى البيت في سيلانرا تلك الليلة ليطلب من أبيه ذلك المبلغ.

حيلة شاب حديث السن ولعبة الشباب الجميلة: لقد أضاع نوم ليلة ليمشي أميالاً صاعداً وأميالاً هابطاً، ثم يعمل في اليوم التالي كالمعتاد. وليس ذلك شيئاً بالنسبة لشاب في قوته. والقطعة الذهبية البراقة تستحق هذا كله؛ وكان أندرسن ميالاً للضحك منه قليلاً في هذه الصفقة، ولكن سيفرت لم يرتبك فما عليه إلا أن يتفوه بكلمة واحدة عن ليوبولدين: «اسمع: لقد كدت أنسى ليوبولدين سألت عنك....» فتوقف أندرسن عن العمل فجأة واحمر احمراراً شديداً.

كانت أياماً لطيفة لكليهما وهما ينزحان الماء ويحفران المصارف ويتناقشان مناقشات طويلة لمجرد المزاح ثم يعملان ليعودا للجدل مرة أخرى، وبين فينة وفينة قد يقدم عليهما اليزيوس ليساعدهما قليلاً. إلا أنه كان سرعان ما يصيبه التعب. فاليزيوس ليس قوي الجسم أو الإرادة، بيد أنه إنسان طيب رغم ذلك كله.. وقد يقول سيفرت المهذار: «ها هي ذي أولين قادمة ادخل الآن لتبيعها كيساً من البن». فيذهب اليزيوس فرحاً، فبيع أولين شيئاً تافهاً يعني بضع دقائق يقضيها في الراحة من إلقاء كتل الطين الثقيلة. وأولين المسكينة تحتاج إلى ذرة من البن بين حين وحين، سواء استطاعت الحصول على النقود من أكسل لأداء ثمنها أو استخدمت في المقايضة شيئاً من جبن الماعز. ولم تعد أولين كما كانت

بوجه عام، فالعمل في مانلاند شديد المشقة عليها وهي الآن امرأة مسنة، وقد أخذ ذلك يبدو عليها. وليس معنى هذا أنها كانت تعترف شخصياً بتقدمها في السن، هوه: فلو فكر في طردها لوجدت كلاماً كثيراً تقوله: فهي صلبة لا تغلب وقائمة بعملها، وتجد متسعاً من الوقت للتجول بين الجيران هنا وهناك للتمتع بالمنادمة الطيبة الحقة. وهذا حقها الصغير، فما أقل ما في مانلاند من المنادمة. وأكسل نفسه لا يتمتع بهذه الموهبة.

وأما بخصوص قضية باربو، فأولين مستاءة مصدومة في آمالها. كلاهما خرج بريء الساحة: هذه الفتاة باربو ابنة بريد كيف تترك حرة في حين نالت أنجر سيلانرا ثمانية أعوام؟ هذا شيء لا تسيغه أولين، وقد شعرت بضيق غير مسيحي إزاء هذه المحاباة. ولكن المولى سيتولى هذه الأمور جميعاً ولا شك في الوقت الذي يتراءى له سبحانه. وهزت أولين رأسها وكأنها تتنبأ بالعقاب الإلهي في تاريخ لاحق. وطبيعي أيضاً أن أولين لم تكتم استياءها من قرار المحكمة وخصوصاً عندما تخاصم سيدها أكسل بسبب أية صغيرة من الصغائر، فإذا بها عندئذ تفصح عن مكنونها بلسانها المعسول المعهود وتنضح بالسخرية العميقة المرة: «ما أعجب ما صارت إليه القوانين في هذه الأيام مع أننا صرنا إلى مثل شرور سادوم وعامورة. ولكن كلمة الرب مرشدي كما كانت دائماً فهو ملاذ الوديعين».

وسئم أكسل مدبرة بيته وملها وصار يتمنى أن تفارقه. وإذ أقبل الربيع وصار عليه أن يقوم بعمل الموسم كله وحده وجمع الدريس على الأبواب، فماذا يصنع؟ موقف سيء. وقد كتبت زوجة أخيه في بريدابليك إلى بلدها في هياجلاند محاولة العثور له على امرأة لائقة مهذبة

تساعده. ولكن هذا السعي لم يتمخض بعد عن شيء. وعلى كل حال سيكون عليه أن يدفع نفقات الرحلة.

أجل كانت تلك لعبة حقيرة شريرة من باربو أن تقتل الطفل الوليد ثم تهرب شخصياً. ومضى عليه الآن صيف وشتاءان وهو مكره على الاكتفاء بأولين، ولا أحد يدري كم من الوقت ينبغي أن يطول ذلك. ولكن هل تلك المخلوقة باربو يعنيها شيء من هذا؟ لقد تبادل معها بضع كلمات حينما كان في القرية ذات يوم في الشتاء. ولكن لم تسل قط دمعة مترقرقة من عينيها لتتجمد على خدها، فقد سألها: «ماذا فعلت بالخاتمين اللذين أعطيتك إياهما؟» فقالت: «خاتمين؟» فقال: «نعم الخاتمين» فقالت: «إنهما ليسا معي الآن؟» فقال: «هما إذاً ليسا معك الآن؟» فقالت: «فقد انتهى كل ما بيننا فلم يكن في وسعي أن ألبسهما بعد ذلك، فلا يجوز أن أستمر في لبس الخاتمين وقد انتهى ما بيننا». فقال: «حسن. ولكني أحب أن أعرف ماذا صنعت بهما. وهذا كل شيء» فقالت: «لعلك كنت تريدني أن أردهما إليك. حسن لم يخطر ببالي أنك تريدني أن ألحق بك هذا العار»؛ ففكر أكسل لحظة ثم قال: «كان في وسعي أن أعوضك عنهما بطرق أخرى بحيث لا تخسرين شيئاً. هذا ما أعنيه». ولكن لا. فباربو قد تخلصت من الخاتمين. ولم تمنحه الفرصة لاسترداد الخاتم الذهبي والخاتم الفضي بثمن معقول. ومع هذا كله لم تكن باربو مفرطة الفظاظة والعزوف. وكانت مرتدية ميدعة مثبتة فوق الكتفين ولها طيات عند حافتها، وحول الرقبة شريط من قماش أبيض. أجل كانت تبدو في منظر حسن؛ ويقال بلسان البعض إنها وجدت بالفعل فتى في القرية خادنته. وإن كان من الجائز أن ذلك كله محض كلام بعد

كل شيء، فالسيدة هيردال ترقبها بعين يقظة وتحرص على عدم تركها تذهب إلى مراقص عيد الميلاد.

أجل إن السيدة هيردال شديدة اليقظة حقاً. وها هو أكسل واقف يتحدث إلى خادمته السابقة بشأن الخاتمين، وإذا بالسيدة هيردال تظهر فجأة بينهما وتقول: «كنت أظنك يا باربو ذاهبة إلى المتجر» فتنطلق باربو وتلتفت سيدتها إلى أكسل قائلة: «هل هبطت القرية بشيء من اللحم أو ما إلى ذلك؟» فقال أكسل: «همم»، ولم يزد على ذلك، ثم لمس قلنسوته. والسيدة هيردال هي التي أثنت عليه كل ذلك الثناء في الخريف الماضي قائلة إنه فتى رائع؛ وإنها كانت دائماً حسنة الرأي فيه. والمجاملة تستأهل مجاملة نظيرها ولا مراء. وأكسل يعرف هذه الأصول والقواعد. فهي قصة قديمة عندما يتعامل البسطاء مع من هم أفضل منهم من ذوي السلطان. وكان قد فكر على الفور في قطعة لحم للأكل. فقد كان لديه ثور. وقد يفيد في ذلك، ولكن الوقت مر وتعاقب شهر ثم شهر. وانقضى الخريف من غير أن يذبح الثور. وأي ضير في ذلك بعد كل شيء إن هو احتفظ به لنفسه، لأنه إن خرج عنه ازداد فقراً بمقدار قيمته. وهو بهيم بديع على كل حال.

وقال أكسل وهو يهز رأسه: «همم. طاب يومك. لا» فلم يكن معه اليوم لحم. ولكن يبدو أن السيدة هيردال حدست ما يدور في ذهنه فقالت: «سمعت أن لديك ثوراً أو شيئاً من هذا القبيل؟» فقال أكسل: «إي. عندي فعلاً» فقالت: «أتنوي أن تحتفظ به؟» فقال: «إي ما زلت محتفظاً به» فقالت: «فهمت أليس عندك غنم للذبح؟» فقال: «ليس في الوقت الحاضر. فالمسألة أنني لم أقتن قط إلا ما يلزمني الاحتفاظ به»

فقالت السيدة هيردال: «أوه. فهمت. هذا كل ما أردت معرفته» ومضت في سبيلها.

واستقل أكسل عربته صوب البيت، بيد أنه لم يتمالك نفسه من التفكير بعض الشيء فيما جرى. وخشي أن يكون قد أساء التصرف على نحو ما. فقرينة العمدة كانت شاهداً مهماً ذات مرة لمصلحته وضده. ولكنها كانت مهمة على كل حال. وقد مر به وقت عصيب في ذلك الحين بيد أنه بعد كل شيء خرج ناجياً في النهاية. وأفلت من تلك المسألة المحرجة للغاية بشأن جثة طفل وجد مدفوناً في أرضه، ولعله من المستحسن بعد كل شيء أن يذبح رأساً من الغنم.

ومن العجيب أن هذه الفكرة ارتبطت على نحو ما ببارابو فإن هو هبط إلى القرية حاملاً لحم الضأن إلى مولاتها فمن العسير ألا يترك في بارابو نفسها أثراً ما، ولكن مرة أخرى مضت الأيام ولم يحدث شيء رغم مرورها، ففي المرة التالية التي استقل فيها عربته هابطاً إلى القرية لم يكن على العربة شيء من الضأن. ولكنه في اللحظة الأخيرة أخذ حملاً. وكان حملاً كبيراً لا يحتقر شأنه بحال، وسلمه قائلاً: «إن لحم الكباش المخصية شديد الصلابة ولا يصلح للإهداء. أما هذا فلا بأس به» ولكن السيدة هيردال أبت أن تعتبره هدية وقالت: «قل في هذا ما تشاء». أوه. يا لها من سيدة راقية، ليس من عادتها أن تأخذ هدايا من الناس. وانتهت المسألة بأن تقاضى أكسل ثمناً طيباً للحمل.

ولم يرَ أثراً لبارابو على الإطلاق. فعقيلة العمدة رأته وهو قادم فأبعدتها عن طريقه. ومضى معها الحظ السعيد، فبارابو قد حرمته غيلة من المساعدة سنة ونصفاً.

الفصل التاسع

حدث شيء غير متوقعٍ في ذلك الربيع. شيء هام حقاً. فقد بدأ العمل في المنجم مرة أخرى لأن جايزلر كان قد باع أرضه. شيء غير متصور، ولكن جايزلر عقل لا يسبر له غور، وفي وسعه أن يعقد الصفقة أو يرفضها، وأن يهز رأسها ليعني «لا». أو يهز ذلك الرأس نفسه ليعني «نعم»، وهو قد استطاع هذه المرة أن يجعل القرية كلها تعود إليها ابتسامتها. ولعل ضميره أمنه، فلم يعد يطاوعه قلبه على رؤية المنطقة التي كان عمدة لها تعاني مضاضة الجوع بما تطعمه من ثريد بيتي وتقاسي من افتقادها للنقود. أم لعله حصل على ربع المليون؟ ومن الجائز أيضاً أن جايزلر نفسه بدأ يشعر في النهاية بحاجته إلى المال فاضطر للبيع بأي مبلغ يستطيع الحصول عليه. فخمسة وعشرون ألفاً أو خمسون ألفاً ليست بالمبلغ الذي يستهان به بعد كل شيء. والحقيقة أنه كانت ثمة شائعات تقول إن ابنه الأكبر هو الذي عقد الصفقة لحساب أبيه.

ومهما يكن من شيء فقد بدأ العمل. وعاد المهندس نفسه مرة أخرى بجماعات رجاله، واستؤنف العمل من جديد. وكان نفسَ العمل السابق ولكن على منوال مختلف. فالاتجاه الآن إلى الخلف.

وبدا كل شيء في نظام رتيب، فأصحاب المنجم السويديون أحضروا رجالهم والديناميت والنقود. فماذا يمكن أن يكون الآن على غير ما يرام؟

وحتى هارونسن عاد مرة أخرى. هارونسن التاجر الذي صمم على استرداد ستوربورج من اليزيوس. ولكن اليزيوس قال «لا». ليس المكان للبيع. فقال هارونسن: «أحسبك تبيع إذا تلقيت عرضاً كافياً؟» فأجابه: «لا».

كلا. اليزيوس سوف لا يبيع ستوربورج. والحقيقة أنه غير رأيه قليلاً بالنسبة للموقع. فلم يكن أمراً سيئاً غاية السوء بعد كل شيء أن يكون صاحب مركز تجاري في التلال. ولديه شرفة بديعة ذات زجاج ملون في نوافذها، وكاتب أول للقيام بالعمل كله، في حين يتنقل هو في أرجاء القطر مرتجلاً. وأسفاره دائماً بالدرجة الأولى مع علية القوم. وقد يتسنى له ذات يوم أن يمضي في أسفاره حتى أمريكا. وكثيراً ما فكر في ذلك. وحتى تلك الرحلات الصغيرة لقضاء الأعمال إلى المدن في الجنوب كانت شيئاً يعيش عليه بعدها الوقت الطويل. وليس ذلك لأنه كان يرخي العنان لنفسه تمام الإرخاء، أو يستأجر باخرة خاصة به ليقيم عليها حفلاته التهتكية الماجنة أثناء الطريق، فالحفلات التهتكية الحمراء لم يكن فيها هواء. فاليزيوس مخلوق غريب، لم يعد يهتم بالفتيات، وقد تخلى عن هذه الأمور جملة وفقد كل اهتمام بهن. ولكنه بعد كل شيء ابن مالك الضياع وأسفاره بالدرجة الأولى ويشتري أحمالاً كاملة من السلع. وفي كل مرة كان يعود بمظهر أرقى بعض الشيء من مظهره السابق، فيبدو في سيما رجل أعظم مما كان. وفي آخر مرة عاد مرتدياً قالوشاً يحفظ على قدميه جفافهما في الجو المطير فوق الحذاء الأصلي. فسألوه: «ما هذا؟ أشرعت الآن تتخذ عادة ارتداء زوجين من الأحذية في وقت واحد؟» فأجاب اليزيوس: «فقد كنت أعاني من ورم أصابع القدمين وبرودتها» فأبدى كل إنسان تعاطفه الشديد مع اليزيوس وورم أصابع قدميه وبرودتها.

أيام مجهدة، وحياة فخمة لا نهاية فيها لأوقات الفراغ. كلا سوف لا يبيع ستوربورج. فهل يعود للإقامة في مدينة صغيرة فيقف خلف الحاجز بائعاً في دكان صغيرة ولا كاتب أول تحت يده على الإطلاق؟ ثم إنه قد عقدالعزم مرة الآن على توسيع دائرة أعماله في نطاق واسع. فالسويديون قد عادوا مرة أخرى وسيغرقون المكان بالنقود. وليكونن غراً إن هو باع كل شيء الآن. وهكذا اضطر هارونسن للعودة في كل مرة بقرار رفض بات، وبمزيد من السخط المتقزز على افتقاره إلى بعد النظر حين تخلى عن المكان.

بيد أن هارونسن كان ينبغي أن يوفر على نفسه كثيراً من تأنيب الذات، وكذلك كان ينبغي على اليزيوس أن يطامن خططه ونياته فيبقيها في حدود الاعتدال. وأكثر من هذا كان الأولى بالقرية ألا تندفع في التفاؤل والثقة وأن تقتصد في الاسترسال في الابتسام وفرك اليدين على طريقة الملائكة الواثقين من حلول البركة عليهم. فليس لأحد من هؤلاء الأطراف الثلاثة أن يمضي في خطته لو أنهم عرفوا جلية الأمر. فقد حاق بآمالهم هبوط غير هين. فمنذا الذي كان يذهب به الظن إلى ذاك المدى. فالعمل استؤنف في المنجم مرة أخرى حقاً، ولكن في الطرف الآخر من الهضبة، على بعد ثمانية أميال على الحدود الجنوبية لممتلكات جايزلر في منطقة أخرى تماماً، لا تربطهم بها أدنى رابطة. ومن هناك سيمضي العمل بالتدريج متجهاً إلى الشمال صوب المنجم الأصلي، منجم إسحق، وعندئذ يصير العمل بركةً ويمناً على أهل البرية وأهل القرية وذلك سيستغرق على أحسن الفروض أعواماً قد يطول مداها فتستغرق عمر جيل كامل.

ونزلت الأنباء نزول انفجار الديناميت من أثقل المعايير، مصحوباً باهتزاز عنيف ودوي يصم الآذان. واستولى الحزن على سكان القرية، وراح بعضهم يلومون جايزلر. فهذا الشيطان جايزلر هو الذي غرر بهم مرة أخرى. وتجمع فريق آخر فعقدوا مؤتمراً وأرسلوا وفداً جديداً من أهل الثقة إلى شركة المناجم في هذه المرة، وإلى المهندس. ولكن ذلك لم يجد، فقد بين لهم المهندس اضطراره لبدء العمل من الجنوب لأن ذلك أقرب إلى البحر وسيوفر عليهم الحاجة إلى إنشاء سكة حديد هوائية، ويخفض نفقات النقل إلى ما يقرب من العدم، كلا إن العمل يجب أن يبدأ على هذا النحو. ولا حاجة لمزيد من الكلام.

وعندئذ نشط هارونسن وتوجه إلى موقع العمل الجديد، أو الأرض الموعودة الجديدة، بل وحاول أن يغري أندرسن بالذهاب معه قائلاً: «ما جدوى بقائك هنا في البرية؟ الأفضل لك كثيراً أن تأتي معي». ولكن أندرسن رفض الرحيل. وذلك أمر غير مفهوم. بيد أنه هكذا كان، فثمة شيء ما يشده إلى هذا الموضع. فبدا عليه أنه يزدهر هناك ويضرب في الأرض جذوره، ولا بد أن أندرسن هو الذي تغير، لأن المكان على حاله. فالناس والأشياء لم يتغيروا. وأعمال المنجم انصرفت عنهم إلى مواقع أخرى. بيد أن أهل البرية لم يطش صوابهم بسبب ذلك. فلديهم أرضهم يفلحونها، ولديهم محصولاتهم وماشيتهم. وليس لديهم ثروة كبيرة من النقود حقاً، إلا أن لديهم ثروة طائلة من سائر ضرورات الحياة بلا استثناء. وحتى اليزيوس لم تحل به الفاقة لأن نهر الذهب أخذ يتدفق في موضع آخر. ولكن أسوأ ما في الموضوع أنه في قدرته الأولى كان قد اشترى كميات هائلة من السلع لا سبيل الآن إلى بيعها. حسن. فلتقبل

هناك في الوقت الحاضر. وإنه لمظهر حسن على كل حال أن يوجد قدر كبير من البضائع في المتجر.

كلا. إن رجل البرية لم يطِشْ صوابه. فالهواء ليس الآن أقل ملاءمة للصحة من ذي قبل. وثمة ما يكفي من الناس للإعجاب بالثياب الجديدة. ولكن لا حاجة إلى الماسات. والخمر شيء عرفه من وليمة قانا. فرجل البرية لم يكربه التفكير في الأشياء العظيمة التي فاته الحصول عليها. والفن والصحف والكماليات والسياسة وما إلى ذلك لا تساوي إلا ما يميل الناس إلى أدائه في مقابلها ولا زيادة. أما فلاحة الأرض فشيء آخر، شيء ينشد الناس ثماره بأي ثمن. فهذا هو المنبع الأوحد ومصدر كل شيء. أحياة خامدة موحشة؟ كلا ما أبعدها عن ذلك. فالإنسان هناك لديه كل شيء، ولديه قواه العلوية، وأحلامه وغرامياته، وثروته من التطير. فهذا سيفرت حينما كان سائراً ذات سماء بجوار النهر قد وقف فجأة، فقد رأى على وجه الماء زوجاً من البط، ذكراً وأنثى وكانا قد أبصراه، وفطنا لوجود إنسان وداخلهما الخوف. وقالت إحدى البطتين شيئاً بصوت ضعيف، كان نعمة من ثلاث طبقات. وأجابت البطة الأخرى بمثل ذلك. وعندئذ نهضتا ودارتا دورة سريعة كأنهما عجلتان فابتعدتا في مجرى النهر مقدار رمية حجر، ثم استقرتا مرة أخرى. وعندئذ كما حدث من قبل تكلمت إحداهما فأجابتها الأخرى. إنه الحديث الأول بعينه، ولكن فيه نبرة حبور جديدة: فقد ارتفعت طبقة النغم درجتين. ووقف سيفرت ينظر إلى الطائرين ثم تجاوزهما بنظره، محدقاً في حلم. لقد طاف به صوت اخترقه بعذوبته وخلفه واقفاً هناك مستغرقاً في تذكار رهيف لشيء فطري رائع كان قد عرفه من قبل ثم نسيه. وسار إلى البيت

صامتاً، فلم يقل كلمة واحدة عما رأى، ولم يتفاخر به، لأنه ليس موضوعاً صالحاً لحديث دنيوي. ولم يكن في الأمر أكثر من أن سيفرت ابن سيلانرا خرج إلى الخلاء ذات مساءٍ وهو ذلك الشاب من سواد الناس، فالتقى بذلك المشهد.

ولم يكن ذلك الشيء الأوحد الذي التقى به، فثمة مغامرات أخرى غيره. ومن هذا القبيل من الأحداث أن ينسين غادرت سيلانرا، وأن ذلك قد أشاع في نفس سيفرت شيئاً من الاضطراب غير يسير.

أجل لقد انتهى الأمر إلى هذا: أن ينسين تريد أن ترحل من فضلك. إنها راغبة في ذلك. وينسين ليست من الطراز العادي المألوف. ما من أحد يقول ذلك، وقد عرض سيفرت ذات مرة عليها أن يعود بها في العربة إلى بيتها فوراً. وفي تلك المناسبة بكت. إلا أنها عادت فندمت على ذلك وأوضحت بجلاء أنها نادمة وأخطرتهم برغبتها في الرحيل. وكان ذلك وفق الأصول المرعية.

ولم يكن شيء أوفق لأنجر في سيلانرا من رحيلها، فقد بدأت أنجر تشعر بسخط متزايد على خادمتها. والغريب أنه لم يكن لديها ما تلومها عليه. بيد أن منظر الفتاة كان يضايقها، فلم يكن في وسعها تقريباً أن تتحمل وجودها بقربها في أنحاء المكان. وقد نشأ ذلك بلا شك من حالة أنجر النفسية. فقد كانت ثقيلة الصدر ميالة للتهجد طيلة ذلك الشتاء من غير أن تنقضي تلك الحالة. فقالت أنجر: «أراغبة أنت في الرحيل؟ حسن إذاً وليكن الأمركذلك»، لقد جاء ذلك نعمة وتحقيقاً للصلوات الليلية. فهما في البيت امرأتان راشدتان فعلاً فما حاجتهما بينسين هذه وهي ناضرة خير ما تكون النضرة وصالحة للزواج وما إلى

ذلك كله؟ وفكرت أنجر في شيء من الاستياء في هذه الصلاحية للزواج، ولعلها فكرت كيف كانت شخصياً في مثل تلك الحال.

وميلها الشديد للتهجد لم ينته. فهي غير ممتلئة رذيلة. وقد نقول إنها تذوقت طعمها ورشفت جانباً منها. ولكن لم تنعقد نيتها على الاستمرار في هذا السبيل في سنها المتقدمة، بأية حال من الأحوال. بل إن أنجر كانت تشيح فرقاً بمجرد التفكير في هذا. وإنها لتحمد الله على أن المنجم بكل ما فيه من العمال لم يعد هناك. وهكذا لم تعد العفة شيئاً محتملاً بالنسبة لها فقط، بل ولا محيص عنها أيضاً. إن الفضيلة قد صارت ضرورة. أجل. صارت صلاحاً حتمياً ونعمة خاصة من نعم الرب. بيد أن العالم شديد الاعوجاج. فانظر الآن مثلاً إلى ليوبولدين، تلك الصغيرة، تلك البقلة، تلك الطفلة الصغيرة، ها هي تغدو وتروح فائرة بصحة أثيمة وما إن يمتد ذراع فيطوق خصرها فحسب حتى تتهاوى ولا حول لها ولا طول. فيا للعار: وها قد ظهرت على وجهها الآن دمامل أيضاً. وهي في حد ذاتها علامة على ثوران الدماء وحرارتها. وإن أمها لتتذكر جيداً كيف كان لا بد للدم الثائر أن يخرج. ولم تدن أنجر ابنتها بسبب ما على وجهها من الدمامل. بيد أنها ينبغي أن تتوقف ولا بد أن تدع لها حداً. ثم ماذا يريد هذا الفتى أندرسن من حضوره إلى سيلانرا أيام الآحاد للتحدث إلى إسحق في شؤون الحقل؟ أيظن الرجلان أن الفتاة عمياء؟ إن الشباب هم الشباب على الدوام، وكما كانوا منذ ثلاثين سنة مضت أو أربعين، بل إنهم اليوم شر مما كانوا من قبل.

وقال إسحق عندما تحادثا في الأمر: «كل هذا جائز. ولكن ها قد أقبل الربيع، وبذهاب ينسين من الذي يتولى أعمال الصيف؟» فقالت

أنجر: «أنا وليوبولدين نستطيع القيام بجمع الدريس. بل ومستعدة للعمل في الجمع بنفسي ليل نهار». وكانت تتكلم بمرارة وتوشك أن تبكي. ولم يستطع إسحق أن يفهم ما الداعي لكل هذه الضجة حول الموضوع. ولكن لا شك في أنه كانت لديه أفكاره الخاصة، فخرج إلى حافة الغابة ومعه عتلة ومعول وراح يعمل يده في الصخر. أجل إن إسحق لم يستطع أن يدرك لماذا صممت ينسين على فراقهم وهي فتاة صالحة وعاملةٌ مجدة. والحقيقة أن إسحق كان في كثير من الأحيان لا يفهم شيئاً فيما عدا المسائل البسيطة كل البساطة: من قبيل عمله وتصرفاته القانونية والطبيعية. فهو رجل عريض الكتفين ممتلئ الجسم، لا شيء سماوي فيه على توازنه من أي وجه إلا نادراً جداً. وها هو الآن ينقض على الصخرة، وهناك صخور كثيرة ولكن هذه هي الصخرة التي بدأ بها. وإسحق ينظر إلى بعيد، إلى الزمن الذي سيحتاج فيه إلى بناء بيت صغير هنا يقيم فيه مع أنجر؛ فمن الخير أن يشرع من الآن في إخلاء الموقع في الوقت الذي يقضيه سيفرت في ستوربورج. وإلا فالفتى خليق أن يوجه إليه الأسئلة. وهو أمر لم يكن يوافق هوى لدى إسحق. سيأتي الوقت بطبيعة الحال الذي يحتاج فيه سيفرت لكل ما في المكان من متسع لنفسه فيحتاج الشيخان إلى بيت مستقل. أجل لا نهاية لمشروعات البناء في سيلانرا، فسقيفة العلف فوق سقيفة البقر لم تتم بعد مع أن العروق الخشبية والألواح الغليظة قد أعدت بتمامها، ثم أمامه الآن هذه الصخرة. وهي ليست شيئاً ضخماً إذا نظرنا إلى ارتفاعها عن سطح الأرض. ولكنها لا تتحرك باللمس مع ذلك فلا بد أن تكون ثقيلة. وحفر إسحق فيما حولها ثم جرب العتلة ولكنها لم تتحرك.

وعاد للحفر وحاول مرة أخرى، ولكن بلا جدوى وعندئذ عاد إلى البيت ينشد رفشاً كي يخلي الأرض بعيداً عنها ثم أعاد الحفر وأعاد المحاولة بغير طائل، فأدرك إسحق بتفكيره الصبور أن هذه الصخرة لا بد أن تكون بالغة الثقل، وراح يحفر حولها برهة طويلة، بيد أن الصخرة كانت تبدو دائماً موغلة في العمق، فلا يبدو أنه سيصل أبداً إلى نهايتها. وضايقه أن يضطر في النهاية إلى نسفها. ثم إن الحفر فيها لوضع المتفجرات سيحدث ضجة ويدفع كل من المكان إلى العدو، وراح يحفر. ثم انطلق مرة أخرى ليحضر عموداً وراح يجربه بلا نتيجة فعاد للحفر وقد بدأت الصخرة تضايقه، فقطب جبينه ونظر إليها كأنه يفحص لأول مرة صخور هذه المنطقة ويلفي هذه الصخرة بالذات بارزة البناء. وجعل ينتقدها، فهي في نظره مستديرة الوجه بلهاء السحنة ليس بها موضع يمكن أن يسيطر عليه من أية ناحية، حتى كاد يصفها بأنها مشوهة. أينسفها؟ إنها لا تستحق ما يستخدم في ذلك من البارود. وهل ينفض يده منها؟ هل يفكر في الإقرار بالهزيمة أمام صخرة؟ وعاد للحفر وكان العمل شاقاً. ولكن ما أهونه بالقياس إلى الإقرار بالهزيمة. وأخيراً استطاع أن يدس رأس الرافعة تحتها ثم جرب تشغيلها ولكن الصخرة لم تتحرك، ولم يكن في طريقة عمله خطأ من الوجهة الفنية ولكن هذه الطريقة لم تثمر، فما المسألة إذاً؟ لقد استخرج صخوراً في حياته من قبل. فهل تراه بدأ يشيخ؟ شيء مضحك هئ هئ هئ: مضحك حقيقة. أجل إنه لاحظ في المدة الأخيرة أنه لم يعد قوياً جداً كما كان. يعني أنه لم يلاحظ شيئاً من هذا القبيل. ولا ألقى إليه بالاً قط، إنما هو وهم. وانقض على الصخرة مرة أخرى بأقوى عزيمة في العالم. ولم يكن ذلك

بالشيء الهين حينما ينقض إسحق على عتلة رافعة بكل ثقله. ها هو ينقض وينقض مرة أخرى كأنه سكلوب هائل نصفه العلوي صيغ في كتلة واحدة إلى الركبتين، وإن فيه لفخامة وأبهة، وخط خصره رائع. ولكن الصخرة لم تتحرك.

لا فائدة إذاً، ولا بد له من معاودة الحرب. هل يحاول النسف؟ ولا كلمة واحدة. إنما هو الحفر مرة أخرى. وهو مصر مكب على عمله الآن ولا بد للصخرة من أن تتقلقل وتخرج من مكانها. ومن الخطل أن يقال إن في ذلك شيئاً من الشذوذ من جانب إسحق. إنما هو الحب النامي من الداخل لدى عامل في الأرض، بيد أنه حب خال من الحنان كلية. وكانت نظرة حمقاء تلك التي قامت بها عينه وهي تأخذ الصخرة من أطرافها جميعاً قبل أن ينقض عليها ثم يحفر فيما حولها من كل جانب وينقب عنها، ملقياً التراب بعيداً بيديه المجردتين على نحو ما كان يصنع حينئذ. فليس فيما يفعل إذاً شيء من المداعبة. أجل إن فيه حرارة ولكنها حرارة الهمة وحدها.

أيجرب الرافعة مرة أخرى؟ ثم غرسها من أسفل حيث كان الوضع على أتمه. ولكن لا. إن الصخرة تبذل من جانبها طاقة أخرى من العناد والتحدي. ولكن يبدو عليها أنها أخذت تضعف. وجرب إسحق مرة أخرى بشيء من الأمل. وقد أخذ ممهد الأرض يشعر الآن بأن الصخرة لم تعد ممتنعة على الهزيمة. وعندئذ أفلتت الرافعة وألقت به إلى الأرض، فصاح: «يا للشيطان» أجل قال ذلك وغاصت قلنسوته فوق إحدى أذنيه عند وقوعه فبدا أشبه بالقرصان أو الإسباني وبصق. ثم ها هي أنجر قد أقبلت فقالت له برقة وبأعذب لهجة ممكنة: «ادخل يا إسحق وتناول

طعامك الآن» فقال لها: «أي». بيد أنه لم يتركها تدنو ولم يسمح بإلقاء أسئلة. إلا أن أنجر لم يخطر ذلك ببالها فدنت منه وسألته: «وماذا في ذهنك الآن؟» لتهدئه بالتلميح إلى الطريقة التي يدبر بها عملاً عظيماً جديراً في كل يوم تقريباً، ولكن إسحق متجهم أشد التجهم، صارم الوجه، ولذا قال لها: «لا أدري» ولكن أنجر بحماقتها واصلت كلامها وأسئلتها وأبت أن تنصرف، فقال لها آخر الأمر: «الأمر كما ترين بنفسك، فأنا بصدد استخراج هذه الصخرة من هنا» فقالت: «هوه، أفي نيتك أن ترفعها من موضعها؟» فقال: «إي» فسألته: «أفلا أستطيع أن أساعدك قليلاً» فهز إسحق رأسه، ولكنه كره منها أن تعرض عليه المساعدة، ولا يسعه إلا أن يخاشنها رداً على ذلك العرض، فقال لها: «إن أنت انتظرت فترة قصيرة جداً» ثم عاد إلى البيت يلتمس المطارق، فلو استطاع أن يجعل الصخرة خشنة بعض الشيء بأن يكسر منها شظية أو نحوها من الموضع المناسب، فسيهيئ ذلك للرافعة مستقراً أفضل. وتمسك أنجر بمطرقة التركيب ويأخذ إسحق في الطرق ويطرق ويطرق. أجل ها هو بالتأكيد يكسر شظية، ويقول لأنجر: «كان هذا عوناً طيباً منك، وأشكرك، ولا تشغلي نفسك بمسألة طعامي في الآونة الحاضرة، فلا بد لي من رفع هذه الصخرة أولاً». ولكن أنجر لا تنصرف. والحق يقال إن إسحق سره أن تظل ماثلة ترقبه وهو يعمل. فقد كان ذلك يسره دائماً منذ أيام شبابهما. وها هو يظفر بقوة ارتكاز طيبة الآن على الرافعة، ويضغط بكل قوته عليها وإذا الصخرة تتحرك، وقالت أنجر: «إنها تتحرك» فقال إسحق: «إن هو إلا توهمك» فقالت: «وهم حقاً، ولكنها تتحرك».

لقد وصل إلى هذا المدى إذاً، وهو شيء على كل حال. لقد انقلب

موقف الصخرة الآن، وصارت إلى جانبه يعملان معاً. ويرتفع إسحق ثم ينقض برافعته والصخرة تتحرك. ولكنها لا تزيد على مجرد التحرك. ويستمر في ذلك برهة من غير أن يصل إلى مزيد من التقدم، وفجأة يدرك أن المسألة ليست مسألة وزن فقط وجذب أو اندفاع ببدنه، وإنما الحقيقة أنه فقد قوته القديمة، فقد مرونته الصلبة التي يكمن فيها الفارق كل الفارق. الثقل؟ ما أسهل أن يجعل ثقله كله وهو ملق بنفسه فوق عمود ملبس بالحديد فيكسره. كلا. الحقيقة أنه أخذ يضعف. وامتلأت نفس الرجل الصبور بالمرارة لهذه الخاطرة. وكان الأولى به على الأقل أن يوفر على نفسه عار رؤية أنجر إياه في هذا الموقف.

وفجأة ألقى بالرافعة وأمسك بالمرزبة، واستولى عليه غضب جائح، فهو عازم على الانقضاض عليها الآن بعنف وكانت قلنسوته لم تزل مائلة فوق إحدى أذنيه على طريقة القرصان، وهو يخطو الآن بقوة وتوعد حول الصخرة محاولاً أن يضع نفسه في الضوء المناسب. ولسوف يترك تلك الصخرة حطاماً وركاماً كما كانته من قبل. ولم لا؟ فحينما يمتلئ رجل بكراهية قاتلة لصخرة، فسحقها مسألة شكلية فحسب. ولنفرض أن الصخرة قاومت، ولنفرض أنها أبت أن تسحق؟ فلنجرب إذاً: وسنرى أياً من الاثنين يكتب له البقاء.

ولكن ها هي أنجر تتكلم بشيء من الحياء مرة أخرى، وقد رأت لا محالة ما يقضه: «ماذا لو أن كلينا تعلق بكل ثقله على هذا العصا هناك؟» وما أطلقت عليه اسم العصا لم يكن إلا الرافعة. وصاح إسحق بغضب ثائر: «لا» ولكنه بعد لحظة تفكير قال: «حسن. حسن. ما دامت هنا. وإن كان الأفضل أن تعودي إلى البيت. هيا بنا نجرب».

ورفعا الصخرة على جانبها. أجل استطاعا ذلك. وقال إسحق: «يوه» وعندئذ بدا لهما كشف عجيب كأنه الرؤيا. فالجانب السفلي من الصخرة كان مسطحاً وعريضاً جداً ونظيف القطع، ناعماً مستوياً كالأرضية. فلم تكن الصخرة سوى نصف صخرة. والنصف الآخر في مكان قريب بلا شك. وإسحق يعلم تمام العلم أن نصفي صخرة واحدة قد ينطرحان في مكانين مختلفين. فالصقيع بلا شك على طول المدى استطاع أن يفرق بينهما. بيد أنه كان شديد العجب والحبور لذلك الاكتشاف. فهي من أفضل الصخور النافعة كي تتخذ عتبة باب. وما كان لمبلغ طائل من المال أن يملأ نفس هذا العامل في الحقل بكل هذا الرضا. وقال بزهو: «عتبة ممتازة» فقالت أنجر، المخلوقة الساذجة: «عجباً، ولماذا بحق السماء لم تقل ذلك من قبل؟» فقال إسحق: «همم. أخطر ببالك أنني أتيت إلى هنا أحفر الأرض بغير هدف؟».

وسارا إلى البيت معاً. وإسحق يستمتع بعبارات إعجاب جديدة على أساس وهمي، فهو لا يستحق ذلك الإعجاب، ومع ذلك فطعمه لا يختلف إلا قليلاً عن الإعجاب الحقيقي. وتركها تعتقد أنه كان يبحث منذ زمن طويل عن عتبة باب مناسبة إلى أن وجدها في النهاية. وبعد ذلك لن يكون مثار شك على الإطلاق أن يعمل هناك مرة أخرى. فله الآن أن يكثر من التردد على ذلك الموضوع ما شاء بحجة البحث عن النصف الآخر من الصخرة، وعند عودة سيفرت يستطيع أن يستعين به.

ولكن إن كان الأمر قد وصل إلى حد ألا يستطيع بعد الآن الخروج وحده لرفع صخرة، فمعنى ذلك أن الأمور قد تغيرت تغيراً أليماً. ويا له من موقف سيء في الوقت الذي ازدادت فيه حاجته إلى إخلاء ذلك

الموقع بأسرع وقت مستطاع. إن السن قد بدأت تزحف إليه. وأخذ ينضج للقبوع في ركن المدفأة. والنصر الذي اختلسه في صدد عتبة الباب نصلت جدته بعد بضعة أيام، فهو نصر زائف لم يكتب له الاستمرار. فها هو إسحق يمشي الآن منحنياً بعض الشيء.

ألم يكن يوماً ما فائض الرجولة حتى إنه كان يرهف حواسه ويولي انتباهه في لحظة واحدة إذا ما قيلت أمامه كلمة واحدة عن صخرة أو كلمة واحدة عن الحفر؟ ولم يكن العهد بذلك بعيداً، وإنما هي سنوات قلائل لا أكثر. وفي تلك الأيام كان الذين يتهيبون أعمال نزح الماء يبتعدون عن طريقه. أما الآن فقد بدأ شيئاً فشيئاً يأخذ تلك الأمور بمزيد من الهدوء. ياه. يا إلهي؟ فقد تغير كل شيء. فالأرض نفسها صارت الآن مختلفة، وبها طرق تلغرافية عريضة تخترق الغابات ولم تكن موجودة من قبل. والصخور تنفجر وتنشطر بفعل الماء، وما كان كذلك حالها من قبل. والناس أيضاً تغيروا، فلا يطلقون تحيات الترحيب عند القدوم والانصراف كما في الأيام الخوالي، وإنما هم يومئون برؤوسهم فقط وحتى هذا ربما أغفلوه.

ولكن تلك الأيام الخوالي لم تكن هناك في سيلانرا، وإنما هو كوخ من الطين المعشب فحسب. أما الآن... وفي تلك الأيام الخوالي لم يكن ثمة «مالك الضياع»*.

أجل. ولكن أهو الآن مالك الضياع ذاك؟ إنه شيء يستدر الشفقة، ليس فيه عنصر فوق المستوى البشري، وإنما هو شيخ يدب إليه الوهن ويسير حيث مآل كل جسد أن يسير. وما جدوى أن يكون قوي الأحشاء

* لقب أقرب إلى معنى المالك الكبير من المزارعين ، وقد أطلق على إسحق .

قـادراً على الأكل بنهم، وذلك لا يمده بالقـوة. إن سيـفـرت هو الذي يملك القوة الآن. ومن الرحمة أن يكون الأمر كذلك. ولكنها لو توفرت لإسحق أيضاً: إنه لشيء مؤسف أن يجد أعماله آخذة في الهبوط. فقد كدح كدح الرجال وحمل من الأثقال ما لا تنهض بحمله إلا الدواب. أما الآن فعليه أن يروض صبره على الإخلاد للراحة.

إسحق ساخط مثقل القلب بالأسى.

هناك ترقد قبعة قديمة. قبعة عتيقة من المشمع. متحللة فوق الأرض. ولعل النور حملها إلى هناك. أو لعل الصبيين أتيا بها إلى حافة الغابة منذ سنين عندما كانا صغيرين. فظلت ملقاة هناك سنة بعد سنة، حتى تعفنت وتحللت. ولكنها يوماً ما كانت قبعة من المشمع جديدة صفراء اللون زاهية. وإسحق يتذكر اليوم الذي عاد فيه إلى البيت بهذه القبعة من المتجر، فقالت أنجر إنها قبعة بديعة. وبعد عام أو نحوه أخذها إلى عامل طلاء في القرية فكلفه بطلائها وتلميعها، وصبغ طنفها باللون الأخضر. فلما عاد بها إلى البيت رأتها أنجر أبدع مما كانت. وأنجر ترى الأشياء دائماً بديعة. أجل كانت الحياة طيبة في تلك الأيام وهو يحتطب وأنجر تنظر إليه. كانت تلك أحسن أيامه. وعندما يحل مارس وأبريل كانت حرارة الحياة تستولي عليه وعلى أنجر، فيجري كل منهما وراء الآخر، كما تفعل الطيور والضواري في الغابات تماماً. ومتى أهل مايو بذر القمح والبطاطس، حياً مزدهراً من الصباح حتى الفجر، في عمله ومنامه، في غرامه وأحلامه، وكأنه أول ثور كبير اقتناه، وكان ذلك الثور فتنة للناظرين، فهو ضخم لامع كأنه ملك. ولكن لم يعد في سنوات هذه الأيام مايو، أو ما يقاربه.

ولبث إسحق خائر النفس بصورة موجعة بضعة أيام. وما كان أسودها من أيام، فلم تواته الرغبة ولا القدرة على الابتداء في إقامة سقيفة العلف. فذلك يمكن أن يترك سيفرت أن يقوم به في يوم من الأيام. أما الذي يلزمُ أن يصنعه الآن فهو إقامة بيت لنفسه، هو آخر بيت يشيده. ولم يستطع أن يخفي طويلاً عن سيفرت ما يصنعه. فقد كان واضحاً أنه يخلي الأرض. وواضحاً أيضاً غرضه من ذلك. وذات يوم صرح بقصده قائلاً: «هاك قطعة جيدة من الصخر إن احتجنا لها. وهاك قطعة أخرى» ولم يظهر سيفرت دهشة بل قال فحسب: «نعم. وهما من صخور الدرجة الأولى» فقال أبوه: «الأمر كما تظن فقد كنا نحفر في هذا المكان الآن لنعثر على هذه القطعة الأخرى من عتبة الباب. وقد يكون من المناسب إذاً أن نقيم البناء هنا. لست أدري....» فقال سيفرت وهو ينظر حوله: «أجل. هذا مكان لا بأس به للبناء». فقال أبوه: «أتظن هذا؟ قد لا يكون الموقع سيئاً لإقامة بيت صغير لإيواء الناس إذا وفد علينا منهم أحد» فقال: «نعم» واستطرد أبوه: «ربما كان كافياً أن تجعله من حجرتين. فقد رأيت كيف كان الحال عندما جاء السيدان السويديان ولم نجد مكاناً لائقاً ينزلان به. وما رأيك في إقامة مطبخ صغير أيضاً. فقد يكون نافعاً إذا اقتضى الأمر طهو شيء؟» فقال سيفرت: «نعم، فمن العار أن نبني مسكناً بغير مطبخ» فسأله أبوه: «أتعتقد هذا؟».

ولم يقل إسحق أكثر من ذلك. بيد أن سيفرت كان فتى فطناً يحسن التقاط المعاني. فخطر بذهنه على الفور ما يلزم لإقامة مكان لإيواء السادة السويديين الذين يأتون مصادفة، ولم يوجه سؤالاً واحداً، ولكنه قال فقط: «إن أردت رأيي فمن المستحسن أن نقيم سقيفة صغيرة عند

الجدار الشمالي. فالوافدون سينفعهم وجود سقيفة يعلقون بها ثيابهم المبللة وما إلى ذلك». ووافقه أبوه على الفور قائلاً: «نعم. هذا هو الواجب فعلاً». ثم أكبا على العمل في صخورهما مرة أخرى في صمت، ثم سأله إسحق: «أحسب اليزيوس لم يعد؟» فأجابه سيفرت مراوغاً: «سيعود قريباً جداً».

وكان هذا دأب اليزيوس. فهو شديد الميل للإقامة بعيداً، فمعظم حياته أسفار. ألم يكن في وسعه أن يكتفي بالكتابة في طلب البضائع؟ ولكن لا بد له من الذهاب بنفسه لشرائها من مواضعها فيحصل عليها بثمن أرخص. وقد يكون هذا صحيحاً، ولكن ماذا عن تكاليف السفر؟ يبدو أن له طريقته الخاصة في التفكير. ثم ما حاجته على كل حال لمزيد من القماش القطني والشرائط الملونة لقلانس العماد وقبعات القش السوداء والبيضاء وغلايين الطباق الطويلة؟ ما من أحد يشتري هذه الأشياء إطلاقاً في التلال. أما أهل القرية فلا يأتون إلى ستوربورج إلا عندما يكونون بلا نقود. واليزيوس حاذق تمام الحذق على طريقته. ويكفي أن تراه يكتب على ورقة أو يقوم بالعمليات الحسابية بقطعة من الطباشير فيقول الناس معجبين به: «أي عقل في رأسك؟» وهذا صحيح فعلاً، ولكنه ينفق أكثر مما ينبغي بكثير. فأهل القرية لا يدفعون مطلقاً ديونهم. وفي استطاعة شخص مثل بريد أولسن أن يصعد إلى ستوربورج ذلك الشتاء ويحصل على قماش قطني مطبوع وبن ومولاس وزيت برافين بالنسيئة.

وكان إسحق قد أفرد على حدة بالفعل مبلغاً من المال لاليزيوس. ولمتجره وأسفاره الطويلة. ولكن لم يتبق الآن من الثروة التي تقاضاها

عن المنجم شيء كثير. وماذا بعدئذ؟ وسأل إسحق فجأة: «كيف تظن أحوال اليزيوس؟» فقال سيفرت كسباً للوقت: «أحواله؟» فقال أبوه: «يبدو أنها ليست مزدهرة جداً» فقال سيفرت: «همم. إنه يقول إنها على ما يرام» فسأله أبوه: «هل تحدثت إليه في ذلك؟» فأجاب: «لا. ولكن أندرسن يقول هذا» ففكر إسحق في ذلك ثم هز رأسه قائلاً: «لا. أحسب أنها سيئة. وهذا يؤسف له بالنسبة لفتى» وزاد انقباض إسحق الآن أكثر من ذي قبل، وهو لم يكن من قبل شديد الإشراق. ولكن سيفرت يطلق وميض نبأ جديد: «لقد أقبل مزيد من الناس للإقامة هنا» فسأله أبوه: «ما هذا الذي تقول؟» فأجابه: «هناك ضيعتان جديدتان.. وقد اشتراهما أصحابهما بقربنا».

ووقف إسحق ساكناً وعتلته في يده. فهذا نبأ له وزنه، وهو نبأ طيب، بل خير ما يكون من نبأ. وقال: «هذا يجعلنا عشرة ها هنا» وإسحق يعرف بالضبط أين اشترى الرجلان الجديدان الأرض، لأن صورة المنطقة المحيطة به كلها من الريف هي في رأسه. فهو يومئ ويقول: «أجل. لقد أحسنا صنعاً. فخشب الحريق كثير هناك، والأخشاب الكبيرة موجودة متناثرة. والأرض منحدرة صوب الجنوب الغربي. أجل...».

ما من شيء يغلب المتوطنين على أمرهم مهما كانت الأحوال. فها هنا أقوام جدد قد أقبلوا ليقيموا. ولئن لم يتمخض المنجم عن شيء، فهذا أفضل بكثير للأرض. أصحراء هي من الأرض الموات؟ شتان: فكل ما حوله يموج الآن بالحياة، وثمة رجلان جديدان وأربعُ أراض جديدة للعمل، وحقول ومزارع وبيوت والمسالك الخضراء الصغيرة في الغابة، وكوخ وماء وأطفال وسائمة منتشرة، والقمح تتماوج أعواده فوق أرض

المستنقعات حيث لم تكن تنمو من قبل إلا أعواد الأمسوخ. وها هي أزاهير الأجراس الزرقاء تتماوج فوق المستنقعات، وضوء الشمس الذهبي يتلألأ بين أزهار خف السيدة خارج البيت. فهناك مخلوقات آدمية تعيش وتتحرك وتتكلم وتفكر وتشارك في وجودها الأرض والسماء.

وها هنا يقف ماثلاً أول أولئك الرجال جميعاً. أولُ رجل جاء إلى البرية. وقد أقبل في ذلك الاتجاه يغوص إلى ركبتيه في نبات المستنقعات وفي الخلنج إلى أن وجد منحدراً مشمساً فاستقر به. وجاء من بعده آخرون، فحفرت أقدامهم بأوسط برية المنج. وجاء من بعدهم آخرون أيضاً فتحول الدرب إلى طريق تجري عليه العربات الآن. فمن حق إسحق أن يشعر بالرضى، وأن تسري في أعطافه رجفة زهو، فهو مؤسس المنطقة وورائدها.

وقال لابنه: «اسمع. ليس لنا أن نمضي في تضييع الوقت بإقامة هذا المسكن الصغير إن كنا عازمين على إقامة سقيفة العلف هذا العام».

وبإشراق جديد وروح جديدة، دبت فيه الشجاعة والحياة من جديد.

الفصل العاشر

ثمة امرأة تدب مصعدة على الطريق، ووابل من مطر الصيف ينهمر فيبللها، بيد أنها لا تكترث له، ففي ذهنها أمور أخرى تشغلها وتقضها، وتلك كانت باربو لا سواها، باربو ابنة بريد. وإنها لنهب للقلق، لأنها لا تدري كيف تنتهي هذه المغامرة، وقد خرجت من الخدمة في بيت العمدة وغادرت القرية. وهذا مصدر قلقها. وإنها لحريصة على الابتعاد عن جميع المزارع الواقعة على الطريق الصاعد، راغبة عن لقاء الناس. وكان من اليسير أن يرى من يلقاها أين مقصدها وعلى ظهرها حزمة من الثياب. أجل إنها تقصد مانلاند لتتولى الخدمة هناك مرة أخرى. وكانت قد لبثت في بيت العمدة حتى الآن عشرة أشهر، وما هي بالوقت القليل إذا أحصيت بحساب الأيام والليالي، ولكنها تغدو دهراً مديداً بغير انقضاء إن هي أحصيت بحساب التلهف والحنين والاستبداد. وكان الأمر في بدايته محتملاً، لأن السيدة هيردال كانت ترعاها بعطف وتعطيها ميدعاتها وثياباً أنيقة لترتديها، وكان مَسَرَّةً لقلبها أن توفد لقضاء الحاجات من المتجر في مثل تلك الأزياء الحسان. وباربو نشأت في تلك القرية طفلة، فهي تعرف جميع أهل القرية منذ الأيام التي كانت تلهو فيها هناك، وتذهب إلى المدرسة هناك، وتقبل الصبيان هناك، وشاركت في ألعاب كثيرة بالحجارة والأهداف. كان ذلك محتملاً مدى

شهر أو زهاء ه. ولكن السيدة هيردال شرعت بعد ذلك تفرط في رعايتها لها، ولما بدأت مهرجانات عيد الميلاد وصلت رعايتها إلى حد الصرامة. وأي خير يمكن أن ينجم عن ذلك؟ ما أخلق هذه الصرامة أن تفسد الأمور. وما كانت باربو لتطيقها أبداً لولا ما كانت تستمتع به من حرية بضع ساعات كل ليلة في الثانية إلى الثالثة صباحاً كانت في أمان تقريباً، فاستطاعت أن تختلس من اللذات غير قليل. وماذا عن الطاهية إذاً، حتى إنها لا تبلغ عنها؟ لا بد أنها امرأة من طراز جميل حقاً، أوه بل هي امرأة عادية جداً كسائر من في الدنيا من النساء. فهذه الطاهية كانت تخرج شخصياً بغير إذن. فكانتا تتناوبان الخروج ليلاً. ومر وقت طويل قبل أن يكتشف أمرهما. فلم تكن باربو من الابتذال بحيث يبدو ذلك على وجهها. فمن المستحيل أن تتهم بسوء السلوك. سوء السلوك؟ لقد كانت تقاوم أقصى مقاومة منتظرة. فحين يدعوها الشبان للذهاب معهم إلى مرقص عيد الميلاد تقول: «لا» مرة، وتقول «لا» مرتين. ولكنها في المرة الثالثة تقول: «سأحاول أن آتي من الساعة الثانية إلى السادسة» كما ينبغي لامرأة محتشمة غير محاولة أن تظهر في صورة أسوأ من حقيقتها تتصنع استعراض جسارتها. فهي فتاة خادمة تعمل كل وقتها ولا تعرف ترفيهاً سوى العبث مع الرجال. وهذا كل ما كانت تنشده. وتأتي السيدة هيردال فتعظها، وتقرضها كتباً، ولكن بغير طائل، لقد عاشت باربو من قبل في برجن وقرأت الصحف واختلفت إلى المسارح: فهي ليست حملاً وديعاً بريئاً من حملان الريف.

ولكن لا بد أن السيدة هيردال قد خامرها الشك في النهاية، فقد صعدت في الثالثة صباحاً إلى حجرة الخادمتين وصاحت: «باربو» فردت

عليها الطاهية: «نعم». فقالت السيدة: «باربو هي التي أريد. أليست هناك؟ افتحي الباب» ففتحت الطاهية الباب وأدلت بالتفسير المتفق عليه وهو أن باربو أخطرت أن تسرع إلى البيت لمدة دقيقة واحدة في أمر ما. إلى البيت لمدة دقيقة واحدة في هذا الوقت من الليل؟ وقالت السيدة هيردال كلاماً كثيراً في هذا الشأن. وفي الصباح تحزب الأمر، فقد أرسل في طلب بريد وسألته السيدة هيردال: «هل كانت باربو في البيت معكم الليلة الماضية في الثالثة صباحاً؟» ولم يكن بريد متأهباً للموقف، ولكنه أجاب: «في الساعة الثالثة؟ نعم نعم. هذا صحيح. لقد سهرنا وكان لدينا موضوع نتحدث فيه» وعندئذ أعلنت قرينة العمدة أن باربو لن تخرج بعد الآن ليلاً. فقال بريد: «لا لا» فقالت السيدة: «ما بقيت في هذا البيت» فقال بريد لابنته: «لا لا. ها أنت ترين يا باربو أن هذا ما قلته لك» فقالت سيدتها لها: «بوسعك أن تذهبي لرؤية أهلك بين حين وحين أثناء النهار». ولكن السيدة هيردال كانت يقظة تمام اليقظة، ولم يفارقها الشك، فانتظرت أسبوعاً.

ثم كررت المحاولة في الرابعة صباحاً. ونادت باربو ولكن في هذه المرة كانت النوبة على الطاهية للخروج، وكانت باربو في البيت، واضطرت سيدتها أن تسألها في أي موضوع على وجه السرعة: «هل أدخلت الغسيل في الليلة الماضية؟» فأجابتها: «نعم» فقالت سيدتها: «أحسنت صنعاً، فالريح تهب بشدة، طابت ليلتك».

ولكن لم يكن من دواعي سرور السيدة هيردال أن تحمل زوجها على إيقاظها في منتصف الليل لتتوجه بنفسها عبر البيت إلى حجرة الخادمتين لتتأكد من وجودهما في البيت. فلهما أن تصنعا ما يحلو

لهما، وسوف لا تشق نفسها بعد الآن. ولولا سوء طالع باربو لمكثت السنة طولها في مكانها على هذه الوتيرة. ولكن حدث شيء مزعج منذ بضعة أيام. وكان ذلك في المطبخ في ساعة مبكرة من ذات صباح. وقد أخذت باربو تتبادل مع الطاهية كلمات ليست من الوزن الخفيف، وارتفع صوتاهما، وقد نسيتا كل شيء عن سيدتهما واتهمت الطاهية بالدناءة والغش، لأنها تسللت في الليلة الماضية في غير نوبتها لأنها ليلة الأحد. وما العذر الذي تستطيع أن تتذرع به؟ إنها ذهبت لتودع أختها الأثيرة عند رحيلها إلى أمريكا؟ لا شيء من هذا. فالطاهية لم تقدم عذراً على الإطلاق، بل قالت ببساطة إن ليلة الأحد ليلة كانت مستحقة لها منذ وقت طويل. فقالت باربو: «أوه. أنت لا ذرة من الصدق أو الاحتشام في بدنك»، وإذا بالسيدة واقفة بالباب. ولعلها لم يخطر في ذهنها أكثر من أن الفتاتين تحدثان ضجة أشد مما ينبغي، إلا أنها وقفت الآن تنظر بإمعان بالغ إلى باربو وإلى ميدعة باربو فوق صدرها. أجل، وانحنت إلى الأمام لتحدق فيها عن كثب شديد، وكانت لحظة أليمة، وفجأة صرخت السيدة هيردال وتراجعت إلى الباب. وقالت باربو لنفسها ماذا عساه حدث، ونظرت إلى ثيابها. يا إلهي، إن هو إلا برغوث، ولم تتمالك باربو نفسها من الابتسام. ولما كانت لا تنقصها المرانة على التصرف في المواقف المحرجة، فقد نفضت البرغوث على الفور، فصرخت السيدة هيردال: «على الأرض؟ أجننت يا بنت؟ التقطيه فوراً!» وشرعت باربو تبحث عنه. ومرة أخرى تصرفت بذهن حاضر، فتظاهرت بأنها أمسكت الحشرة ثم أسقطتها بحركة واقعية تماماً في النار وسألتها سيدتها بغضب: «من أين جاءك؟» فقالت: «من أين جاءني؟» فقالت

سيدتها: «نعم هذا ما أحب أن أعرفه» فارتكبت باربو غلطة سيئة إذ كان ينبغي أن تقول بالطبع «من المتجر»، فيكون ذلك تفسيراً كافياً جداً. ولكنها في الحقيقة لم تكن تعلم من أين جاءتها الحشرة. ولكنها خطر لها أن ذلك البرغوث لا بد أن يكون مصدره الطاهية، وردت الطاهية وهي في عنفوان انفعالها: «مني أنا؟ احتفظي ببراغيثك لنفسك من فضلك؟» فقالت باربو: «أنت على كل حال التي كنت أمس في الخارج» وهي غلطة أخرى، فما كان ينبغي أن تقول شيئاً عن هذا الموضوع. ولم يعد لدى الطاهية ما يدعوها إطلاقاً لالتزم الصمت، فأفشت القصة كلها، وقالت كل شيء عن الليالي التي كانت باربو تخرج فيها. واستنكرت السيدة هيردال ذلك أشد الاستنكار. ولكنها لم تكن تكترث بما يكون من أمر الطاهية، فباربو هي التي كانت تعنيها، وهي الفتاة التي تعهدت بضمان أخلاقها. وحتى عندئذ كان من الممكن أن يصير كل شيء على ما يرام لو أن باربو أحنت رأسها كأعواد العشب اللينة وتطامنت خجلاً وتعهدت بكل ما ينبغي أن تتعهد به في المستقبل، ولكن لا. واضطرت سيدتها أن تذكرها بما صنعته لها. وعندئذ ردت عليها باربو من فضلك رداً سيئاً. وما كان أشد حماقتها وهي تتبجح في ردها. ولعلها كانت أحذق مما يبدو عليها، محاولة عمداً أن تصل بالأمور إلى ذروتها فتغادر المكان نهائياً؟ وقالت سيدتها: «تفعلين هذا بعد أن أنقذتك من براثن القانون» فأجابت باربو: «أما عن هذا فقد كان يسرني ألا تفعلي» فقالت سيدتها: «وهذا كل ما ألقاه منك من الشكر» فقالت باربو: «لعل الأفضل ألا نخوض في هذا، فما كان ليحكم علي بأكثر من شهر أو شهرين على كل حال، ثم تنتهي المسألة»،

فظلت السيدة هيردال عاجزة عن الكلام لحظة. ووقفت برهة قصيرة لا تقول شيئاً، وإنما تفتح فمها وتغلقه في صمت. ثم كان أول ما قالته بعد ذلك أنها طلبت من الفتاة مغادرة البيت. فلن تبقيها عندها. فقالت باربو: «على هواك».

وقضت باربو بضعة أيام بعد ذلك في البيت مع أهلها. ولكنها لم تستطع الاستمرار على ذلك، أجل إن أمها تبيع القهوة، وعدد كبير من الناس يترددون على البيت، ولكن باربو لا تستطيع أن تعيش على ذلك. ولعله كانت لديها أسباب أخرى خاصة بها للالتحاق بعمل مستقر مرة أخرى. وعلى هذا حملت على ظهرها كيساً به ثياب، وانطلقت في الطريق الذي يخترق المستنقعات؛ والمسألة الآن هل يقبلها أكسل شتروم؟ ولكنها أعلنت على كل حال رغبتها في الزواج في يوم الأحد السابق.

وكان المطر ينهمر، والوحل والقذارة كثيرة تحت قدميها، ولكن باربو مضت في طريقها. واقترب المساء، ولكن الظلام لم يكن قد خيم بعد في ذلك الأوان من السنة. يا للمسكينة باربو، إنها لا تبقي على نفسها بل تمضي نحو غايتها مصممة على الحصول على عمل كي تبدأ كفاحاً جديداً. وهي لم تبق قط على نفسها والحق يقال، ولم تكن قط من الطراز الكسول، ولذا تحتفظ الآن بقامتها الأنيقة وشكلها الجميل. وباربو سريعة التعلم ولما فيه ضررها في كثير من الأحيان. وماذا يتوقع المرء غير ذلك؟ لقد تعلمت أن تنقذ نفسها عند الاقتضاء، وأن تفلت من مأزق إلى مأزق. ولكنها تحتفظ على طول المدى بصفات أفضل. فقتل طفل ليس شيئاً عندها، بيد أنها تستطيع مع ذلك أن تقدم الحلوى لطفل حي. ثم إن لديها أذناً موسيقية مرهفة، وتستطيع أن تعزف برقة وإجادة

على القيثار، وهي تغني بصوت أجش ذي وقع مستساغ شجي بعض الشيء في الأذن. أبقت على نفسها؟ لا. فقلما أبقت على نفسها حقاً، حتى إنها ألقت بنفسها إلى الضياع ولم تشعر بخسارة. وهي قد تبكي في حين بعد حين وتحطم قلبها حسرة على هذا الشيء أو ذاك من أمور حياتها. إلا أن هذا طبيعي، ومتفقٌ مع الأغاني التي تغنيها. ومصدره ما فيها من شاعرية ومودة عذبة، وقد استطاعت بذلك أن تخدع نفسها وتخدع كثيرين غيرها. ولو استطاعت أن تأتي معها بالقيثارة هذا المساء لوسعها أن تعزف لأكسل قليلاً عند وصولها.

وتدبرت الأمر كي يكون وصولها في ساعة متأخرة من المساء، كي يكون كل شيء هادئاً في مانلاند حين تبلغها. ورأت بعينها أن أكسل شرع يجمع الدريس، فالعشب مقطوع قرب البيت، وجانب من الدريس قد أدخل بالفعل. وقدرت أن تكون أولين بسبب شيخوختها نائمة في الحجرة الصغيرة، وأن يكون أكسل راقداً في سقيفة الدريس على نحو ما كانت تفعل شخصياً من قبل. ومضت إلى الباب الذي تعرفه جيداً وهي تكتم أنفاسها كاللص ونادت بصوت خافت: «أكسل» فسأل أكسل على الفور: «من هذا؟» فقالت باربو: «لا أحد. أنا فقط» ثم دخلت وهي تقول: «ألا تستطيع أن تؤويني الليلة؟» فتطلع إليها أكسل وأبطأ تفكيره. ثم جلس هناك في ملابسه الداخلية يحملق فيها وقال: «هي أنت إذاً. وإلى أين تذهبين؟» فقالت: «هذا يتوقف أولاً على مدى حاجتك إلى مساعدة في أعمال الصيف» وفكر أكسل في ذلك ثم قال: «ألست مزمعة أن تمكثي حيث كنتِ إذاً؟» فأجابت: «لا. لقد تركت العمل عند العمدة» فقال أكسل: «قد أكون في الحقيقة بحاجة إلى عون

مدة الصيف. ولكن ما معنى رغبتك في العودة على كل حال؟» فقالت باربو مرجئة الموضوع: «دعك من أمري. سأستأنف طريقي غداً فأذهب إلى سيلانرا ثم أعبر التلال. فأمامي مكان هناك» فسألها: «هل اتفقت مع أحد هناك؟» فقالت: نعم» فقال أكسل مرة أخرى: «قد أكون بحاجة إلى عون مدة الصيف شخصياً».

وكانت باربو مبتلة الثياب حتى لحمها، ومعها ثياب أخرى في كيسها ولا بد لها من تبديل ما عليها، فقال أكسل: «لا تبالي بي» وتحرك قليلاً نحو الباب لا أكثر، وخلعت باربو ثيابها المبللة وهما يتحدثان أثناء ذلك، وأكسل يلتفت برأسه نحوها مراراً كثيرة، فقالت: «الآن يحسن أن تخرج قليلاً» فقال: «أخرج؟» والحقيقة أن الجو لم يكن يلائم الخروج إطلاقاً، فوقف هناك ينظر إليها وهي تزداد تجرداً من ثيابها. فمن العسير أن تبقى عيناه بعيداً عنها، وباربو غير مكترثة إطلاقاً، فقد كان في وسعها أن تلبس القطعة الجافة من الثياب كلما خلعت مثيلتها المبللة، ولكنها لم تفعل. وقميصها الداخلي رفيع وملتصق بجسدها، ففكت زراً فوق أحد كتفيها وهي تستدير جانباً. فليس ذلك شيئاً جديداً عليها. ولزم أكسل الصمت المطبق عندئذ وهو يرى كيف تستطيع بلمسة أو لمستين من يديها أن تزيل آخر قطعة من ملابسها عن جسدها، وآمن أن ذلك تم بمنتهى الروعة. فها هي ذي واقفة أمامه، غير مكترثة إطلاقاً بعريها التام.

وبعد برهة وجيزة كانا مستلقيين يتجاذبان الحديث معاً. أجل إنه كان بحاجة لعون مدة الصيف. وقالت باربو: «لقد قالوا شيئاً بهذا المعنى» وكان قد بدأ الحصادَ وجمع الدريس بمفرده مرة أخرى. وفي

استطاعة باربو أن تقدر من تلقاء نفسها مدى مشقة ذلك العمل عليه الآن - نعم، باربو تدرك هذا- ومن جهة أخرى كانت باربو نفسها هي التي هربت وتركته من قبل وليس معه أحد يعاونه. وليس في مقدوره أن ينسى ذلك. وأخذت خاتميها معا (فوق البيعة)، وفضلاً عن هذا كله زاد من عار الموقف أن تلك الصحيفة التي استمرت تصل إليه، وهي تلك الصحيفة التي تصدر في برجن. وبدا له أنه لن يستطيع التخلص منها، فقد تعين عليه أن يستمر في دفع الاشتراك عنها سنة كاملة بعد رحيلها. فقالت باربو منحازة لجانبه على طول الخط: «هذه حقارة مخربة من جانبهم».

ولما رآها أكسل خاضعة تمامَ الخضوع لينة الجانب لم يستطع أن يكون قاسي القلب نحوها من جميع الوجوه، فأبدى موافقته على أن باربو ربما كان لها بعض الحق في الغضب منه لما أقدم عليه من الاستيلاء على أعمال التلغراف من أبيها. وقال: «أما من هذا الخصوص فيستطيع والدك أن يسترد مني أعمال التلغراف مرة أخرى. فلا حاجة لي بها، لأنها ليست سوى مضيعة للوقت». فقالت باربو: «إي». ثم فكر أكسل برهة ثم سألها سؤالاً صريحاً: «حسن، وماذا تنوين الآن؟ أتريدين البقاء مدة الصيف ولا زيادة؟» فقالت باربو: «لا. ليكن الأمر كما تريد» فسألها: «أتعنين ذلك حقاً؟» فقالت: «نعم. كما تشاء أنت تماماً وما يرضيك يرضيني، وليس هناك ما يدعو لشك فيَّ بعد الآن». فقال: «همم». فقالت: «لا. إنه الحق وقد أوصيت بإعلان رغبتي في الزواج».

همم. هذا شيء لا بأس به. وظل أكسل مستلقياً يفكر في ذلك وقتاً طويلاً. فإن كانت تعني ذلك جدياً هذه المرة وليس الأمر خدعة

مخزية أخرى من جانبها، فستكون له امرأة خاصة به ومساعدة له على طول المدى، فقال: «كان في استطاعتي أن أحضر امرأة من بنات بلادنا، وقد كتبت فعلاً تقول إنها قادمة. ولكن في هذه الحالة يجب أن أدفع أجر سفرها من أمريكا». فقالت باربو: «هوه، إذاً فهي في أمريكا؟» فأجاب: «نعم. ذهبت هناك في العام الماضي ولكن لا رغبة لها في البقاء». فقالت باربو: «دعك منها. وماذا يكون من أمري إذاً؟» وشرعت تستكين وتبدي الحزن والأسى. فقال: «لا. ولهذا لم أقطع معها بكلام محققٍ».

وبعد ذلك كان لا بد لباربو أن تتظاهر أمامه بشيء رداً على تظاهره. فاعترفت له بأنها كانت تستطيع أن تتخذ لنفسها فتى في برجن، وهو حوذي في مصنع كبير للبيرة. وهو عمل ضخم هائل ومنصبه فيه طيب. وقالت باربو وهي تنتحب انتحابة يسيرة: «وأحسبه الآن حزيناً علي، ولكنك تعرف يا أكسل كيف يكون الحال عندما يكون اثنان على تآلف كبير فيما بينهما مثلي ومثلك. ولذا كان الأمر أقوى من طاقتي على النسيان. أما أنت ففي وسعك أن تنساني ما شئت» فقال أكسل: «ماذا، أنا؟ لا. لا حاجة بك يا فتاتي للاستلقاء هكذا باكية لسبب كهذا. فأنا لم أنسك قط»، فقالت: «حسن....» وشعرت باربو بتحسن كبير بعد ذلك الاعتراف وقالت: «على كل حال لماذا تدفع أجر سفرها كل تلك المسافة من أمريكا ولا حاجة بك إليها»... ونصحته أن ينفض يده من هذه المسألة فهي باهظة التكاليف جداً ولا لزوم لها. وكان واضحاً أن باربو عزمت على إقامة صرح سعادته بنفسها.

ووصلا إلى اتفاق تام في غضون الليل. ولم يكن الأمر كما لو كانا

غريبين، فقد تحدثا في كل شيء من قبل. وحتى حفلة الزواج المحتوم، لا بد أن تجري قبل عيد القديس أولاف وحلول الحصاد. فلا حاجة بهما إلى إخفاء الأمور، وباربو صارت الآن شخصياً أشد ما تكون تلهفاً على إبرام الزواج فوراً. ولم يتكدر أكسل مطلقاً لهذه اللهفة، ولم تثر ريبته إطلاقاً. بل على العكس شعر بزهو وانتعاش إذ وجدها على هذه الحال. أجل، إنه عامل في الحقول ولا شك، غليظ البشرة، لم يألف طلب الرهافة في الأشياء، وليس مدققاً أكثر مما ينبغي. وهناك أشياء كان مضطراً لعملها، وهو ينظر إلى المنفعة أولاً. يضاف إلى هذا أن باربو عادت إليه موفورة الجدة والملاحة مرة أخرى، متلطفة معه، وتوشك أن تكون أعذب مما كانت من قبل. فهي كالتفاحة. فأقبل يقضم منها. وكان إعلان الرغبة في الزواج قد نشر بالفعل.

أما عن الطفل الميت والمحاكمة، فلم يتعرض أحد منهما لذلك بكلمة، بيد أنهما تحدثا في شأن أولين وكيف يستطيعان التخلص منها. وقالت باربو: «نعم يجب أن ترحل. ولسنا مدينين لها بالشكر على شيء على كل حال. فإن هي إلا نمامة ولسان وسوء وأداة شر».

ولكن اتضح أن حمل أولين على الرحيل ليس أمراً يسيراً. فمن أول صباح ظهرت فيه باربو أدركت أولين لا محالة ما يراد بها. فاضطربت على الفور ولكنها حاولت ألا تظهر ذلك. وأحضرت كرسياً. لقد كانا يدبران الأمور حتى ذلك الحين في مانلاند، فأكسل كان يتكفل بحمل الماء والخشب وأثقل الأعمال وتقوم أولين بالباقي. وشيئاً فشيئاً رتبت أمرها على البقاء بقية عمرها في ذلك المكان. وها هي باربو الآن أتت وهدمت ذلك كله.

وقالت لباربو: «لو أن في البيت حبة بن واحدة لظفرت بها... أتراك ذاهبة إلى بعيد؟» فقالت باربو: «لا». فسألتها: «هوه ألست ماضية إلى أبعد من حيث أتيت؟» فأجابتها باربو: «لا. لست عائدة من حيث أتيت. بل سأبقى هنا في الوقت الحاضر» فسألتها: «هنا ستبقين؟» فقالت: «نعم. أحسبني باقية هنا» فانتظرت أولين لحظة استخدمت فيها رأسها العتيق الحافل بأفانين السياسة ثم قالت: «حسن. هذا من شأنه أن ينقذني من العناء ولا شك. ويسعدني أن يتم ذلك». فقالت باربو على سبيل المزاح: «أوه. أكان أكسل قاسياً عليك جداً هذه الفترة؟» فقالت: «قاسياً علي؟ أكسل، أوه. لا لزوم لتأويل كلمات امرأة عجوز ليس أمامها سوى مواصلة البقاء في انتظار النهاية المباركة. لقد كان أكسل كالوالد ومبعوث العناية الإلهية لي عدد الأيام والساعات. وصادقاً صدق الإنجيل معي. ولكن كوني ولا أحد من قومي هنا أعيش بمفردي منبوذة تحت سقف رجل غريب، وجميع أقاربي عبر التلال».

ومع ذلك كله بقيت أولين. فلا سبيل إلى التخلص منها إلا بعد زواجهما. وقد أظهرت أولين شيئاً كثيراً من التلكؤ. ولكنها قالت في النهاية: «نعم» وقبلت البقاء كل هذه المدة إرضاء لهما ولترعى البيت والماشية أثناء ذهابهما إلى الكنيسة. وقد استغرق الزواج يومين. ولكن عندما عادا وقد عقد قرانهما وكل شيء، ظلت أولين مقيمة كذي قبل. وراحت تؤجل رحيلها. فيوماً تقول إنها تشعر بالإعياء، وفي اليوم التالي تقول إن الجو ينذر بالمطر. وجعلت تتملق باربو بمعسول اللفظ في شأن الطعام. أوه. إن الفرق جسيم الآن فيما يختص بالطعام في مانلاند.

والمعيشة الآن مختلفة. والفرق في صنع القهوة هائل جداً. ولم تحجم أولين عن شيء، فكانت تسأل باربو النصح في أمور تعرفها شخصياً خيراً منها: «ما رأيك الآن. هل يجب أن أحلب البقرات بترتيب أماكن وقوفها، أم ينبغي أن أحلب البقرة بوردلين أولاً؟» فتقول لها: «لك أن تفعلي ما تشائين». فتصيح أولين: «نعم؛ هكذا كنت أقول دائماً، فقد خرجت أنت إلى الدنيا وعشت بين أكابر القوم وعليتهم وتعلمت كل شيء وهذا مختلف عن حال أمثالي».

أجل إن أولين لم تحجم عن شيء، فهي تتآمر طول النهار. وتجلس فتحدث باربو كيف كانت شخصياً صديقة على أحسن الصلات بوالد باربو بريد أولسن، هوه ما أكثر الساعات اللطيفة التي قضيناها معاً. فبريد رجل لطيف المعشر غني ووجيه أيضاً. لا تخرج الكلمة النابية من فمه.

بيد أن ذلك ما كان ليدوم إلى الأبد. فلا أكسل ولا باربو حريصان على بقاء أولين بعد ذلك معهما. وقد تولت باربو كل ما كانت أولين تقوم به. ولم تتذمر أولين، ولكنها صارت ترمق سيدتها الشابة بنظرات تنذر بالخطر، وغيرت لهجتها بعض الشيء: «من أكابر القوم حقاً. نعم. فقد ذهب أكسل إلى المدينة فترة في وقت الحصاد الماضي، ألعلك لم تقابليه هناك؟ لا. هذا صحيح. فقد كنت في برجن عندئذ. ولكنه ذهب إلى المدينة وكان ذلك لشراء آلة الحصاد ومسلفة آلية. وماذا يكون أهل سيلانرا الآن بالقياس إليكما هنا؟ لا وجه للمقارنة».

لقد أخذت ترمي بعض القذائف الشائكة. ولكن ذلك لم يغنها الآن فتيلاً. فلا أحد منهما يخشاها. وقال لها أكسل بصراحة ذات يوم إنها يجب أن ترحل. فقالت أولين: «أرحل؟ وكيف؟ حبواً، ربما؟» كلا إنها

سوف لا ترحل متعللة بأنها منهكة القوى ولا تستطيع تحريك رجليها، ولتزيد الأمور سوءاً إلى أقصى حد انهارت عندما انتزعا من يديها كل عمل ولم يبق لديها ما تقوم به إطلاقاً، وادعت المرض التام، وظلت قائمة على قدميها أسبوعاً ومع أن أكسل كان ينظر إليها بحنق شديد، إلا أنها بقيت بدافع من الشر المحض. وأخيراً لزمت الفراش. وهي الآن مستلقية هناك في انتظار نهايتها المباركة، بل تعد الساعات إلى أن يتسنى لها القيام والغدو والرواح مرة أخرى، وطلبت طبيباً، وذلك تبذير لم يسمع به في البرية من قبل. فقال أكسل: «طبيب؟ هل جننت» فقالت أولين بمنتهى اللطف وكأنها لم تفقه قوله: «ماذا تعني؟» أجل إنها كانت في منتهى الرقة وعذوبة اللسان. وأبدت سرورها التام لعدم احتياجهما إلى أن تكون عبئاً على الآخرين. ففي وسعها أن تدفع أجر الطبيب بنفسها. فقال أكسل: «هوه، أتستطيعين ذلك؟» فقالت أولين: «وهبني لا أستطيع؟ أكنت على كل حال تاركي ملقاة هنا أموت كالحيوان الأعجم أمام وجه الرب؟» وعندئذ قالت باربو كلمة، وكان خرقاً منها أن تقولها: «مم تشكين إذاً -أحب أن أعرف- وأنا آتي إليك بوجباتك وكل شيء بنفسي؟ وأما عن القهوة فقد قلت لك إن من الخير لك أن تمتنعي عنها. قصدت مصلحتك» فقالت أولين وهي تدير عينيها فقط ولا زيادة كي تنظر إليها: «أهذه باربو؟» فأولين في منتهى الإعياء. ومنظر عينيها يثير الشفقة وهي تنظر بهما تلك النظرة الجانبية واستطردت: «نعم قد يكون الأمر كما تقولين يا باربو إن كانت نقطة صغيرة من القهوة لا تؤذيني. أعطني ملء ملعقة ولا زيادة» فقالت باربو: «لو كنت في مكانك لفكرت في أشياء أخرى غير القهوة في هذه الساعة» فقالت

أولين: «نعم، الأمر كما أقول، لم يكن من دأبك مطلقاً أن تتمني نهاية مخلوق بشري، بل تتمنين للناس أن يهتدوا ويعيشوا. ماذا؟ إني راقدة هنا وأرى أشياء... أأنت حبلى الآن يا باربو؟» فصاحت باربو بغضب شديد: «ما هذا الذي تقولين؟ هوه. أنت تستحقين أن ألقي بك خارجاً فوق كوم النفايات جزاء وفاقاً على خبث لسانك».

وعندئذ سكتت العليلة لحظة استغرقت فيها في التفكير، وارتعش فمها كأنها تحاول جاهدة أن تبتسم ولكنها لا تجرؤ، ثم قالت: «سمعت شخصاً ينادي في الليلة الماضية» فقال أكسل همساً: «إنها تهذي» فقالت أولين: «لا. لست أهذي، فكأنما كان شخص ينادي فعلاً. من الغابة. أو ربما من الجدول الذي يجري هناك. كان صوته غريباً، كان أشبه بطفل وليد يصرخ: أهذه باربو التي خرجت الآن؟» فقال أكسل: «نعم. سئمت هذيانك. لا عجب» فقالت: «أتسميه هذياناً وتحسبني لا أعني ما أقول؟ ليس إلى هذا الحد الذي تتمناه كلا. فليست إرادة العلي القدير ومشيئته تعالى أن آتي الآن أمام العرش وأمام الحمل بكل ما أعرفه عما يجري في مانلاند. سأنهض وأغدو وأروح مرة أخرى، لا تخف. ولكن من الخير أن تحضر طبيباً يا أكسل. فذلك أدعى لنهوضي بسرعة. وماذا عن تلك البقرة التي كنتَ ستعطينيها؟» فقال: «بقرة؟ أية بقرة؟» فقالت: «تلك البقرة التي وعدتني بها. ألعلها كانت بوردلين؟» فقال أكسل: «أنت تخرفين» فقالت: «أنت تعلم أنك وعدتني ببقرة يوم أنقذت حياتك» فقال: «لا. هذا ما لم أعلمه قط».

وعندئذ رفعت أولين رأسها ونظرت إليه. وكانت شيباء صلعاء. رأسها مرفوع فوق عنق طويل ضامر. فبدت قبيحة كأنها ساحرة خبيثة أو

غولة من غولات الأساطير. وأجفل أكسل لمرآها وتحسس بيده من وراء ظهره مقبض الباب، وقالت أولين: «هو. إذاً أنت من هذا الطراز. حسن لن نتكلم أكثر من هذا الآن، وفي وسعي أن أعيش من غير البقرة ابتداء من اليوم. ولن أتفوه بكلمة أو أنبس ببنت شفة مرة أخرى، ولكن من الخير أنك أظهرت أي طراز من الرجال أنت اليوم، فأنا أعرف حقيقتك. وسأعرفها في المرة القادمة؟».

ولكن أولين ماتت تلك الليلة. أثناء الليل. فقد وجدت على كل حال جثة باردة في الصباح التالي عندما دخلا عليها.

أولين - مخلوقة عجوز. ولدت وماتت.

ولم يكن من دواعي حزن أكسل وباربو أن يوارياها التراب ويتخلصا منها إلى الأبد. فسيلزمهما الآن نصيب أقل من الحذر في كل ما يفعلان، وفي وسعهما أن يطمئنا بالاً. ولولا أن عاود باربو التعبُ في أسنانها لكان كل شيء على ما يرام. ولكن ذلك اللثام الصوفي الدائم حول وجهها يحتم عليها أن تزيحه جانباً كلما أرادت أن تقول كلمة. وفي ذلك من الإزعاج الشديد ما فيه. وكان كل هذا الألم في أسنانها مثار حيرة لأكسل. فقد لاحظ يقيناً أنها تمضغ طعامها بشيء من الحرص. ولكن فمها مكتمل الأسنان. فسألها: «ألم تركبي أسناناً جديدة؟» فقالت: «بلى» فسألها: «وهل تؤلمك هذه أيضاً؟» فقالت باربو بضيق مع أن أكسل ألقى السؤال ببراءة تامة: «يا لي منك ومن هذرك» وتحت ضغط مرارتها صرحت بحقيقة حالها قائلة: «ألا ترى ما بي حقاً؟».

ماذا بها؟ دقق أكسل النظر فخيل إليه أنها أكثر بدانة مما ينبغي. فسألها: «لا يمكن أن تكوني... ليس ثمة طفل آخر يقيناً» فقالت: «بل

أنت تعلم أن الأمر كذلك». فحملق فيها أكسل ببلاهة. ولما كان بطيء التفكير فقد جلس قبالتها يحصي ويعد برهة: أسبوع أسبوعان. وها هما في الأسبوع الثالث وقال: «لا. وكيف يمكن أن أعلم؟» إلا أن باربو نفد صبرها عن آخره لهذا الجدل وانفجرت تبكي بصوت مرتفع وكأنها أهينت إهانة بالغة: «في وسعك أن تأخذني وتواريني التراب أنا أيضاً في باطن الأرض وتتخلص مني».

عجباً: ما أغرب الأشياء التي تستطيع المرأة أن تبكي بسببها، إن أكسل لم يفكر قط أن يواريها في باطن الأرض، فهو رجل غليظ البشرة ينظر أساساً إلى ما ينفعه. ولا حاجة به إلى طريق مفروشة بالأزهار. وقال: «إذاً سوف لا تقدرين على العمل في الحقول هذا الصيف؟» فقالت باربو مرتاعة مرة أخرى: «لا أعلم ثم...» وحقاً ما أغرب الأمور التي تستطيع المرأة أن تبتسم بسببها. فأكسل الذي فهم كلامها على هذا الوجه أثار لدى باربو زوبعة مرح هستيري، فانفجرت تقول: «سأعمل عمل اثنين: انتظر وسترى يا أكسل سأعمل كل ما تكلفني به وزيادة. سأبلي نفسي حتى العظام، وسأكون شاكرة إن أنت فقط احتملتني على هذا النحو».

ومرة أخرى فاضت العبرات وابتسامات الحنان بعد ذلك. فهما وحدهما في البرية ولا أحد يزعجهما. فالأبواب مفتوحة والذباب يطن في حرارة الصيف. وكانت باربو رقيقة راغبة. ففي وسعه أن يصنع بها ما يحلو له، وسيجدها راغبة.

وبعد غروب الشمس وقف يشد الحصان إلى آلة الحصاد. فلم يزل أمامه أن يعد شيئاً للغد. وخرجت باربو إليه مسرعة كأن لديها شيئاً

هاماً تقوله له: «يا أكسل. كيف خطر لك أن تحضر امرأة إلى هنا من أمريكا؟ ما كانت لتستطيع الوصول إلى هنا قبل الشتاء. وأي نفع منها عندئذ؟» فقد خطر لها ذلك تواً، فكان لا بد لها من الخروج إليه جرياً لتقوله له كأنما هو أمر ضروري. ولكنه لم يكن ضرورياً على الإطلاق. فأكسل أدرك منذ البداية أن أخذه باريو يعني الحصول على عون دائم طول السنة. فأكسل لا يعرف اللف والدوران. ولا يفكر في الأمور تفكيراً خيالياً. فلديه الآن امرأة خاصة به تُعنى بالمكان. وبذلك صار في وسعه أن يحتفظ بعمله في التلغراف فترة أخرى، فما يتقاضاه عنه مبلغ كبير من المال في السنة، يحسن أن يعول عليه ما دام ما يأتيه من الأرض كافياً بصعوبة لحاجاته، ولا يبيع من غلتها إلا القليل. إن كل شيء على ما يرام وهو يعمل كما ينبغي. فكل تفكيره واقعي. وهو لا يخشى الآن بريد على الخط التلغرافي وقد صار صهره.

أجل. إن الأمور تبدو على ما يرام. وأحوال أكسل عظيمة.

الفصل الحادي عشر

ومضى الزمن في مساره، فانقضى الشتاء، وعاد الربيع مرة أخرى. وعزم إسحق على النزول إلى القرية ذات يوم. ولم لا؟ ولأي غرض؟ فقال لا أدري إلا أنه نظف العربة حتى غدت حسنة من كل وجه. ووضع فيها المقعد، وانطلق يقودها بعد أن وضع فيها جانباً كبيراً من الزاد وما إلى ذلك أيضاً، ولم لا؟ إنه لإليزيوس في ستوربورج. فما من عربة تنطلق من سيلانرا إلا وفيها شيء يحمل إلى اليزيوس.

ولم يكن بالحدث الهين أن يُقبل إسحق هابطاً بعربته فوق المستنقعات، فهو قلما يأتي، وسيفرت هو الذي يذهب إلى أكثر المواضع بدلاً منه. ووقف الناس في أقرب مزرعتين على طريقه أمام أبواب أكواخهم وقال بعضهم لبعض: «هذا إسحق نفسه. وما الذي حمله على أن يهبط في هذا الاتجاه اليوم؟ وما إن بلغ في هبوطه مانلاند حتى رأى باربو في النافذة الزجاجية وبين ذراعيها طفل، ولما أبصرته قالت: «إنه إسحق نفسه». وحين وصل إلى ستوربورج جذب العنان قائلاً: «ترو: هل اليزيوس في البيت؟» فخرج اليزيوس. أجل إنه في البيت لم يرحل بعد، ولكنه على وشك الرحيل منطلقاً في جولته الربيعية بين مدن الجنوب. فقال أبوه: «ها هي بضعة أشياء بعثتها إليك أمك. لست أدري ما هي.

ولكنها ليست شيئاً كثيراً فيما أحسب» وأخذ اليزيوس الأشياء وشكر، ثم قال: «لم يصل خطاب فيما أظن أو شيء من هذا القبيل؟» فقال أبوه متحسساً جيوبه: «بلى، وصل خطاب، وأظنهم قالوا إنه من رفقة الصغيرة» وتناول اليزيوس الخطاب فهذا ما كان في انتظاره، وتحسسه فوجده لطيفاً سميكاً، وقال لأبيه: «من حسن الحظ أنك حضرت في الوقت المناسب، وإن كنت سوف لا أسافر إلا بعد يومين. فإن أحببت المكث قليلاً أمكنك أن تأخذ معك حقيبتي».

ونزل إسحق وربط حصانه، وذهب يتجول في الأرض. إن أندرسن الصغير ليس عاملاً رديئاً في الأرض في خدمة اليزيوس. أجل كان يأتي سيفرت من سيلانرا لمساعدته ومعه الخيل. بيد أنه قام بجانب كبير من العمل، مستقلاً، فجفف البرك واستأجر بنفسه رجلاً لتدعيم المصارف بالحجارة. فلن تنشأ هذا العام حاجة لشراء العلف في ستوربورج ولا في السنة التالية على ما يبدو. وسيكون في مقدور اليزيوس أن يقتني الآن حصاناً خاصاً به. والفضل في ذلك لأندرسن وللطريقة التي يعمل بها في الأرض.

وبعد برهة وجيزة نادى اليزيوس قائلاً إنه أعد حقيبته الكبيرة، واستعد شخصياً أيضاً على ما يلوح من منظره للسفر، مرتدياً حلة زرقاء بديعة وبنيقة بيضاء، وقالوشاً وعصا للمشي. أجل سيكون عليه أن ينتظر السفينة يومين. ولكن لا بأس. ففي وسعه أن يقضيهما في القرية. لأنه سيان أن يكون هنا أو هناك وانطلق الأب وابنه بالعربة، ووقف أندرسن يرقبهما من باب الدكان ويتمنى لهما رحلة طيبة. وإسحق شديد الاهتمام بولده، وأراد أن يترك له المقعد كله، ولكن اليزيوس لم

يقبل ذلك وجلس بجواره. ولما وصلا إلى بريد ابليك إذا باليزيوس وقد نسي شيئاً. وقال أبوه: «بترو: وما هو؟» أوه إنها مظلته، فقد نسي اليزيوس مظلته. ولكنه لا يستطيع أن يشرح موضوعها كله ويقول فقط: «لا بأس. واصل القيادة» فيقول أبوه: «ألا تريد أن تعود؟» فيجيبه: «لا. واصل القيادة».

ولكنها مسألة مزعجة، فكيف أمكن أن يتركها؟ لقد حدث ذلك كله بسبب السرعة، لأن أباه كان هناك في الانتظار. ومن الأفضل الآن أن يشتري مظلة جديدة في ترونيم عندما يصل إلى هناك. فليس مهما على كل حال أن تكون لديه مظلة واحدة أو مظلتان. ومع ذلك كله كان اليزيوس ساخطاً على نفسه. وبلغ من شدة ذلك عليه أنه وثب إلى الأرض ومشى خلف العربة. فصار من العسير أن يكثرا من تجاذب الحديث في الطريق بعد ذلك. لأن إسحق كان يضطر للالتفات إلى الوراء في كل مرة ليتكلم من فوق كتفه. وقال إسحق: «كم تزمع الغياب؟» فأجاب أندرسن: «أوه. لنقل إني سأغيب ثلاثة أسابيع. أو ربما شهراً على الأكثر»، وتعجب أبوه كيف أن الناس لا يضلون طريقهم في المدن الكبيرة فلا يهتدون إلى طريق العودة مطلقاً. ولكن اليزيوس يجيبه أنه من هذه الناحية قد تعود المعيشة في المدن، ولم يضل طريقه قط. فلم يحدث له ذلك في حياته من قبل. أبداً. ويحس إسحق بالخزي لجلوسه فوق العربة بمفرده وينادي قائلاً: «تعال قدها قليلاً فقد تعبت» ولا يقبل اليزيوس أن ينزل أبوه، ويصعد فيجلس إلى جواره مرة أخرى. ولكنهما ينبغي أولاً أن يأكلا شيئاً من لفافة إسحق العامرة ثم يواصلان طريقهما مرة أخرى.

ويصلان إلى مزرعتين هما أبعد المزارع في الطريق الهابطة. وبات من السهل عليهما أن يتبينا أنهما قد اقتربا الآن من القرية. والبيتان في المزرعتين كلاهما مزينة نوافذه الصغيرة المطلة على الطريق بستائر بيضاء، وفوق سقيفة الدريس سارية علم للاحتفال بيوم الدستور. وقال الناس في المزرعتَين الجديدتين عندما مرت بهما العربة: «إنه إسحق نفسه» وأخيراً يكف اليزيوس عن التفكير في شؤونه الخاصة وفي نفسه الغالية وسأله: «ما الذي هبط بك في العربة اليوم؟» فقال أبوه: «همم. ليس شيئاً كثيراً اليوم». ثم فكر عندئذ أنه ما دام اليزيوس راحلاً فقد لا يكون ثمة ضير بعد كل شيء في إخباره، فاستطرد: «هي ابنة الحداد بنسين. هبطت بسببها» قال أبوه ذلك، وكأنه قد أفضى بكثير، فقال اليزيوس: «أتهبط بنفسك لهذا السبب؟ ألم يكن في وسع سيفرت أن يقوم بهذا؟» نعم. إن اليزيوس تفكيره عند هذا، فيحسب سيفرت حرياً أن يهبط إلى بنت الحداد ليحضر بنسين بعد أن أخذتها العزة بنفسها فغاردت سيلانرا.

لا. لقد اضطرب الأمر عند جمع الدريس في العام السابق. وقد بذلت أنجر كل جهدها في حدود استطاعتها كما وعدت وليوبولدين قامت بنصيبها أيضاً. وإلى جانب ذلك كانت هناك الآلة التي يجرها الحصان. ولكن الدريس كان كثيراً وغزيراً جداً والحقول واسعة، فسيلانرا الآن مكان مترامي الأطراف والنساء لديهن ما يقمن به إلى جانب جمع الدريس. فثمة كل تلك الماشية التي تحتاج لعناية، والوجبات التي يجب أن تعد في أوقاتها المناسبة، والجبن والزبد اللذين لا بد من صنعهما، والملابس التي لا بد من أن تغسل، وصناعة الخبز وإنضاجه. وفي ذلك

تعمل الأم وابنتها كل ما تستطيعان فلن يقبل إسحق أن يمر به صيف آخر كهذا ولذا قرر من غير ضجة وجوب عودة ينسين إن كان ذلك مستطاعاً. وأنجر أيضاً لم تعد تعارض في ذلك بكلمة واحدة، فقد ثابت لرشدها مرة أخرى. وقالت: «نعم اصنع ما يحسن لديك» أجل إن أنجر غدت عاقلة الآن. وليس شيئاً هيناً أن يثوب المرء لرشده بعد زيغ. إن أنجر لم تعد الآن فائرة بحرارة لا بد من التنفيس عنها، ولم تعد ممتلئة بدماء ثائرة لا بد من كبحها، فالشتاء قد برّد نارها. فلم يبق فيها الآن ما يجاوز الحرارة اللازمة. وقد صارت أميل للامتلاء وغدت لطيفة مهيبة، فهي امرأة عجيبة في صيانة نفسها من الذبول ومن الموت تدريجاً. ولعل ذلك لأنها ازدهرت في مراحل متأخرة من عمرها. ومن ذا يستطيع أن يقول كيف تحدث الأمور؟ ما من شيء يحدث من علة واحدة، بل من علل كثيرة، ألم تكن أنجر على أحسن صلة بزوجها الحداد؟ وماذا يسع أي زوجة حداد أن تقوله ضدها؟ لقد سلبها تشويهها ربيع حياتها. ثم بعد ذلك زج بها في جو صناعي فأضاعت ست سنوات من صيف حياتها. فأي غرابة وقد بقيت فيها من الحياة باقية أن ينبت خريف عمرها نباتاً منحرفاً؟ إن أنجر خير من زوجات الحدادين. إنها قد تكون معطوبة الجانب شيئاً ما، منحرفة شيئاً ما، ولكنها طيبة بطبعها. حاذقة بطبعها... نعم.

ويواصل الأب والابن ركوبهما فيصلان إلى نزل بريد أولسن، ووُضع الحصان في سقيفة. وكان المساء قد حل، فدخلا شخصياً، وكان بريد قد استأجر ذلك البيت، وكان في الأصل مرافق خارجية مملوكة لصاحب المتجر، ولكنه أعد الآن بحيث صارت به حجرتان للجلوس وحجرتان للنوم

لا بأس بهما، وفي موقع جيد، ويتردد على ذلك المكان كثيرون لشرب القهوة ومن أهل المناطق المحيطة بالقرية القادمين لركوب السفينة. ويبدا أن بريد قد حالفه الحظ هذه المرة فوجد شيئاً يلائمه. والفضل في ذلك لزوجته. فزوجة بريد هي التي خطرت لها فكرة حانوت للقهوة ونزل في اليوم الذي جلست فيه تبيع القهوة في مزاد بريد ابليك وقد استطابت أن ترى نفسها تبيع شيئاً وتحس بالنقود بين أصابعها عداً ونقداً. ومنذ هبطوا إلى هنا حسنت أحوالهم، فهم يبيعون القهوة بكثرة الآن، وينزل لديهم كثيرون ممن لا يجدون مأوى إلا هناك، وزوجة بريد نعمة كبرى للمسافرين. وتجد عوناً كبيراً بالطبع من كاترين ابنتها وهي الآن فتاة كبيرة تحذق في خدمة العملاء وإن كان ذلك مؤقتاً بالطبع، فلن يطول الوقت حتى تجد كاترين الصغيرة شيئاً أفضل من خدمة الناس في بيت أبويها. ولكنهم في الوقت الحاضر يكسبون مالاً وفيراً. وهذا هو المهم. وكانت البداية موفقة قطعاً، وكان من الممكن أن تكون أفضل لو أن صاحب المتجر لم ينضب ما لديه من الكعك والبسكويت الحلو مما يقدم مع القهوة، فها هنا الناس جميعاً يطلبون كعكاً مع قهوتهم. يطلبون بسكويتاً وكعكاً. وكان درساً تلقنه صاحب المتجر كي يستعد برصيد طيب من هذه السلع بعد ذلك.

وأسرة بريد وبريد نفسه يعيشون على أحسن ما يستطيعون بإيراداتهم. فوجبات كثيرة من طعامهم لا تعدو القهوة والكعك البائت المتبقي من العملاء، ولكن ذلك يقيم أودهم ويضفي على الصغار مظهراً رقيقاً مرهفاً. فما كل إنسان يتناول الكعك مع قهوته كما يقول أهل القرية. أجل إن آل بريد حالهم ميسور فيما يبدو. حتى إنهم يقتنون الآن

كلباً يطوف بالزبائن يستجديهم ويحظى بفتات هنا وفتات هناك يسمن عليها، والكلب السمين إعلان طيب عن النزل الذي ينطق بجودة التغذية.

بريد إذاً زوج وأب في البيت. وإلى جانب هذا المنصب تحسنت أحواله من وجوه كثيرة، فقد عين وقتاً ما مساعد عمدة ونائباً له. وقام بشيءٍ كثير في ذلك المجال فترة من الزمن. ولكن لسوء الحظ اصطدمت ابنته باربو بزوجة العمدة في الخريف الماضي حول مسألة تافهة. مسألة لا وزن لها إطلاقاً. إنها في الحقيقة مسألة برغوث. وبذلك صار بريد نفسه هدفاً لعدم الرضا بعض الشيء لدى العمدة منذ ذلك الحين، ولكن بريد لا يعتبر ذلك خسارة كبرى بعد كل شيء. فهناك عائلات أخرى تسند إليه الأعمال الآن عمداً لإغاظة العمدة وعائلته، فكثيراً ما يستدعى مثلاً ليقود عربة طبيب. وأما بيت القس فيسره أن يبعث في طلب بريد كلما كان لديهم خنزير للذبح أو أكثر. هكذا يقول بريد نفسه. ولكن مع هذا كله تمر أوقات عصيبة بين حين وحين ببيت بريد. فما كل أفراد الأسرة يسمنون ويزدهرون ككلبهم. ومع ذلك فبريد والحمد لله ليس بالرجل الذي يشعر بالكرب لهذه الأمور. فهو يقول: «ها هم الأولاد يكبرون يوماً في إثر يوم» وإن كان هناك دائماً مولود جديد في الطريق ليحتل المكان، فمن كبروا وخرجوا إلى الدنيا يعولون أنفسهم ويبعثون إلى الدار بشيء يسير بين فينة وفينة. فباربو متزوجة في مانلاند. وهيلجي يعمل في مسمكة للرنجة، وكلاهما يرسل شيئاً إلى الدار نقوداً أو ما يضاهي النقود في القيمة كلما تيسر لهم ذلك. وحتى كاترين التي تقوم بالخدمة في الدار وسقاية العملاء استطاعت على نحو عجيب أن تدس ورقة من ذات الخمسة كرونات في يد أبيها في الشتاء الماضي حينما كانت الأمور

بالغة السوء. وقال بريد عندئذ: «يا لها من فتاة» ولم يسألها قط من أين حصلت على النقود ولا عن أي طريق. أجل هذه هي الطريقة الصحيحة، فالأطفال ذوو القلوب الرقيقة يفكرون في والديهم ويعينونهم في وقت الحاجة.

وبريد ليس راضياً كل الرضى عن ابنه هيلجي من هذه الناحية. فهو يقف أحياناً في المتجر ومن حوله جماعة صغيرة يبسط نظرياته عن الأولاد وواجبهم نحو والديهم. فيقول: «وإليكم الآن ابني هيلجي. فهو إذا كان يدخن الطباق قليلاً، أو يشرب جرعة بين حين وحين، فليس لدي اعتراض على ذلك. فقد كنا كلنا شباناً في زماننا. ولكن ليس صواباً منه أن يبعث إلى الدار بالخطاب تلو الخطاب ولا شيء فيها سوى الألفاظ والتمنيات. ليس صواباً منه أن يجعل أمه تبكي. هذا هو الطريق الخطأ الذي يمكن أن يسير فيه فتى. أما في الزمان السالف فكانت الأمور بخلاف ذلك. فما إن يشب الأولاد حتى يلتحقوا بالخدمة ويشرعوا في إرسال شيء من العون إلى الدار. وكان ذلك صواباً، أليس أبوهم وأمهم هما اللذان حملاهم تحت صدريهما في البداية، وتصبب عرقهما دماً ليحفظا عليهم حياتهم أيام طفولتهم الغضة؟ ثم ينسون ذلك كله».

ويبدو أن هيلجي سمع خطبة أبيه هذه، فقد جاء منه خطاب بعد ذلك وفيه نقود. فيه خمسون كروناً، لا أقل. وعندئذ حظي آل بريد بوقت رائع، فاشتروا في إسرافهم الذي لا حد له لحماً وسمكاً في وقت واحد للغداء. واشتروا مصباحاً تتدلى من جميع أطرافه زخارف بلورية براقة ليعلقوه في سقف أفضل حجرة عندهم.

إنهم يسيرون أمورهم على نحو ما. وماذا يمكن أن يطلبوا أكثر من ذلك؟ إن آل بريد يواصلون الحياة، ولئن كانوا يعيشون عيش الكفاف، يوماً بيوم فهم لا يشعرون من ذلك بكبير خوف. إذ ماذا يمكن أن ينمو أكثر من ذلك؟

وقال بريد وهو يدخل إسحق واليزيوس إلى الحجرة ذات المصباح الجديد: «ها همُ الزائرون بحق، ومن طراز لم أكن أفكر أن أراه. إنك لست مسافراً فيما أظن يا إسحق شخصياً؟» فأجابه: «لا إنما حضرت للذهاب إلى الحداد في أمر ما. ولا زيادة». فقال بريد: «هوه... إذاً فهو اليزيوس مسافر إلى الجنوب مرة أخرى».

ولمّا كان اليزيوس متعوداً على حياة الفنادق فقد اعتبر نفسه في بيته وعلق معطفه وعصاه على الحائط ونادى يطلب القهوة. وأما الطعام ففي سلة أبيه شيء كثير منه. وأتت كاترين بالقهوة. فقال بريد: «تدفع ثمنها؟ لن أقبل هذا. فقد أكلت وشربت كثيراً في سيلانرا. وأما اليزيوس فلي في دفاتره حساب، لا تأخذي النقود يا كاترين» ولكن اليزيوس دفع مع هذا، أخرج كيسه ودفع النقود وفوقها عشرون أورا، غير مذعن لهذا الهذر، عبر إسحق الشارع إلى مكان الحداد وبقي اليزيوس حيث هو. وقال بضع كلمات لكاترين كما يقضي الواجب به، ولكنه لم يزد عن ذلك الحد، فهو يفضل الكلام مع أبيها. كلا إن اليزيوس لا يكترث بالنساء. فقد روعته إحداهن ذات مرة فأصبح لا يهتم الآن بهن. وربما لم يكن لديه كبير ميل من هذه الناحية يستحق الذكر، بما أنه نفض يديه من ذلك كله تماماً الآن. ويا له من رجل غريب يعيش في البرية. وهو سيد مهذب، له يدا الكاتب النحيلتان. ميل امرأة إلى

الزخارف والتأنق وإلى العصي والمظلات والقوالش. فقد روعته تلك المرأة الأولى وغيرته فأصبح لسبب غير مفهوم عازفاً عن الزواج. بل إن شفته العليا تأبى أن تنبت الشعر على مستوى غزير. ولكن لعل الفتى أحسن الابتداء، وجاء من أرومة جيدة، إلا أنه تحول بعد ذلك إلى الحياة في جو صناعي فالتوى أمره وتغير حاله؟ أتراه أفرط في العمل في مكتب أو دكان إلى أن فقد بذلك أصالته عن آخرها؟ نعم قد يكون الأمر كذلك، ومهما يكن من شيء فها هو الآن دمثاً خالياً من الانفعالات رخواً بعض الشيء، قليل الاكتراث، يزيد باطراد في ابتعاده عن السبيل السوي. وكان حرياً أن يحسد كل إنسان من بين رفاقه في البرية، ولكنه لم يجد القوة في نفسه حتى ولا على هذا.

وكاترين ألفت الهزل مع عملائها. ولذا فهي تسأله مداعبةً أهو راحل للقاء حبيبته في الجنوب مرة أخرى؟ فقال أليزيوس: «لدي أمور أخرى أفكر فيها. فأنا مسافر في رحلة عمل، لأنشئ علاقات» وقال لها أبوها موبخاً: «ليس لك أن ترفعي التكليف مع من هم خير منك يا كاترين». فبريد أولسن شديد الاحترام لاليزيوس، وإنه لاحترام هائل. وهذا تصرف حكيم من جانبه، لأنه مدين بكثير من النقود لمتجر ستوربورج. وها هو دائنه ماثل أمامه. وماذا عن اليزيوس؟ هوه، إن كل هذا الاحترام يروقه، وهو يقابل ذلك بالعطف والرقة فينادي بريد مازحاً يا سيدي العزيز، وينسج على هذا المنوال. وأشار إلى أنه نسي مظلته قائلاً: «تذكرت ونحن نمر أمام بريد ابليك أني تركت مظلتي» فسأله بريد: «هل تنوي التوجه الليلة إلى متجرنا الصغير لاحتساء كأس؟» فقال اليزيوس: «كان هذا ممكناً لو أنني كنت وحدي، ولكن أبي هنا»

وعندئذ أخذ بريد يتلطف معه ومضى في ثرثرته قائلاً: «سيحضر إلى هنا بعد غد شخص في طريقه مسافر إلى أمريكا» فقال اليزيوس: «أتعني أنه كان في زيارة لموطنه هنا؟» فأجاب بريد: «نعم. إنه من مكان قريب من القرية. وقد ظل مغترباً سنوات طويلة، وعاد لقضاء الشتاء. وقد وصلت حقيبة سفره الكبيرة إلى هنا فعلاً بالعربة. ويا لها من حقيبة رائعة» فقال اليزيوس بصراحة: «لقد فكرت في الذهاب شخصياً إلى أمريكا مرة أو مرتين» فصاح بريد: «أنت؟ لا حاجة لأمثالك للمضي في هذا السبيل يقيناً» فقال اليزيوس: «حسن. لم يكن فكري متجهاً للذهاب إلى هناك للإقامة الدائمة. ولكنني طفت بأماكن كثيرة جداً حتى الآن، وقد يكون من المستحسن أن أذهب إلى هناك أيضاً». فقال بريد: «طبعاً ولم لا؟ وفي أمريكا يقولون إن المال أكداس والموارد هائلة. فهذا الشخص الذي حدثتك عنه من قبل دفع في مقابل ولائمه وحفلاته أكثر مما يتيسر إحصاؤه في هذا الشتاء الفائت. فهو يدخل عندي هنا ويقول لي فلنشرب قهوة. وعاء مليئاً. وهات كل الكعك الذي عندك. أتحب أن تشاهد حقيبة سفره الكبيرة؟».

وخرجا إلى الدهليز لينظرا إلى الحقيبة. وكانت أعجوبة ينظر إليها من أعاجيب الدنيا تتوهج جوانبها وأركانها بالزخارف المعدنية والمشابك والأحزمة، ولها ثلاثة ألسنة لإغلاقها بإحكام بخلاف القفل. وقال بريد بلهجة من حاول الأمر بنفسه: «محصنة ضد السطو». ثم عادا إلى الحجرة ولكن اليزيوس كان قد استسلم للتفكير. إن هذا الأمريكي من أبناء القرية قد تفوق عليه فإذا به لا شيء بجانب مثل ذلك الرجل. ومن الطبيعي جداً وهو يسافر كما يسافر كبار الموظفين أن يشير بريد حوله

ضجة. وأمر اليزيوس بمزيد من القهوة وحاول أن يؤدي دور الرجل الثري كذلك. فطلب كعكاً مع قهوته وأعطى الكعك كله للكلب. وهو يشعر طول الوقت بهوان قدره وثبوط همته. فماذا تكون حقيبة سفره إلى جانب هذه الأعجوبة الموجودة هناك في الخارج. ها هي حقيبة من قماش أسود سميك وأركانها كلها كالحة بالية. حقيبة يد لا أكثر، هوه. لكن انتظر! فسيشتري حقيبة سفر متى وصل إلى المدن، حقيبة ينبغي أن تكون فخمة. انتظر فحسب.

وقال بريد: «خسارة أن تطعم الكلب هكذا؟» وشعر اليزيوس بتحسن في حالته عند سماع ذلك وصار مستعداً لمزيد من التظاهر الكاذب فقال: «إنه لعجيب ذلك المدى الذي تصل إليه الحيوانات في البدانة» وأسلمته فكرة إلى فكرة أخرى، فقطع اليزيوس حديثه مع بريد وخرج إلى السفينة لينظر إلى الحصان. وهناك أخرج من جيبه خطاباً وفضّه، وكان قد وضعه هناك على الفور غير مكترث لمعرفة مبلغ ما فيه من النقود. فقد تلقى من قبل خطابات من هذا النوع من البيت. وكان بها دائماً أوراق مالية، مبلغ ما يستعين به في سفره. ولكن ما هذا؟ إنها ورقة كبيرة رمادية اللون مملوءة كلها بالكتابة. ورسالة من رفقة الصغيرة إلى أخيها اليزيوس وبضع كلمات من أمه. ولكن ماذا غير ذلك؟ لا شيء سوى هذا. لا نقود مطلقاً.

كتبت أمه تقول إنها لم تستطع أن تطلب من أبيه مزيداً من النقود مرة أخرى الآن. لأنه لم يبق كثير من كل ما حصلوا عليه ثمناً لمنجم النحاس في ذلك الحين. وقد ذهب ذلك كله في شراء ستوربورج ثم لشراء جميع تلك السلع بعد ذلك، وفي نفقات أسفار اليزيوس وجولاته، لذا

وعليه في هذه المرة أن يتدبر أمره بنفسه. لأن ما تبقى من النقود يجب الاحتفاظ بها لأخيه وأختيه حتى لا يتركوا بلا مال إطلاقاً. ورحلة سعيدة وأمك المحبة.

لا نقود:

واليزيوس شخصياً لم يكن معه ما يكفي لأجرة سفره. وكان قد نظف خزانة الإيراد النقدي في ستوربورج، ولم يكن فيها كثير. ولكنه كان مغفلاً إذ أرسل تلك النقود على الحساب إلى تجار برجن. فلم يكن ثمة ما يدعو لذلك، وكان من الممكن إرجاء الدفع. أجل كان ينبغي طبعاً أن يفتح الخطاب قبل أن يبدأ رحلته. فذلك كان حرياً أن يوفر عليه هذه الرحلة إلى القرية بحقيبة سفره الحقيرة وما إلى ذلك والآن ها هو ذا في ذلك الموقف..

وعاد أبوه من مكان الحداد بعد أن سوى الأمر هناك. وينسين ستعود معه صباح غد. وأعلم أن ينسين لم تكن معارضة أو عسيرة الاقتناع. بل أدركت على الفور أنهم بحاجة إلى معونتها في سيلانرا مدة الصيف؛ وأبدت استعدادها للذهاب. وكان هذا تصرفاً لائقاً منها مرة أخرى.

وفيما كان أبوه يتكلم جلس اليزيوس يفكر في شؤونه الخاصة. وأطلع أباه على حقيبة الأمريكي قائلاً: «ليتني كنت من حيث جاءت هذه الحقيبة» فأجابه أبوه: «إي. لا بأس بها».

وفي صباح اليوم التالي استعد إسحق للعودة إلى البيت، فتناول طعامه وشد الحصان وقاد العربة إلى مكان الحداد ليأخذ ينسين وصندوقها. ووقف اليزيوس ينظر في أثرهما وهما منطلقان. فلما غابا عن نظره في الغابة دفع حسابه في النزل مرة أخرى وفوقه هبة، وقال

لكاترين: «في وسعك أن تتركي حقيبتي هنا إلى أن أعود» وانصرف.

إلى أين ذهب اليزيوس؟ ليس أمامه موضع يذهب إليه سوى العودة آفلاً إلى البيت. لقد شرع يصعد في الطريق نحو التلال مرة أخرى حريصاً على أن يظل قريباً من أبيه وينسين قدر الإمكان من غير أن يرياه. واستمر سائراً وقد خامره الحسد لكل إنسان في البرية. وإنه لأمر مؤسف ذلك الذي حدث لاليزيوس من التغير الشديد.

أتراه لا يقوم بعمل رابح في ستوربورج؟ إن الحالة هناك لا تسمح بجني ثروة. واليزيوس يكثر من الخروج والسفر أكثر مما ينبغي، قائماً بأسفار عملية لإنشاء علاقات. وهذا يكلفه أكثر مما يجب، فهو لا يسافر على مستوى رخيص. ويقول «لا فائدة من الشح» ويعطي عشرين أوراً فوق المطلوب منه حيث كان ينبغي أن يوفر عشرة، والتجارة لا يمكن أن تقيم رجلاً له ذوقه وميوله. فلا بد من إعانات مالية تأتيه من البيت. والمزرعة في ستوربورج ينمو بها من القمح والبطاطس والدريس ما يكفي مستلزمات المكان نفسه. أما بقية المؤن الأخرى فيجب أن تأتي من سيلانرا. وهل هذا كل شيء؟ إن سيفرت يجب أن ينقل بالعربة بضائع أخيه من الباخرة بلا مقابل. وهل هذا كل شيء؟ إن أمه يجب أن تحصل من أبيه على نقود لتغطية نفقات رحلته؛ ولكن هل هذا كل شيء؟ إن ما هو أسوأ لم يأت ذكره بعد. فاليزيوس يدبر أعماله التجارية بحماقة. فيزهيه أن يرى الناس يأتون إليه من القرية للشراء من ستوربورج. ولذا يعطيهم بالنسيئة متى سألوه ذلك. وذاع عنه هذا الأمر وشاع في كل مكان. فأقبل مزيد من الخلق باستمرار للشراء على هذا المنوال. فتداعت تجارته كلها للخراب والدمار. واليزيوس رجل متساهل. يترك الأمور

جارية في أعنتها، وفرغ المتجر ثم امتلأ مرة أخرى. وذلك يتكلف مالاً كثيراً. ومن يدفع هذا المال؟ إنه أبوه.

وفي البداية كانت أمه ناطقاً مخلصاً بلسانه يدافع عنه من كل وجه، فاليزيوس هو الرأس الحاذق في الأسرة ويجب أن يعينوه على التقدم ويدفعوا به إلى الأمام إلى أن ينطلق في سبيله. وها أنت ترى كيف حصل على ستوربورج بهذا الثمن الرخيص، قائلاً على الفور كم يريد أن يدفع ثمناً لها، ولما ظن أبوه أن هذا العمل التجاري قد أدركه الاختلال على نحو ما وأصبح عبثاً، عنفته قائلة: «كيف تقف ها هنا وتقول مثل هذا الكلام»، ووبخته لتفوهه بألفاظ كهذه عن ابنه، فإسحق على ما يظهر نسي نفسه وموضعه إذ يتحدث عن اليزيوس بهذا الشكل، فأمه - ألق بالك- خرجت شخصياً إلى الدنيا العريضة، ولذا أدركت مدى صعوبة الحياة البرية على اليزيوس، بعد أن تعود حياة أفضل وألف المعيشة في المجتمع، وليس بقربه الآن من هو ند له. أجل إنه يغامر أكثر مما ينبغي في صفقاته مع أناس غير مضمونين إطلاقاً؛ ولكن حتى على هذا الغرض يجب ألا ننسى أنه لم يقدم على ذلك بسوء نية، بقصد خراب أبويه بل عن طيبة قلب خالصة ونبل طبع. فهذه طريقته في مساعدة من ليسوا في مثل جاهه وأبهته. ثم أليس هو الرجل الأوحد في كل هذه الأصقاع الذي يستخدم المناديل البيضاء التي تحتاج دائماً إلى غسيل؟ وعندما يأتي إليه الناس آملين فيه يسألونه شيئاً بالنسيئة، لا يستطيع أن يقول لهم «لا» وإلا استاؤوا منه وبدا لهم وكأنه ليس الشخص النبيل الذي خالوه بعد كل شيء. ثم إن عليه واجباً معيناً نحو الناس، وهو الذي تربى في المدينة، وهو العبقري من بينهم جميعاً.

أجل إن أمه تضع كل ذلك نصب عينيها. أما أبوه فلم يفهم قط ذلك كله إطلاقاً. وقد فتح عينيها وأذنيها ذات يوم قائلاً: «انظري هنا، هذا كل ما بقي من ثمن ذلك المنجم» فقالت: «أهذا كل شيء؟ وأين ذهب الباقي؟» فقال: «اليزيوس أخذ الباقي» فضربت كفاً بكف وأعلنت أنه آن الأوان أن يشرع اليزيوس في استخدام عقله.

مسكين اليزيوس: لقد غلب على أمره وتشتت أحواله كل مشتت، ولعله كان خيراً له لو عمل في فلاحة الأرض طول الوقت، ولكنه الآن رجل تعلم القراءة والكتابة فلا منة فيه ولا عمق. ولكنه أيضاً ليس شيطاناً أسود النحيزة من شياطين الإنس ولا هو عاشق، ولا طموح. فليس في اليزيوس شيء كبير على الإطلاق تقريباً، حتى ولو كان صفة سوء. وإنه لسوء طالع أو نحس يلازم هذا الشاب، كأنما ينخر فيه شيء من داخله. وربما كان خيراً لو أن ذلك المهندس الطيب من أهل المدينة لم يكتشف الفتى في حداثته ولم يأخذه ليصنع منه شيئاً ذا بال، لأن الغلام فقد عندئذ منبت جذوره فأضر به هذا كثيراً. فكل ما انقلب إليه الآن مرجعه إلى افتقاره لشيء ما، ولظلمة حجبت عنه النور.

ومضى اليزيوس في طريقه قدماً، ومر الاثنان، راكبا العربة اللذان يسبقانه بستوربورج. ودار اليزيوس دورة كبيرة ومر من هناك أيضاً. فماذا يفعل ببيته ومركزه التجاري ومتجره؟ وبلغ راكبا العربة سيلانرا عند هبوط الليل، واليزيوس في أعقابهما. وأبصر سيفرت يخرج إلى الفناء ويدهش دهشة بالغة عندما يرى ينسين. ويتصافح الاثنان ويضحكان قليلاً ثم يأخذ سيفرت الحصان إلى الخارج ويمضي به إلى الإسطبل. ويغامر اليزيوس بالتقدم. فخر الأسرة يغامر بالتقدم قليلاً. لا

سائراً إلى الأمام، بل متسللاً. ويدخل على سيفرت الإسطبل قائلاً: «إن هذا إلا أنا» فيقول سيفرت وقد عرته الدهشة مرة أخرى: «ماذا؟ أنت أيضاً؟» ويأخذ الشقيقان في الكلام بصوت خفيضٍ حول وجوب قيام سيفرت بحمل أمه على تدبير مبلغ من النقود هو آخر مدد يطلبه. وهو المال اللازم للرحلة. فالأمور لا يمكن أن تمضي على هذا النحو. وهو قد أطال التفكير فيها، فلا بد له من الرحيل الليلة. ورحلته طويلة، فهو راحل إلى أمريكا. والسفر في هذه الليلة. فقال سيفرت بصوت مرتفع: «أمريكا؟» فقال اليزيوس: «صه، لقد فكرت في هذا منذ وقت طويل. ولا بد أن تحملها على فعل ما قلته لك، فالأمور لا يمكن أن تمضي على هذا النحو. وقد ظللت أفكر في الرحيل منذ أمد طويل جداً» قال سيفرت: «ولكنها أمريكا، لا. لا تفعل هذا» فقال اليزيوس: «بل إني ذاهب، لقد رتبت الأمر. وسأعود الآن لأدرك السفينة»، فقال سيفرت: «ولكنك ينبغي أن تأكل شيئاً» فأجابه: «لست جائعاً» فقال سيفرت: «تستريح قليلاً إذاً؟» فقال: «لا».

ويحاول سيفرت أن يصنع خير ما يستطيع ليستبقي أخاه. ولكن اليزيوس أصر. أجل هذه المرة كان مصراً. وسيفرت نفسه مأخوذ مجفل. فهو أولاً عرته حينما رأى ينسين أمامه مرة أخرى. وها هو الآن يرى اليزيوس عازماً على مغادرة المكان جملة، إن لم نقل على مغادرة الدنيا. وقال: «وماذا عن ستوربورج؟ ماذا أنت صانع بها؟» فقال اليزيوس: «في وسع أندرسن أن ينالها» فقال سيفرت: «أندرسن ينالها؟ ماذا تعني؟» فقال اليزيوس: «أليس مزمعاً أن ينال يد ليوبولدين؟» فأجاب سيفرت: «لا علم لي بهذا. نعم ربما كان الأمر كذلك».

ويواصلان الكلام بصوت خفيضٍ. ويخطر ببال سيفرت أنه حبذا لو خرج أبوه واستطاع اليزيوس أن يكلمه بنفسه. فيهمس اليزيوس مرة أخرى: «لا لا»، فلم يكن قط بالرجل الذي يواجه موقفاً كهذا ولا بد له دائماً من وسيط. فقال سيفرت: «حسن. إن أمنا كما تعلم، فلا سبيل لمنعها من البكاء والاسترسال في الكلام. فينبغي ألا تعلم» ووافقه اليزيوس قائلاً: «ينبغي ألا تعلم».

وخرج سيفرت، وغاب طويلاً ثم عاد ومعه نقود. عاد ومعه مقدار هائل من النقود: «هاك هذا كل ما يمتلكه. أتظنه كافياً؟ عدها، فهو لم يعدها ليعرف مقدارها» فسأله: «وماذا عن أبي؟» فأجابه: «لم يقل شيئاً كثيراً. والآن ينبغي أن تنتظر قليلاً. وسأحضر مزيداً من الثياب وأهبط معك»، فقال: «لا موجب لهذا العناء، اذهب واضطجع» فقال سيفرت محاولاً ألا يصطنع المرح لحظة: «هوه. أفَزِعٌ أنت من الظلام حتى توجب علي ألا أذهب؟» وغاب برهة ثم عاد مرتدياً ثيابه وعلى كتفه سلة طعام أبيه، وعند خروجهما كان أبوهما واقفاً في الخارج. فقال إسحق: «إذاً أنت راحل كل تلك المسافة فيما يبدو؟» فأجاب اليزيوس: «نعم، ولكن سأعود يوماً ما» فغمغم الشيخ قائلاً: «لا أريد أن أحتجزك الآن عن الرحيل. فلم يبق إلا وقت قصير» وأشاح الرجل ثم قال بصوت غريب: «حالفك حسن الطالع» ومضى مبتعداً بسرعة.

وسار الأخوان هابطين الطريق. وبعد أن ابتعدا قليلاً جلسا يأكلان، وكان اليزيوس جائعاً لا يكاد يكتفي. وكانت ليلة رائعة من ليالي الربيع والقطا السود تلهو فوق قمم التلال. فأوشكت هذه الأصوات البيتية الحميمة أن توهن عزم المهاجر لحظة. وقال: «إنها ليلة صافية الأديم. من الخير أن تعود الآن يا سيفرت» فقال سيفرت: «همم» ومضى معه. ومرا

في طريقهما بستوربورج وبريد ابليك وتعقبهما الصوت على طول الطريق من التلال هنا وهناك. وهو ليس صوت الموسيقى العسكرية كما في المدن وإنما هي أصوات حية تنادي: «ها هو ذا الربيع قد أتى» وفجأة انطلق أول صداح يشدو به طائر مغرد على فنن شجرة، فأهاج من نومها صوادح أخر، وتجاوبت بالدعاء والجواب سائر الأنحاء. لقد كان ذلك أكثر من أغنية، كان ترنيمة شكر. وأحس المهاجر بالحنين إلى الوطن يستولي عليه فعلاً، ونازعه من داخله ضعف لا حيلة له فيه، فها هو ذاهب إلى أمريكا، وما من أحدٍ أقل تهيؤاً منه لذلك للذهاب. وقال: «عد الآن أنت يا سيفرت» فقال أخوه: «إن كنت تفضل هذا فنعم» وجلسا عند حافة الغابة، وبدت القرية تحتهما مباشرة بمتجرها ورصيف مرفئها. ونزل بريد العتيق ونفر من الناس يتحركون قرب الباخرة يتأهبون للسفر. وقال اليزيوس: «لا وقت للجلوس هنا» ونهض، فقال سيفرت: «تصور أنك راحل كل هذه المسافة» فأجابه اليزيوس: «ولكني سأعود، وسأحصل في هذه الرحلة على حقيبة سفر أفضل» وفيما هما يقولان وداعاً، دس سيفرت شيئاً في يد أخيه ملفوفاً في ورقة، وسأل اليزيوس: «ما هذا؟» فقال سيفرت: «لا تنسَ أن تكتب إلينا كثيراً» وانطلق وفتح اليزيوس الورقة ونظر، فإذا القطعة الذهبية ذات الخمسة وعشرين كروناً، فناداه: «اسمع. لا! لا ينبغي هذا!».

ومضى سيفرت في طريقه، مشى قليلاً ثم استدار وجلس ثانية عند حافة الغابة. مزيد من الناس يتحركون الآن قرب الباخرة والركاب يستقلونها. واليزيوس يستقلها. والسفينة تنأى بجانبها عن الشاطئ ثم تبتعد. لقد رحل اليزيوس إلى أمريكا.

ولم يعد قط.

الفصل الثاني عشر

موكب يلفت النظر يصعد سيلانرا. وقد يكون منظره مضحكاً. ولكن ثمة ما هو أكثر من هذا: ثلاث رجال ثقيلو الأحمال، تتدلى الزكائب من فوق أكتافهم على ظهورهم، يسير كل منهم خلف الآخر، وينادي كل منهم الآخر بكلمات هازلة، ولكنهم ثقيلو الأحمال. وأندرسن الصغير الكاتب الأول رأس هذا الموكب. والواقع أن الموكب موكبه، وقد هيأ نفسه لهذه الرحلة، وكذلك سيفرت من سيلانرا وفردريك شتروم من بريد ابليك. وأندرسن رجل صغير ملفت للنظر. وكتفه المثقل مائل على أحد جانبيه. وسترته المعوجة بتأثير ذلك عند الرقبة، بيد أن يواصل المضي بحمله.

وكان اليزيوس قد ترك ستوربورج وتجارته كلها. وأندرسن قد لا يكون اشتراهما فوراً، فذلك أعظم من طاقة أندرسن، ولكن في طاقته أن يصبر قليلاً وقد يحصل عليهما بلا مقابل. وليس أندرسن أحمق، ولذا فقد استأجر المكان في هذه الأثناء، وتولى العمل بنفسه. وقد جرد البضاعة الحاضرة فوجد جانباً كبيراً غير صالح للبيع من البضائع التي في مخزن اليزيوس، من قبيل فرش الأسنان ومفارش المناضد الصغيرة المزركشة والطيور المصبرة المركبة على لوالب بحيث تزعق حين تضغط على المكان المناسب، وهذه هي البضاعة التي يرحل بها الآن ليبيعها

لعمال المنجم في الجانب الآخر من التلال. فهو يعرف منذ أيام هارونسن أن عمال المناجم الذين تمتلئ جيوبهم بالنقود مستعدون لشراء أي شيء في الدنيا. وهو آسف لاضطراره تركَ ستة أحصنة هزازة كان اليزيوس قد طلبها في رحلته الأخيرة إلى برجن.

ودخلت القافلة فناء سيلانرا وحطت أحمالها. ولم يطلبوا المكث هناك، بل شربوا قدحاً من اللبن، وتظاهروا بمحاولة بيع سلعهم هناك، ثم حملوا أثقالهم على أكتافهم وانطلقوا مرة أخرى، فهم لم يخرجوا للهو والادعاء، وشقوا طريقهم صوب الجنوب وسط الغابة. وواصلو السير حتى الظهر، واستراحوا ليأكلوا ثم استأنفوا السير حتى المساء. وعندئذ عسكروا وأوقدوا ناراً ورقدوا فناموا فترة من الوقت، ونام سيفرت متكئاً على جلمد قال عنه إنه مقعد ذو مساند. أو، إن سيفرت يعرف ماذا يريد، فقد ظلت الشمس تدفئ هذه الصخرة الصماء طول النهار حتى صارت مكاناً طيباً للجلوس والنوم. ولكن رفيقيه ليسا في مثل فطنته، فلم ينتصحا ورقدا وسط أعواد الخلنج واستيقظا متألمين من البرد وأخذا يعطسان. وعندئذ تناولوا إفطارهم وانطلقوا من جديد. وراحوا يتسمعون لتسقط أصوات الانفجارات، ففي مأمولهم أن يصلوا في الوقت المناسب فيلتقوا بالناس هناك في خلال هذا النهار. ولا بد أن العمل قد توغل الآن توغلاً كبيراً إلى مسافة عظيمة بعيداً عن الماء في اتجاه سيلانرا. ولكن ما من صوت يدل على التفجير. وواصلوا سيرهم حتى الظهر من غير أن يلتقوا بأحد مطلقاً. وهنا وهناك كانوا يعثرون على ثقوب في الأرض، حيث كان الرجال قد قاموا بالحفر على سبيل التجريب. فماذا يمكن أن يكون معنى هذا؟ معناه ولا مراءَ أن الركاز لا بد أن يكون غنياً

غنى يفوق المألوف في الطرف الآخر من المكان، فهم هناك يحصلون على نحاس نقي ثقيل، ولذلك لزموا ذاك الطرف القصي طيلة هذا الوقت.

وبعد الظهر مروا بعدة حفر أخرى، ولكن لا أثر للعاملين، واستمروا في سيرهم حتى المساء، إلى أن بدا لهم البحر عن بعد أسفلهم، وهم في سيرهم وسط برية من المناجم المهجورة، وما من صوت يصل إلى أسماعهم إطلاقاً. وذلك كله يتجاوز طاقة الإدراك، ولكن لا حيلة لهم فيه، ولا بد لهم أن يعسكروا ويناموا تلك الليلة أيضاً. وتحدثوا: هل من الممكن أن يكون العمل قد توقف؟ وهل ينبغي أن يدوروا على أعقابهم ويعودوا من حيث أتوا؟ وقال أندرسن: «هذا لن يكون».

وفي الصباح التالي دخل معسكرهم رجل شاحب الوجه زائغ النظرات، فجعل يحدق فيهم مقطباً متفرساً، ثم قال: «أهذا أنت يا أندرسن؟» وكان هذا الرجل هو هارونسن. التاجر هارونسن. ولم يرفض فنجان القهوة الذي عرض عليه، ولا أن يأكل شيئاً مع أفراد القافلة، وجلس بينهم على الفور، ثم قال: «لقد رأيت دخان ناركم فجئت لأرى جلية الأمر. قائلاً لنفسي لا بد أنهم ثابوا لرشدهم وعادوا ليستأنفوا العمل. فإذا أنتم. فإلى أين؟» فقال أندرسن: «إلى هنا» فسأله: «وما هذا الذي معكم؟» فأجابه: «بضائع» فصاح هارونسن: «بضائع؟ أأتيت إلى هنا ببضائع لتبيعها؟ ومن الذي يشتريها؟ ليس هنا ديَّار. فقد رحلوا في يوم السبت الماضي» فسأله أندرسن: «رحلوا؟ من هم الذين رحلوا» فقال: «سائرهم، على بكرة أبيهم. فليس في المكان الآن ديَّار، وعندي شخصياً من البضائع ما يكفي على كل حال. مخزن بأسره ملآن عن آخره. ومستعد لبيع أي شيء تشاء».

آه. ها هو التاجر هارونسن في مأزق مرة أخرى، فقد أغلق المنجم، ولاحقوه بالقهوة إلى أن هدأ قليلاً، وسألوا عن معنى ذلك كله، وهز هارونسن رأسه بيأس قائلاً: «هذا شيء يتجاوز طاقة الإدراك. ولا يمكن تسميته» فقد كانت حاله على ما يرام، وماضياً في بيع بضائعه والمال يتدفق عليه، والقرية القريبة مزدهرة للغاية وتستهلك أحسن المأكول، وأنشأ مدرسة جديدة، وعلقت المصابيح واستخدمت أحذية من صنع المدينة، وما إلى ذلك كله، وفجأة نبت في رأس أصحاب الفخامة في المنجم أن العملية غير مربحة، وأغلقوه، غير مربحة؟ وهل كانت مربحة لهم من قبل؟ ألم يكن ثمة نحاس نظيف هناك يبدو للعيان مع كل تفجير؟ هذا غش صراح ولا مراء. ومن غير تفكير فيما يترتبُ على هذا بالنسبة لرجل مثلي. أجل. إني أشك في أن يكون الأمر كما يقولون. ولا بد أن جايزلر من وراء هذا كله كما كان الحال من قبل. فما إن جاء إلى هنا حتى توقف العمل، وكأنه شم الرائحة عن بعد بطريقة ما. فسأله: «هل جايزلر هنا إذاً» فقال: «أو ليس هنا؟ ينبغي أن يضرب بالرصاص! لقد وصل ذات يوم بالباخرة وقال للمهندس: كيف الأحوال؟ فقال المهندس: على ما يرام فيما أرى، ووقف جايزلر هناك وسأله مرة أخرى: هو على ما يرام. أليس كذلك؟ فقال المهندس: بلى. على ما أرى. ولكن الحقيقة التي وقعت -مثلما أراكم هنا- أن البريد ما إن وصل من الباخرة نفسها التي حضر على ظهرها جايزلر حتى تمخض عن خطاب وبرقية موجهين كليهما إلى المهندس بأن العمل غير مجز وعليه أن يغلق المنجم فوراً».

ونظر عضوا البعثة كل منهما إلى الآخر، أما الرئيس أندرسن نفسه فلم يفقد الأمل بعد. ونصحه هارونسن قائلاً: «الأفضل لكم أن تديروا

ظهوركم وتعودوا من حيث جئتم» فقال أندرسن وهو يضع وعاء القهوة في الزكيبة: «لن نفعل هذا» ونظر هارونسن إلى الثلاثة واحداً بعد الآخر ثم قال: «أنتم مجانين إذاً» ولكن أندرسن ما كان ليحفل إلا قليلاً جداً الآن بما يمكن أن يقوله سيده السابق، فهو سيد نفسه الآن، وقائد بعثة مجهزة على نفقته الخاصة لرحلة إلى جهات نائية، وقد يفقده هيبته الخاصة لو عادَ الآن من حيث أتى. وسأله هارونسن بغيظ: «حسن. وأين ستذهب؟» فأجابه أندرسن: «لا أستطيع أن أحدد». ولكن كانت لديه فكرة خاصة به طول الوقت ولا مراء. فلعله كان يفكر في الأهالي أنفسهم حين يهبط عليهم ثلاثة رجال أقوياء. بخرز من الزجاج وخواتم. وقال لصاحبيه: «آن لنا أن ننطلق».

وكان هارونسن قد خطر له أن يصعد التلال ذلك الصباح -بما أنه قد جاء كل هذه المسافة- لأنه ربما أراد أن يرى هل أقفر المكان تماماً، وهل صحيح أن كل إنسان قد رحل. ولكنه حين رأى أولئك التجار الرحالة مصممين على المضي في طريقهم حيره الأمر، وراح يكرر عليهم أنهم مجانين إذ يحاولون ذلك. وغضب هارونسن نفسه غضباً شديداً، وسبق القافلة في السير، وراح يلتفت وراءه ليصيح بهم وينبههم ويجتهد في إبعادهم من منطقته. وعلى هذا النحو هبطوا إلى الأكواخ في مركز التعدين، وهي مدينة صغيرة من الأكواخ كلها خالية موحشة، ومعظم الآلات والأدوات مخزونة تحت الأغطية، أما الأعمدة والألواح الغليظة والعربات المحطمة والصناديق والبراميل فملقاة في كل مكان حيثما اتفق. وهنا وهناك لافتة على أحد الأبواب مكتوب فيها: «ممنوع الدخول».

وصاح هارونسن: «هاكم. ماذا قلت لكم؟ ليس في المكان ديَّار» وتوعد القافلة بالكوارث، وبأنه سيرسل إلى العمدة وسيتعقبهم على كل حال في كل خطوة يخطونها. وإذا ضبطهم يمارسون أية تجارة مخالفة للقانون فجزاؤهم الأشغال الشاقة والرق لا محالة.

وعلى حين غرة نادى بعضهم سيفرت. فالمكان إذاً ليس ميتاً تماماً بعد كل شيء، وليس مهجوراً مقفراً تماماً. فها هو رجل واقف يشير بيده عن ركن بيت، وتوجه إليه سيفرت ثقيل الخطو بحمله، وإذا به يرى أمامه جايزلر.

وقال جايزلر: «من المضحك أن ألقاك هنا» وكان وجهه أحمر محتقناً بيد أن عينيه على ما يظهر عاجزتان عن الثبات لوهج الربيع، وهو لابس عليهما نظارة مدخنة الزجاج، وحديثه لامع كالعادة. قال: «هذا من محاسن التوفيق لأنه يوفر علي قطع كل هذه المسافة حتى سيلانرا، وعندي مهام كثيرة. كم عدد المتوطنين في الميننج الآن؟» فأجاب سيفرت: «عشرة» فقال جايزلر: «عشر مزارع جديدة، أوافقك على هذا، وأنا عنه راض، ولكن البلاد بحاجة إلى اثنين وثلاثين ألفاً من طراز أبيك. أجل، هذا ما أقوله وأعنيه. لقد حسبت الحسبة». وقال أندرسن: «ألست آتياً يا سيفرت؟ فالقافلة تنتظر»، وسمع جايزلر هذه العبارة فرد قائلاً بحدة: «لا». وقال سيفرت: «سألحق بكما فيما بعد» ووضع حمله على الأرض، وجلس الرجلان يتحدثان، وكان جايزلر معتدل المزاج اليوم والخمر يحرك نفسه، فهو يتحدث بلا انقطاع، غير متوقف إلا حينما يقول سيفرت كلمة أو كلمتين على سبيل الرد، ثم يستطرد: «إنه لمن محاسن الصدف. لا أتمالك نفسي من أن أقول هذا، أنَّ كلَّ شيء

قد تم في اللحظة التي أردت فيها أن أصعد كل تلك المسافة، فإذا بي أقابلك هنا وأوفر على نفسي مشاق الرحلة إلى سيلانترا، أكل شيء في البيت على ما يرام؟» فقال سيفرت: «على ما يرام. وشكراً جزيلاً لك». فسأله جايزلر: «أأقمتم سقيفة الدريس فوق سقيفة البقر؟» فأجابه: «نعم. فرغنا منها» فقال جايزلر: «نعم. نعم، عندي مهام كثيرة جداً، تكاد تزيد على ما أستطيع إنجازه. إنها مثلاً تمتد إلى المكان الذي نجلس فيه الآن. ما قولك في هذا يا سيفرت؟ مدينة خربة. هه؟ لقد تجشم الناس بناءها على حساب طبيعتهم ورفاهيتهم. والمسألة كلها إن أردنا الحق غلطتي أنا منذ البداية. أي أنني عامل متواضع من عوامل القدر وأفعاله. وقد بدأت القصة عندما جمع أبوك بضع قطع صغيرة من الحجارة فوق تلك التلال وأعطاك إياها لتلعب بها وأنت طفل، وهكذا بدأت الحكاية كلها. وكنت أعلم تمام العلم أن هذه القطع من الحجارة تساوي بالضبط ما يريد الناس أن يدفعوا ثمناً لها، ولا زيادة. حسن وعظيم. وحددت أنا شخصياً ثمناً واشتريتها. وبعد ذلك انتقلت تلك الحجارة من يد إلى يد، ولم يقف ضررها عند حد. ومر الزمن، ومنذ بضعة أيام جئت إلى هنا مرة أخرى، فلماذا تحسبني جئت؟ لأسترد هذه الحجارة مرة أخرى».

وتوقف جايزلر عن الكلام لحظة، ونظر إلى سيفرت. ثم نظر فجأة إلى الزكيبة وسأله: «ما هذا الذي تحمله؟» فقال سيفرت: «بضائع، كنا هابطين بها إلى القرية». ولم يبد على جايزلر الاهتمام بالجواب الذي سمعه، بل لعله لم يسمعه، واستطرد: «جئت أشتريها لأستردها. أجل، فقد تركت في المدة السابقة ابني يدير الصفقة، فباع الحجارة. وهو فتى

حديث السن في مثل عمرك لا أكثر، فهو البرق الخاطف في الأسرة، أما أنا فأقرب إلى طبيعة الضباب، أنا أعرف ماذا ينبغي أن أفعل ولكني لا أفعله. أما هو، فالبرق الخاطف، وقد دخل في خدمة الصناعة في الوقت الحاضر. وكان هو الذي باع نيابة عني في المرة الأخيرة. وأنا شيء وهو ليس شيئاً. فإن هو إلا البرق الخاطف المسارع إلى التصرف. على النمط الحديث، ولكن البرق في حد ذاته عقيم. وانظر الآن إليكم معشر أهل سيلانرا. إنكم تنظرون إلى القمم الزرقاء كل يوم من أيام حياتكم، وليس من حولكم شيء من تلك الاختراعات المستحدثة، وإنما هي الهضبة والقمم الصخرية الموغلة في القدم. ولكنها تؤنس صحبتكم، وها أنتم تعيشون على صلة بالسماء والأرض، مندمجين بهما، ومندمجين في كل هذه الأشياء الفطرية الراسخة، ولا حاجة بكم إلى سيف في أيديكم، فأنتم تمضون في الحياة حاسري الرؤوس، بأيد مجردة، وسط كل هذه اللطائف العظيمة. انظر. ها هي الطبيعة ملك لك ولذويك كي تستمتعوا بها. فالإنسان والطبيعة لا يتقاذفان بالقنابل، بل يتفاهمان ويتوافقان. ولا ينافس جنس جنساً آخر، بل يمضي الكل وأمرهم جميع. وها أنتم أولاء أهل سيلانرا تعيشون هناك وسط ذلك كله. وسط الهضبة والغابة، المستنقعات والمراعي والسماء والنجوم. وهي ليست هزيلة ولا قليلاً عديدها، بل هي بغير حد. اصغ لي يا سيفرت: عش قانعاً. فلديكم كل ما يعاش عليه وكل ما يعاش له، وكل ما يُعتقد فيه، فأنتم إذ تولدون وتنسلون من تحتاج إليهم الأرض وما هكذا كل الناس، أما أنتم فحاجة الأرض إليكم. لأنكم أنتم الذين تقيمون الحياة، تتناسلون جيلاً في إثر جيل، وتنسلون دواماً نسلاً جديداً، وكلما مات منكم جيل تولى في

أعقابه جيل جديد. وهذا معنى الحياة الأبدية، وماذا تنالون وراء ذلك؟ تنالون وجوداً بريئاً مستقيماً من كل وجه، وماذا تنالون من وراء ذلك؟ لا شيء يخضعكم ويتسلط عليكم يا أهل سيلانرا، فلديكم السلام والسلطة وكل هذه اللطائف من حولكم. هذا ما تنالونه من وراء ذلك. فأنتم ترقدون على صدر الأم وترضعون وتتلهون بيد الأم الدافئة، وها هو أبوك الآن أحد الاثنين والثلاثين ألفاً. فما القول في كثيرين سواه؟ أنا شيء ما. أنا الضباب الذي يرين هنا وهناك محوماً، وينزل أحياناً كالمطر على الأرض الجافة. ولكن ما بال الآخرين؟ هاك ابني كأنه البرق الذي ليس شيئاً في حد ذاته. وإنما هو وميض عقيم. إنه يستطيع أن يفعل. فابني من الطراز الحديث، إنه من أبناء أمتنا، وهو يصدق بإيمان كل ما علمه إياه العصر وكل ما علمه إياه اليهو واليانكي*، أما أنا فأهز رأسي إزاء هذا كله. ولكن لا شيء أسطوري فيما يخصني. وإنما هو القول الشائع في الأسرة كأنني الضباب، أجلس هناك وأهز رأسي. وأنا والحق يقال لا قدرة عندي على عمل شيء من غير أن أندم عليه. ولو توفرت عندي هذه القدرة لاستطعت شخصياً أن أكون برقاً خاطفاً. أما وهذا حالي فأنا ضباب».

وفجأة بدا على جايزلر أنه يجمع شتات نفسه، ويسأل: «هل أقمتم فعلاً سقيفة الدريس فوق سقيفة البقر؟» فأجابه: «نعم. انتهينا من ذلك. وأقام والدي بيتاً جديداً؟» فسأله: «بيتاً جديداً؟» فقال: «يقول إنه معد لإقامة أي شخص يقدم علينا. كأن يأتي جايزلر يوماً ما» وفكر جايزلر في ذلك ثم قرر رأيه قائلاً: «حسن إذاً. من الأفضل أن آتي. أجل

* تقال عن أهل الولايات الشمالية خاصة بأمريكا .

سأتي. ولك أن تقول ذلك لأبيك. ولكن عندي مهام كثيرة جداً يجب أن أقضيها. وقد أتيت إلى هنا وأخبرت المهندس أن يحيط قومه في السويد علماً بأنني مستعد للشراء. وسنرى ماذا يحدث. والأمر سيان عندي، فلست متعجلاً. وكان ينبغي أن نرى ذلك المهندس؛ فقد كان يذهب ويجيء ها هنا ويصرف الأمور مع العمال والخيل والنقود والآلات وكل تلك الضجة الزائطة وهو يظن أن الأمور على ما يرام. فلم يكن يعلم الحقيقة. ويظن أنه كلما زاد ما يحوله من الحجارة إلى نقود كان ذلك أفضل. ويعتقد أنه يؤدي خدمة بارعة جزيلة بجلب المال إلى هذا المكان وإلى البلاد. مع أن الكارثة تزداد دنواً، وهو غير مدرك لحقيقة الحال. فليس المال ما تحتاج البلاد إليه. فلدينا من ذلك أكثر من كفايتنا فعلاً. وإنما الرجال من طراز أبيك هم الذين ليس لدينا الكفاية منهم. وآه من تحويل الوسائل إلى غايات في حد ذاتها والازدهار بذلك التحويل، إنهم مجانين مرضى، لا يعملون، ولا يعرفون شيئاً عن المحراث. وإنما همهم كله في الزاد. ما أجدرهم بذلك وهم يعملون ويهدرون أنفسهم في غير طائل على طريقتهم الخرقاء. انظر إليهم. ألا تراهم يقامرون بكل شيء؟ هذا شر ما في الموضوع، لأنهم ينسون أن القمار ليس شجاعة، ولا هو حتى من قبيل الشجاعة الطائشة. وإنما هو شيء فظيع. أتدري ما القمار؟ إنه الخوف، وجبينك يتفصد عرقاً وهذه هي المقامرة. إن موضع الخلل فيهم أنهم لا يواكبون الحياة بل يريدون أن يسبقوها فيندفعون في السباق، ويعنفون في السير، ويقحمون أنفسهم في الحياة نفسها كالأوتاد. وعندئذ تصيح بهم جنوبهم: قفوا. فقد تحطم فيكم شيء. وابحثوا عن علاج له. هكذا تهيب بهم جنوبهم وحناياهم، وعندئذ

تسحقهم الحياة، تسحقهم بتهذيب ولكن بحزم. فإذا بهم يأخذون في الشكوى من الحياة ويثور غضبهم عليها. وكل يعمل على شاكلته. فبعضهم لديه مبرر للشكوى. وفريق آخر لا مبرر لديه. ولكن لا ينبغي لأحد أن يثور غضبه ضد الحياة. لا تكن صارماً مدققاً مع الحياة. بل كن رحيماً بها. وقف إلى جانبها، وفكر في المقامرين الذين تتحملهم الحياة».

واستجمع جايزلر شتاته مرة أخرى وقال: «حسن. هذا كله كيفما اتفق فدعك منه» ولا شك أنه كان متعباً. وبدأ يتنفس في لهاث قصير، وقال: «أهابط أنت؟» فأجابه: «نعم» فقال: «لا وجه للعجلة. فأنت مدين لي بمسيرة طويلة فوق التلال يا سيفرت. أتذكر ذلك؟ إني أذكره كله. بل إني أذكر ما حدث وعمري سنة ونصف: وقفت مطلاً من قنطرة البيدر في جارمو، وداعبت أنفي رائحة. ولم أزل أشمها إلى اليوم. ولكن هذا كله كما اتفق أيضاً. وكان في مقدورنا أن نقوم بتلك الرحلة فوق التلال الآن لولا هذه الزكيبة التي معك. ماذا بها؟» فقال: «بضائع. أندرسن هو الذي سيبيعها؟» فقال جايزلر: «حسن إذاً. أنا الرجل الذي يعرف ما ينبغي عمله ولكنه لا يعمله. أنا الضباب. والآن لعلني سأشتري ذلك المنجم فأسترده يوماً من الأيام. وليس هذا مستحيلاً ولكني إن حققته فلن يكون ذلك كي أحملق في السماء وأقول: سكة حديد هوائية أمريكا الجنوبية، بل سأترك ذلك للمقامرين. والناس في هذه المنطقة يقولون إني لا بد أن أكون الشيطان نفسه لأني عرفت سلفاً أن هذا المشروع سينهار. ولكن ليس فيّ شيء أسطوري. فالمسألة بسيطة جداً. والسبب هو مناجم النحاس الجديدة في مونتانا. وهذا كل شيء. فاليانكي أحذق منا في هذه اللعبة. ولذلك استطاعوا أن يقتلونا قتلاً في

أمريكا الجنوبية. وركازنا ها هنا فقير جداً. وابني برق خاطف، ولذا عرف النبأ، فجئت إلى هنا. مسألة بسيطة. أليس كذلك؟ وقد سبقت أولئك الناس في السويد ببضع ساعات، وهذا كل شيء»..

وقصرت أنفاس جايزلر مرة أخرى فنهض قائماً على قدميه، وقال: «إن كنت مزمعاً الهبوط فهيا بنا». وهبطا معاً. وجايزلر يجر رجليه وراءه من شدة التعب. وكانت القافلة قد توقفت عند الرصيف، وفريدريك شتروم بمرحه المعتاد يعاتب هارونسن: «لقد نفد ما معي من الطباق. أمعك شيء منه؟ ماذا؟» فأجابه هارونسن متوعداً: «طباق في عينيك» فضحك فريدريك وقال محاولاً تهدئته: «لا. لا ينبغي أن تنظر إلى الأمور بهذا الغم والحزن يا هارونسن. فنحن ذاهبان لنبيع هذه الأشياء هنا أمام عينيك. ثم نعود من حيث أتينا» فقال هارونسن بغضب شديد: «ابتعد عني ومضمض فمك القذر»، فأجابه: «ها ها ها: لا. لا ينبغي أن تتراقص هكذا. اثبت في موضعك كالتمثال».

وكان جايزلر في منتهى الإجهاد. حتى إن نظارته المدخنة لم تعد تسعف عينيه فراح يغمض عينيه بسبب الوهج. وقال فجأة: «وداعاً يا سيفرت. كلا لن أستطيع الصعود إلى سيلانرا هذه المرة. قل ذلك لأبيك. فأمامي مهام كثيرة ولكني سأتي فيما بعد. قل له ذلك».

وبصق هارونسن في أثره قائلاً: «ينبغي أن يضرب بالرصاص».

وظلت القافلة ثلاثة أيام تبيع سلعها التي في الزكائب وتحصل على أثمان طيبة. لقد كانت عملية رابحة جداً. فأهل القرية مازالوا مزودين بالمال بعد إقفال المنجم، وكانوا على استعداد تام للإنفاق. فإذا بهذه الطيور المصبرة المركبة على لوالب أرغب ما يرغبون فيه. وصاروا يضعونها

فوق الأخونة في حجرات جلوسهم. واستهوتهم أيضاً قطاعات الورق فاشتروها، لأنها أنسب شيء لفض أوراق التقويم. وغضب هارونسن غضباً شديداً وقال: «كأنما ليس في متجري مثل هذه الأشياء تماماً».

وكان التاجر هارونسن في حالة يرثى لها. فقد صمم على ملازمة أولئك التجار وزكائبهم، كي يرقبهم طول الوقت، ولكنهم تفرقوا طرائق في القرية، كل منهم تفرّق مستقلاً بنفسه. وأوشك هارونسن أن يمزق نفسه إرباً في محاولة تعقبهم جميعاً في وقت واحد؛ وكان فريدريك شتروم أول من نفض يده منه. لأنه أسرعهم إلى الكلام المسيء، ثم تخلى بعد ذلك عن سيفرت، لأنه لم يكن يتكلم مطلقاً، بل يمضي في البيع. وثابر في النهاية على تعقب كاتبه السابق محاولاً أن يثير الناس عليه أينما ذهب. ولكن أندرسن كان يعرف سيده السابق، ويعرفه منذ الزمن السالف، ويعرف قلة درايته بالتجارة وأساليبها غير القانونية. وقال هارونسن متصنعاً الشدة: «أتريد أن تقول إن الخيط الإنجليزي ليس ممنوعاً؟» فأجابه أندرسن: «بل أعلم أنه ممنوع ولكني لم آت بشيء منه إلى هنا، لأني لا أستطيع أن أبيعه في موضع آخر. وليست معي بكرة واحدة منه في زكيبتي. انظر بنفسك إن شئت» فقال هارونسن: «ربما كان الأمر كذلك. ولكني على كل حال أعرف ما هو الممنوع. وأنا الذي عرفتك ذلك فلا تحاول أن تعلمني».

وتحمل هارونسن ذلك مدة يوم كامل، ثم تخلف عن أندرسن أيضاً وعاد إلى بيته، فلم يبق من يراقب التجار بعد ذلك، وأخذت الأمور تمضي في يسر. وكان النساء في تلك الأيام يضعن في شعرهن ضفائر مستعارة، وكان أندرسن هو الذي يحسن أن يبيع الضفائر المستعارة، وهو

عند الاقتضاء يعرف كيف يبيع ضفائر شقراء لفتيات سمراوات، وهو يبدي الأسف لأنه ليس لديه شعر أخف من ذلك لوناً، كالضفائر الشيب مثلاً، لأنها أفضلها جميعاً، وفي كل مساء يجتمع الباعة الشبان الثلاثة في موضع معين ويراجعون تجارة يومهم، وكل منهم يستعير من الآخر ما يكون قد نفد رصيده منه، وربما جلس أندرسن وأخرج مبرداً فبرد به العلامة التجارة الألمانية من صفارة رياضية أو محا كلمة «فابر» من الأقلام وأقلام الرصاص فأندرسن قرم، وهكذا كان دائماً.

أما سيفرت فكان أقرب إلى الفضل، وليس ذلك لكسله أو إخفاقه في بيع سلعه -بل إنه في الواقع كان أكثرهم بيعاً- بل لأنه لم يكن يحصل في مقابلها على ثمن كاف. ويقول له أندرسن: «أنت لا تشفع البضاعة بما يكفي من شقشقة اللسان».

كلا. لم يكن سيفرت بارعاً في إطلاق لسانه بالكلام بذلاقة، فهو من عمال الحقل، يتكم بثقة مما يقول، ولذا فهو حين يتكلم يتكلم بهدوء، وفيما عساه يتكلم هنا؟ ثم إن سيفرت كان متلهفاً على الفراغ من هذا العمل ليعود إلى البيت، حيث أعمال الحقل تنتظر الأداء، وقال فريدريك شتروم على سبيل الإيضاح: «إن ينسين تناديه» وكان لدى فريدريك نفسه عمل كثير في الحقل ينبغي القيام به في ذلك الربيع فلا متسع لضياع الوقت. ولكن مع ذلك كان لا بد له من زيارة هارونسن في اليوم الأخير للوصول إلى اتفاق معه قائلاً: «سأبيعه الزكائب الفارغة» ولبث أندرسن وسيفرت في الخارج عندما دخل إليه فريدريك. وسمعا ضجة كبيرة داخل المتجر، فكلاهما يتكلمان في وقت واحد، وفريدريك يطلق ضحكة بين حين وحين. ثم فتح هارونس الباب بعنف وأخرج منه زائره.

ولكن فـريدريك لم يخرج. لا. بل تمهل مـا شـاء من الوقت وقـال مـزيداً كبيراً من الكلام. وكـان آخر ما سمعـاه من الخارج محاولة فريدريك أن يبيع هارونسن كمية من الأحصنة الهزازة.

وبعـد ذلك عـادت القـافلة. وبهـا ثلاثة شبـان ملء إهابهم الحيـاة والصحة. يسيرون ويغنون وينامون ساعات قليلة في العراء ثم يستأنفون المسير. ولما عـادوا إلى سيلانرا في يوم الاثنين. كان إسحق قد بدأ البذر. وكان الجو موافقاً، والهواء رطباً، والسماء تنقشع بين حين وحين، وقوس قزح مرتسم في عُرض السماء.

ووصلت القافلة فجأة - مرحباً مرحباً...

وإسحق في بذره قرم في الرجال، رجل هيكل حين تنظر إليـه، وثيابه من صوف مغزول في البيت مستخرج من أغنامه. وحذاؤه من أدم أبقاره وعجوله؛ وهو إذ يبذر يمشي خاشعاً عاري الرأس إلى عمله ذاك. ورأسه أصلع عند القمة العليا، أما سائر جسمه فغزير الشعر، ومن لمته ولحيته تبرز مروحة وعجلة من الشعر حول وجهه. وهذا هو إسحق رب الضيعة. وهو قلما يعرف موقع اليوم من الشهر. فما حاجته بذلك. فليست عليه سندات دين ينبغي الوفاء بها في تاريخ محدد. والعلامات التي خطها في تقويمه تبين الوقت الذي ينبغي أن تنتج فيه كل بقرة من أبقاره. ولكنه يعرف عيد القديس أولاً في الخريف، وأن دريسه يجب أن يتم إدخاله في ذلك الحين. ويعرف عيـد دخول المسيح الهيكل في الربيع، وأن الدببة تخرج من مواطنها الشتوية بعده بثلاثة أسابيع، وأن جميع البذور ينبغي أن يكون قد تم وضعها عندئذ. فهو يعرف كل ما يحتاج إليه.

إنه فلاح أرض جسداً وروحاً، وعامل في الحقل لا يعرف التوقف. إنه شبح خرج من الماضي ليشير إلى المستقبل، ورجل من أقدم عصور الزراعة، معمر برية، عمره تسعمائة سنة وزد على هذا أنه ابن زمنه.

كلا. لم تبق معه باقية الآن من منجم النحاس وثروته الطائلة. فقد تبددت النقود في الهواء، ومن ذا بقي لديه شيء من تلك الثروة عندما توقف العمل وساد الموت التلال المهجورة؟ ولكن المنتج لم يزل قائماً، وعلى تلك الأرض قامت عشر ضياع جديدة تومئ إلى مائة أخرى تأتي بعدها.

أما من شيء ينبت هناك. بل كل شيء ينبت هناك. الرجال والدواب وثمار الأرض. وإسحق يبذر قمحه. وشمس السماء تسقط على القمح الذي يتلألأ في قوس يخرج من يده ويسقط كغيث من الذهب على الأرض. ها هو سيفرت قد جاء ليقوم بالتزحيف. وبعد ذلك يعمل بالمدحاة. ثم الزحافة مرة أخرى. والغابة والحقل متجاوران ماثلان. وكل شيء ينطق بالعظمة والسلطان وبتعاقب الأعمال والثمرات.

كلينج. الينج... هكذا تقول أجراس الأبقار في مكانها البعيد من فوق جانب التل وهي تدنو، وتزداد دنواً. فالماشية في طريقها عائدة إلى البيت لقضاء الليل. عدتها خمسة عشر رأساً من البقر وخمسة وأربعون رأساً من الغنم والماعز. ومجموعها كلها ستون. وها هن النساء يخرجن بأوعية اللبن مدلاة من نير على الكتفين، إنهن ليوبولدين وينسين ورفقة الصغيرة. وكلهن حافيات الأقدام. وربة الضيعة أنجر نفسها ليست معهن، فهي بالداخل تعد الطعام. وإنها لطويلة مهيبة وهي تغدو وتروح

في أرجاء بيتها، وكأنها كاهنة وثنية تسير على النار في موقد مطبخها. لقد أتمت أنجر رحلتها العاصفة. وإنه لحق أنها عاشت فترة في مدينة، ولكنها الآن في بيتها. والعالم رهيب زاخر بدقيق الذر. وكانت أنجر بعضاً من هذا الذر، شبه لا شيء في البشرية جمعاء.. فإن هي إلا ذرة واحدة.

ثم يأتي المساء...

منتدى مكتبة الاسكندرية

كنوت هامسون

نوبل ١٩٢٠

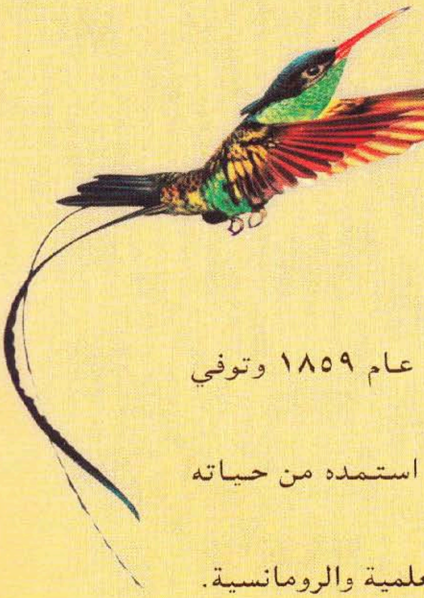

- ولد كنوت هامسون في ٤ آب (أغسطس) عام ١٨٥٩ وتوفي في ١٩ شباط ١٩٥٢.
- تتميز مؤلفاته بالعنصر الشخصي الذي استمده من حياته الخاصة، وسعيه الدؤوب وراء الحقيقة.
- نشأ في جو ثقافي متأرجح بين الوضعية العلمية والرومانسية.
- درس في جامعة أوسلو: اللاهوت والفلسفة والعلوم الطبيعية، والفلسفة الحديثة.
- مال إلى اعتبار السيكولوجيا «علماً فلسفياً» يربط بين المنطق والأخلاق وعلم الجمال ونظرية المعرفة.
- زار أمريكا مرتين وأصدر كتاباً انتقد فيه بمرارة الحياة الثقافية في أمريكا عام ١٨٨٩.
- اتهم بالتواطؤ مع النازيين في أثناء غزوهم لبلده، وحكم عليه بغرامة باهظة في عام ١٩٤٧ من جراء ذلك.

عالم المعرفة
واخضرت الارض
A4 رواية
S.P350
148103
علي مولا